جامعة الأزهر
ـة اللغـة العربيـة
ايتاي البـارود

الصـور البيانيـة المركـبة
فـي
القـرآن الكريـم

إعـداد

الأستاذ الدكتور
أحمد سعد عبد الرازق ناجى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود

٢٠٠٣ م

" المقدمـــــــة "

الحمـــد لله وحـــده " الرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ "(١) والصَّلاة والسَّلام على أفصح من نطق بالضَّــادَ • وأوتى الحكمة وفصل الخطاب• وعلى آلــه وأصحابه أطواد العلم الرَّاسخة ومثا قيل الحكم الراجحة صلاة ترفع درجاتنا وتحط خطايانا وسلاماً نشرف به ونرتفع•

وبعـــد•

فمــن خـــلال قراءتى للقرآن الكريم ومطالعة تشبيهاته وتمثيلاته ، وتراكيبه وتصـــويراته• اســتوقفتنى التشبيهات والتمثيلات الدقيقة وهى كثيرة متنوِّعة ذات تصـــوير فنىّ دقيق كتشبيهات الإنفاق والمنفقين ، وأحوال الدُّنيا وتقلباتها ، وأحوال المـــنافقين والكافرين وغيرها وهى جــدُّ كثيرة فى ثنايا القرآن الكريم ، والحديث عـــن الله ســبحانه وتعـــالى وأحوال المؤمنين والمؤمنات وغير ذلك • فأردت أن أكشـــف النقاب عن هذه التشبيهات والتمثيلات وأجلى غوامضها ، وذلك فى بحث خاصّ سميته " الصور البيانية المركبة فى القرآن الكريم أسرارها ومواقعها دراسة تحليلية " ونعنى بها التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيلية •

وقـــد قـــام هذا البحث على مقدمة بينت فيها الدافع لاختيار هذا الموضوع ، ومدخل عن التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيلية وآراء العلماء فيهما وموازنة بين هذه الآراء • ثم الدراسة التحليلية وهى فى ثلاثة فصول :

الفصـــل الأول وتحـــته أربعـــة مـــباحث • المبحث الأول: الحديث عن المؤمنين ووصف أخلاقهم •

---

(١) الرحمـــن/ ١ـــ٤ •

المبحث الثانى : الحديث عن الإنفاق والمنفقين ٠

المبحث الثالث : الحديث عن الحياة الدنيا ٠

المبحث الرابع : الحديث عن ربِّ العزة وسعة قدرته٠

الفصل الثانى : وتحته مبحثان : المبحث الأول الآيات الخاصة بالمنافقين

المبحث الثانى الآيات الخاصـــة بالكافرين ٠

الفصل الثالث : وتحته ثلاثه مباحث ٠ المبحث الأول : الحديث عن القيامة٠

المبحث الثانى : كتمان الآيات وعدم الاهتداء بها٠

المبحث الثالث : الآيات الخاصة بالموازنة بين طرفى الإيمان والكفر ٠

ثم الخاتمة : وتشمل أهـــمّ ما انطوى عليه البحث ٠

الفهـــارس :

" مدخـــــل "

أولاً : التشـــــبيه التمثيلـــى

ثانياً : الاســتعارة التمثيليـــة

" المدخــل "

أولا : التشبيهُ التمثيلىُّ وآراء البلاغين فيه "

التشبيه فى اللغة : هو التمثيل كما يدلُّ عليه الأصلُ اللغوى من شبه فـ"الشين والـباء والهـاء " أصـل واحـد يـدلُّ على تشابه الشئ وتشاكله لوناً ووصفاً ، والمشبهاتُ من الأمور المشكلات واشتبه الأمران إذا أشْكلا"(١)

والشـبه والشّـبه والتشبيه : المثل والجمع أشباه وأشبه الشئ الشئَ ماثله٠(٢)

وفى اصـطلاح عـلماء البيان :" إلحاق أمر بأمر فى صفة مشتركة بينهما بأداة ملفوظـة أو ملحوظة لغرض يقصده المتكلم "(٣)

والتشبيه والتمثيل كلاهما فى اللغة بمعنى واحد فالتشبيه جعلُ شئ شبيهاً بشئ آخر ، وكذلك التمثيل : جعلُ شئ مثلاً لشئ آخر"(٤)

وقد اتفقت كلمة علماء البيان على أنَّ التشبيه أعمُّ من التمثيل عموماً مطلقاً ، وأنَّ التمثيل أخـصُّ منه خصوصاً مطلقاً فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً

وقـد قسـم البيانيون التشبيه باعتبار وجه الشبه قسمين : تشبيه غير تمثيلى ، وتشبيه تمثيلى ثم اختلفوا فى تحقيق الفرق بين القسمين ٠

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة " شبه " ٢٤٣/٣ لابن فارس ٠

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣/١٣ ـــ ٥ مادة شبه

(٣) المطول /١٧٧ ، شروح التلخيص ٣/ ٢٩٢ ٠

(٤) أسرار البلاغة فى التشبيه والتمثيل عند عبد القاهر /٥ د٠ فرهود ٠

أولاً : رأى شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجانى ت ٤٧١هـ .

يقول الشيخ ــ رحمه الله ــ : " اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول .
والآخر : أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول.(١)

ثم يقول :" وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين . فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً.

فأنت تقول فى قول قيس بن الخطيم: (٢)

وقد لا ح فى الصبح الثريا لمن رأى .. كعنقود ملاحية حين نوَّرا

وهو ــ عند الشيخ ــ تشبيه حسن وليس بتمثيل ، وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ــ لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكل مالايوجد التشبيه فيه من طريق التأول(٣) إلخ ماذكره.

فالتشبيه عند الشيخ ضربان :

الأول : تشبيه غير تمثيلى والمراد به : أن يكون وجه الشبه فيه أمراً بيناً بنفسه لايحتاج إلى تأول وصرف عن الظاهر لأن المشبه فيه مشارك للمشبه به فى صفته ويتحقق ذلك فى حالتين :

---

(١) أسرار البلاغة / ٦٩١ ت محمد الفاضلى .

(٢) الأغانى ١٧ /١٣٠ ط دار إحياء التراث العربى بيروت ، الإيضاح ١١٢/٤ ت د خفاجى

(٣) أسرار البلاغة /٧٣ ت محمد الفاضلى .

الأولى:أن يكون وجه الشبه " حسيا " أى مدركاً بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، ومـــثال ذلك : أن يشبه الشئ إذا استدار بالكرة فى وجه ، وبالحلقة فى وجه آخر، وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدِّ بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار"(١)

الحالـــة الـــثانية : أن يكون وجه الشبه أمراً عقلياً حقيقياً ، ونعنى به ما كان أمراً ثابـــتاً متقرراً فى ذات الموصوف وهو الكيفيات النفسية كالسخاء والكرم ، واللؤم والشدة والقوة والشجاعة والمكر"(٢)

لماذا لم يحتج هذا الضرب إلى تأول ؟

يقـــول الإمـــام ـــ عـــبد القاهر رحمه الله ـــ مبيناً سبب ذلك : " إن الاشتراك فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها ـــ ونعنى بالصفة صفة المشبه به ـــ فهى موجـــودة فى المشـــبه وجودها فى المشبه به ، وظاهر الشبه وباطنه واحد كتشبيه الخدِّ بالورد فإنهما يشتركان فى الحمرة نفسها ، والجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد فى شيئين • فلا يحتاج هنا إلى تأول • لأننا نحسُّ الحمرة فى الخدِّ كما نحسُّها فى الورد"(٣)

فالتشـــبيه ـــ فيمـــا ســـبق ـــ غير تمثيلى فى نظر الشيخ أو كما يسميه فى الأسرار التشبيه الحقيقىَّ الأصلىَّ ، أو التشبيه الظاهر الصريح ، أو التشبيه فقط•

(١) الأسرار/ ٦٩ •

(٢) السابق / ٧٠

(٣) السابق / ٧٦ ، دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر للأستاذ العدل / ١٢ •

المـــراد بالتأول :

المـــراد بالـــتأول " هو ردُّ أمر إلى أمر بتلطف وحسن تصرف فالمتأول فى التشبيه يرد الشبه بين الطرفين إلى أمر آخر غير الذى يظهر بادئ الرأى.

الضرب الثانى : التشبيه التمثيلى :

وهـــو عند الشيخ : " مالا يكون وجهه أمراً بيناً بنفسه بل يحتاج تحصيله إلى تأول، وصرف عن الظاهر . لأن المشبه لم يشارك المشبه به فى صفته الظاهرة"

وذلك الضربُ يتحقق فيما إذا كان الوجه ليس حسياً ولا من الأخلاق والغرائز والطـــباع العقـــلية الحقيقية ولكنه يكون عقلياً غير حقيقى أى غير متقرر فى ذات الموصـــوف ، ويشـــبه الشيخ ذلك الضرب بقولهم ، حجة كالشمس فى الظهور . فقـــد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها . إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لايتم إلا بتأول ، وذلك أن تقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها"(١)

فالمشـــبه " الحجـــــة " مفـــرد عقلى لأن المراد بالحجة معنى الكلام لا نفس الكـــلام المســـموع والمشـــبه به مفرد حسى ، ولما كان وصف المشبه به الظاهر "الحقيـــقى " وهو " الظهور " من خواص المحسوسات . لأن معناه ألا يكون هناك مـــانع للبصـــر مـــن الرؤية لم يصح أن يوصف به المشبه . فاحتجنا إلى التأول وصـــرف الكـــلام عن ظاهره ، وإرادة ما يستلزمه الظهور وهو عدم المانع من الإدراك لكى يكون مشتركاً بين الطرفين وهو عقلى غير حقيقى .

(١) الأسرار /٧٢ ت رشيد رضا .

وجــه حاجــة هذا الضرب إلى التأوّل :

سبب ذلك : أنه لم يقصد إشراك المشبّه للمشبَّه به فى صفته الظاهرة الحقيقية نفسها ، بل حكمها ومقتضاها ، وأمر لازم لها ٠ فالاشتراك بين " الكلام والعسل" مــثلاً ليس فى " الحلاوة " نفسها بل فى لازمها وهو ميل النفس ولذتها ورغبتها ، وحينئذ يكون باطـــن التشبيه وحقيقته خلاف ظاهره فيحتاج إلى التأوّل لبيان حقيقة المراد ٠

هــــذا هــو التشــبيهُ التمثيلىُّ ويجوز أن يسمى " مثلاً " ولا يجوز أن يسُمَّى غيــرُ التمثيلى " مثلاً "(١) ، والمطلع على رأى الشيخ فى الأسرار يرى أنه يجعل التشــبيه غير التمثيلى هو التشبيه الحقيقى الأصلى ، وأن التشبيه التمثيلى فرع له ومرتب عليه ٠

إذ يقــول : وأمـــا الضــرب الأول فإذا كان المثبت من الشبه فى الفرع من جنس المثبت فى الأصل كان أصلاً بنفسه ، وكان ظاهر أمره وباطنه واحداً(٢)

أو بعبارة أخرى : أن الثابت فى الفرع هو الثابت فى الأصل بحقيقته وجنسه ٠

وأمـــا الضرب الثانى : فإن الوصف الثابت فى الفرع ــ أعنى المشبه ــ ليس هو الوصــف الثابت فى الأصل ــ أعنى المشبه به ــ ولكنه لازمه ومقتضاه ، وإنما يتصـــور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والضعف والقوة نحو أن حمرة هذا الشئ أكثر وأشـــد مـــن حمرة ذاك ، وعليه فإن الضرب الأول هو التشبيه الحقيقى والأصلى والضرب الثانى فرع له ومبنى عليه ٠

(١) دراســات شاملة / ١٣

(٢)الأسرار / ٧٧ ت الفاضلى ٠

خلاصـــة رأى الشيخ ـ رحمه الله ـ :

إن المتأمل فيما سبق وفيما ذكره الإمام عبد القاهر يرى أنه يقسم وجه الشبه إلى أقسام ثلاثـــة :

أولها : عقلى وهو مالم يكن حسياً ن ولا من الأخلاق والغرائز وسائر الكيفيات النفسانية •

ثانيها : حســـى وهو ما كان من الأمور المحسوسة بإحدى الحواس الخمـــــس الظاهرة•

ثالثها : ما كان من الأخلاق والغرائز وهذا ـ وإن كان عقلياً ـ فإن الإمــــام لم يطلق عليه اسم العقلى وذلك لقربه من المحس فى تقرره وثبوتـــــه فى ذات الموصوف •

وعليه فإنَّ رأيه ـ رحمه الله ـ :

أن كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه حسياً مفرداً • فهو تشبيه غير تمثيلى •

أن كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه حسياً مركباً• فهو تشبيه غير تمثيلى •

أن كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه من الغرائز مفرداً فهو تشبيه غير تمثيلى•

أن كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه عقلياً مفرداً فهو تشبيه تمثيلى •

أن كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه عقلياً مركباً فهو تشبيه تمثيلى•

يقــول شــيخنا الدكــتور أحمد موسى ــ رحمه الله ــ : وذلك أوضح التقسيمات وأظهرها ، لأن الشأن فى الحسيات وما يليق بها من الغرائز والكيفيات النفسية • أن تكــون واضــحة جلية • فهى باسم التشبيه أولى وأجدر ، وأما العقليات غير الغرزيات فالشأن فيها اللطف والخفاء فهى باسم التمثيل أحق وأجدر"(١)

ومـــن هــنا نــرى أن الإمام حكم بأن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمــثيل تشــبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً ، وحكم بأن التشبيه أصل ، والتمثيل فرع عنه ــ كما ذكرنا ــ •

ثانياً : رأى العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ت ٣٣٨هـــ :

يــرى جارُ الله ــ كما يرى علماء اللغة ــ أن التشبيه يرادف التمثيل • فهو يطلق كلمة " التشبيه " على ما يسمى عند غيره تمثيلاً أو تشبيهاً ، كما يطلق كلمة " التمثيل " على ما يسمى عند غيره تشبيهاً وبذلك استراح وأراح(٢) ، ويوافقه ابنُ الأثيــر فى كتابه ــ المثل السائر ــ الذى جعل التشبيه والتمثيل كلمتين مترادفتين بمعنى واحد"(٣)

ثالثاً : رأى العلامــة أبى يعقوب السكاكى ت ٦٢٦ هــ :

اتفــق أبو يعقوب مع الإمام عبد القاهر على أن التشبيه إذا كان وجه الشبه فيه حسياً ، سواء كان مفرداً أم صورة لا يسمى تمثيلاً • إلا أنه خالفه من جهــة ثانية فإن الإمام ــ رحمه الله ــ كما ذكرنا سابقا • يرى أن تشبيه التمثيل مايحتاج

(١) البلاغــة التطبيقيــة / ٢٦ •

(٢) السابق نفسه ، أساس البلاغة / ٤٢٠ مادة مثل •

(٣) المثل السائر ٣٧٣/١ •

وجـــه الشبه فيه إلى تأول سواء كان هذا الوجه مفرداً أم صورة منتزعة من متعدد فالتشـــبيه التمثيل عند الإمام إذن قد يكون وجه الشبه فيه مفرداً • أما أبو يعقوب فإنـــه قد ذهب إلى أن تشبيه التمثيل لا ينبغى أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً • بل لابـــد أن يكـــون وجه الشبه مفرداً • بل لا بد أن يكون هيئة منتزعة من متعدد• فيقـــول : " واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقى وكان منتزعاً من عدة أمور خص باسم التمثيل كالذى فى قوله(١)

اصبر على مضض الحســـو د فإن صبرك قاتلـــه
فالنار تأكل نفسهـــــــا إن لم تجد ما تأكلـــه

فـــإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التى لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفـــناء ليـــس إلا فى أمر متوهم له وهو ماتتوهم إذا لم تأخذ معه فى المقاولة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى نفثة المصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك وأنه كما ترى منتزع من عدة أمور"(٢) إلـــخ ما ذكـــر•

من هنا نـــرى أن السكاكى قسم وجه الشبه إلى أقسام ثلاثة كما قسمها الشيخ الإمام من قبل • حيث قسمها السكاكى إلى :

١ـــ حســـى • ٢ـــ عقلى حقيقى وهو الكيفيات النفسانية • ٣ـــ عقلى غير حقيقى، وهو ما عداها• ثم بين أنه إذا كان وجه الشبه عقلياً غير حقيقى، وكان مركباً فهو تشبيه تمثيلى ، وإلا فهو غير تمثيلى، وعليه يكون رأيه ـــ رحمه الله ـــ•

(١) ديوان ابن المعتز ٢/٤٠٣ وروايته على حســـد•

(٢) مفتاح العلوم /١٤٨ ، البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان /٦٢ د فضل عباس •

إذا كان وجه الشبه حسياً مفرداً، فهو تشبيه غير تمثيلى .

إذا كان وجه الشبه حسياً مركباً، فهو تشبيه غير تمثيلى .

إذا كان وجه الشبه عقلياً حقيقياً مفرداً فهو تشبيه غير تمثيلى .

إذا كان وجه الشبه عقلياً غير حقيقى مفرداً فهو تشبيه غير تمثيلى.

إذا كان وجه الشبه عقلياً غير حقيقى مركباً فهو تشبيه تمثيلى(١)

رابعاً : رأى الخطيب أبى عبد الله جلال الدين القزوينى ت ٧٣٩ هـ :

قسم الخطيبُ التشبيه من حيث وجه الشبه إلى تمثيل وأراد به ماكان وجه الشبه وصفاً منتزعاً من متعدد أمرين أو أمور ـ أى أن يكون وجهه مركباً مطلقاً ـ وهو مذهب الجمهور أيضاً إذ لا فرق عندهم بين الوجه الحقيقى وغيره ، واستشهد الخطيب بما استشهد به سابقوه من تشبيه ابن المعتز فى الحسود ، وغير تمثيل وأراد به ما كان خلاف ذلك"(٢)

فالتمثيلى عنده إذا متحقق فى كل تشبيه يكون الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد سواء أكان ذلك الوجه حسياً أم عقلياً ، وغير التمثيلى : متحقق فى كل تشبيه يكون فيه وجه الشبه مفرداً سواء أكان الوجه حسياً أم عقلياً مطلقاً(٣)

---

(١) دراسات تفصيلية شاملة / ٢٤ ، ٢٥

(٢) الإيضاح /٢٥٣ وما بعدها ط صبيح ، بغية الإيضاح ٥٧/٣ ـ ٥٩ .

(٣) البلاغة التطبيقية /٢٨ .

مـــن هنا يتلخـــصُ رأىُ الخطيب فيما يلـــى :

أن كل تشبيه كان وجهه مفرداً ٠ فهو تشبيه غير تمثيلى ٠

أن كل تشبيه كان وجهه حسياً مركباً ٠ فهو تشبيه تمثيلى٠

أن كل تشبيه كان وجهه عقلياً حقيقياً مفرداً٠ فهو تشبيه غير تمثيلى ٠

أن كل تشبيه كان وجهه عقلياً غير حقيقى مفرداً٠ فهو تشبيه غير تمثيلى٠

أن كل تشبيه كان وجهه عقلياً غير حقيقى مركباً٠ فهو تشبيه تمثيلى٠(١)

موازنـــة بين الآراء :

إذا كـــان رأى الإمـــام عبد القاهر هو أظهر الآراء وأوضحها لأنه يرى أن الشـــأن فى الحسيات وما ألحق بها من الكيفيات النفسية : هو الوضوح والجلاء ، وأن الشـــأن فى العقليات هو اللطف والخفاء : فإن أحداً لا ينكر أن بعض الصور الحسية قد تحتاج إلى إعمال الفكر وإلطاف الروية أكثر مما تحتاجه بعض الصور العقلية ولذا لا ينبغى أن يضن عليها باسم التمثيل"(٢)

وقـــد خالف الخطيب القزوينى السكاكى٠ فالسكاكى يرى أن التمثيل ما اقتصر فيـــه عـــلى كـــون وجه الشبه صورة عقلية ٠ أما الخطيب فيرى أنه لاينبغى أن نقتصـــر فى التمثيل على وجه الشبه العقلى المركب لأن هناك صوراً حسية بديعة لوجـــه الشبه حرى أن يزين بها التمثيل فهو إذاً يجعل الصورة الحسية من التمثيل فدائرة التمثيل عند الخطيب أوسع منها عند السكاكى"(٣)

(١) دراسات تفصيلية شاملة/ ٢٥ ٠

(٢) البلاغة التطبيقية /٢٨ ، الأسرار /١٠٢ ومابعدها ت رشيد رضا ٠

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان/ ٦٣ ٠

والـــذى دفـــع السكاكى إلى مخالفة الشيخ عبد القاهر فيما كان وجهه عقلياً مفـــرداً : أنه رأى أن الدقـــة واللطف والحاجة إلى حسن التوصل إنما يتحقق فى المركب أما المفرد فلا ، ومن هنا أخرجه من دائرة التمثيل .

وعليــــه : فإن رأى الخطيب القزوينى هو أعدل الآراء وأحراها بالاعتبار ومافعله الخطيــب فى جعـــل الصور الحسية من التشبيه التمثيلى أمر حسن يحمدُ للخطيب ويقدم به على رأى مَـــنْ سبقه.

ولـــتقريب صورة هذه الآراء إلى النفس وبيانها نذكر ما يلى : قولنا :" حجة كالشـــمس فى الظهور " المشبه هو " الحجة " وهو مفرد عقلى لأن المراد بالحجة هـــو معنى الكلام المسموع ، والمشبه به هو " الشمس " وهو مفرد حسى ، ووجه الشـــبه هـــو الظهور،ولكن لما كان الظهور من الأمور المحسة لأن معناه الحقيقى ألا يوجد مانع للبصر من الرؤية،وذلك معنى حقيقى بالنسبة للشمس وهى المشبه بـــه وليس كذلك بالنسبة للحجة وهى المشبه . ومن هنا احتيج إلى التأول بصرف لفظ " الظهور " عن ظاهره ، وسبيل ذلك أن يراد مقتضاه ولازمه وهو عدم المانع مـــن الإدراك ، وبذلـــك يكون مشتركاً عند كل من السكاكى والخطيب ، لأن وجه الشـــبه فيـــه مفـــرد ، وهما يشتركان فى وجه الشبه أن يكون صورة منتزعة من مـــتعدد . وعند العلامة الزمخشرى لك أن تسميه تشبيهاً أو تمثيلاً فهما مستويان فى نظره.

وقـــول أبى قيـــس بن الأسلت أو أحيحة بن الجلاح يشبه الثريا بعنقود الكرم المنور(١)

وقد لا ح فى الصبح الثريا لمن رأى ‥ كعنقود ملا حية حين نورا

وقول ابن المعتز(٢): **قد انقضت دولة الصيام وقد ‥ بشر سقم الهلال بالعيد**

يتلو الثريا كفا غر شـــــره ‥ يفتح فاهُ لأكل عنقـــود

فالأبيات السابقة ليست من باب التمثيل عند كل من الإمام عبد القاهر وأبى يعقـــوب الســـكاكى ٠ لأن وجـــه الشبه فيها حسى وهى من التمثيل عند الخطيب القزويـــنى ، وذلـــك لأن وجـــه الشبه ــ وإن كان فيها محسوساً ــ إلا أنه صورة منتزعـــة من متعدد ٠

وقولـــه تعالى : "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا"(٣)

وقول ابن المعتز فى الحسود ــ إصبر ــ

فـــإن الآيـــة السابقة وقول ابن المعتز تعد من باب التمثيل عند الجميع ، وذلك لأن وجه الشبه فيهما صورة عقلية ٠

ومن الجدير بالذكر : أن الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ حينما تكلم عن التمثيل لم يكن علم البيان قد استقر على ماهو عليه الآن ، وكان لا يزال فى طور نموه ، ومـــن هـــنا نـــراه يمثل تارة للتمثيل بما عده المتأخرون بعده من قبيل الاستعارة التمثيلية مثلاً: " هو يصفو ويكدر ويمر ويحلو ويشج ويأسو ويسرج ويلجم"(٤)

(١) الأغانى ١٧/١٣٠، ونسبه فى الأسرار إلى قيس بن الخطيم/٧٥ ، والملاحى بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها عنب أبيض طويل ، ونور الزرع تنويراً : أدرك والتمر خلق فيه النوى٠

(٢) ديوانه ٢/ ١٩٠ ، الصناعتين / ١٩٤ ٠ (٣) الجمعة/٥ ٠ (٤) الأسرار /٨٢ ت رشيد رضا٠

ومـــا اســتقرت عــليه كلمة علماء البيان ما ارتأه الخطيب القزوينى وهو أن تشــبيه التمــثيل ماكـــان وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد ، محسوسة كانت الصـــورة أم معقولـــة ٠ ذلــك لأن هناك إبداعاً فى كثير من الصور تتفاعل معها النفوس ٠ فتجد فيها ضالتها وبغيتها"(١)

هـــل يشترط الإمام عبد القاهر فى التمثيل أن يكون مركباً ؟

إن المتأمل فى كل كلامه ـــ رحمه الله ـــ يظن أنه يشترط فى التمثيل أن يكون مركـــباً مع كونه عقلياً ، وذلك فى قوله :" وعلى الجملة فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيـــقى والتشـــبيه الـــذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أو غل فى كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر"(٢)

وهـــو أيضا يرى : أن أروع التمثيل وأفخمه وأدقه ما كان مركباً ، ولم يرد حصـــر التمثيل فى المركب ، ويبين ذلك قوله : " الأولى بأن يسمى تمثيلاً " وكل الأمثـــلة الـــتى ذكرها فى كتابه " دلائل الإعجاز " للتمثيل فهى من قبيل المركب العقـــلى ، ويشـــعر مضمونها : أن التمثيل هو ما كان وجهه مأخوذاً من مجموع الكـــلام "(٣) ٠ وماذكره الإمام عبد القاهر كان دافعاً لاشتراط أبى يعقوب السكاكى كون التمثيل مركباً عقلياً ٠

(١) البلاغة فنونها وأفنانها / ٦٤ ٠

(٢) الأسرار / ٨٧ ٠

(٣) دلائل الإعجاز /١١٥ وما بعدها ت ياسين الأيوبى ٠

وقول الإمام ــ رحمه الله ــ : " إن التشبيه كلما كان أو غل فى كونه عقلياً كانت حاجــته إلى الجمل أكثر . فإنه يريد : أن التشبيه كلما كثرت جمله كان أدخل فى كونـــه عقلياً بمعنى أن حاجته إلى العمل العقلى أكثر ، والسر فى ذلك : أن كثرة الجمل فى التشبيه وقلتها ليست تابعـــة للعقلية والحسية ، ولكنها تابعة للمعانى التى يستدعى الغرض تأليف التشبيه منها"(١)

مـــا جـــاء عند المتأخرين ــ من المجاز ــ وهو عند الشيخ تمثيل مركب لاخلاف بيـــن عـــلماء البيان بعد الإمام عبد القاهر أن التمثيل المركب يعد مجازاً إما على الاســـتعارة التمثيلية وإما للتمثيل على حد الاستعارة إلا أن الشيخ ــ رحمه الله ــ لم يصرح بذلك بل ذكر نوعين من الأمثلة للتمثيل المركـــب :

الأول:ماصـــرح فيـــه بمـــا يدل على أنه تمثيل وتشبيه نحو:هو كمن يرقم على الماء ، ويضـــرب فى حديـــد بارد وينفخ فى غير فحم،وكمبتغى الصيد فى عريسة الأسد " فما سبق مصرح فيه بأداة التشبيه والمشبه به،وهذا لاخلاف فى كونه تشبيهاً وتمثيلاً.

ثانيـــاً : ما لم يصرح فيه بما يدل على أنه تمثيل ، ويكون ذلك بحذف أداة التشبيه والمشـــبه به ، وإجراء وصف المشبه به على المشبه كأنه صاحبه . نحو : أراك تقـــدم رجـــلاً وتؤخر أخرى . فإن أصل هذا الكلام : أراك فى ترددك فى البيعة كمن يتردد فى الخروج . فيقدم رجلاً تارة ويؤخرها تارة أخرى. فاختصر الكلام وحذفت أداة التشبيه والموصول وجرت الصفة على المشبه كأنه صاحبها، والتشبيه يفهم من القرائن " فقد سوى الشيخ بين الضربين "(١)

(١) دراسات تفصيلية شاملة / ٥٦ ، ٥٧ بتصرف .

(٢) الأسرار /٩٠ ، ٩١ ت رشيد رضا ، دراسات تفصيلية شاملة / ٦٣ .

أسباب تأثير التمثيل فى النفوس :

هناك ثلاثـــة أسباب لتأثير التمثيل فى النفس :

أولاً : أنه ينقل النفس من عقلى إلى حسى ، ومن نظرى إلى ضرورى ٠

ثانياً : أنه يجمع بين الأمور المتنافرة المختلفــة٠

ثالثاً : أنه يحتاج إلى إطالة الفكر وإعمال الرويــة٠

وكــل سبب من الأسباب السابقة له تأثيره فى النفس ، وموقعها منها أحسن موقـــع ، فــلو اجتمعت كلها أو اجتمع اثنان منها ــ وكثيراً مايحدث ذلك ــ كانت أعظم أثراً ، وأشد وقعا٠ أما تأثير السبب الأول فإنه يأتى من جانب تقوية المعنى وتوكيـــده ، وأمـــا تأثير السبب الثانى فلمجيئه من جانب الطرافة والغرابة ، وأما تأثير السبب الثالث فلإتيانه من جانب اللذة العقلية والمتاع الروحى ٠

ويقـــول العلامة الزمخشرى فى بيان قيمة التمثيل : " ولضرب العرب الأمثال ، واستحضـــار العـــلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معـــرض المـــتيقن والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبىّ ، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله ، وفشت فى كـــلام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكلام الأنبياء والحكماء ، قال الله تعـــالى : "وَتِـلْكَ الأَمْـــثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ"(١) ومن سور الإنجيل سورة الأمثال"(٢)

(١) العنكبوت / ٤٣ ٠

(٢) الكشاف ١/ ١٩٥ ٠

ويقــول ضياء الدين بن الأثير : " فالتشبيه يجمع صفات ثلاثاً هى المبالغة والبيان والإيجــاز • إلا أنــه من بين أنواع علم البيان : مستوعر المذهب وهو مقتل من مقــاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل الشئ على الشئ بالمماثلة : إما صورة وإما معنى : يعز صوابه وتعسر الإجادة فيه ، وقلما أكثر منه أحد إلا عثر"(١) ثم يقول " وأما فائدة التشبيه من الكلام فهى أنك إذا مثلت الشئ بالشئ فإنما تقصد به إثبات الخيــال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أو كد فى طرفى الترغيب فيه أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها ، كان ذلــك مثبــتاً فى الــنفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة شئ أقبح منها كان ذلك مثبتاً فى النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه"(٢)

وهناك جهات كثيرة تشترك فى تأثير التشبيه فى النفس(٣)

{١} أول هذه الجهات •براعة المتكلم ، وهذه البراعة تقوم على دعائم وأسس :

أـ الخيال الخصب • ب ـ العاطفة الجياشة• ج ـ الذهن الذى يجعل المتكلـــم قادراً على الاستنتاج ليجمع بين الأشياء • لأن المتكلم ليس هو الذى يوجـــد الرابطة بين الأشياء ن وينشئ ما بينها من وجوه الاتصال والاتفاق والمناسبة • إنما وظيفته أن يستنتج الروابط والصلات بين الأشياء المختلفة المتنافرة•

---

(١) المثل السائر ٣٧٨/١ •

(٢) السابق نفسه •

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها / ٧٤ علم البيان •

{٢} ثانى هذه الجهات التى تشترك فى تأثير التشبيه الحس ، ومن البدهى أن تكون النفس أكثر تأثراً بالمحسوس من المعقول ، ولذا وجدنا المشبه به لايكون فى الغالب إلا من المحسوسات •

{٣} وقد يكون من الجهات التى تشترك فى تأثير التشبيه العقل ، ومع ذلك لا يستقل وحده فى تأثير التشبيه ، إنما يكون مبنياً على الحس ، مع أن الحس والعقل كليهما لا يكفيان ولايفيان لكى يكون التشبيه مقبولاً وجيداً ، بل لابد أن تشترك معهما النفس كذلك"(١)

كذلك فى التشبيه نجده ينقل النفس من المعقول إلى المحسوس ، ومن الفكرة إلى الفطرة ، ومن الغموض إلى الوضوح ، وأنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، فليس الشك كاليقين ولا الخبر كالمعاينة، وصلة النفس بالمحسوسات أسبق من صلتها بالمقولات•

ايضاً نرى فى التشبيه الجمع بين الأشياء المتباعدة ، وفى هذا من الطرافة ما تستريح له النفس ، وفى التشبيه يحتاج إلى الفكر وبذلك تحدث لذة للنفس واستراحة للقلب ، والفكر ركيزة أساسية للتمييز بين الكلام المبتذل والكلام الجيد للقائل ، وللسامع حتى يمتاز الفطن عن غيره ، وليس فى هذه تعقيد • لأن التعقيد لم يذم لحاجته إلى الفكر ، بل ذم لما فيه من سوء الترتيب وضعف التركيب من جهة ولقلة فائدته وثمرته من جهة ثانية•

---

(١) البلاغـة فنونها وأفنانها/٧٤ •

ثانياً : " الاستعارة التمثيلية عند علماء البلاغـة "

تعـد " الاستعارة التمثيلية " أبلغ أنواع المجاز سواء كان مفرداً أم مركباً. لأن مبناها على تشبيه التمثيل ، وهذا التشبيه دقيق المسلك لأن وجه الشبه فيه هيئة منـتزعة مـن متعدد. من هنا تكون الاستعارة المبنية على هذا التشبيه أدق وأبلغ الاسـتعارات حيـث إن الـربط والضـم بين صورتين مركبتين من أشياء عدة ، وحصـر الجهـات التى تتحدان فيها وتشبيه إحداهما بالأخرى ، وهذا يحتاج إلى إعمال الفكر وحسن الروية.

وكمـا قيـل :" إن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاهد "(١)

تعريف الاستعارة التمثيلية : " هى أن يشبه صورة منتزعة من عدة أمور بصورة أخـرى مثـلها ويدعى دخول الأولى فى جنس الثانية للمبالغة فيطلق على الأولى الـلفظ المـركب الدال على الثانية فيعتبر التجوز فى موضوع ذلك اللفظ المركب لا فى مفرداته"(٢)

قـال الخطيب القزوينى : " وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعملُ فيما شبه بمعناه الأصلى ـ أى بالمعنى الذى يدل عليه ذلك اللفظ بالمطابقة أى بالوضع ـ تشـبيه التمثيل للمبالغة فى التشبيه ـ وهو مايكون وجهه فى المفرد. لأن وجه الشبه فيه لا يكون منتزعاً من متعدد"(٣)

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/ ٢٦٢ .

(٢) التبيان فى علم البيان/ ٢٤٠ ، حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٤/ ٥١٧ ، المفتاح /١٧٧ .

(٣) الإيضاح ٥/ ١٠٧ ت د خفاجى.

فـــليس كل تشبيه تجرى فيه الاستعارة التمثيلية لأن تشبيه المفرد بالمفرد مع كـــون وجـــه الشـــبه منتزعاً من متعدد صحيح ولا تجرى فيه الاستعارة ، فحينما نقـــول :ـــ تشبيه التمثيل ـــ فهذا يخرج المجاز المفرد لأنه لا يكون وجهه منتزعاً مـــن مـــتعدد • فالمجاز المركب أو الاستعارة التمثيلية لا بد فيها من تركب اللفظ المستعار كالوجه ، والمراد بالتركيب هنا أى تركيب كان •

ويشترط السيد الشريف فى المجاز المركب : التصريح بتمام المركب الدال على الصورة المشبه بها"(١)، ويرى سعد الدين التفتازانى:أنه يكفى التصريح ببعضه(٢)

اعتراض على الخطيب فى تمثيله للاستعارة بأشياء ليست من بابها:

اعـــترض على الخطيب القزوينى فى التمثيل بأشياء ليست منه من ذلك مثلاً قوله تعـــالى :" وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ"(٣) والحق أنه ليس من التمثيل فى شئ، وإن كـــان مـــن المجاز التركيبي ـــ المجاز العقلى ـــ بيان ذلك : أن السكوت هو عـــدم التكلم عما من شأنه أن يتكلم ، والغضبان يتكلم بكلام غير مألوف منه بسبب هيجان القوة الغاضبة جاز إسناد الكلام إلى الغضب من إسناد الشئ إلى سببه"(٤)

---

(١) حاشية السيد على الكشاف ١/ ٢١١ ومابعدها ، حاشيته على المطول /٣٣٧ ومابعدها•

(٢) المطول /٣٣٧ ، ٣٨٠ •

(٣) الأعراف / ١٥٤ •

(٤) الإشارات والتنبيهات / ٢٢٧ ، بغية الإيضاح ٣/ ١٤٩ •

فنقـــول : ــ إن هذه الاستعارة ليست من قبيل التمثيل لأن صورة التشبيه فيها أن يقــال : شبه انتفاء الغضب بالسكوت ثم تنوسى التشبيه واستعير السكوت للانتفاء واشــتق مــن السكوت ــ سكت ــ بمعنى انتفى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فالمجاز إذا مفرد وليس بهيئة حتى يعد من قبيل الاستعارة التمثيلية ويجوز أن يكون من باب الاستعارة المكنية ــ كما هو معلوم ــ ٠

وقــد ســمى الإمــام عبد القاهر الاستعارة التمثيلية بالتمثيل الذى يأتى على سبيل الاســتعارة حيــث يقــول : " وأما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاســتعارة ٠ فمــثاله قولــك للرجل يتردد فى الشئ بين فعله وتركه : أراك تقدم رجــلاً وتؤخر أخرى ، والأصل فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام ، وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة كما كان الأصــل فى قولــك : رأيت أسداً ٠ رأيت رجلاً كالأسد ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة ، وكذلك نقول للرجل يعمل فى غير معمل ــ موضع العمل ــ أراك تنفخ فى غيــر فحم وتخط على الماء ، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا فيه التمثيل ثم لم يفصحوا بذلك وأخرجوا اللفظ مخرجه إذا لم يريدوا تمثيلاً"(١)

وقــال أبــو يعقــوب السكاكى : " ومن الأمثلة استعارة وصف إحدى صورتين منتزعــتين مــن أمور لوصف الأخرى مثل أن تجد إنساناً استفتى فى مسألة فيهم تــارة بــإطلاق اللســان ليجيــب ولا يهم أخرى فتأخذ صورة تردده هذا فتشبهها بصــورة تــردد إنســان قام ليذهب فى أمر فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً وتارة لايريد فيؤخر أخرى ثم تدخل المشبه فى جنس صورة المشبه به روماً للمبالغــــة

(١) دلائل الإعجاز /١١٥ ، ١١٦ بتصرف ت د ياسين الأيوبى ٠ بغية الإيضاح ٣/ ١٤٩ ٠

فى التشـــبيه فتكسوها وصف المشبه به من غير تغيير فيه بوجه من الوجوه على سـبيل الاســتعارة قائلاً أراك أيها المفتى تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، وهذا نسميه التمثيل على سبيل الاستعارة"(١)

وقد استعان الخطيب القزوينى فى الأمثلة التى ذكرها بما قال الإمام عبد القاهـر الجرجانى فى كتابيه الدلائل (٢) والأسرار(٣)

والأمــثال العربية ــ كما هو معلوم ــ من قبيل الاستعارة التمثيلية والتى يستعار فيها لفظ المثل للحال أو الصفة أو القصة التى يكون لها شأن وفيها غرابة ، وهى كثيرة متناثرة فى كتب خاصة بها .

ويقول العلــوى : " اعلم أن التمثيل نوع من أنواع البيان ، وهو مخالف للتشبيه ، فــإن التشبيه إنما يكون فى المظهر الأداة ، وهذا نوع من الاستعارة ، وهو معدود من أنواع المجاز، وإنما قلنا إنه من الاستعارة من جهة أن الاستعارة حاصلة فيه ، وإنمــا تقــع التفرقة من جهة أن الوجه الجامع إن كان منتزعاً من عدة أمور فهو التمثيل ، وإن كان مأخوذاً من أمر واحد فهو الاستعارة "(٤)

---

(١) المفتاح /١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) دلائل الإعجاز /١١٥ ، ١١٦ ت د ياسين الأيوبى .

(٣) الأسرار / ٢٨٥ ومابعدها ت رشيد رضا .

(٤) الطّـراز ٣/ ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

وفى شـــروح التلخيص :" إن تسمية المجاز المركب بالتمثيل على سبيل الاستعارة ظاهرة لا لبس فيها ، وأما تسميته تمثيلاً من غير تقييد فقد يقال إنها تلتبس بالتشبيه المسمى بالتمثيل ، وحاصل الجواب ــ عن هذا ــ أن الاصطلاح جارٍ على أن التمثيل إذا أطلق انصرف للاستعارة وإذا أريد التشبيه قيل تشبيهُ التمثيل أو تشبيه تمثيلى"(١)

ويقــول ابــنُ يعقوب المغربى :" فتخصيص المجاز المركب بما استعمل فيما شبه بمعـــناه مع ورود ما يصح أن يكون من المرسل فى المركب ، ومع صحة جريان قـــاعدتى المجـــازين فيـــه باعتبار الوضع النوعىِّ كجريانهما فى المفرد بالوضع الإفــرادى لا يظهــر له وجـــه فيقال ما المانع من أن يقال حيث صح فيه الوضع الـــنوعى الـــذى يتضـــمنه الاستعمال الشخصى إن نقل لغيره ما وضع له لعلاقة المشـــابهة فاســـتعارة تمثيـــلية ، وإن نقل لغيره لعلاقة أخرى كاللزوم كان مجازاً مرسلاً تركيبياً ، وهذا مما أهملوا تسميته والتعرض له مع أن الوجه الذى صح به التمثيل يصح به غيره من المجاز فلم يظهر وجه للإهمال"(٢)

ولمـــا كـــانت الأمثال واردة على سبيل الاستعارة فلا تغير لأنها مستعملة فى معناها الأصلى وإنما يستعملها الإنسان استعارة على سبيل المثال ، كذلك لا ينظر فى الأمـــثال إلى مضـــاربها ، وإنما ينظر إلى مواردها فلا تغير لا تذكيراً وتأنيثاً أوجمعاً وإفراداً فهى ملازمة حالة واحدة.

"ومضرب المثل هو ماستعمل فيه الكلام الآن،ومورده ماستعمل فيه الكلام أولا"(٣)

---

(١) شـــروح التلخيص ٤/ ١٤٥ .

(٢) مواهب الفتاح ضمن الشروح ٤/ ١٤٦

(٣) حاشية الدسوقى ضمن الشروح ٤/ ١٤٩ .

هـل تكون الاستعارة التمثيلية تبعـية أولا ؟

ذكـرنا عـند دراسـتنا لقولـه تعالى :" أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِم "(١) أن الزمخشـرى يرى جواز كون الاستعارة التمثيلية تبعية • أما كونها تبعية لجريانها أولاً فى متعـلق معنى الحرف وتبعيتها فى الحرف ، وأما كونها تمثيلية فلكون كل مـن طـرفى التشـبيه حالة منتزعة من عدة أمور • حيث شبهت حالهم بحال منْ اعتـلى الشـئ وركبه • ويرى السيد الشريف عدم جواز ذلك فيقول : فإذا جعلت الاستعارة تبعية لم تكن تمثيلية مركبة الطرفين بل كانت استعارة فى المفرد"(٢)

وهـذا المجاز المركب إن كانت علاقته المشابهة فهو استعارة تمثيلية ، وإن كـانت علاقته غير المشابهة فهو مجاز مرسل مركب ، وترك الحديث عن المجاز المرسل المركب لقلته وقلة لطائفـه •

" وتمـتاز الاستعارة التمثيلية عن التشبيه التمثيلى على بلاغته: بالمبالغة فى التشـبيه، وبما تبنى عليه من تناسى التشبيه ودخول المشبه فى جنس المشبه به ، وادعـاء أنـه فرد من أفراده ، وهى أوجز من التشبيه التمثيلى لحذف أداتها وأحد طـرفيها ، وهى مـع إيجازهـا تعمـل عمل الإطناب من إيضاح المعنى وحسن تصويره والكشف عنه"(٣)

---

(١) البقـرة /٥ •

(٢) الكشاف وحاشية السيد عليه ١/ ١٤٣ ، حاشيته على المطول / ٣٩٣ •

(٣) الإيضاح ٥/ ١١٧ هامش المحقق د خفاجـى •

الفــرق بين التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيليـــة :

١ــ التشــبيه التمثيلى قد يكون طرفاه مفردين ، وقد يكونان مركبين أو مختلفين ، أما الاستعارة التمثيلية فطرفاها مركبان ٠

٢ــ التشــبيه التمثيلى لا بد فيه من الجمع بين الطرفين ٠ أما الاستعارة فلابد فيها من حذف المشبه ٠

٣ــ التشبيه لابد فيه من أداة ملحوظة أو مقدرة ، أما الاستعارة التمثيلية فلا بد فيها من حذف الأداة ، ويصعب فيه تقدير الأداة ووجه الشبه ٠

٤ــ التشبيه التمثيلى لا يفيد المبالغة كما تفيدها الاستعارة ــ كما ذكرنا ــ (١)

وقال الطيبى :" والأمثال على ألسنة البهائم والجمادات من هذا القبيل ــ الاستعارة التمثيــلية ــ كقولهــم:(٢) لــو قيــل للشحم : أين تذهب ؟ لقال : أسوى العوج ٠ يضرب فى السليم المعتدل الأعضاء"(٣)

وقد ذيل الإمام عبد القاهر حديثه عن هذا اللون البيانى بقوله :" وغرضى بهذا أن أعلمك أن منْ عدل عن الطريقة فى الخفى ٠ أفضى به الأمر إلى أن ينكر الجلى، وصــــار من دقيق الخطأ إلى الجليل من بعض الانحراف إلى برك السبيل ، والذى جــلب التخــليط والخبط الذى تراه فى هذا الفن ٠ أن الفرق بين أن يكون التشبيه مأخوذاً من الشئ وحده، وبين أن يؤخذ مابين شيئين ، وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفتك فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل على حد الاستعارة "(٤)

(١) السابق نفســه٠

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ٢/ ٥٤ " وفيه قال أقوم العوج " ط مصر سنة ١٣٥٢ هــ ٠

(٣) التبيان فى علم البيان/ ٢٤٣ ٠

(٤) أسرار البلاغة/٢٩٠ ت رشيد رضا ، المجاز اللغوى /١٥١ عبده هليل ٠

الفصل الأول
وتحته أربعة مباحث

المبحث الأول

" الحديث عن المؤمنين ووصف أخلاقهم "

" الهـــدى والفـــلا ح "

١ـ قال تعالى :" أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(١)

تحليل الآية بلاغياً : قوله :" أولئك " إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تمييز منتظمون بســببه فى سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعــد منزلتهم فى الفضل واسم الإشارة " أولئك " مبتدأ خبره قوله " على هدى " ومــافى " هدى " من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه كأنه قيل : على أى هدى لا يبلغ كنهــه ولايقادر قدره "(٢)

قال السيد الشريف ـ رحمه الله ـ:"ولما كانت الصفات المجراة على ـ المتقين ـ مميــزة لهــم جاعــلة إياهم كأنهم حاضرون مشاهدون وضع ـ أولئك ـ موضع المضـــمر إشـــارة إليهم من حيث إنهم موصوفون بها كأنه قيل : أولئك المتميزون بتـــلك الصـــفات ، فصار الكلام من ترتيب الحكم على الأوصاف المناسبة ومفيداً للعــلية . بخلاف المضمر فإنه راجع إلى الذات وليس فيه ملاحظة أوصاف وإن كانت متصفة بها فى نفسها ، فلا ترتيب هناك على وصف مناسب"(٣)

وقيــل : إن الآيـــة استئناف بيانى وقع جواباً لسؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى ، ولذا فصلت عن سابقتها . كأنه قيل : ماجزاء هؤلاء المتقين الذين ذكرتْ صفاتهم ؟ فقيل :" أولئك " فوجب الفصل بينها وبين سابقتها لشبه كمال الاتصال .

---

(١) البقــرة/ ٥ ، لقمان /٥ .(٢) أبو السعود ١/ ٣٣ .

(٣) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/١٤١ .

وجئ باســم الإشارة " أولئك " لإحضارهم أمام المخاطبين للحكم عليهم حضورياً بهــذا الحكــم المشرف حكماً مبنياً على المشاهدة والحس ، شأن اسم الإشارة التى حقهــا أن يشار بها إلى محسوس مشاهد وإلى ما ينزل منزلته فى تميزه وظهوره، وفى ذلــك تمييــزهم أكمل تمييز ، والمبالغة فى مدحهم وأنهم لما اتصفوا به من إيمــان بغيب ، وإقامة الصلاة جديرون بما ذكر بعد اسم الإشارة من ثبوت الهدى والفــلاح • وإيــراد اســم الإشارة " أولئك " هنا بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكــورة مع ما فيه من الإشعار بكمال تميزه بها وانتظامه لذاك فى سلك الأمور المشاهدة مع الإيماء إلى منزلته وعلو درجته•

وفى قوله :" على هدى " ثلاثُ استعارات : الأولى : استعارة تبعية بأن شبه تمسك المــتقين بالهدى باستعلاء الراكب على مركوبه فى التمكن والاستقرار فاستعير له الحرف الموضوع للاستعلاء فهى استعارة تبعية فى الحروف • الثانية : استعارة تمثيــلية شبهت الهيئة المنتزعة من المتقى والهدى وتمسكه به بالهيئة المنتزعة من الــراكب والمركوب واعتلائه عليه فتكون الاستعارة تمثيلية تركب كل من طرفيها لكــن لــم يصرح من الألفاظ التى بإزاء المشبه به إلا بكلمة " على " لأن مدلولها هو العمــدة فى تلك الهيئة وما عداة تابع له ، أو أن نقول : شبه حال المتقين فى ملابستهم للهدى بحال مَنْ يعلو الشئ ويستولى عليه ، بجامع مطلق التمكن فى كلّ، مطلق التمكن فى كل ، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به ، بجامع مطلق التمكن فى كل ، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به " أولئك على هدى " للمشبه استعارة تمثيلية لأنها جرت فى التركيب كله لا فى اللفظ المفرد حيث جرت فى : المتقى ، والهدى ، وتمسكهم به ، كما لو حظ فى المشبه به : الراكب ، والمركوب، والاعتلاء عليه •

الثالــثة : اســتعارة مكنية بين الهدى والمركوب حيث شبه الهدى بشئ يعلى عليه بجــامع الــتمكن وشدة التصرف فى كل ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو لفظ " على " الدالة على الاستعلاء على طريق الاستعارة المكنية.

وفى الكشــاف أن قولــــه :" عــلى هــدى " اســتعارة تــبعية تمثيلية إذ يقول : " مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به . شبهت حالهم بحال من اعتــلى الشــئ وركــبه"(١) ، وعلى هذا سار سعد الدين ـــ كما ذكروا عنه ـــ أما كونهــا تبعية فلجريانها أولاً فى متعلق معنى الحرف ، وتبعيتها فى الحرف ، وأما كونها تمثيلية فلكون كل من طرفى التشبيه حالة منتزعة من عدة أمور"(٢)

وــ مــثل ـــ أى التصــوير فــإن المقصود من الاستعارة تصوير المشبه بصورة المشبه به إبرازاً لوجه الشبه فى جانب المشبه بصورته فى جانب المشبه به مبالغة فى شــأنه كأنــه هو ، وإنما قدم ههنا وجه الشبه : أعنى التمكن والاستقرار على تصوير المشبه الذى هو التمسك لأنه المقصود الأصلى بالقياس إليه"(٣)

---

(١) الكشاف ١/ ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) حاشية السيد الشريف على المطول / ٣٩٣ .

(٣) حاشية السيد على الكشاف ١/ ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد أنكر السيد الشريف ذلك حيث يقول :" لا يخفى عليك أن متعلق معنى الحرف هھـنا أعـــنى كـــلمة " على " هو الاستعلاء ، ولا يلتبس أيضاً أن الاستعلاء من المعـــانى المفردة كالضرب والقتل ونظائرهما ، وكذلك معنى كلمة " على " معنى مفـــرداً ، ولما صرح بأن كل واحد من طرفى التشبيه ههنا حالة منتزعة من عدة أمور لزمه أن يكون كل واحد منهما مركبا وحينئذ لا يكون معنى الاستعلاء مشبهاً به أصالة ولا معنى " على " مشبها به تبعاً فى هذا التشبيه المركب الطرفين لأنهما معـــنيان مفردان والحاصل أن كون كلمة " على " استعارة تبعية يستلزم أن يكون متعـــلق معناها ــ الاستعلاء ــ مشبهاً به ومستعاراً منه أصالة وأن يكون معناها مشـــبهاً به ومستعاراً منه تبعاً ، وأن كون كل واحد من طرفى التشبيه ههنا مركباً يســـتلزم أن لا يكـــون معنى " على " ومتعلق معناها مشبهاً به ولا مستعاراً منه لا تـــبعاً ولا أصالة وتنافى اللازمين ملزوم لتنافى الملزومين ٠ فإذا جعلت الاستعارة فى ــ على ــ تبعية لم تكن تمثيلية مركبة الطرفين قطعاً "(١)

وأكـــثر الآراء ــ كما قال الألوسى ــ مع رأى سعد الدين ٠ أى على كونها تبعية تمثيلية٠(٢)

وقوله :" من ربهم " متعلق بمحذوف وقع صفة له مبنية لفخامته الإضافية إثر بيان فخامته الذاتية مؤكدة لها أى " على هدى " كائن من عنده تعالى وهو شامل لجميع

---

(١) السابق نفسه ، وحاشيته على المطول / ٣٩٣ ٠

(٢) روح المعانى ١/ ١٢٤ ٠

أنـــواع هدايـــته تعالى وفنون توفيقه ، و ــ من ــ ابتدائية أى :هدىً نشأ من عنده تعالى فهو مانحه

وقولــــه :" ربهــم " واختيار ذلك وهو التعرُّض لعفوان الربوبية مع الإضافة إلى ضــميرهم لغايـــة تفخيم الموصوف والمضاف إليهم ، وتشريفهما ولزيادة تحقيق مضـــمون الجمـــلة وتقريـــره ببيان ما يوجبه ويقتضيه ، ولفظ ــ الرَّب ــ مشعرُ بالـــتربية والولايـــة ، والإصـــلاح والـــتوفيق لأنَّ المقام مقام حديث عن نعـــم ، فهواهم منه نشأ .

وقولــــه :" وأولئك هم المفلحون " تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشـــار إليهـــم وللتنبيه على أنَّ اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من هـــاتين الخصيصـــتين ، وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عمن عداهم ويؤيده توســـيط العاطف بين الجملتين ، وقد وصلت الجملة الثانية بالجملة الأولى لأنهما خبريـــتان قصد تشريكهما فى الحكم ، لأن فى كل منهما جزاءً مستقلاً للمؤمنين ، فهـــم على هدى من ربهم أولاً ، وفى هذا تصحيح لمسيرتهم ، وهم مفلحون ثانياً ، وفى هذا تحقيق للغاية والنتيجة الطيبة التى حصلوا عليها .

مقارنـــة بين آيتـــين :

جاء اسم الإشارة الثانى هنا موصولاً " وأولئك هم المفلحون " وجاء فى قوله: " أُولَئِكَ كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ أُوْلَئكَ هُمُ الغَافِلُونَ "(١) مفصولاً .

أمـــا قولــــه :" وأولـــئك هم المفلحون " فلما ذكرنا سابقاً من وصل الجملة الثانية بالأولى لكونهما خبريتين قصد تشريكهما فى الحكم . أما قوله :" أولئك كالأنعام "

(١) الأعراف / ١٧٩ .

فـإن الجمـلة الثانية لا تختلف عن الأولى فهى تأكيد لها، لأن كونهم كالأنعام لا معـنى له إلا أنهـم غافـلون ، ولو أن هذه الجملة وصلت ، فقيل : وأولئك هم الغافـلون ــ لأدى هذا إلى معنى غير صحيح ، وهو أن الأنعام ليست فى غفلة ، أمـا هم فماداموا لا يستفيدون من هذه الجوارح التى أنعم الله بها عليهم ــ وهى أنعم القلوب والأعين ــ فليس معنى هذا إلا أنهم كالأنعام"(١)

والتسـجيل عـليهم بكمـال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى "(٢)

وأمـا الإفـلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايراً للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل مافعل ، فهم جديرون بالهدى ، وهم جديرون بالفلاح ، وهم جديرون بهما معاً، ولذا توسط العاطف بينهما المقتضى للمغايرة إذ الفلاح مغاير للهدى وإن كان نتيجة له وثمرة من ثماره،

و" هـم " ضـمير فصل دال على أن الواقع بعده خبر لا صفة ومؤكد النسبة مفيد اختصـاص المسـند بالمسـند إليه ، أى أن المسند ثابت للمسند إليه على طريق الاختصـاص والحصـر ، والمراد : هم المفلحون لا غير ، أوهو مبتدأ خبره ــ المفـلحون ــ والجمـلة خـبر ــ أولئك ــ وذكر المسند إليه ــ أولئك ــ لزيادة الإيضـاح والـتقرير ، وهذا المسند إليه ذكر مرتين : ذكر أولاً فى قوله :" أولئك على هدىً من ربهم "

(١) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعانى /٤٧٧ ، ٤٢٨ د فضل عباس ،

(٢) أبو السعود ١/ ٣٤ ،

وذكــر ثانيــاً فى قولـــــه :" وأولئك هم المفلحون " ، وهذا الذكر لزيادة الإيضاح والـــتقرير ، وليؤكد اختصاصه بالمسند ، فهؤلاء الذين ثبتت لهم الهداية هم الذين ثبت لهم الفلاح ، واختصوا به دون غيرهم.

وتعــريف " المفــلحون " بالألف واللام للدلالة على أن " المتقين " هم الناس الذين بلغك عنهم أنهم يفلحون فى الآخرة • فاللام فيها إذا لتعريف العهد الخارجى ، أو أن التعريف هو تعريف الجنس المسمى بتعيين الحقيقة ، والمعنى عليه : إن هؤلاء الذين حصلت لهم صفة المفلحين ، وتحققوا ماهم ، وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لايعدون تلك الحقيقة فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص ـ المــتقين ـ بــنيل مــالا يــناله أحدُ على طرق شتى وهى ذكر اسم الإشارة ، وتكريــره وتعــريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم ويرغــبك فى طـــلب ماطلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمنى على الله مالا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته"(١)

<u>وقــد اختار العلامة جار الله الزمخشرى :</u> جعل التعريف فى " المفلحون " للجنس إشــارة إلى حضــور الجنس فى الأذهان من حيث إنها صفة للمخبر عنه ، وهذا معــنى ظهور اتصافه به ، وتعريف الجنس على رأيه هذا أدق وأبلغ ، وذهب ـ رحمــه الله ـ إلى أن الحصــر عــلى العهد والجنس ـ أى الوجهين للمسند على المســند إليــه ـ أو على العهد قصر إفراد ، أو على الجنس قصر قلب ، وتكرار اسم الإشارة بمنزلة إعادة الوصـــف وتعليـــق الحكم به ، وتكراره يــدل عليه

---

(١) الكشاف ١/ ١٤٨ .

اختصـــاص كـــل واحد من الهدى والفلاح بهم ، أما بتعريف المفلحين فعلى العهد ظاهر سواء اعتبر فيه حصر أولا ، وأما على الجنس فلأن المقصود هو الاتحاد بتـــلك الحقيقـــة وذلك أبلغ من الاختصاص ، وأما بتوسط الفصل فمن حيث دلالته على الحصر أو تأكيد الحكم"(١)

و ـــ المفـــلح ـــ هو الفائز بالبغية • كأنه هو الذى انفتحت له وجوه الظفر فشقها ولـــم تســـتغلق عليه ، والمادة فيها معنى الشق والفتح ومنه الفلاح بصيغة المبالغة الذى يشق الأرض ليفلحها فيستخرج منها خيراتها وبركاتها •

نقض العهد لا يكون من صفات المؤمنين :

٢ـــ قال تعالى :" وَلاَتَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَت غزلَهَا مِنْ بَعدِ قُوَّةٍ أَنكاثاً تَتَّخِذُون أَيمانكُم دَخَـــلاً بَيـــنكُم أَن تَكُـــونَ أُمَّةٌ هِىَ أَربَىٰ مِن أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبيِّنَنَّ لَكُم يَومَ القِيامَةِ مَاكُنتُم فِيهِ تَختَلِفُونَ"(٢)

تحـــليل الآية بلاغياً : تشدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً لأنها قاعدة الثقة التى ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم ، والنصوص القرآنية هنا لا تقـــف عند حد الأمر بالوفاء والنهى عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال ، وتقبيح نكث العهد ، ونفى الأسباب التى قد يتخذها بعضهم مبررات •

فقوله :" ولاتكونوا " أسلوب نهى مراد به النهى عن التخلق بأخلاق ناقضى العهود وأن من فعل ذلك فهو أخرق لايعى ولايفى ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/ ١٤٨ •

(٢) النحل /٩٢ •

لمـــن يعطـــون العهـــد باسمه تعالى ، ثم ينقضون ما عاهدوا عليه فهولاءهم أشبه بامرأة خرقاء تغزل غزلاً محكماً ثم تعود بعد هذا فتنقض ماغزلته وأجهدت نفسها فيـــه وهـــذا لا يكون من عاقل يحترم عقله ويعرف لآدميته قدرها ، وهؤلاء الذين أعطوا العهد باسم الله ثم نقضوه كانوا قد أحكموا أمرهم ووثقوه ثم أفسدوه وأحلوا أنفسهم من هذا الميثاق الذى واثقوا الله عليه"(١)

وجـــاء قوله " ولا تكونوا " بأسلوب النهى تأكيداً لوجوب الوفاء وتحريم النقض أى لاتكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلـــته ــ أنكاثـــاً ــ أى أنقاضاً جنوناً منها وحمقاً ، وقد وصلت هذه الجملة بما سبق لا تفاق الجملتين فى الإنشائية

فقوله :" وَأَوفُواْ بِعَهدِ اللهِ إِذَا عَاهدتُّم "(٢) إلخ أمر ، والآية هنا نهـــى ٠

وفى الآيـــة تشبيه تمثيلى : شبه الله تعالى حال الناقض للعهد ولم يف به بحال من تنقض غزلها بعد فتله وإبرامه تحذيراً للمخاطبين وتنبيهاً إلى أن هذا ليس من فعل العقلاء وصاحبه فى زمرة الحمقى من النساء٠

والوجه : الهيئة الحاصلة من النقض والإفساد وعدم البقاء على حال٠

" فشبهت هذه الآية الذى يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتلـــه محكماً ثم تحلـــه(٣)

يقول الشيخ الجمل :" والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعييـــــــن

(١) التفسير القرآنىة ١٤/ ٣٥٣ ٠

(٢) النحـــل /٩١ ٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٥٣ ٠

لأن القصـــد بالأمثال صرف المكلف عن الفعل إذا كان قبيحاً والدعاء إليه إذا كان حسناً وذلك يتم بدون التعيين إذ لا يلزم فى التشبيه أن يكون المشبه به موجوداً فى الخارج "(١)

فــفى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمل داخل فى زمرة النساء بل فى أدناهن وهى الخرقاء"(٢)

وجــاء المسند إليه معرفا بالاسم الموصول " التى " لا ستهجان التصريح به وعدم ذكره استقباحاً وإهانة٠

وقولـــــه :" غزلها " مصدر بمعنى المفعول أى مغزولها ، والفعل منه غزل يغزل بكســر الــزاى ، والــنقض ضد الإبرام ، وهو فى الجرم فك أجزائه بعضها من بعــض، وقوله :" من بعد قوة " متعلق بالفعل " نقضت " على أنه ظرف له لاحال و "من " مؤكدة فى مثله٠ أى كالمرأة التى نقضت غزلها من بعد إبرامه وإحكامه٠ والوصف بقوله " قوة " دليل على شدة الغزل وإحكامه ومتانة إبرامه

يقــول أبو حيان :" والظاهر أن المراد بقوله : ــ من بعد قوة ــ أى شدة حدثت من تركيب قوى الغزل ولو قدرناها واحدة القوى لم تكن تنتقض أنكاثاً(٣) فجاء هذا القول قيداً قوياً فى وصف الغزل بهذه الصفة ٠

وقوله :" أنكاثاً " جمع نكث بكسر النون وهو ماينكث فتله وانتصابه

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٥٩٥ ٠

(٢) محاسن التأويل ١٠/ ١٥٣ ، تفسير الخازن ١١١/٤ ، التسهيل ٢٩٤/٢ لابن جزى ، الجمـــان فى تشبيهات القرآن /١٤١

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٣١ ٠

قيـــل : عـــلى أنـــه حـــال مؤكدة من " غزلها " وقيل : على أنه مفعول ثان للفعل "نقضـــت" لتضمنه معنى جعل ، وجوز الزجاج كون النصب على المصدرية لأن " نقضت " بمعنى نكثت فهو ملاق لعامله فى المعنى(١)

قال فى البحر : النكث فى اللغة • الحبلُ إذا انتقضت قواه"(٢)

وقال الألوسى :" قال فى الكشف : إن جعله مفعولاً على التضمين أولى من جعله حـــالاً أو مصدراً ، وفى الإتيان به مجموعاً مبالغة ، وكذلك فى حذف الموصوفة ليدل على الخرقاء الحمقاء وما أشبه ذلك"(٣)

وجاء فى الكشاف مايومئ إلى اعتبار التضمين حيث يقول الزمخشرى : "لاتكونوا فى نقـــض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته أنكاثاً(٤)

وقيـــل : إن قوله :" نقضت " مجاز عن أرادت النقض على حد قوله تعالى :" إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ "(٥) مجاز مرسل لعلاقة المسببية لتسمية الشئ باسم مسببه ، وقد فسر بذلك جمعاً بين القصد والفعل ليدل على حماقتها واستحقاقها اللوم بذلـــك فإن نقضها لو كان من غير قصد لم تستحق ذلك ، ولأن التشبيه كلما كان أكثر تفصيلاً كان أحسن ــ كما قال الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله (٦)

(١) روح المعانى ١٤/ ٢٢١ •

(٢) البحر المحيط ٥/٥٣١ •

(٣) روح المعانى ١٤/ ٢٢١ •

(٤) الكشاف ٢/ ٤٢٦ •

(٥) المائدة/٦ •

(٦) أسرار البلاغة/١٢٨ ومابعدها ت رشيد رضا •

مَــنْ التى نقضت هــذه ؟

قيــل : المــراد امرأة معلومة عند المخاطبين كانت تغزل فإذا برمت غزلها تنقضــه، وهى ريطه بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وكانت تسمى خــرقاء مكــة فبها وقع التشبيه ، وقال مجاهد وقتادة : وذلك ضرب مثل لا على امرأة معنية"(١) بل المراد منْ هذه صفته .

فــفى الآية تشبيه حال الناقض بحال الناقض فى أحسن أحواله تحذيراً منه ، وأن ذلك ليس من فعل العقلاء وصاحبه داخل فى عداد حمقى النساء.

وقولــه :" تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم " حال من الضمير فى " لا تكونوا " أو فى الجــار والمجــرور الواقــع موقــع الخــبر أى مشابهين لأمرأة شأنها هذا حال كونكممتخذين أيمانكم مفسدة ودخلاً بينكم ، وأصل الدخل ما يدخل الشئ ولم يكــن منه"(٢)

وقيل : الجملة مستأنفة على سبيل الاستفهام الإنكارى أى أتتخذون ؟

والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة كالدغــل.

و" دخــــلاً " منصوب على أنه مفعول ثان لاتخذ ، والمراد : ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً ، وقيل : منصوب على أنه مفعول لأجله ، وفائدة وقوع الجملة حالاً . الإشــارة إلى وجـــه الشــبه أى لا تكونوا مشبهين بامرأة هذا شأنها متخذين أيمانكم وسيلة للغدر والفساد بينكم"(٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٥٣ .

(٢) أبو السعود ٥ / ١٣٧ ، محاسن التأويل ١٠/ ١٥٣ .

(٣) روح المعانى ١٤/ ٢٢٢ .

وقولــــــه :" أن تكون أمـــة هى أربى من أمة " تعليل لنقض العهد واتخاذ الأيمان ذريعــة للإفساد ، وتلبيس الأمور على الناس ، وذلك أن هذا النكث بالعهد كممالأة لجماعـــة قويــة عــلى حســاب جماعة ضعيفــة أى أنكم تتخذون أيمانكم التى لاتــبرون بهــا للإفساد لا للإصلاح حين تميلون عن الحق وتتحازون إلى جانب الأقوياء فتنقضون العهد الذى كان بينكم وبين الجانب الضعيف لتتحولوا بذلك إلى الجانب الأقوى .

وقولـــــه :" أن تكـــون أمة ، و" تكون " تامة ، و " أمة " فاعلها و" هى أربى من أمة" مبتدأ وخبر ، والجملة من المبتدأ والخبر فى موضع رفع لأنها صفة " أمة "(١)

وقوله : " إنما يبلوكم الله به " أسلوب قصر وهو قصرُ إضافى طريقــه ـــ إنما ـــ مـــن بـــاب قصـــر الصـــفة على الموصوف ، والابتلاء هو الاختبار على سبيل الاستعارة التبعية فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه ـــ يبلوكم ـــ بمعنى يختبركم ، والمراد : يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحـــبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال.

<u>إلام يرجـــــع الضمير فى " به " ؟</u>

قيل : إنه عائد إما على المصدر المنسبك من " أن تكون " أو على المصدر المنفهم من " أربى " وهو الربو بمعنى الزيادة"(٢)

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/ ٨٣ لابن الأنبارى ت ط عبد الحميد طه .

(٢) روح المعانى ١٤/ ٢٢٢ .

وقـــال ابن الأنبارى :" والهاء فى ــ به ــ تعود على العهد ، وقيل : التكاثر"(١) ، وقــد رد الألوســى كلام ابن الأنبارى ووصفه بالظن فيقول :" وظن ابن الأنبارى أنهــم أرادوا أن الضمير راجع إلى نفس الكثرة لكــن لما كان تأنيثها غير حقيقى صح التذكير وهو كما ترى"(٢)

وقولـــــه :" هى أربى " أى أزيــد عدداً وأوفر مالاً " مــن أمه " أى من جماعة أخـــرى، والمعــنى لا تغدروا بقوم بسبب كثرتهم وقلتهم بل حافظوا على أيمانكم معهم تكونوا على خير وفى خير •

قـــال أبـــو عبد الله القرطبى :" قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كـــانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى ــ قاله مجاهد ــ فقال الله تعـــالى : لا تنقضـــوا العهود من أجل أن طائفـــة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالاً فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعـــة فى الدنيا لأعدائكم المشركين"(٣)

وقوله :" وليبينن لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون" تذييل للكلام السابق وتوكيد له جئ به للإنذار والتحذير من مخالفة ملة الإسلام ، ومن هنا يجازيكم بأعمالكم ثواباً وعقابـــاً • فهـــو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادتهم ووفاءهم ، وصدر هذا التذييل بـــاللام ونون التوكيد للدلالة على فساد معتقد من تكون هذه صفته ، وتقديم الجار والمجرور لزيادة الاهتمام بهذا البيان الخاص بهؤلاء •

(١) البيان ٢/ ٨٣ .

(٢) روح المعانى ١٤/ ٢٢٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٥٣ .

فهــذه الآية خاصة بحال من أحوال نقض العهد ، وهى تلك الحال التى يكون الــداعى فيهــا إلى نقــض العهد هو الميل إلى جانب الأقوياء والتخلى عن جانب الضعفاء ، وذلك بأن يكون الناقض للعهد بينه وبين جماعة عهد موثق . فإذا رأى جماعــة أخــرى ذات شوكة وقوة انضم إليها ، ونقض عهده الذى كان بينه وبين الجماعــة الضــعيفة غير ملتفت إلى هذا العهد الذى بينه وبينها . فكان للتشبيه فى الآية أقوى دور فى التصوير والبراعة فى التمثيل .

" فمــثل مــن يــنقض العهد مثل امرأة حمثاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأى ، تفتل غــزلها ثــم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعاً منكوثــة ومحلولة ، وكل جزئية من جــزئيات التشــبيه تشــي بالتحقير والترذيل والتعجيب ، وتشوه الأمر فى النفوس وتقــبحه فى القلوب وهو المقصود ، ومايرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل التى تقضى حياتها فيما لاغناء فيه"(١)

" **الاصطفـــــاء** "

٣ــ قال تعالى :" وَاصطَنَعــتُكَ لِنَفسِي "(٢)

تحليل الآية بلاغياً : قوله :" واصطنعتك : تذكير لقوله تعالى :" وَأَنَا اختَرتُكَ "(٣) وتمهيــد لإرساله ــ عليه السلام ــ إلى فرعون مؤيداً بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيداً لوثوقــه ــ عليه السلام ــ بحصول نظائرها اللاحقة"(٤)

---

(١) فى ظلال القرآن ١٤/ ٢١٩١ .

(٢) طــه / ٤١ .

(٣) طــه /١٣ .

(٤) أبو السعود ٦/ ١٧ .

والاصــطناع : اتخــاذ الصــنعــة ، وهى الخيــر تسديه إلى إنسان ، والمعنى : اصطنعتك لوحي ورسالتى لتتصرف على إرادتى • قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامــة حجــتى ، وجعلتك بينى وبين خلقى ، وصرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم"(١)

وهــذه البشرى من الله تعالى لنبيه موسى ــ عليه السلام ــ إحدى المنن التى امتن الله بها عليه وسماها سبحانه منة ليعرفه إياها •

أى اصطفيتك خالصاً مستخلصاً ممحضاً لى ولرسالتى ودعوتى ، ليس بك شئ من هــذه الدنيــا ولا لهــذه الدنيــا • إنمــا أنت للمهمة التى صنعتك على عينى لها واصــطنعتك لتؤديها • فمالك فى نفسك شئ• ومالأهلك منك شئ ، ومالأحد فيك شئ فامض لما اصطنعتك له

قــال الإمام الفخر الرازى : " لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن ذلك اللفظة لفظة مؤذيــة والمقــام مقام التلطف ؟ والجواب : إنما ذكر ذلك ليعرف موسى ــ عليه السلام ــ أن هذه النعم التى وصلت إليه ما كان مستحقاً لشئ منها بل إنما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والإحسان"(٢)

ثم يقــول :" واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال :" واصطنعتك لنفسى " عقبه بذكر ماله اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء"(٣)

وقولـــــه :" واصطنعتك لنفسى " استعارة تمثيلية حيث شبهت حالة موسى ــ عليه السلام ــ فيما خوله الله تعالى من التقريب والتكليم والتكريم •

(١) فتح القدير ٣/ ٤٥٨ ، ٤٥٩

(٢) التفسير الكبير ٢٢/ ٥٢ • (٣) السابق ٢٢/ ٥٧ •

بحالـــة من مر به الملك واستخلصه لنفسه ورشحه لبعض أموره الجليلة واستعير الاصـــطناع لذلـــك. وهى استعارة حسنة ــ كما قال علماء البلاغة لكونها أوفق بكلامـــه تعالى.

وروى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ فى معنى " لنفسى " أنه الوحى والرسالة أى لـــوحى ورســـالتى ، وعـــبر عنها بالنفس لأنها أخص شئ بها، والعدول عن نون العظمـــة الواقعة فى قوله سبحانه :"وفتناك فتوناً ــ وــ فرجعناك ــ و ــ فنجيناك"(١) تمهيد لإفراد النفس اللائق بالمقام فإنه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص. كأنه قال: جعلتك من خواصِّ ، واصطفيتك برسالتى وبكلامى"(٢)

<u>قـــال العلامـــة الزمخشـــرى</u> :" هـــذا تمثيل لما خوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثصل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص أهـــلاً لـــئلا يكـــون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثـــر، ويستخلصـــه لنفســـه ولايبصر ولايسمع إلا بعينه وأذنه ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره"(٣)

<u>وظيفتـــه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الدلالـــة إلى الخير</u> :

٤ــ قـــال تعالى :" إِنَّكَ لاَ تُسمِعُ المَوتَىٰ وَلاَ تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّواْ مُدبِرِينَ. <u>وَمَا أَنتَ بِهَادِى العُميِ عَن ضَلالَتِهم</u> إِن تُسمِعُ إِلاَّ مَن يُؤمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُسلِمُونَ"(٤)

(١) طـــه /٤٠ .

(٢) روح المعانى ١٦/ ١٩٣ ، أبو السعود ٦/ ١٧ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٣٧ ، ٥٣٨ .

(٤) النمل /٨٠ ،٨١ ، الروم /٥٢ ، ٥٣ ، الزخرف /٤٠ بنص " أفأنت تسمع"، يونس/٤٢ ،٤٣ مثلها.

تحليل الآيتين : قولـــه :" إنك لا تسمع الموتى " تعليل آخر للتوكل(١) الذى هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه والإعراض عن التشبث بما سواه وقد علل أولاً بما يوجبه من جهته ــ عليه الصلاة والسلام ــ على أحد الوجهين أعنى كونه ــ عليه الصلاة والسلام ــ على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى إعانته تعالى وتأييده للحق ثم علل ثانياً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه تعالى فإن كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى"(٢)

وقولـــه : "إنك لا تسمع الموتى " استعارة تمثيلية حيث شبه سبحانه وتعالى حال هؤلاء الجاحدين المعاندين فى عدم هدايتهم ، وعما يتهم عن الحق الصراح ، وعدم سماعهم لآيات الله وانتفاعهم بما فيها بحال الموتى فى كونهم لا يسمعون دعاء الداعى ولايرون هذا الداعى إذ لاحس لهم ولاعقل ، والجامع الهيئة الحاصلة من عدم السمع والبصر والحياة ، وهذا كله تمثيل لأحوال الكفار فى عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمى. وقيل : إنما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع وإطلاق الإسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشئ من المسموعات.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى:" فتوكل على الله إنك على الحق المبين " النمل / ٧٩ .

(٢) أبو السعود ٦/ ٣٠٠ .

وقال العلامة الزمخشرى : " شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس لأنهم إذا سمعوا مايتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع ، كانت حالهم لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع ، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون ، وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل"(١)

وقوله :" ولا تسمع الصم الدعاء " نفى آخر متمم لسابقه مراد به أنك لا تسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان لأنهم كالصم الذين فى آذانهم وقر فلا يستجيبون الدعاء • لا سيما إذا تولوا عنك معرضين ، فإن الأصم إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضم إلى صممه بعد المسافة وقد وصلت هذه الجملة بسابقتها لكونهما خبريتين •

وقوله:" إذا ولوا مدبرين " تقييد للنفى لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فإنم مع صممهم فإنهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ، ولاريب فى أن الأصم لايسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريباً منه فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه"(٢)

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٩٠

(٢) روح المعانى ٢٠/٢٠ ، أبو السعود ٦/ ٣٠٠ •

وفى قولـــــه :" ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين " إيغال(١) • وبيان ذلك هنا هو أن الكلام قد تم عند قوله تعالى :" ولا تسمع الصم الدعاء " فما معنى قوله " ولوا مدبرين " ؟ وجواب ذلك أنه تعالى أتى بها وقد أغنى عنها ذكر التولى فى الظاهــر أما فى الحقيقة فهو لم يغن عنها لأن التولى قد يكون بجانب دون جانب كمـــا يكـــون الإعـــراض ، ولما أخبر سبحانه بذكر توليهم متمما للمعنى فى حال الخطاب لينفى عنهم الفهم الذى يحصل من الإشارة ، فإن الأصم يفهم من الإشارة ما يفهمه السامع من العبارة، ثم علم سبحانه أن التولى قد يكون بجانب دون جانب ــ كمـــا سبق ــ فيجوز أن يلحظ بالجانب الذى لم يتول به فيدرك بعض الإشارة ، والمـــراد نفى كل الإشارة فجاءت الفاصلة " مدبرين " ليعلم أن التولى كان بجميع الجوانـــب بحيث صار ما كان مستدبرا فاحتجب المخاطب عن المخاطب إذ صار مـــن ورائه فخفيت من غيبه الإشارة كما صمت أذناه عن العبارة فحصلت المبالغة الكـــلية فى عدم الإسماع البتة ، وهذا تمثيل مثلت به حالُ هؤلاء القوم أتى مدمجاً فى الإيغال ، وهذا الضرب من الإيغال يسمى إيغال الاحتياط"(٢)

والتعـــبير بالفعل المضارع " لا تسمع " دلالة على تجدد الإسماع وحدوثه زمناً بعد زمن ووقتاً بعد وقت دون جدوى ولافائدة ترجى من ذلك •

وقوله :" وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم " نفى آخر معطوف على سابقـــــه

---

(١) الإيغال: نوع من أنواع الإطناب وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها•
جواهر البلاغة/٢٠٤ ،الإشارات والتنبيهات ١٥٦ ، ١٥٧ ، إعراب القرآن وبيانه لمحي الدرويش ٧/ ٢٥٦ . البلاغة فنونها وأفنانها علم المعانى ٤٨٨ ، ٤٨٩ •

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٧/ ٢٥٧ •

لبيان فساد معتقد هؤلاء وشدة ضلالهم ، والمراد لست هادياً هؤلاء هداية موصلة إلى المطلوب فإن الاهتداء منوط بالبصر ، و" عن " فى قوله " عن ضلالتهم " متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى الصرف وقيل بـ " العمى " يقال : عمى عن كذا ، وهذا القول فيه بعد .

وإيراد الجملة الإسمية " وما أنت بهادى العمى " للمبالغة فى نفى الهداية ، وقرأ يحيى بن الحرث وأبو حيوة " بهادٍ " بالتنوين و " العمى " بالنصب على التعدية ، وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب وابن يعمر وحمزة ـ تهدى ـ مضارع هدى للتجدد والاستمرار"(١)

وقوله :" إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا " نفى للإسماع أى لا تسمع سماعاً يجدى السامع نفعاً ، وفى الجملة أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء من باب قصر الصفة على الموصوف . وهو قصر صفة السماع على الموصوفين بالإيمان قصراً إضافياً .

وقوله :" إلا من يؤمن بآياتنا " المراد به الذين من شأنهم الإيمان بالآيات ، وإيراد الإسماع فى النفى والإثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال : إن تهدى إلا من يؤمن إلخ لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية .

وقوله : " فهم مسلمون " تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل فإنهم منقادون للحق وقيل : مخلصون لله تعالى من قوله " بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجهَهُ لِلهِ "(٢)

---

(١) أبو السعود ٦/٣٠٠ ، البحر المحيط ٧/ ٩٦ ، روح المعانى ٢٠/٢٠

(٢) البقرة / ١١٢ .

وقيـل : هـو تعليل لما يدل عليه الكلام من أنهم يسمعون إسماعاً نافعاً لهم ، وفى توحيد الضمير تارة وجمعه أخرى رعاية للفظ ــ من ــ ومعناها"(١)

وقد جاءت هاتان الآيتان تسلية للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتأسية له على جمـوح القـوم ولجـاجهم فى العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق فى النصـح والبيان ، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن يمضى فى تسليته والتسرية عنه من هـذا كلـه ، فهو لم يقصر فى دعوته ، ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعى آذانهـم فتـتحرك قـلوبهم فيقبلون على الناصح الأمين ٠ فأما الذين ماتت قلوبهم وعميـت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان ساقط : فماله فيهم حيلة ، وليس له إلى قـلوبهم سبيل ، والتعبير القرآنى يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، والرسول يدعو وهم لا يسـمعون ، وهـذا يمثل المعنى ويعممـه فى الشعور ويقابل هؤلاء المؤمنون الأحياء السامعون المبصرون"(٢)

<u>مـن صفـة المؤمن القصد :</u>

٥ــ قـال تعـالى :" وَاقصِد فِي مَشيِكَ وَاغضُض مِن صَوتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ"(٣)

تحليل الآية : هذه أخر وصية من وصايا الرجل الحكيم الصالح لقمان التى يوصى فيها ولده بالتحلى بأفضل الخصال التى يجب أن يكون عليها المؤمن الخالص٠

(١) الكشاف ٣/١٥٩ ، البحر المحيط ٧/٩٦ ، أبو السعود ٦/٣٠٠ ، روح المعانى ٢٠/ ٢١ ٠

(٢) فى ظلال القرآن ٢٠/ ٢٦٦٦ ، صفوة التفاسير ٢٠/ ٤١٩ ٠

(٣) لقمان / ١٩ ٠

قولـــه :" واقصد فى مشيك " أمر بالتوسط فى مشيه والاعتدال فيه بين الإسراع والــبطء . فلما نهاه عن الخلق الذميم فى قوله " وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَـرَحاً"(١) أمره بالخلق الكريم وهو القصد فى المشى بحيث لا يبطئ كمـا يفعـل المتنامسون والمتعاجبون يتباطؤن فى نقل خطواتهم المتنامس للرياء والمــتعاجب للترفع ولا تسرع كما يفعل الخرق المتهور"(٢) وهذه الجملة معطوفة عـلى ماسبق موصولة بها لكون هذه الجمل إنشائية لمجيئها بأسلوب الأمر الذى يراد به الحث والوعظ .

و"القصـــد اســتقامة الطــريق . يقــال قصدت قصده أى نحوت نحوه ، ومنه الاقتصاد وهو ضربان : محمود على الإطلاق وذلك فيما له طرفان إفراط وتفريط كالجود فإنه بين الإسراف والبخل وكالشجاعة فإنها بين التهور والجبن ونحو ذلك وعلى هذا قولــه " واقصد فى مشيك " ، والثانى يكنى به عما يتردد بين المحمود والمذمــوم كالواقع بين العدل والجور والقريب والبعيد وعلى ذلك قوله ـ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصـــد ـ "(٣)

والمــراد : اعتدل فى مشيك حتى يكون مشياً بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولاتثب وثب الشطار ، وقرئ ـ وأقصد ـ بقطع الهمزة : أى سدد فى مشيك من قولهــم أقصــد الرامى إذا سدد سهمه نحو الرميــة ، والمراد أمش مشياً حسناً ، وكأنه أريد التوسط به بين المشيين السريع والبطئ فتتوافق القراءتان .

(١) لقمــان /١٨ .

(٢) النهر الماد بهامش البحر ٧/ ١٨٦ .

(٣) المفردات /٤٠٤ مادة ـ قصد ـ ، فاطر/ ٣٢ .

وقولـــه :" واغضض من صوتك " أمر آخر معطوف على سابقه موصول به من عطــف الجمــل عــلى الجمل لا تفاقها فى الإنشائية ، ومراده اخفض من صوتك فلاترفعــه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل فأنقص منه وأقصر ٠

قـــال أبو حيان ــ رحمه الله ــ :" والغض من الصوت التنقيص من رفعه بجهارة والغـــض رد طموح الشئ كالصوت والنظر والزمام وكانت العرب تفتخر بجارة الصـــوت وتمـــدح بـــه فى الجاهلية ، وغض الصوت أو فر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمـــه"(١)

وقولـــــه :" إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبـــنى عـــلى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ٠ و" أنكر " أفعل إن بنى من فعل المفعـــول أى أقبح وأفحش كقول العرب : أشغل من ذات النحيين ، وقال البعض: أى أصـــعبها عـــلى الســـمع وأوحشها من ــ نكر ــ بالضم ، والمراد بالأصوات أصوات الحيوانات أى إن أنكر أصوات الحيوانات " لصوت الحمير " جمع حمار، والحمـــار مـــثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقـــه ، ومن استفحاشهم لذكره مجـــرداً وتفاديهم من اسمه أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون : الطويـــل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة ، وقد عد فى مساوئ الآداب أن يجـــرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة ، ومن العرب من لايركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرجلـــة"(٢)

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٩ ٠

(٢) الكشاف ٣/٢٣٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٤ /٦٧ ، البحر ٧ /١٨٩ ٠

وقولـــــه : " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " استعارة تمثيلية حيث شبه حال الرافعين أصواتهم بحال الحمير وحال أصواتهم بحالة نهيق الحمير ، والحمير مثل فى الذم البليغ والشتيمة ، ومثلت أصواتهم بالنهاق الذى أوله زفير وآخره شهيق ، فاســتعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه ، والوجه الهيئة الحاصلة من رفع مكروه ، وأصوات منكرة قبيحـــة مرذولـــة.

" وأخـــرج الكلام مخرج الاستعارة فلم يؤت بأداة التشبيه ، وفى ذلك من المبالغة فى الــذم والــتهجين والإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان"(١)

وجــاء ــ الصوت ــ فى قوله " لصوت " مفرداً مع جمع " الحمير " وهو مضاف إليـــه للإشـــارة إلى قـــوة تشابه أصوات الحمير حتى كأنها صوت واحد هو أنكر الأصوات.

<u>قال العلامة الزمخشرى:</u>" فإن قلت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع ؟

قـــلت : ليـــس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وإنمـــا المراد أن كل جنس من الحيوانات الناطق له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده"(٢)

<u>هـــل قوله</u> :" إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير " من كلام الله أم من كلام لقمان؟
قيل إنه من كلام لقمان لابنه ، وقيل إنه من كلام الله تعالـــى .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، روح المعانى ٢١/ ٩٢ ، البحر ١٨٩/٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤ .

قال الألوسى :" والظاهر أن قوله تعالى ـ إن أنكر الأصوات لصوت الحمـير ـ مـن كلام لقمان لابنه تنفيراً له عن رفع الصوت ، وقيل : هو من كلام الله تعالى وانتهت وصية لقمان بقوله :" واغضض من صوتك " رد سبحانه وتعالى به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفعه مع أن ذلك يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذى هو داخل الأذن وبين عز وجل أن مثـلهم فى رفع أصواتهم مثل الحمير وأن مثل أصواتهم التى يرفعونها مثل نهاقها فى الشدة مع القبح الموحش وهذا الذى يليق أن يجعل وجه شبه لا الخلو عن ذكر الله تعالى كما يتوهم "(١)

وقـد جـاء قولـه تعالى :" إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " على هذا تمـثيلاً مؤكداً بإن أولاً وعزز هذا التأكيد باللام فصار الكلام خبراً إنكارياً ٠ كأن التمثيل أمر مبتوت فيه لا يتطرق إليه الشك ، فقد تدخل ـ إن ـ فى الجملة فترى الكـلام بهـا مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً موصولاً معاً ، واستخدامها على هذا الوجه يحتاج إلى تدبر ورويـة معاً

وقـد درس الإمـام عبد القاهر ـ رحمه الله ـ ذلك دراسة مستفيضة فى كتابه دلائل الإعجاز تحت ـ باب اللفظ والنظم ٠(٢)

---

(١) روح المعانى ٩٢/٢١ ، البحر المحيط ٧/ ١٨٩ ، التفسير الكبير ١٣/ ١٥٢ ٠

(٢) دلائل الإعجاز ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ، ٣١٥ ومابعدها ت الأستاذ محمود شاكر ٠

إسلام الوجــه لله مــن الإيمان :

٦ـ قــال تعــالى :" وَمَـن يُسلِم وَجهَهُ إلَى اللهِ وَهُوَ مُحسِنٌ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقَىٰ وَإلَى الله عاقِبَةُ الأُمُورِ"(١)

تحــليل الآيـــة : قوله :" ومن يسلم وجهه إلى الله " معطوف على ما سبق لبيان فســاد معــتقد هؤلاء المجادلين(٢) المتبعين سبل الغواية المقتفين أثر الشيطان فى شــخص آبــائهم ومن سبقهم على الضلالة والغواية ، وأن المعتقد السليم والمنهج السوى هو إسلام الوجه وإخلاصه لله تعالى .

ومعــنى قولــه :" ومن يسلم وجهه إلى الله " فوض إليه تعالى جميع أموره وأقبل عليه سبحانه بقلبه وقالبه ، فالإسلام كالتسليم التفويض ، والوجــه الذات ، والكلام كناية عن تسليم الأمور جميعها إليه تعالى والإقبال التام عليه عز وجل ، وقد يعدى الإسلام باللام قصداً لمعنى الإخلاص ، وعدى هنا بــ " إلى " ليكون معناه أنه سلم نفسه ، كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه ، والمراد التوكل عليه والتفويض إليه .

وقــــرأ على ــ كرم الله تعالى وجهه ــ والسلمى ، وعبد الله ابن مسلم بن يسار " يسلّم " بتشديد اللام من التسليم وهو أشهر فى معنى التفويض من الإسلام .

والتعــبير بالوجــه تعبير مجازى من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، وعبر عن الذات والنفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الإخلاص أو توجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شئ غيره .

(١) لقمان /٢٢ ، وفى البقرة " لا إكراه " إلخ ٢٥٦ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى :" ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم " لقمان /٢٠ .

وقولـــــه :" وهــو محســن " جملة حالية ، وعرف المسند إليه بضمير الغائب ، فالضمير " هو " سبق ما يدل عليه.

قال القرطــبى :" لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع"(١)

وقولـــه:" فقد استمسك بالعروة الوثقى" الفاء رابطة لجواب الشرط ، و" قد " حرف تحقيق ، وجاءت هنا لتحقيق الجواب وهو التمسك بحبل الله المتين لتحقيق الشرط وهــو إسلام الوجه لله ووقوع الإحسان و " استمسك " فعل ماض أى تمسك بحبل لا انقطاع له ، وتعلق بأومق ما يتعلق به من الأسباب .

وقــولــه :" فقــد استمســك بالعــروة الوثقى " تشبيه تمثيلى مركب حيث شبه حالُ المتوكل على الله عز وجل المفوض إليه أموره كلها ، المحسن فى أعماله . بحال مــن ترقى فى جبل شاهق أو تدلى منه فتمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون إنقطاعــه(٢) والوجه هو الهيئة الحاصلة من التفويض والتسليم والتعلق والإقبال ، وجاء حذف آداة التشبيه للمبالغة فى التفويض والتسليم والتعلــق.

قال الإمام الرازى : " أوثق العرى جانب الله لأن كل ماعداه هالك منقطع وهو باق لانقطاع له "(٣)

وقوله :" وإلى الله عاقبة الأمور " قصر بطريق تقديم ماحقه التأخير من باب قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً قصر إفراد ، والمعنى : أن الأمور صائرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦٩/١٤ .

(٢) الكشاف ٢٣٥/٣ ، روح المعانى ٩٥/٢٠ ، أبو السعود ٧٤/٧ .

(٣) التفسير الكبير ١٣ / ١٥٥ .

إليه عز وجل لا إلى غيره جل جلاله فلا يكون لأحد سواه جل وعلا تصرف فيها بأمـــر ونهى وثواب وعقاب فيجازى سبحانه هذا المتوكل أحسن الجزاء ، وقيل : فيجازى كلا من هذا المتوكل وذاك المجادل بما يليق به بمقتضى الحكمة"(١)

قـــال صـــاحب مفاتيح الغيب :" قوله ــ وإلى الله عاقبة الأمور ــ يعنى استمسك بعـــروة توصله إلى الله ، وكل شئ عاقبته إليه فإذا حصل فى الحال ما إليه عاقبته فعاقبته فى غايه الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه "(٢)

و ــ أل ــ فى ــ الأمور " للإستغراق ، وهو هنا يشمل كل الأمور فهو استغراق حقيـــقى ، والمعـــرف بـــ " أل " يفيد العموم والشمول ، وقيل : إنها تحتمل العهد عـــلى أن المـــراد من ذلك الأمور المذكورة من المجادلة ومابعدها ، وتقديم قوله "وإلى الله " للحصـــر ــ كما ذكرنا ــ رداً على الكفرة فى زعمهم مرجعية آلهتهم لـــبعض الأمور ، واختار البعضُ كونه إجلالاً للجلالة ورعاية للفاصلة ظناً منه أن الاستغراق مغـــن عن الحصر وهو ليس كذلك "(٣)

وإطلاق العاقبة يختص بالثواب ، وإذا أضيفت فإنها تستعمل فى العقوبـــــة .

وإسلام الوجه فى الآية : يعنى الاستسلام المطلق لله ــ مع إحسان العمل والسلوك الاستسلام بكامل معناه ، والطمأنينة لقدر الله والانصياع لأوامر الله وتكاليفـــــــه

(١) روح المعانى ٢٠ / ٩٥ .

(٢) التفسير الكبير ١٣/ ١٥٥ .

(٣) روح المعانى ٢٠ / ٩٥ ، ٩٦ .

وتوجيهاتــه مــع الشــعور بالثقة ، والاطمئنان للرحمة ، والاسترواح للرعاية ، والرضى الوجدانى ، رضى السكون والارتياح • كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله ، والوجــه أكرم وأعلى ما فى الإنسان ـــ فقد استمسك بالعروة الوثقى ـــ العــروة الــتى لا تــنقطع ولا تهــن ولاتخــون ممسكاً بها فى سراء أو ضراء ، ولا يضــل مــن يشــد عليها فى الطريق الوعر والليلة المظلمة بين العواصف والأنواء"(١)

غــزوة الخندق والمؤمنــون :

٧ـــ قــال تعــالى :" إِذ جَــاءُ وكمُ مِّن فَوقِكُم وَمِن أَسفَلَ مِنكمُ وإِذ زَاغَتِ الأَبصارُ وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا"(٢)

مـــراد الآيــة: هذه آية أخرى من آيات يذكر الله فيها المؤمنين بفرجــه وكرمه ونعمته عليهم فى غزوة الخندق وما اتصل بها فى أمر بنى قريظــة •

فقوله ، إذ جاءوكم من فوقكم ـــ أى اذكروا حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادى يعــنى مــن أعلاه قبل المشرق جاء منه عوف بن مالك فى بنى نصر ، وعيينة بن حصــن فى أهل نجد ، وطليحة بن خويلد الأسدى فى بنى أسد " ومن أسفل منكم " يعــنى مــن بطن الوادى من قبل المغرب جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكــة ، ويــزيد بن جحش على قريش ، وجاء أبو الأعور السلمى ومعه حي بن أخطب اليهودى فى يهود بنى قريظة مع عامر بن الطفيل من وجه الخندق ـــ وإذ زاغت الأبصار ـــ أى شخصت فلم تلتفت إلا إلى عدوها دهشاً من فرط الهول•

(١) فى ظلال القرآن ٢١ / ٢٧٩٣ •

(٢) الأحزاب /١٠ ، وفى غافر /١٧ " إذ القلوب لدى الحناجر "

ـ وبلغت القلوب الحناجر ـ أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلا قيم ، فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت ، وـ تظنون بالله الظنونا ـ ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون وظن المؤمنون أنهم ينصرون .

تحليل الآية بلاغياً : قوله تعالى :" إذ جاء وكم من فوقكم " بدل من " إذ جاءتكم " بدل كل من كل(١) ، وقيل : هو متعلق بـ " تعملون " أو بـ " بصيراً ".

وقوله :" من فوقكم " أى من أعلى الوادى من جهة المشرق ، والإضافة إليهم لأدنى ملابسة ، والجائى من ذلك بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وبنو قريظة وبنو النضير .

وقوله :" ومن أسفل منكم " معطوف على قوله " من فوقكم " من باب عطف الجملة على الجملة ووصلها بها ، والمراد من أسفل الوادى من قبل المغرب ، والجائى من ذلك قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبنى كنانة ، وأهل تهامة ، وقيل : إن ـ من فوق ـ ، و ـ من أسفل ـ كناية عن الإحاطة من جميع الجوانب . كأنه أريد : إذ جاءوكم محيطين بكم ، وقيل : هو بيان لشدة الأمر وغاية الخوف .

وقوله :" وإذ زاغت الأبصار " معطوف على ما سبق ، والمعنى مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً ، وقيل : عدلت عن كل شئ فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع ، وذلك كناية عن حالتهم التى كانوا فيها ، وقيل : شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة"(٢)

---

(١) هو البدل المطابق للمبدل منه المساوى له فى المعنى .

شرح ابن عقيل ٢/ ٢٢٧ ت الشيخ محي الدين عبد الحميد .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥٣ ، فتح القدير ٣٣٢/٤ .

وقوله :" وبلغت القلوب الحناجر " معطوف أيضاً على سوابقه داخل معه فى حكم الـتذكير ، والمعـنى : زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر، وقيـل : خافت خوفاً شديداً وفزعت فزعاً لا أنها تحركت عن موضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج.

قـال أبـو حيان : " وبلوغ القلوب الحناجر مبالغة فى اضطرابها وجيبها دون أن تنـتقل من مقرها إلى الحنجرة ، وقيل بحت القلوب من شدة الفزع فيتصل وجيبها بالحـنجرة فكأنها بلغتها وقيل يجد خشونة وقلبه يصعد علوا لينفصل فالبلوغ ليس حقيقة ومثله ــ إذ القلـوب لدى الحناجر"(١)

وفى قوله :" وبلغت القلوب الحناجر " استعارة تمثيلية حيث شبهت حالة القلوب فى خفقانهـا واضـطرابها ووجيبها بصورة شئ يضطرب ويتحرك حتى يترك مكانه ويفارقـه • فاسـتعير الـتركيب الـدال على المشبه به للمشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من الاضطراب والحركة والخفقان وعدم الاستقرار •

" وقيل : هو على طريق المبالغة المعهودة فى كلام العرب ، وإن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان ولا خرجت عن موضعها ، ولكنه تمثيل لا ضطرابها وجبنها"(٢)

قـال الإمام الفخـر : إن قوله :" ــ وبلغت القلوب الحناجر ــ كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء أن يتنفس ويموت من الخوف "(٣)

(١) البحر المحيط ٧/ ٢١٦ •

(٢) فتح القدير ٤/ ٣٣٢ •

(٣) التفسير الكبير ١٣ / ١٩٩ •

وقولـــه :" وتظـــنون بـــالله الظنونا " خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والأقدام وضـعاف القـلوب الذين هم على حرف ، والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم ، فظن الأولون بالله أن يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الأخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم "(١)

والتعـبير بالفعل المضارع " تظنون للدلالة على التجدد والحدوث حيث تجدد الظن مع طـول المـدة وكثرة الأحزاب دفعـة دفعة ، وشيئاً فشيئاً ، واستحضار لصورة الفزع والهلع والاضطراب ، مبالغة ، والمعنى : تظنون كل ظـن لأن عند الأمر العظيم لأنه يظن كل أحد شيئاً ، ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله .

و ــ الظـنون ــ جمع الظن وهو مصدر شامل للقليل والكثير ، وإنما جمع للدلالة على تعـدد أنواعـه ، أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة فيظن المخلصون منكم الثابتون فى ساحة الإيمان أن ينجز سبحانه وعده فى إعلاء دينه ونصره نبيه ــ صلى الله عـليه وسلم ــ كما يبين ذلك قوله تعالى : "هذا ما وعدنا الله ورسوله "(٢) الآية ، أو أن يمتحـنهم فيخـافوا أن تـزل أقدامهم فلا يتحملون مانزل بهم ، وهذا لاينافى الإخـلاص والثبات كما لا يخفى ، ويظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما حكى عنهم فى قوله تعالى :ــ وإذ يقول المنافقون(٣) ــ الآية"(٤)

وقـرئ " الظـنون " بغير ألف وهو القياس ، وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد فى القوافى .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٥٣ . (٢) الأحزاب /٢٢ . (٣) الأحزاب / ١٢ .

(٤) التفسير الكبير١٣/١٩٩ ، البحر المحيط ٧/٢١٧ ، الكشاف ٣/٢٥٣ ، أبو السعود ٧/ ٩٤ ، روح المعانى ٢١/ ١٥٧ .

صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومـــنْ معه من المؤمنين :

٨ـ **قـــال تعـــالى** :" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تـــراهم ركعـــاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السـجود ذلـــك مثـــلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجبُ الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً"(١)

تحليل الآيـــة بلاغياً : قوله تعالى :" محمد رسول الله " جملة استئنافية جاءت بياناً لقوله تعالى :" هو الذى أرسل رسوله"(٢) ، والمراد ـــ محمد رسول الله ـــ أى هو أوذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق ـــ محمد ـــ على أن الاسم الشريف ـــ صـــلى الله عـــليه وســـلم ـــ خبر مبتدأ محذوف وقوله " رسول الله " عطف بيان أونعت أو بدل • ومن معه من الصحابة ـــ رضى الله عنهم جميعاً ـــ ، وقرأ ابن عامر " رسول " بالنصب على المدح أى أمدح رسول الله ، وقوله :" والذين معه" مبتدأ خبره قوله : " أشداء على الكفار رحماء بينهم "•

وقولـــه :" محمد رسول الله "عرف فيه المسند إليه بالعلمية أى ذكره باسمه العلم وفى قوله كذلك "والذين معه " تعريف المسند إليه بالاسم الموصول للتعظيم والمدح **ويرى أبو حيان** ـــ رحمه الله ـــ أن الذى يظهرله هو أن قوله :" محمد رسول الله " مبتدأ وخبر"(٣) ، وعليه تكون الجملة مبينة للمشهود به ، أما على كونه صاحب

(١) الفتح / ٢٩ •

(٢) الفتح / ٢٨ •

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٠١ •

الرســالة فظاهر ، وأما على كونه محقق الوعد فقيل : لأن كينونى ماوعده لازمة لكونــه ــ عليه الصلاة والسلام ــ " رسول الله " إذ هو لا يوعد إلا بما هو محقق ولا يخبر إلا عن كل صدق"(١)

وقــرأ الحســن " أشــداء و ــ رحماء " بالنصب على المدح ، وقيل على الحال والعامل فيهما العامل فى " معه " بكون الخبر عن المبتدأ المتقدم ــ تراهم ــ"(٢)

والمراد بـــ " الذين معه " عند ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ من شهد الحديبية وقــال الجمهــور : جميع أصحاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ورضى الله عنهم جميعاً ــ ٠

وتعــريف المسند إليه بالموصل غرضه الإيماء والإشارة إلى معرفة الخبر بعده ، وذلــك أنا ننظر إلى الصلة " معه " فإنا نفهم منها فحوى الخبر الذى هو " أشداء " فجاء الخبر دالاً على حالتهم هذه٠

وقولــــه :" أشداء على الكفار رحماء بينهم " جمع شديد ، ورحيم ، والمعنى : أن فيهــم غــلظـــة وشـــدة على أعداء الدين ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين ، فوصـــف الشدة والرحمة وجد فى جميعهم ، أما فى المؤمنين فكما فى قوله تعالى: " أَذِلَّـــةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكافِرِينَ "(٣) ، وأما فى حق النبى ــ صلى الله عــليه وســلم ــ فكمــا فى قوله :" وَاغْلُظْ عَلَيْهِم"(٤) ، وقال فى حقه :" بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِـيمٌ"(٥)

(١) روح المعانى ١٢٣/٢٦ ٠

(٢) البحر المحيط ١٠٢/٨ ٠

(٣) المائدة / ٥٤ ٠ (٤) التحريم/٩ ٠ (٥) التوبة /١٢٨ ٠

وفى وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس. (١) فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لـــربما توهـــم أن مفهـــوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقاً فدفع بـــإرداف الوصـــف الثانى ، وقال ذلك أنهم مع كونهم أشداء على الأعداء رحماء على الإخوان "(٢)

وقـــد بلغ من تشددهم ــ رضى الله عنهم ــ على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيـــابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه .

ومن هنا ينبغى التأسي بهم ــ رضى الله عنهم ــ فى التشدد على أعداء الدين ، والرحمة على المؤمنين ، وفى الآية إشارة إلى أن الله تبارك وتعالى لايحب إلا من كمل إيمـــانهم ، وهـــم الذين اجتمع لهم هذان الوصفان : الشدة على الكفار، والذلة والرحمة للمؤمنين ، فهما وصفان متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وبين قوله :" أشداء على الكفار رحماء بينهم " طباق خفى ، وذلك بأن تكون الضدية فى الصورة متوهمة ، وفى هذه الصورة تكون المطابقة خفية لتعلق أحد الركنين بما يقابل الآخـــر تعلق السببية أو اللزوم . فالرحمة وإن لم تكن مقابلة للشدة ، ولكنها مسببة عن اللين الذى هو ضد الشدة"(٣)

---

(١) التكميل هو أن يتم الكلام فيلحق به ما يكمله إما مبالغة أو احترازاً ، أو احتياطاً: وقيل : هـــو أن يأخذ فى معنى فيذكره غير مشروح وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم غليه شارحـــاً ، والاحتراس هو أن يكون الكلام محتملاً لشئ بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال البرهان فـــى علوم القرآن ٣/٦٤ ، ٧٠ ، الفوائد المشوق /٨٩ ، ١٥٢ .

(٢) روح المعانى ٢٦ / ١٢٣ .

(٣) البديع فى ضوء أساليب القرآن /٢٨ د عبد الفتاح لاشين

وقوله :" تراهم ركعاً سجداً خبر ثالث لـ " الذين أو استئناف ، والرؤية بصرية ، والخطـاب لكـل من تتأتى منه الروية ، وعلى هذا قوله : " تراهم " لا يكون مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل يكون عاماً أخرج مخرج الخطاب تقديره أيها السامع كائناً من كان ، كما قلنا إن الواعظ يقول انتبه قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحداً بعينه"(١)

والتعبير بقوله " ركعاً سجداً " أريد به الصلاة على المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكـل ، وذلك لأن الجزء هنا أشرف الأجزاء فلا تعرفُ الصلاة إلا بهذين وهما أشهر أركانها ٠

والتعـبير بالفعل المضارع " تراهم " دليل على الاستمرار والتجدد فكلما شاهدتهم رأيتهم ركوعاً وسجوداً لمواظبتهم على الصلوات ففيها راحتهم وملاذهم وسكونهم رهبان بالليل فرسان بالنهار ٠

والاسـتمرار فى الفعل المضارع هنا استمرار عرفى ، وهذا دليل على كثرة ذلك منهم ٠

وقوله :" يبتغون فضلاً من الله ورضواناً " جملة مستأنفة كأنها جواب لسؤال نشأ عـن مواظبتهم على الركوع والسجود ٠ كأنه قيل : ماذا يريدون بذلك ؟ فقيل : " يبتغون " أو هى حال ثالثة من مفعول " تراهم " أو من الضمير المستتر فى قوله " ركعاً سجداً "٠

---

(١) التفسير الكبير ٢٨ / ١٠٨ ٠

والمراد من قوله :" يبتغون فضلاً من الله ورضواناً " أى يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضـــوانه٠ فوصفهم سبحانه بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهى خير الأعمال، ووصـــفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عنده بجزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول"(١)

<u>لماذا قـــيل :</u> فضلاً من الله " ولم يقل :ـــ أجراً من الله ـــ ؟ ٠

قـــال الإمام الفخر جواباً عن هذا:"وقوله تعالى ـــ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً لـــتمييز ركوعهـــم وســـجودهم عـــن ركوع الكفار وسجودهم ، وركوع المرائى وسجوده، فإنه لا يبتغى به ذلك ، وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال ـــ الراكعون الساجدون(٢) ـــ وعليه ـــ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله(٣) ـــ وقـــال الـــراكع يبتغى الفضل ، ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال لكم أجر كـــان ذلـــك منه تفضلاً ، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم ، لأن الأجـــرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك ، والمؤمن إذا قال أنا أبتغى فضلك يكون منه اعترافاً بالتقصير فقال ـــ يبتغون فضلاً من الله ـــ ولم يقل أجراً"(٤)

وقولـــــه :" ســـيماهم فى وجوههم من أثر السجود " مبتدأ خبره " فى وجوههم " وقوله :" من أثر السجود " حال ، والسيما والسيماء والسيمياء هى العلامـــــــة٠

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٤ ٠

(٢) التوبة / ١١٢ ٠

(٣) النساء / ١٧٣ ٠ (٤) التفسير الكبير ٢٨/ ١٠٨ ، ١٠٩ ٠

وقيـل : إن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى :" يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ"(١) ، وقال تعالى: " نُورُهُـمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ "(٢) ، والمعنى نورهم فى وجوههم بسبب توجههم نحو الحق ، وقيل : إن ذلك فى الدنيا ، والمراد ما يظهر فى الجباه بسبب كثرة السجود أو مايظهره الله تعالى فى وجوه الساجدين ليلاً من الحسن نهاراً"(٣)

وقيـل : إن قوله :" من أثر السجود " بيان لقوله :" سيماهم " والمعنى سيماهم التى هى أثـر السـجود ، وإضافة الأثر إلى السجود لأنه حادث من التأثير الذى يؤثره السـجود ، وشاع تفسير ذلك بما يحدث فى جبهة السجاد مما يشبه أثر الكى وثفنة الـبعير ، وكان كل من العليين على بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن عـباس أبى الأمـلاك ـ رضى الله عنهم جميعاً ـ يقال له ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدث فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير وهى مايقع على الأرض من أعضائه إذا غلظ"(٤)

قـال القرطـبى :" قولـه تعالى :ـ سيماهم ـ أى لا حت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر ، وعن مجاهد هو الخشوع والتواضع قال منصور: سألت مجاهداً عن قوله تعالى :ـ سيماهم فى وجوههم ـ أهو أثر يكون بين عينى الرجـل؟

---

(١) آل عمران / ١٠٦ .

(٢) التحريم / ٨ .

(٣) التفسير الكبير ٢٨/ ١٠٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٥٠ ، أبو السعود ٨/١١٤ ، روح المعانى ٢٦/ ١٢٥ .

قـــال لا ، ربمـــا يكـــون بيـــن عيـــنى الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلباً من **الحجارة،ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع،وقال ابن جريج:هو الوقار والبهاء**"(١)

وقوله :" ذلك " إشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته فى الفضل ، وقيل : البعد باعتـــبار المبـــتدأ أعـــنى " أشداء " ولو قيل هذا لتوهم أن المشار عليه هو النعت الأخير ــ أعنى ــ قوله :" سيماهم فى وجوههم من أثر السجود " وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :" مثلهم "(٢)

وقولـــــه :" مثـــلهم " خـــبر المبتدأ " ذلك " والمراد بـــ " مثلهم " وصفهم العجيب الشـــأن الجارى فى الغرابة مجرى الأمثال ، وقوله تعالى :" فى التوراة " حال من قـــوله : " مثلهم " والعامل معنى الإشارة ، والمعنى : ذلك وصفهم فى التوراة : الشـــدة عـــلى الكفـــار ، والرحمة بالمؤمنين ، وكثرة الصلاة والسجود • وقوله : "ومثـــلهم فى الإنجيـــل " معطـــوف على سابقه موصول به لتشريكه إياه فى حكم إعرابى واحد وكونهما جملتين خبريتين •

كأنـــه قيل : ذلك مثلهم فى التوراة والإنجيل ، وتكرار المثل فى " مثلهم و مثلهم" لتأكيد غرابة هذا المثل وزيادة تقرير تلك الغرابة فى النفوس •

قـــال أبـــو عبد الله القرطبى :" قوله تعالى : ـــ ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيـــل ــ قـــال الفراء فيه : إن شئت قلت المعنى : ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضاً كمثلهم فى القرآن فيكون الوقف على ـــ الإنجيل ـــ،وإن شئت قلت:

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٤٩ •

(٢) أبو السعود ٨/ ١١٤ ، ١١٥ ، روح المعانى ٢٦ / ١٢٦ •

تمـــام الكلام : ذلك مثلهم فى التوراة ثم ابتدأ فقال : ومثلهم فى الإنجيل ، وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل ، فيوقف عــلى هذا على " التوراة وقال مجاهد : هو مثل واحد ، يعنى أن هذه صفتهم فى الــتوراة ، والإنجيــل فــلا يوقــف عــلى ــ التوراة ــ على هذا ، ويوقف على ــ الإنجيل ــ ويبتدئ ــ كزرع أخرج شطأه ــ"(١)

وقوله :" كزرع أخرج شطأه " جملة مستأنفة أى هم ، أومثلهم كزرع إلخ

فــالوقف عــلى " الإنجيل " ــ كما قال مجاهد ــ ، وقيل : " مثلهم " الثانى مبتدأ، وقولــه تعالى:" كزرع " إلخ خبره فالوقف على " التوراة " ــ كما قال الضحاك ، وأبوحـــاتم وقــتادة ــ ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله تعالى : " كــزرع " إلــخ • كقوله تعالى :" وَقَضَينَا إِلَيهِ ذَلِكَ الأَمرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقطُوعٌ مُّصبِحِينَ"(٢) ، وعليه يكون فى الآية إطناب غرضه الإيضاح بعد الإبهام،ومفاده : أن يجئ المعنى فى صورتين مختلفتين •

إحداهمـــا مبهمة ، والأخرى موضحة• فيرى المعنى فى هاتين الصورتين فيتمكن فى الــنفس فضــل تمكــن لأنه إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس الســامع إلى معرفــته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى مايرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم"(٣)

فقولـــــه :" كزرع " ذكر مرتين مرة مجملاً فى قوله " كزرع " ومرة مفصلاً فى قوله : " أخرج شطأه فآزره " إلخ • ففى إبهامه وتفسيره تفخيم للزرع وتعظيم له•

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٥٠ .

(٢) الحجر /٦٦ • (٣) الإيضاح للخطيب ٣/ ١٩٦ ت د خفاجى•

وقولـــه :" أخرج شطأه " صفة للزرع ، والشطء فروخ الزرع وهو ماخرج " منه وتفرع فى شاطئيه أى فى جانبيه ، وجمعه أشطاء"(١)

والمعنى :ــ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج ــ فراخه وفروعه ، وقوله :

" فــآزره فاســتغلظ فاستوى على سوقه " جمل معطوفة بالفاء على قوله " أخرج شــطأه " وهى تفيــد التعقيب ، والمراد فقوى الزرع حتى صار غليظاً فقام على أصوله ، والضمير المرفوع فى " آزره للشطء ، والمنصوب للزرع أى فقوى ذلك الشطء الزرع ، وجعلوا كالزرع لأنه أول مايخرج يكون ضعيفاً وله نمو على حد الكمال ، فكذلك المؤمنون.

وقولـــــه :" فاستغلظ " أى فصار من الرقة إلى الغلظ ، وهو من باب ــ استنوق الجمل ــ كما قال طرفة بن العبد البكرى ؛ ويحتمل أن يراد المبالغة فى الغلظ كما فى قولــه " فَاسْتَعْصَمَ"(٢) ونحوه ، وأوثر الأول لأن المساق ينبئ عن التدرج"(٣)

وفى قولـــــه :" كزرع أخرج شطأه " إلخ تشبيه تمثيلى : شبهت حال الرسول ــ صــلى الله عــليه وســلم ــ والذين آمنوا معه فى شدتهم ورحمتهم وفى ركوعهم وسجودهم ، وكانوا ضعافاً فقووا . بحال الزرع الذى يخرج ضعيفاً ثم ينمو ويشتد ويكبر ، والوجه الهيئة الحالصة من النمو والازدهار والقوة فوجه الشبه منتزع من متعدد .

---

(١) المفردات ٢٦١ مادة شطا.

(٢) يوسف /٣٢ .

(٣) روح المعانى ٢٦/ ١٢٧ .

قـال العلامـــة الزمخشرى : " هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الـزيارة إلى أن قوى واستحكم لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام وحده ثم قـواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع مايحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع"(١)

ويوضـح صـاحب ـ الجامع لأحكام القرآن ـ هذا التمثيل توضحياً دقيقاً فيقول: " وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى أنهم يكونـون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره .

كالـزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال يغلظ نباته وأفراخه فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان"(٢)

وقولـــه :" يعجب الزراع " جملة حالية ، والمعنى معجباً لهم وخصهم الله تعالى بالذكـر لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم ، وهنا تم المثل ، وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة ـ رضى الله عنهم ـ قـلوا فى بـدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً كالزرع القوى أعجب الناس بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره"(٣)

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٥٠ .

(٣) روح المعانى ٢٦/ ١٢٧ ، أبو السعود ٨/ ١١٥ .

وقوله :" ليغيظ بهم الكفار " تعليل لما يفصح عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجه الذى تضمنه التمثيل ، وظاهر كلام بعض المفسرين : أنه علة للتمثيل وليس بـذاك ، وقيل : هو تعليل لما بعده من قوله تعالى :" وعد الله الذين آمنوا " إلخ ، وذلـك لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله تعالى للمؤمنين فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك.

قال صاحب الكشاف :" فإن قلت : قوله " ليغيظ بهم الكفار " تعليل لماذا ؟

قلت : لما دل عليه تشبيههم بالزرع عن نمائهم وترقيهم فى الزيادة والقوة ، ويجوز أن يعلل به ــ وعد الله الذين آمنوا ــ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم فى الآخرة مع ما يعزهم به فى الدنيا غاظهم ذلك"(١)

وقوله :" وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً" تذييل رائع لبيان جزاء هؤلاء الموصوفين بما سبق ذكره . أى وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهم المؤمنون الذين صلحت أعمالهم . الثواب الدائم الذى لاينقطع وهو الجنة لاستحقاقهم من قبل الله ذلك . فوعدهم الله بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم فى جنة النعيم .

و" من " فى قوله " منهم " للبيان ، والضمير فيها لمن عادت عليه كل الضمائر السابقة.

وتأخير " منْ " هنا عن قوله " عملوا الصالحات " ، وتقديمها فى قوله : "منكم" فى قول الله تعالى :" وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالحاتِ"(٢)

(١) الكشاف ٣/ ٥٥١ .

(٢) سورة النور / ٥٥ .

فى سورة النور . لأن عمل الصالحات لاينفك عنهم ولايفارقهم بل هو صفة لازمة لهـم، وفى سورة النور لبيان الخلفاء والعمل الصالح ليس موقوفاً عليه لاستمرار صحة خلافتهم حتى لاينعزلوا بالفسق"(١)

قـال الإمـام الفخر :" وقال تعالى ـ أجراً ـ ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل، وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجراً يعتد ، فقال لا أبتغى إلا فضلك . فإن عملى نزر لا يكون له أجر ، والله تعالى آتاه ماآتاه من الفضل وسماه ـ أجراً ـ إشارة إلى قبول عمله ، ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزراً لا يستحق عليه المؤمن أجراً ، وقوله : ـ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ لبيان ترتب المغفـرة على الإيمان فإن كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى:ـ إِنَّ الله لَايَغْفِر أَن يُشْرَكَ بِـــهِ وَيَغْفِــــرُ مَـــادُونَ ذَلِـــكَ لِمَـــن يَشَـــاءُ(١) ـ والأجـر العظيم على العمل الصالح"(٢) .رزقنا الله محبة رسوله وصحبه الكرام ـ عليه السلام ورضى الله عنهم ـ

احترام الرسـول من الإيمان :

٩ـ قـال تعـالى :" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَاتُقَدِّمُواْ بَينَ يدى اللهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "(٣)

تحـليل الآيـة بلاغيـاً : قولـه :" ياأيها الذين آمنوا " صدر فيه الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن مافى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم ، والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به "(٤)

(١) النساء/٤٨، ١١٦ . (٢) التفسير الكبير٢٨ / ١١٠ (٣) الحجرات /١ .
(٤) أبو السعود ٨/ ١١٥ ، روح المعانى ٢٦ / ١٣١ .

والمراد : يأيها المؤمنون ، يامن اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بكتاب الله ، لا تقدموا أمراً أوفعلاً بين يدى الله ورسوله ٠

وقولـــه :" لا تقدموا إما من قدم المتعدى ، والمراد به جعل الشئ قادماً أى متقدماً عـــلى غيره ، وحذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه مـــن قول أو فعل كما لوعرضت مسألة فى مجلسه ــ صلى الله عليه وســـــلم ــ لايســـبقونه بـــالجواب ، وإذا حضر الطعام لايبتدئون بالأكل ، وإذا ذهبوا معه إلى مكـــان لايمشون أمامه ٠ وإما أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول كما نقول ــ فلان يعطى ويمنع٠

أو هـــو لازم فإن ــ قدم ــ بمعنى ــ تقدم كبين فإنه متعدٍ ويكون لازماً بمعنى ــ تبين"(١)

قـــال أبـــو السعود ــ رحمه الله ــ:" ــ لا تقدموا ــ لاتفعلوا التقديم على أن ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور على طريقة قولهـــم : فـــلان يعطى ويمنع ــ أى يفعل الإعطاء والمنع ، أولا تقدموا أمراً من الأمور على أن حذف المفعول للقصد إلى تعميمه والأول أوفى بحق المقام لإفادته الـــنهى عـــن التلـــبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعولـــــه بالطـــريق الـــبرهانى، وقد جوز أن يكون التقديم بمعنى التقدم ، ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرأ ــ لاتقدموا ــ بحذف إحدى التاءين من ــ تتقدموا ــ وقرئ ــ لاتقدموا ــ من القدوم"(٢)

(١) محاسن التأويل ١٥/١٠٦ ، دلائل الإعجاز /١٥٤ ت الأستاذ محمود شاكر ، تفسير المراغـــى ٢٦ / ١٢١ ٠ (٢) أبو السعود ٨/ ١١٥ ، ١١٦ ٠

وقولــه :" بين يدى الله ورسوله " استعارة تمثيلية شبهت حال تعجل الصحابة فى إبـــداء الرأى وقطع الأمر ، وإقدامهم على البت فى الحكم على أمر من الأمور الدينية فى حضرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحال ملك عظيم تقدم للسير أمامــه بعــض الناس ، وكان الأدب يقضى أن يسيروا خلفه لا أمامه. فاستعيرت الهيــئة الدالة على المشبه به للمشبه تصويراً لهجنته وشناعته بصورة المحسوس المشــاهد ، والجامع الهيئة الحاصلة من التعجل والتقدم والبت فى الأحكام ، وفيه أيضاً مجاز مرسل لعلاقة المجاورة بإطلاق اليدين على مايجاورهما ويحاذيهما.

قــال العلامــة الزمخشرى:" وحقيقة قوله ــ جلست بين يدى فلان أن يجلس بين الجهــتين المســامتتين ليمينه وشماله قريباً منه فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً كما يسمى الشئ باسم غيره إذا جاوره وداناه فى غيــر موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز وهو الــذى يســميه أهــل الــبيان تمثيلاً ، ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست فى الكلام العــريان، وهى تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمــور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، والمعنى : أن لاتقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحى المنزل ، وإما مقتدين برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعليه يدور تفسير ابن عباس ــ رضى الله عنهما "(١)

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

والتقدم بين يدى المرء خروج عن صفة المتابعة حسا فهو أوفق للاستعارة التمثيلية المقصـــود مـــنها تصوير هجنة الحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته بصورة المحســـوس، وتعدية الفعل تفيد أن ذلك بجعل وقصد منه للمخالفة لأن التقديم بين يدى المرء أن تجعل أحداً إما نفسك أو غيرك متقدماً بين يديه وذلك أقوى فى الذم وأكثر استجهاناً للدلالة على تعمد عدم المتابعة لاصدورها عنه كيفما اتفق"(١)

وقيل : يجوز أن يكون قوله :" بين يدى الله ورسوله " من باب المجاز العقلى على نحو ــ أعجبنى زيد وكرمه ــ من باب الإسناد فى النسب الإضافية • فالنهى عن الـــتقدم بيـــن يـــدى الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فكأنه قيل : لا تقدموا بين رسول الله ، وذكر ــ الله تعالى ــ لتعظيمه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ولبيان قوة اختصاصـــه به تعالى ومنزلته منه تمهيداً وتوطئة لما بعده ، والإيذان بجلالة محله عند الله عز وجل ، ومزيد اختصاصه به سبحانه وتعالى ، وقد أيد هذا بأن مساق الكلام الكلام لإجلا له ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

" وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص ، ولما كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الله بالمكان الذى لايخفى سلك به ذلك المسلك"(٢)

والكـــلام فى الآية مسوق لإجلاله ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، وإذا كان استحقاق هـــذا الإجـــلال لاختصاصه بالله عز وجل ومنزلته منه سبحانه فالتقدم بين الله عز شأنه أدخل فى النهى وأدخل •

(١) روح المعانى ٢٦/ ١٣٢ ، محاسن التأويل ١٥ ، ١٠٦ ،حاشية الجمل ٤/ ١٧٣ •

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٣ •

وقولـــــه :" واتقــوا الله " جملة قصد بها الأمر بالتقوى إذ هى جانب من جوانب الأخـــلاق الكـــريمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمن فترشده إلى كل خير ، وهو أســلوب حـــث وتنبيه للمؤمن ، والمراد : اتقوا الله فيما أمركم به ، واتقوه فى كل ماتـــأتون وتذرون من الأقوال والأفعال التى من جملتها عدم التقدم بالفعل والأمر بين يدى الله ورسوله ·

والأمـــر بالـــتقوى على أثر ما تقدم بمنزلة قولنا للمقارف بعض الرذائل : لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق العار بك فتنهاه أولاً عن عين ماقارفه ثم تعم وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب فى طريقها ويتعلق بسببها ·

وقولـــــه :" إن الله سميع عليم" جملة تعليلية توكيدية اسمية دالة على ثبوت السمع والعـــلم واســـتمراره لـــرب العزة والجلال · فهو سميع لأقوالكم · عليم بنياتكم وأحوالكـــم ، وهـــو ــ عليم ــ بكل المعلومات ، ومنها أفعالكم فمن حقه أن يتقى ويـــراقب ، وإظهار الاسم الجليل ــ الله ــ وحقه الإضمار لتربية المهابة والروعة فى الـــنفوس ، وقـــد دعت الآية التى بين أيدينا إلى وجوب الطاعة وتمام الانقياد والامتـــثال لأوامر الله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعدم التقدم عليه بقول أورأى ·

قيل : نزلت فى أبى بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ فى تأمير الأقرع بن حابس أو القعقـــاع بن معبد ، حيث أراد أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ تأمير القعقاع ابن معـــبد ، وأراد عمـــر ــ رضى الله عنه ــ تأمير الأقرع بن حابس فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت هذه الآية"(١)

(١) أسباب النزول للواحدى / ٢٨٧ ·

اجتناب الظـن من الإيمان :

١٠ ـ قـال تعالى :" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحمَ أَخِيهِ مَيتاً فَكَرِهتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ"(١)

تحليل الآيــة :" قوله تعالى :" ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا " جملة مبنية على أسلوب الأمر والنداء للتعليم والتربية وتهذيب الأخلاق والحث على ذلك ، وتكرار قوله : "ياأيها الذين آمنوا " لفائدة بلاغية لطيفة وهى إظهار الشفقة على المسترشد وإبداء النصـح له عـلى أكـد وجـه ليقـبل على استماع الكلام ويغيره باله ، ولتجديد المخاطـبين بـالذات ، وأنهـم هم المعنيون بالنصح ، وفيه أيضاً استدعاء لتجديد الاستبصار والتيقظ والتنبه عند كل خطاب .

والتعـبير بـ " اجتنبوا " دون ـ ابتعدوا ـ مثلاً دليل على شدة التباعد عن هذه الخصلة المذمومة ، إذ أصل الاجتناب أن يكون على جانب منه ثم شاع فى التباعد اللازم له .

ومجئ المسند " كثيراً " نكرة لإفادة معنى البعضية للإيذان بأن فى الظنون ما يجب أن يجتـنب مـن غير تبيين لذلك ولاتعيين لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد تأمل وبعـد نظر وتمحيص واستشعار للتقوى والحذر من أن يكون الظن طائش السهم بعيداً عن الإصابة ، وما أكثر الذين تسول لهم ظنونهم ما ليس واقعاً ولا يستند إلى شئ من اليقين ، وعبر بالكثير ليحتاط الإنسان فى كل ظن ولايسارع فيه بل يتأمل ويتحقق .

---

(١) الحجرات /١٢ .

قـال العلامـة الزمخشـرى:" والمـأمور باجتنابه هو بعض الظن وذلك البعض موصـوف بالكـثرة ، ألا ترى إلى قوله ــ إن بعض الظن إثم ــ فإن قلت : بين الفصـل بين ــ كثير ــ حيث جاء نكرة وبينه لو جاء معرفة • قلت : مجيئه نكرة يفيد معنى البعيضية ، وأن فى الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولاتعيين لـئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة مع استشـعار للـتقوى والحذر ، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكثر فيه دون مـا يقـل ، ووجب أن يكون كل ظـن متصف بالكثرة مجتنباً ، وما اتصف منه بالقلـة مرخصاً فى تظننه ، والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها أن كل مـا لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتنباب ، وذلك إذا كـان المظنون به مما شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانة فى الظاهر فظن الفسـاد والخيانـة به محرم ، بخلاف من أشتهر بين الناس بتعاطى الريب والمحاهرة بالخبائث"(١)

وقولـــه :" إن بعـض الظـن إثم " جملة تعليلية للأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاسـتئناف الـتحقيقى ــ البيانى(٢) ــ ، و ــ الظن ــ هنا هو التهمة ، ومحل التحذير والنهى إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ، ولم يظهـر عـليه مايقتضـى ذلك ، ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى :" ولا تجسسوا " وذلك أنه قد يقع له خاطر التنهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصر ويستمع لتحقيق ماوقع له من تلك التهمة"(٣)

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٧ .

(٢) ماكانت فيه الجملة الثانية جوابا عن سؤال فى الجملة الأولى •

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

و ــ الإثــم ــ الذنــب الذى يستحق العقوبة عليه ، ومنه قيل لعقوبته الآثام فعال كالنكال والعذاب والوبال ٠

وقولـــــه :" ولاتجسسوا " أسلوب إنشائى طريقه النهى مفاده الكف عن هذا الفعل المشـــين ، والغــرض منه الإرشاد إلى الابتعاد عن البحث فى عورات المسلمين واتـــباع معايـــبهم ، والتجســـس تفعل من الجس باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالـــلمس فإن من يطلب الشئ يجسه ويلمسه فأريد به مايلزمه ، واستعمال التفعل للمبالغة كناية عن البحث والطلب ٠

وقـــرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين " ولا تحسسوا " بالحاء من الحس الذى هو أثـــر الجـــس وغايـــته ، وقيل هما متحدان ومعناهما واحد وهو معرفة الأخبار ، والمـــراد الـــنهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه ، وعن مجاهد قال : خذوا ما ظهر ودعوا ماستره الله ، وقيل : التجسس بالجيم تتبع الظواهـــر ، وبالحاء تتبع البواطن ، وقيل : الأول أن تفحص بغيرك ، والثانى أن تفحص بنفسك"(١)

وأخرج أبو داود والترمذى والإمام أحمد عن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ :" يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغـــتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ٠ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته"(٢)

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٨ ، أبو السعود ٨/ ١٢٢ ، روح المعانى ٢٦ / ١٥٧ ٠

(٢) سنن أبى داود ٤/٢٧٠ حديث / ٢٨٨٠ ، صحيح الترمذى ٨/ ١٨٥ حديث / ٢٠٣٧ بألفاظ مختلفة ، مسند الإمام أحمد ٥/٥٧٩ برقم باب ٤ / ٤٢١ حديث / ٤٢٤ ٠

وقوله :" ولا يغتب بعضكم بعضاً " جملة معطوفة على قوله " ولا تجسسوا " مراد بها النهى أيضاً وهو النهى هنا عن الاغتياب وهو ذكر السوء فى الإنسان والمراد لايذكر بعضكم بعضاً بما يكره فى غيبته٠

روى الإمـــام مســلم وغيـــره عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ قال :" أتدرون ما الغيبة ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم قـــال : " ذكــرك أخـــاك بما يكره " قيل : أفرايت إن كان فى أخى ما أقول ؟ ٠ قال : " إن كان فيه ما تقول ، فقد أغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته"(١)

قـــال أبو عبد الله القرطبى :" يقال : اغتابه اغتياباً إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة وهى ذكـــر الغيب بظهر الغيب ٠ قال الحسن : الغيبة ثلاثة أو جه كلها فى كتاب الله تعالى : الغيـــبة والإفك والبهتان فأما الغيبة فهو أن تقول فى أخيك ما هو فيه ، وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتان فأن تقول فيه ماليس فيه"(٢)

والمـــراد بالذكـــر الذكـــر صـــريحاً أو كناية ويدخل فى الذكر الكنائى الرمز والإشارة ونحوهما إذا أدت مؤدى النطق ٠ فإن علة النهى عن الغيبة الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغـــتاب وهـــو موجود حيث أفهمت الغير مايكرهه المغتاب بأى وجه كان من طرق الإفهام ،وهى بالفعل كان تمشى مشية أعظم الأنواع ــ كما قاله الغزالى ــ والمراد بما يكـــره أعم من أن يكون فى دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده وزوجته أو مملوكه أوخادمه أو لباسه أو غير ذلك بما يتعلق به"(٣)

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠٠١ حديث /٢٥٨٩ ، سنن الدارمى ٢/٢٩٩ ، صحـــــيح الترمذى ٨/١٢٠ حديث / ١٩٣٩ ،مسند الإمام أحمد ٣/٨٦ باب ٢/ ٣٨٤، سنن أبى داود ٤/ ٢٦٩ باب٤/٤٨١

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٨٦ ٠

(٣) روح المعانى ٢٦/ ١٥٨ ٠

وقولـــه :" أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً " استعارة تمثيلية رائعة حيث شبه حـــال المغـــتاب غيره فيتناول عرضه ويذكره بما يكره مع الكراهية الحاصلة من ذلك • بحال الكراهية الحاصلة من أكل لحم الأخ الميت •

فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من التنفير من هذه الخصلة المشينة وهى الغيبة ، والقرينة عقلية وهى استحالة أكل لحم الأخ حقيقـــة •

قـــال العلامـــة الزمخشـــرى :" قوله ــ أيحب أحدكم ــ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى: منها الاســتفهام الذى معناه التقرير ، ومنها جعل ماهو فى الغاية من الكراهة موصولاً بالمحـــبة ، ومـــنها إســـناد الفعل إلى ــ أحدكم ــ والإشعار بأن أحداً من الأحدين لايحـــب ذلـــك ، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعـــل الإنسان أخاً ، ومنها إن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ــ ميتا ــ وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهـــو حى ، وانتصـــب ــ ميتاً ــ على الحال من اللحم ، ويجوز أن ينتصب عن الأخ ، وقرئ ــ ميتاً ــ بالتشديد"(١)

وقـــد جعـــل ابـــن الأثير فى كتابه " المثل السائر " هذه الآية من قبيل الكناية مع مجيئها من باب اللفظ المركب تمثيلاً إذ يقول :" فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان

(١) الكشاف٥٦٨/٣ ، جامع البيان للطبرى ٨٧/٢٦ ، تفسير الخازن٢٢٨/٦ ، محاسن التأويـــل ١٥ / ١٣٣ .

لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ـ ميتاً ـ ثم جعل ماهو فى الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فهذه أربع دلالات واقعة على ماقصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله ، فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هى ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة ، وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها"(١)

ثم يستطرد كلامه قائلا :" ولما كانت ـ الغيبة ـ كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لايكون مثل كراهته لحم أخيه ، فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة ، وأما جعل اللحم ـ ميتاً ـ فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولايحس بها ، وأما جعله ماهو فى الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها مع العلم بقبحها ، فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له"(٢)

وأرى أن الذى دفعه إلى جعل الآية من باب الكناية أن الكناية فى تعريف البلاغيين لها ـ لفظ تجاذبه جانبا الحقيقة والمجاز ـ ففيها جانب مجازى فحملت عنده على هذا الجانب مع جعلها تمثيلاً. أى ماجاءت فيه الكناية من قبيل التمثيل.

(١) المثل السائر ٢/ ١٩١ .

(٢) السابق نفسه.

وعلى منهج ابن الأثير السابق فى جعل الآية من قبيل الكناية سار العلوى صاحب الطـــراز حيث جعل الآية من النوع الأول من شواهد الكناية حيث سرد لها شواهد مـــتعددة من القرآن والسنة ، وكلام الإمام على ـــ رضى الله عنه ـــ وكلام البلغاء وشعر الشعرا"(١)

وجـــاء التعبير بـــ " يحب " دون ـــ يريد ـــ لأن النفوس جبلت عليه ، والأهواء قد مـــالت إليـــه ، والإسراع إلى الغيبة ، والإصغاء إلى المتحدث بها مع مافيها من الحظـــر ووعيـــد الشـــرع ولهذا صدرت الآية بالمحبة ، ولم يأت بلفظ الإرادة مع الدلالـــة على موقعها فى النفوس وتطلع الخواطر إليها ، ولفظ الإرادة يعطى هذا المعنى ، ولايتمكن فى القلوب والأفئدة تمكن المحبة فلهذا اختيرت"(٢)

وإســـناد فعـــل " يحب " إلى الفاعل ـــ أحد ـــ للتعميم وتعليق المحبة بما هو غاية الكـــراهة. وهـــذا تشـــنيع على الغيبة وازدراء وتنديد بأهلها أنهم أسوأ من أخس الحيوانـــات موقفاً وأنزلهم منزلة أنهم يأكلون لحم إخوانهم ، والحيوانات تعاف أن يأكل الجنس لحم جنسه ، وليس هذا وحسب بل إنهم ليأكلون هذا اللحم ميتاً متعفنا وكـــثير مـــن الحيوانات ـــ كالأسود مثلاً تعاف أكل الميتة ولو ماتت جوعا .فهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمغتاب"(٣)

---

(١) الطراز ١/٤٠٠ ـــ ٤٠٣ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) التفسير القرآنى ٢٦/ ٤٥١ .

والسر فى إضافة اللحم للأخ أمران : أولاً أن التحريم إنما وقع فى غيبة المسلمين وأهــل الديانة دون غيرهم فلا حرمة له من كافر ولا فاسق ، ولاشك أن المؤمنين إخــوة بــنص القــرآن ، ومــن هنا أشار إليه بقوله :" لحم أخيه "٠ ثانياً فإن أكل الإنسان لحم الأجنبى يكون مستكرهاً خبيثاً ، فضلاً عن كونه أخاله٠

فلا شك أن التحريم أو قع ، والغيبة فيه أعظم من غيره ، ومن هنا ورد على سبيل المبالغة فى المعنى"(١)

وقوله تعالى :" لحم أخيه " آكد فى المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم عدوه"(٢) ٠ كما فعلت أم جميل مع كبد حمزه ـــ رضى الله عنه ـــ٠

وفى هذا من التنفير عن الغيبة ، والتوبيخ لها ولفاعلها والتشنيع عليه مالا يخفى٠

وقوله تعالى :" ميتا " إشارة إلى دفع وهم ، وهو أن يقال : القول فى الوجه يؤلم فيحــرم ، وأمــا الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فقال أكل لحم الأخ وهــو ميت أيضاً لايؤلم ، ومع هذا هو فى غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كمــا أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ، وفيه معنى : وهو أن الاغتياب كأكل لحــم الآدمى ميــتاً ، ولايحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة ، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الأدمى الميت فلا يأكل لحم الأدمىِّ، فكذلك المغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب"(٣)

---

(١) الطراز ١/ ٤٠١ ٠

(٢) حاشية الجمل ٤/ ١٨٥ ٠

(٣) التفسير الكبير ١٣٦/٢٨ ، حاشية الجمل ٤/ ١٨٥ ٠

قولـــــه :" فكرهتموه " تعقيب على قوله :" أيحب أحدكم " إلخ حملاً على الإقرار وتحقيقـــاً لعــدم محــبة ذلـــك أو لمحبته التى لا ينبغى مثلها ، والفاء فى قوله :" فكرهـــتموه" فصيحة(١) لترتيب مابعدها على ماقبلها من التمثيل كأنه قيل : وحيث كـــان الأمـــر ــ كمـــا ذكر ــ فقد كرهتموه ، وهى واقعة فى جواب شرط مقدر فأفصـــحت عـــنه والمعنى : إن صح ذلك ، أوعرض عليكم هذا فقد كرهتموه فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه ــ قد ليصح دخول الفاء على الجواب الماضـــى ، وضمير " فكرهتموه " للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه ، والمعـــنى : فاكـــرهوه كراهيتكم لذلك الأكل ، وعبر عنه بالماضى للمبالغة ، فإذا أول بمـــا ذكـــر يكـــون إنشـــائياً غيـــر محتاج لتقدير ــ قد ــ "(٢) وعلى تقدير ــ فاكرهوه ــ يكون لفظه الخبر ومعناه الأمر وهذا وازد كثير ولا حرج فيه .

لماذا بدأت الآية بالمحبة وختمت بالكراهـــة ؟

بـــدأ الله ســبحانه وتعـــالى الآيـــة بقولـــه :" أيحب أحدكم " وختمها بقوله : "فكرهـــتموه" تنبيهاً على كونها محتوشة بطرفين نقيضين متضادين ، فلأجل تمكنها فى القـــلوب وميـــل الخواطـــر إلى ملابستها وفعلها فهى محبوبة ، ولأجل كونها بمـــنزلة أكـــل لحـــوم الإخوة الأموات مكروهة فمن هنا بدأها وختمها لما ذكرنا ، وقرئ " فكرهتموه " بضم الكاف وتشديد الراء أى جبلتم على كراهته.

(١) أى فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه . فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ماهو نظيره من الغيبة والطعن فى أعـــراض المسلمين .

(٢) جامع البيان للطبرى ٨٧/٢٦، محاسن التأويل ١٣٣/١٥، تفسير الخازن ٢٢٨/٦، تفســـير المراغى ١٤٠/٢٦ .

وقوله تعالى :" واتقوا الله " عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهى أى : اجتنبوا واتقـوا ، وقيل : معطوف على محذوف كأنه قيل : امتثلوا ما قيل لكم واتقوا الله تعـالى • وقوله :" إن الله تواب رحيم " تعليل للأمر لأنه تعالى ـ تواب رحيم ـ لمـن اتـقى واجتنب مانهى عنه وتاب مما فرط منه ، و " تواب " مبالغ فى قبول الـتوبة ، والمـبالغة إمـا باعتبار الكيف إذ يجعل سبحانه التائب كمن لم يذنب أو باعتبار الكم لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم • فقوله :" إن الله تواب رحيم " إشارة إلى أن المبالغة فى " تواب " للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده أو لأنـه مـامن ذنـب يقترفه إلا كان معفوا عنه بالتوبة ، أو لأنه لما بولغ فى قبول الـتوبة نـزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمة ، والمعنى : واتقوا الله بـترك مـا أمرتم باجتنابه والندم على ماوجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين"(١)

<u>قال الشيخ أبو حيان :</u>" وما أحسن ما جاء الترتيب فى هذه الآية •
جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التى لاتؤدى إلى العلم وهو الظن ثم نهى ثانياً عن طـلب تحقـق ذلك الظن فيصير علماً بقوله " ولا تجسسوا " ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم فهذه أمور ثلاثة مترتبة ظـن فعلم بالتجسس فاغتياب"(٢)

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٩ ، حاشية الجمل ٤/ ١٨٥
(٢) البحر المحيط ٨/ ١١٥

وقــد خــتم الله تعالى كلا من الآيتين :" يَا أيهَا الَّذِينَ آمنُواْ لَا يَسخَر قَومٌ مِّن قَــومٍ"(١) الآية • ختمها بقوله :" ومن لم يتب " و " ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً مــن الظــن " الآيــة • ختمها بقوله :" إن الله تواب رحيم " • بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفاً عليهم لكن لما بدئت الأولى بالنهى ختمت بالنفى فى " ومن لم يتب " لتقاربهما ، ولما بدئت الثانية بالأمر فى " اجتنبوا " ختمت به فى " فاتقوا الله " إلخ وكان حكمة ذكر التهديد الشديد فى الأولى فقط بقوله تعالى : " ومن لم يتب " إلخ أن مــا فيهــا أفحش لأنه إيذاء فى الحضرة بالسخرية أو اللمز أو النبذ بخلافه فى الآية الثانية فإنه أمر خفى إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضى الإخفاء وعدم العلم به غالبا " (٢)

امتنان الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم : ـ

١ـ <u>قال تعالى</u> : " ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك " (٣)

<u>تحـليل الآيتين</u> : جاءت هاتان الآيتان فى معرض الامتنان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتذكيره بفضل الله تعالى عليه بما لم ينله أحد ممن سبقه •

وقولـــــه : " ووضعنا " معطوف على ما أشير إليه من مدلول الجملة السابقة كأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك ووضعنا إلخ

وقولـــــه : " عــنك " جار ومجرور متعلق بــ " ووضعنا " قدم على المفعول الصريــح لغرض بلاغى هو <u>القصد إلى تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر</u> ،

(١) الحجرات / ١١

(٢) روح المعانى ٢٦/ ١٦١

(٣) الشرح /٢.٣

ولأن فى وصفه نوع طول ٠ فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم ،و_ الوزر_ الحمل الثقيل والمعنى:وحططنا عنك حملك الثقيل " (١)

وإســناد الفعل _ وضع _ إلى ضمير العظمة _ نا _ للإيذان بعظمته وجلالة قدره ٠

<u>قـــال المفســرون</u> : المراد بالوزر الأمور التى فعلها _ صلى الله عليه وسلم _ ووضـــعها عنه هو غفرانها له كقوله تعالى : " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " (٢) ، وليس المراد بالذنوب المعاصى والآثام ، فإن الرسل معصومون من مفارقـــة الجـــرائم ، ولكن ما فعله _ عليه السلام _ عن اجتهاد وعوتب عليه ٠ كإذنـــه _ صلى الله عليه وسلم _ للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حين اعتذروا ، وأخذه الفداء من أسرى بدر ، وعبسه فى وجه الأعمى ونحو ذلك ، وإنما وصفت ذنـــوب الأنبياء بالثقل ، وهى صغائر مغفورة لهم ٠ لهمهم بها وتحسرهم عليها ، فهى ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله " (٣) ٠

وقولـــــه : " ووضـــعنا عنك وزرك " استعارة تمثيلية : شبه حاله وهو ينوء تحت ما يتخيله وزرا وليس بوزر أو شبه الذنوب التى يعتقدها هكذا بحال من آداه الحمل الثقيل وبرح به الجهـــد وكلله العرق والحر اللافـــح فهو يمشى مجهـــودا

---

(١) أبو السعود ٩/ ١٧٢ ، روح المعانى ٣٠/ ١٦٨

(٢) الفتح / ٢

(٣) التسهيل فى علوم التنزيل ٤/ ٢٠٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٨

مكـــدورا يكـــاد يســـقط مـــن ثقل ما ينوء بحمله حتى إذا انحط عنه الحمل تنفس الصـــعداء وانزاحت عنه الكروب والأهوال بجامع أن كلا منهما مجهود مكروب ممـــا يجمل يتبرم به ويتذمر منه ويرجو أن ينحط عن كاهله ٠ ثم استعير التركيب الدال على حال المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة حالية يدل عليها سياق الكلام ٠

والوضع فى قوله " ووضعنا " ترشيح لهذه الاستعارة وتقوية لها ٠

والمراد من الاستعارة بيان عصمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الوزر حيث لا وزر ٠

ويرى **أبو حيان ــ رحمه الله** ــ أن وضع الوزر فى الآية كناية فيقـــول : " ووضـــعنا عـــنك وزرك ــ كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس عـــبر عـــن ذلك بالحط على سبيل المبالغة فى انتفاء ذلك كما يقول القائل رفعت عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر منه زيارة على طريق المبالغة فى انتفاء الزيارة منه " (١)

وعـــلى كلامـــه أيضا فإن التمثيل عليه باق بحاله ــ على ما قيل ــ ، وقيل : المـــراد وزر أمـــتك وإنما أضيف إليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لاهتمامه بشأنه وتفكره فى أمره ، والمراد بوضعه رفع غائلته فى الدنيا من العذاب العاجل ما دام ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيهم وما داموا يستغفرون " (٢) ٠

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨

(٢) روح المعانى ٣٠/ ١٦٩

وقولــــه : " الذى انقض ظهرك " جملة مفصولة عن سابقتها لكونها بيانا لها فبيــنهما كمــال الاتصال ، وجاء التعريف بالاسم الموصول دون الإشارة إلى هذا الــوزر لاستهجان ذكره ، والنقيض هو صوت الرحل يكون فوق ظهر البعير من شدة الحمل .

وإســناد الإنقاض إلى الحمل مجاز عقلى من إسناد الفعل إلى سببه الحامل له إسنادا مجازيا ، والمراد بالحمل المنقض هنا ما صدر منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قــبل البعــثة مما يشق عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ تذكره لكونه فى نظره العالى دون ما هو عليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ بعد فغفر له ذلك .

وقــرئ ــ وحططــنا ــ وحللنا ــ مكان ــ وضعنا ــ ، وقرأ ابن مسعود ــ رضــى الله عــنه ــ وحللــنا عنك وقرك " (١) . أى ثقلك أو ما أثقل كاهله من الذنوب والمعاصى .

وتعديد هذه النعم عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقتضى أنه تعالى كما أحسن إليك بهذه المراتب فإنه يحسن إليك بظفرك على أعدائك وينصرك عليهم " (٢)

والله أعلم

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٦٦

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٨

"المبحث الثاني"

"الحديث عن الإنفاق والمنفقين"

منفق وحبة أنبتت سبع سنابل :

١ـ قال تعالى : " مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالهُم فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَت سَبعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالهُم فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُم أَجرُهُم عِندَ رَبِّهِم وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " (١)

تحليل الآيتين بلاغيا : قوله تعالى : " مثل الذين ينفقون أموالهم " إلخ كلام مستأنف مسوق لضرب المثل لإنفاق الأموال فى سبيل الله ، ولابد من حذف مضاف . أى : مثل نفقتهم . فجئ بهذه الاية تحريضا على الإنفاق فى سبيل الله، وذكر الاسم الموصول ـ الذين ـ وصلته للإيذان بأن المراد خصوص حال إنفاقهم بتقدير مثل نفقة الذين .

وقوله : " فى سبيل الله " أى فى وجوه الخيرات الشاملة للجهاد وغيره ، وقيل : المراد الإنفاق فى الجهاد لأنه الذى يضاعف هذه الأضعاف ، أما الإنفاق فى غيره فلا يضاعف كذلك وإنما تجزى الحسنة بعشر أمثالها .

وقوله : " كمثل حبة " خبر عن المبتدأ قبله ، أى مثل نفقة الذين ، أو مثلهم كمثل باذر حبة ، ولولا ذلك لم يصح التمثيل ، و ـ الحبة ـ واحدة الحب وهو ما يزرع للاقتيات وأكثر إطلاقه على البر وبذر ما لا يقتات به من البقل حبة بالكسر وفى الآية : تشبيه تمثيلى : شبهت حال إعطاء النفقة ومصادفتها موقعها وما أعطى من الثواب لهم بحال حبة أنبتت سبع سنابل إلخ أى زرعت فى أرض نقية

(١) البقرة / ٢٦١ ، ٢٦٢

وتراب طيب وأصابها الغيث فأنبتت سبع سنابل ، وحذف ذلك كله إيجازا لظهور أن الحبة لا تنبت ذلك إلا كذلك ، فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمشبه به هيأة معلومة ، وجعل أصل التمثيل فى التضعيف حبة لأن تضعيفها من ذاتها لا بشئ يزاد عليها ، وقد شاع تشبيه المعروف بالزرع وتشبيه الساعى بالزارع" (١)

وقوله : " أنبتت سبع سنابل " مجاز عقلى من إسناد الفعل إلى سببه ، وهو إسناد الإنبات إلى الحبة والمنبت الحقيقى هو الله تعالى ، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس — كما ذكرنا —

لم خص القرآن الكريم ذكر السبع ؟

وإنما خص القرآن ذكر السبع " لأنه كما ذكر أقصى ما تخرجه الحبة من الأسؤق ، وقال ابن عطية : قد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة وأما فى سائر الحبوب فأكثر ولكن المثال وقع بمائة وقد ورد القرآن بأن الحسنة فى جميع أعمال البر بعشرة أمثالها واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد بسبعمائة ضعف ، قيل واختص هذا العدد لأن السبع أكثر أعداد العشرة والسبعين أكثر أعداد المائة وسبع المائة أكثر أعداد الألف والعرب كثيرا ما تراعى هذه الأعداد " (٢) ·

ولما كانت المضاعفة تنسب إلى أصل وحدة · فأصل الوحدة هنا هى ما يثيب الله به على الحسنات الصغيرة ، أى ما يقع ثوابا على أقل الحسنات كمن هم بحسنة فلم يعملها ، فإنه فى حسنة الإنفاق فى سبيل الله يكون سبعمائة ضعف ·

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٤١ ، روح المعانى ٣/ ٣٢

(٢) البحر المحيط ٢/ ٣٠٤

قـــال العلامة الزمخشرى : " فإن قلت : هلا قيل ــ سبع سنبلات : على حقه من الـــتمييز لجمع القلة كما قال ــ وسبع سنبلات خضر ــ ؟ (١) قلت : يتسعون فى ذلـــك فيســـتعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها " (٢) .

وقولـــــــه : والله يضـــاعف لمن يشاء " استئناف مسوق لبيان ثواب هذا الإنفاق بإظهـــار الاســـم الجـــليل لتربية المهابة فى النفوس إذ هو المضاعف لا غيره ، والتعـــبير بـــالفعل المضارع " يضاعف " ليناسب تجدد الإنفاق ، واستمراره حتى يكون التضعيف متجددا مستمرا أيضا ، والمراد : يضاعف تلك المضاعفة ــ لمن يشـــاء ــ لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك " (٣) .

وقولـــه : " والله واسع عليم " تذييل جئ به لإعلام هؤلاء المنفقين وتنبيههم إلى أن إنفاقهم لا ينقص مما عندهم شيئا ولأن تعاملهم مع الكريم الواسع الفضل العليم بمواطـــن هذا الإنفاق فيزيد هؤلاء ويمنحهم فضله فهو ــ واسع ــ لا يضيق عليه مـــا يتفضل به من الزيادة ــ عليم ــ بنية المنفق ومقدار إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقه .

وقولـــــــه : " الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله " استئناف جئ به لبيان كيفية الإنفاق الذى بين فضله ، وأعاد هذا إظهارا للاهتمام بهذه الصلة

(١) يوسف ٤٣

(٢) الكشاف ١/ ٣٦٦ ، ٣٩٣

(٣) السابق نفسه ، البحر المحيط ٢/ ٣٠٧

وقولـــــــه : " ثم لا يتبعون ما أنفقوا " معطوف على الموصول وصلته السابقين بـــــ " ثـــم " مـــع أن الظاهر أن يعطف بالواو ، والسر فى ذلك كما قال العلامة الزمخشـــرى : " ومعنى ــ ثم ــ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى ، وأن تـــركهما خيـــر من نفس الإنفاق ، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرا من الدخـــول فيـــه بقولـــه ــ ثم استقاموا (١) ــ فإن قلت : أى فرق بين قوله ــ لهم أجرهم ــ وقوله فيما بعد ــ فلهم أجرهم (٢) ــ ؟ قلت : الموصول لم يضمن ههنا معـــنى الشـــرط وضمنه ثمة ، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيهما دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر وطرحها عار عن تلك الدلالة " (٣)

فمعـــنى كلامـــه : أن ــ ثم ــ للترتيب الرتبى لا للمهلة الزمنية ترفيعا لرتبة ترك المـــن والأذى عـــلى رتبة الصدقة ٠ لأن العطاء قد يصدر عن كرم النفس وحب المحمـــدة فللنفوس حظ فيه مع حظ المعطى بخلاف ترك المن والأذى فلاحظ فيه لـــنفس المعطى ٠ فإن الأكثر يميلون إلى التبجح والتطاول على المعطى ٠ فالمهلة فى ــ ثـــم ــ هنا مجازية على سبيل الاستعارة فى الحروف ٠ حيث شبه حصول الشـــئ المهم ــ فى عزة حصوله ــ بحصول الشئ المتأخر زمنه " (٤) فاستعيرت ــ ثم ــ من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة ٠

---

(١) فصلت / ٣٠ ، الأحقاف / ١٣ ٠

(٢) البقرة / ٢٧٤

(٣) الكشاف ١/ ٣٩٤

(٤) التحرير والتنوير ٣/ ٤٢ ، إعراب القرآن وبيانه ١/ ٤٠٦

وعـليه يقـال : معـناها الأصـلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه ، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمان بقائه ، وكأن الذى دعا الزمخشرى إلى هـذا أنـه رأى معنى المهلة هنا غير مراد لأن المراد حصول الإنفاق وترك المن معا .

والمـــن : مـراد بـه الإنعام والفضل ، وهو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسـانه ، وأطـلق على عد الإنعام على المنعم عليه ، وهو إذا ذكر بعد الصدقة والعطـاء تعين للمعنى الثاني ، و ــ الأذى ــ هو أن يؤذى المنفق من أنفق عليه بإساءة قولية أو فعلية

وقولـــه : " لهم أجرهم عند ربهم " بتقديم المسند على المسند إليه لكونه خبراً لا نعـتا ، وهـذه الجملة وقعت خبرا عن الموصول ، وتقييد الأجر بقوله " لهم " على طريق القصر بتقديم ما حقه التأخير أى لهم لا لغيرهم من قصر الصفة على الموصـوف ، وكـون الأجر " عند ربهم " فيه من التأكيد والتشريف مالا يخفى ، وكان مقتضى الظاهر أن تدخل الفاء فى حيز الموصول لتضمنه معنى الشرط كما فى ــ الـذى يأتيـنى فلـه درهم ــ لكنه عدل عن ذلك إيهاما بأن هؤلاء المنفقين مسـتحقون للأجـر لذواتهم وما ركز فى نفوسهم من نية الخير لا لوصف الإنفاق فإن الاستحقاق به استحقاق وصفى ، وفيه ترغيب دقيق لا يهتدى إليه إلا بتوفيق ، وجـوز أن يكـون تخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بـأن تـرتيب الأجرعلى ما ذكر من الإنفاق وترك اتباع المن والأذى أمر بين لا يحتاج إلى التصريح بالسببية " (١)

(١) روح المعانى ٣/ ٣٣ ، ٣٤

وقولـــــــه : " ولا خــوف عليهم ولا هم يحزنون " معطوف على قوله " لهم أجــرهم عند ربهم " لتعظيم جزاء هؤلاء المنفقين وتشريف عاقبتهم ، والمراد : ــ لا خوف عليهم ــ فى الدارين من لحوق مكروه من المكاره ــ ولا هم يحزنون ــ لفــوات مطــلوب من المطالب قل أو جل أى لا يعتريهم ما يوجبه لا أنه يعتريهم ذلــك لكــنهم لا يخافون ولا يحزنون ، ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يســتمرون عــلى النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاماً لجــلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خــواص الخواص والمقربين ، والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتقاء دوامهما كمــا يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لأن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام " (١) ٠

ســبب نــزول هــذه الآيــة : ما رواه الواحدى النيسابورى قال : " نزلت فى عــثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنهما ــ أما عبد الرحمن ابن عوف فإنه جاء إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأربعة آلاف درهم صدقة فقال كان عندى ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسى ولعيالى أربعة آلاف درهم وأربعــة آلاف أقرضتها ربى فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بارك الله لــك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، وأما عثمان ــ رضى الله عنه ــ فقال على جهاز من لا جهاز له فى غزوة تبوك فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وتصدق برومة ركية كانــت له على المسلمين فنزلت هذه الآية ، وقال أبو سعيد

---

(١) أبو السعود ١/ ٢٥٨

الخـــدرى رأيـــت رســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ رافعا يده يدعو لعثمان ويقـــول : يا رب إن عثمان بن عفان رضيت عنه فارض عنه فما زال رافعا يده حتى طلع الفجر فأنزل الله هذه الآية " (١)

الحفاظ على الصدقة بعدم إبطالها :

٢ـــ **قـــال تعـــالى :** " يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصـــابه وابـــل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جـــنة بـــربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير " (٢)

تحـــليل الآيتيـــــن : قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا " إلخ كلام مستأنف مسوق لبيان حكم هذه المسألة ، وهى إيطال الصدقات بالمن والأذى ٠

فأقـــبل ســـبحانه عليهم بالخطاب إثر بيان ما بين بطريق الغيبة مبالغة فى إيجاب العمل بموجب النهى ، ومن هنا ناداهم بوصف الإيمان ٠

وقولـــــه : "لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " أى لا تحبطوا أجرها بواحد من هذين ـــ المن والأذى ـــ لأن النفى أحـــق بالعموم وأدل عليه ، و ـــ المن ـــ هو

---

(١) أسباب النزول / ٦١

(٢) البقرة / ٢٦٤ ، ٢٦٥

المن على الفقير ، و ـــ الأذى ـــ له أيضا ، والمراد لا تأتوا بعمل الصدقات باطلا والنهى مراد به الحث والتعليم والتنبيه والزجر ٠

وقولـــــــه : " كالذى ينفق ماله رئاء الناس " جار ومجرور متعلقان بمحذوف نعـــت لمصـــدر محذوف ٠ أى لا تبطلوها إبطالا كإبطال الذى إلخ ، أو حال من ضمير المصدر المقدر ، أو من فاعل ـــ تبطلوا ـــ أى لا تبطلوا صدقاتكم مشبهين الذى ينفق ماله رئاء الناس " (١) وهما وجهان جيدان مقبولان ٠

والموصـــول فى قوله : " كالذى ينفق ماله " مراد به الجنس ولم يرد به معين ولا واحـــد ٠ إذ الغرض من التشبيه تفظيع المشبه به ، وليس المراد المماثلة فى الحكم الشرعى جمعا بين الأدلة " (٢) ٠

وقولـــــــه : " رئـــاء الناس " منصوب إما على أنه علة لـــ " ينفق " أى لأجل ريـــائهم ، أو عـــلى أنـــه حـــال من فاعله والمعنى ينفق ماله مرائياً ، و " رئاء " بهمـــزتين فعال من رأى ، ومعناه يكثر من إظهار أعماله الحسنة للناس ، ومجيئه عـــلى ـــ فعـــال ـــ للمبالغة والكثرة ، وقرأ الخزاعى والشمنى وغيرهما بتخفيف الهمـــزة الأولى مـــع قلبها ياء فرارا من ثقل الهمزة بعد الكسرة لأن المرائى يرى الـــناس أعماله والناس يرونه الثناء عليه والتعظيم له ، والمراد من الموصول ما يشـــمل المؤمن والكافر ـــ كما قيل ـــ وأغلب المفسرين على أن المراد به المنافق لقوله تعالى:ـــ ولا يؤمن بالله واليوم الآخرـــ حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً"(٣)

(١) أبو السعود ١/ ٢٥٩ ، روح المعانى / ٣٢٤

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٤٨

(٣) روح المعانى ٣/ ٣٥ ، أبو السعود ١/ ٢٥٩

وقولـــــه :" فمـــثله كمثل صفوان " استئناف فالفاء استئنافية جئ بها لمجرد الربط بيـــن الجمل ، و ـــ الصفوان " هو حجر كبير أملس وهو جمع صفوانة أو صفاء ، أوهو اسم جنس ورجح بعود الضمير إليه مفرداً فى قوله تعالى:" عليه تراب " أى شـــئ يســـير منه وهذه الجملة صفة لـــ " صفوان " ، وحذفت صفة التراب إيجازاً والمـــراد ـــ عـــليه تراب صالح للزرع ـــ فحذفت الصفة اعتماداً على أن التراب الـــذى يرقب الناس أن يصيبه الوابل هو التراب الذى يبذرون فيه ، وتقديم الجار والمجرور ـــ عليه ـــ لتوضيح حالة هذا الصفوان وإظهارها

وقوله :" فأصابه وابل فتركه صلداً " معطوف على ما سبق ، والمراد بالضمير فى ـــ أصـــابه ـــ الصـــفوان ، وقيـــل : للـــتراب ، ومرجع الضمير فى ـــ فتركه ـــ لـــــ ـــ الصفوان ـــ أى أملس ليس عليه شئ من الغبار أصلاً ، والجمل معطوفة على بعضها لأنها جمل خبرية.

ومعنى التشبيه فى الآية : تشبيه بعض المتصدقين المسلمين الذين يتصدقون طلباً للثواب ويعقبون صدقاتهم بالمن والأذى . بالمنفقين الكافرين الذين ينفقون أموالهم لا يطلـــبون مـــن إنفاقهـــا إلا الرياء والمدحة ـــ إذ هم لا يتطلبون أجر الآخرة ـــ ووجـــه الشـــبه عدم الانتفاع مما أعطوا بأزيد من شفاء ما فى صدورهم من حب التطاول على الضعفاء وشفاء خلق الأذى المتطبعين عليه دون نفع فى الآخرة.

والتشبيه فى الآية :تشبيه تمثيلى:مثلث حال الذى ينفق ماله رئاء الناس المشبه به تمثيلاً يسرى إلى الذين يتبعون صدقاتهم المن والأذى بقوله " فمثله كمثل صفوان" إلخ وضمير " مثله " عائد على ـــ الذى ينفق ماله رئاء الناس ـــ لأنه لما كـــــان

تمثيلاً لحال المشبه به كان لا محالة تمثيلاً لحال المشبه. فمثلت حال الكافر الذى ينفق ماله رئاء الناس بحال صفوان عليه تراب يغشيه يخاله الناظرُ تربة كريمة صالحة للبذر والـزرع أصـابه وابل فطمع الناس فى نمائه فجرفه الماء وأصبح مكانه صلداً أملس فخـاب الأمل ، والتشبيه هنا تشبيه مركب معقول بمركب محسوس ، ووجـه الشبه : الهيئة الحاصلة من الأمل فى حاله تغر بالنفع ثم لا تلبث ألا تأتى لآملها بما أمله فخاب أملـه. ذلك أن المؤمنين لا يخلون من رجاء حصول الثواب لهم من صدقاتهم ، ويكثر أن تعرض الغفلة للمتصدق فيتبع صدقته بالمن والأذى اندفاعاً مع خواطر خبيثة

وقد روعى فى هذا التمثيل عكس التمثيل لمن ينفق ماله فى سبيل الله بحبة أغلت سبعمائة حبة.

وقيل : يجوز فى هذا التشبيه أن يكون مفرقاً ، وذلك أن المنفق المنافق كالحجر فى عدم الانتفاع ونفقته كالتراب لرجاء النفع منهما بالأجر والإنبات ، ورياءه كالوابل المذهب له سـريعاً الضار من حيث يظن النفع . إلا أن هذا ليس بشئ ، وكون التشبيه مركباً هو الأحسن والأدق والأصح والأجـه".(١)

وقولـه :" لايقدرون على شئ مما كسبوا " إما جملة مبينة لوجه الشبه ، أو استئناف إلـخ مبـنى على السؤال كأنه قيل : فماذا يكون حالهم حينئذ ؟ فقيل : لايقدرون، ولذا جاءت مفصولة عنها لأن بينهما شبه كمال الاتصال.

والضمير فى " كسبوا " راجع إلى الموصول " كالذى " باعتبار المعنى بعد مراعاة لفظه لأنه صفة لمفرد لفظاً مجموع معنى كالجمع والفريق أو هو مستعمل للجمع كما فى قوله تعالى :ـ وخضتم كالذى خاضوا ـ"(٢)

(١)روح المعانى ٣/٣٥ ، التحرير والتنوير ٣/٤٩ .

(٢) التوبة /٦٩ ، أبو السعود ١/٢٥٩ ، روح المعانى ٣/٣٥ ، التحرير والتنوير ٣/ ٤٩١ .

وقولــه :" والله لايهدى القوم الكافرين " تنزييل مقرر لمضمون ماقبله ، وفيه تعريض بـــأن كـــلاً من الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها.

وقولـــــه :" ومـــثل الذيـــن يـــنفقون أموالهـــم ابـــتغاء مرضــــاة الله " معطوف على قوله:" كمثل الذى ينفق ماله رئاء الناس " لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون وتأكيداً للثناء على المنفقين بإخلاص وتفنناً فى التمثيل .

فإنـــه قـــد مـــثله فيما سلف بحبة أنبتت سبع سنابل ، ومثله فيما سلف تمثيلاً غير كثير الـــتركيب لتحصل السرعة بتخيل مضاعفة الثواب ، فلما مثل حال المنفق رئاءً بالتمثيل الذى مضى أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب فى حسن التخيل. فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيباً وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالاً حسنة تكسبها حسناً ليسرى ذلك التحسين إلى المشبه ، وهذا من جملة مقاصد التشبيه".(١)

قال الشيخ أبو حيان :" لما ضرب مثل من أنفق ماله رئاء الناس وهو غير مؤمن ذكـــر ضده بتمثيل محسوس للذهن حتى يتصور السامع تفاوت ما بين الضدين ، وهذا مـــن بديـــع أســـاليب فصاحة القرآن ولما وصف صاحب النفقة بوصفين قابل ذلك هنا بوصفين فقوله " ابتغاء مرضــــاة الله " مقابل لقولـــه ــ رئاء الناس ــ

وقوله ــ وتثبيتاً من أنفسهم ــ مقابل لقوله ــ ولايؤمن بالله واليوم الآخر ــ لأن المراد بالتثـــبيت تطويـــن الـــنفس على المحافظة عليه وترك ما يفسده ولا يكون إلا عن يقين بالآخرة والتقادير الثلاثة التى فى قوله ــ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة ــ جارية هنا أى ومثل

(١) التحرير والتنوير ٣ /٥٠ .

المـــنافقين كمـــثل غـــارس حـــبة أو مثل نفقتهم كحبة أو مثل المنفقين كمثل حبة وغارسها ، وجوزوا فى ابتغاء أن يكون مصدراً فى موضع الحال أى مبتغين وأن يكون مفعولاً من أجله وكذلك قوله ـــ وتثبيتاً ـــ "(١)

إلا أن أبـــا حيـــان وصف كون ـــ ابتغاء ـــ مفعولاً من أجله بعدم الصحة فيقول : " قـــال ابـــن عطيـــة : ولا يصـــح أن يكون ـــ ابتغاء ـــ مفعولاً من أجله لعطف ـــ وتثبيـــتاً ـــ عـــليه ولا يصح فى ـــ وتثبيتاً ـــ أنه مفعول من أجله لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت"(٢)

و " مـــن " فى قولـــه " وتثبيتاً من أنفسهم " إما تبعضية ، والمراد ولتثبيت بعض أنفســـهم على الإيمان كما فى قولهم ـــ هز من عطفه ، وحرك من نشاطه ـــ فإن المـــال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله روحه فقد ثبتها كلها ، وإما ابتدائية .

والمعـــنى : وتصـــديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم كما فى قول الله تعـــالى :" كفـــاراً حســـداً مـــن عند أنفسهم(٣) ـــ ، وإما بمعنى اللام أى لأنفسهم والمعـــنى: وتثبيـــتاً مـــن أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه ، ويؤيـــده قـــراءة من قرأ ـــ وتبييناً من أنفسهم ـــ وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمـــنفق تـــزكية الـــنفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة ، وأن نفوسهم لها بصائر متأكدة فهى تثبتهم على الإنفاق"(٤)

(١) البحر المحيط ٢/ ٣١٠ .(٢) السابق نفســـه .(٣) البقرة /١٠٩ .

(٤) الكشاف ١/ ٣٩٥ ، البحر المحيط ٢/ ٣١٠ ، المحرر الوجيز ٢/ ٣١٦ ، أبو السعود ١/ ٢٥٩ ، روح المعانى ٣/ ٣٥ ، ٣٦ ، التحرير والتنوير ٣/ ٥١ .

وقولـــــه :" كمثل جنة بربوة " مراد به تشبيه نفقة هؤلاء فى الزكاء بهذه الجنة ، والجنة مكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجن أى يستر الكائن فيه ، وتطلق فى كـــلام العـــرب كـــثيراً على الموضع ذى الشجر المثمر المختلف الأصناف ، و ــ الـــربوة ــ بضـــم الـــراء وفـــتحها مكـــان من الأرض مرتفع دون الجبل ، وتخصـــيص الجـــنة بأنهـــا فى ــ ربوة ــ لأن أشجار الربى تكون أحسن منظراً وأزكى ثمـــراً فكـــان لهـــذا القيـــد فائدتان إحداهما قوة وجه الشبه كما أفاده قوله "ضعفين" ، والثانية تحسين المشبه به الراجع إلى تحسين المشبه فى تخيل السامع٠

وفى الآيـــــــة : تشـــبيه تمثيلى : حيث مثل حال هذا الإنفاق بكونه فى سبيل الله ابـــتغاء مرضـــاته تعـــالى وتثبيتاً من نفوس المؤمنين بحال جنة بربوة موصوفة بالأوصـــاف المذكـــورة٠ فالهيئة المشبهة إذاً هى النفقة المحفوفة بطلب رضا الله والتصـــديق بوعده فضوعفت أضعافاً كثيرة أو دونها فى الكثرة ، والهيئة المشبهة بهـــا هى هيـــئة الجنة الطيبة المكان التى جاءها الوابل فزكا ثمرها وتزايد فأكملت الـــثمرة ، أو أصـــابها طل فكانت دون ذلك ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكاملت فتكامل بها تضعيف المنفعـــة٠

وبين قوله :" مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة " ، وقوله :" ومثل الذين ينفقون أموالهم ــ كمثل جنة " جناس مصحف وهو ما تماثل فيه اللفظان فى الخط وتخالفا فى النقط ــ الحرف ــ ٠

والتثـــبيت ــ هو تحقيق الشئ ورسوخه ، وهو تمثيل يجوز أن يراد به كبح النفس عـــن التشـــكك والتردد ، والمعنى : إنهم يمنعون أنفسهم من التردد فى الإنفاق فى

وجـوه البر ولا يتكرون مجالا لخواطر الشح ، وهو مأخوذ من قولهم : ثبت قدمه أى لـم يتردد ولم ينكص . فإن رياضة النفس على فعل ما يشق عليها لها أثر فى رسـوخ الأعمـال حتى تعتاد الفضائل وتصير لها ديدناً ، وإنفاق المال من أعظم ماترسخ به الطاعه فى النفس لأن المال ليس أمراً هيناً على النفس"(١)

وقـد لفـت الإمام الفخر الرازى ــ رحمه الله ــ لفتة جميلة فى توضيح المراد بقوله تعالى :" بربوة " إلى أنها ليست ــ كما قالوا ــ البستان ، وأن المراد منها : كـون الأرض طيـناً حـراً . بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا ونما ، فإن الأرض متى كـانت عـلى هذه الصفة يكثر ريعها وتكمل الأشجار فيها ، وهذا الـتأويل الذى ذكرته ــ كما قال ــ متأكد بدليلين ــ أحدهما ــ قوله تعالـى : ــ وتـرى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت(٢) ــ والمراد من ربوهـا ماذكرنا فكذا ههنا ــ والثانى ــ أنه تعالى ذكر هذا المثل فى مقابلة المثل الأول ، ثـم كـان المثل الأول هو الصفوان الذى لا يؤثر فيه المطر ، ولا يربو ولاينمو بسبب نزول المطر عليه ، فكان المراد بالربوة فى هذا المثل كون الأرض بحيث تربو وتنمو . فهذا ما خطر ببالى والله أعلم بمراده"(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٥١ .

(٢) الحـج / ٥ .

(٣) التفسير الكبير ٧ / ٦٢ .

وقولـــه : " فآتت أكلها ضعفين " معطوف على ما سبق بالفاء الدالة على التعقيب وذلك أن الإيتاء كان عقيب نزول المطر عليها ، والمراد أعطت صاحبها أو الناس جميعــاً ، ونسبة الإيتاء إلى الجنة مجاز عقلى لعلاقة السببية والمعطى فى الحقيقة هو الله تعالى و ــ أكلها ــ بالضم أى الطعام لأن من شأنه أن يؤكل ، و" ضعفين" يعــنى مثــليه. لأن ضــعف الشئ مثله زائداً عليه ، والتثنية فيه لمجرد التكرير والمراد آتت أكلها مضاعفاً على تفاوتها.

وقولـــــه :" فإن لم يصبها وابل فطل " استئناف عقيب قوله :" أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين " أى فيصيبها ، أو فالذى يصيبها طل " أو فطل يكفيها.

والمراد أن خيرها لا يخلف على كل حال لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها"(١) و ــ الطل ــ الرذاذ من المطر وهو اللين منه.

وحاصــل هــذا التشبيه أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال وإن كــانت تــتفاوت بحســب تفــاوت ما يقارنها من الإخلاص والتعب وحب المال والإيصـــال إلى الأحوج النقى وغير ذلك ، فهناك تشبيه حال النفقة النامية لابتغاء مرضـــاة الله تعـــالى الزاكية عن الأدناس لأنها للتثبيت الناشئ عن ينبوع الصدق والإخـــلاص بحال جنة نامية زاكية بسبب الربوة وأحد الأمرين الوابل ، والطل ، والجـــامع الـــنمو المقـــرون بالزكاء على الوجه الأتم ، وهذا من التشبيه المركب العقـــلى، ولك أن تعتبر تشبيه حال أولئك عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقتهم القليـــلة والكثيرة بالوابل والطل ، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل تلك الجنة فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائـــــدة

(١) أبو السعود ١/ ٢٦٠ .

فى زلفاهم وحسن حالهم عند ربهم جل شأنه كذا قيل ، وهو محتمل لأن يكون من التشبيه المفرق ، والكلام مسوق للإرشاد إلى انتزاع وجه الشبه وطريق التركيب ، والحال للنفقة فى المفرق ، للمنفق فى المركب ، والحاصل أن حالهم فى إنتاج القل والكـثر مـنهم الأضعاف لأجورهم كحال الجنة فى إنتاج الوابل والطل الواصلين إليها الإضعاف لأثمارها"(١)

وقولــه :" والله بما تعملون بصير " تذييل مسوق للترغيب فى الإخلاص والتحذير من الرياء فهو سبحانه يجازى كلاً من المخلص والمرائى بما هو أعلم به فالمرائى قصــد بعمله رؤية من لا تغنى رؤيته شيئاً وترك وجه البصير الحقيقى الذى تغنى وتفقر رؤيته عز وشأنه.

ولــلمقارنــة بيــن التشبيهين أو بيان سر التنوع ــ كما قيل ــ بين قوله :" كالذي يــنفق مالــه رئاء الناس " وبين قوله:" ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله " نجد أن التشبيهين " يشتركان فى معنى عام وهو العطاء والخصوبة ، والمضاعفة والأجر العظيــم الذى يعود على صاحبه المنفق فى سبيل الله إلا أن المثل الأول يهتم ببيان مضاعفة الثواب . هذه المضاعفة الحسابية التى تتمثل فى حبة أنبتت سبع سنابل " إلخ فهو تصوير للأضعاف ، وكأنها ماثلــة بين يدى الناظر . بينما نجد أن التمثيل يبرز أثراً آخر للإنفاق فى سبيل الله وهو ما يعود به هذا الإنفاق على قلب صاحبه المؤمن بحيث يعتاد الخير حتى يطيب هذا القلب وتزكو هذه النفس وتخلــــــص

---

(١) الكشاف ١/ ٣٩٥ ، روح المعانى ٣/ ٣٦ ، أبو السعود ١/٢٦٠ ، خاشية الجمل١/ ٢٢٠ــ ٢٢٢ تأويل مشكل القرآن /٣٢٥ ، التفسير القرآنى ٣/ ٣٣٩ .

مـــن الأكـــدار وتصـــبح كالأرض الحرة الخصبة فى الربوة العالية الشماء وهى ممـــرعـــة بالخيـــر زاكية على كل حال إن أصابها وابل أثمرت وأمرعت ، وإن أمسك الوابل فهى ممزعة مثمرة لأن معدنها كله خير فلا يصدر عنها إلا الخير ، ونجد التشبيه الأول بسيط التركيب لتحصل السرعة بتخيل هذه المضاعفة الحسابية وليحصل التحريض والترغيب وإثارة محور الطمع فى الإنسان.

فمـــن ذا الـــذى لا يحب الربح خاصة إن كان هذا الربح بهذه المضاعفة التى هى أقصـــى مـــا تستشعره النفس الإنسانية بينما جاء التشبيه الثانى معقد التركيب لأن الأحـــوال هـــنا تكاثـــفت وتداخلت وتراكبت فالنفوس زاخرة مفعمة بمعانى الخير والطاعـــة مبـــتغية مرضاة الله والنفقـــة فيه وارفة الظلال دائمة الأثمار فهى ظل ظـــليل وثمر وفير وستر لصاحبها وحجاب من النار ، وختمت آيات التمثيل الأول بقولـــــه تعالى :" والله واسع عليم " ليتناسب مع المضاعفة التى وعد الله سبحانه أنه يضاعفها لمن يشاء من عباده ،أما آيات التمثيل الثانى فقد ختمت بقوله تعالى : " و الله بمـــا تعملون بصير " ليتناسب مع تلك القلوب المتفاوتة فى زكائها ونمائها وإخلاصها فيجازى كلا بعمله "(١)

<u>تمنى جنـــة من نخيل وعنب :</u>

٣ــ <u>قال تعالى</u> :" أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهارـــله فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون"(٢)

(١) من أسرار التنوع فى تشبيهات القرآن /١٢٨،١٢٧ بتصرف الأستاذة ملك حسن بخش.

(٢) البقـــرة /٢٦٦ .

تحليل الآية بلاغياً : قوله تعالى :" أيود أحدكم " جملة مستأنفة مسوقة لضرب مثل آخر لنفقة المرائين والمانين ، والهمزة للاستفهام الإنكارى والتحذير، ومناط الإنكار هو إصابة الإعصار ومايتبعها من الاحتراق ، وهى استئناف بيانى أثاره ضربُ المثل العجيب للمنفق فى سبيل الله بمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، ومثل جنة بربوة إلى آخر ماوصف من المثلين ، ولما أتبع بما يفيد أن ذلك إنما هو للمنفقين فى سبيل الله الذين لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، ثم أتبع بالنهى عن أن يتبعوا صدقاتهم بالمن والأذى ، استشرفت نفس السامع لتلقى مثلاً لهم يوضح حالهم الذميمة كما ضرب المثل لمن كانوا بضد حالهم فى حالة محمودة"(١)

والمتأمل فى هذا التمثيل والسابق عليه يرى أن الأول : يصور حال المنفقين أموالهم فى سبيل الله الذين أبطلوا إنفاقهم بالمن والأذى أى أضاعوا حرثهم ، وجنة أعمالهم فلم يحفظوها بل أتبعوها بالمعاصي التى أحرقتها وهم فى أشد الحاجة إليها أما الثانى : فإنه يمثل هؤلاء المنفقين أموالهم فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم وكيف تعهدوا حرثهم فآتت جنتهم أكلها ضعفين بعد أن أصبح الإنفاق طبيعة فيهم وسجية من سجاياهم الكريمةلا ينقطع وابلها ولا يجف نداها"(٢)

و ـ الود ـ هو حب الشئ مع تمنيه ، وقد ضرب الله هذا المثل لمقابل مثل النفقة لمرضاة الله والتصديق وهو نفقة الرئاء ، ووجه الشبه هو حصول خيبة ويأس فى وقت تمام الرجاء وإشراف الإنتاج ، والهيئة المشبهة محذوفة وهى هيئة المنفق نفقة متبعة بالمن والأذى.

(١) أبو السعود ١/٢٦٠، روح المعانى ٣/ ٣٧ ، التحرير والتنوير ٣/٥٣ .

(٢) أسرار التنوع /١١٨ .

وقـد وصـف القرآن الجنة بأعظم ما تكون به أحوال الجنات حسنة مقبولة ومايـرجى منه توفر الريع ، ثم وصف صاحبها بأقصى صفات الحاجة إلى فائدة جنـته من كونه ذاعيال فهو فى حاجة إلى نفعهم وأنهم ضعفاء ــ أى صغار ــ ، وأنـه قـد أصابه الكبر فلا قدرة له على الكسب غير تلك الجنة فهذه أشد أحوال الحـرص . فحصل من تفصيل هذه الحالة أعظمُ الترقب لثمرة هذه الجنة لما كان المعـطى صـدقته فى تـرقب لثوابها ــ فأصابها إعصار ــ أى ريح شديدة تقلع الشجر والنبات إلخ .

وقوله :" من نخيل وأعناب " جاز ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لـ "جنة" أى : جـنة كائـنة مـن هذين الجنسين النفيسين على معنى أنهما الركن والأصل فهما الجامعـان لفنون المنافع والباقى من المستتبعات لا على أن لا يكون فيها غيرهما" و ــ الجـنة ــ تطـلق عـلى الأشجار الملتفة المتكاثفة ، وعلى الأرض المشتملة عليها والأول هو الأنسب لقوله " تجرى من تحتها الأنهار " وعلى الثانى لا بد من تقديـر مضاف أى من تحت أشجارها ، وكذلك لابد من جعل إسناد الاحتراق إليها فى قوله ــ فاحترقت ــ إسناداً مجازياً "(١)

والفعـل " تجـرى " دليل على التجدد والدوام ، وقوله :" وأعناب " معطوف على " نخيـل " مـن عطـف الخاص على العام ، وقوله :" له فيها من كل الثمرات " الظـرف الأول فى محـل رفع خبر مقدم ، والثانى حال من الضمير المستتر فى الخبر ، والثالث نعت لمبتدأ محذوف أى رزق ، أو ثمر كائـن من كل الثمرات

(١) أبو السعود ١/ ٢٦٠ ، روح المعانى ٣/٣٧ .

وعلى كل من التقديرين ليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو الكثير ، ومن الناس من جعل هذا من ذكر العام بعد الخاص للتتميم (١) ، وخص سبحانه وتعالى ــ النخيل والأعناب ــ بالذكر لشرفهما وفضلهما على سائر الشجر ٠

وقوله :" وأصابه الكبر " أى أثر فيه علو السن والشيخوخة وهو أبلغ من أن يقال ــ كبر ــ والواو هنا للحال٠ و " أصابه الكبر " على هذا من باب الاستعارة التبعية فى الفعل ــ أصاب ــ شبه أثر الكبر فى هذا المذكور بالإصافة لشدة أثره فى الشخص فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه ــ أصاب ــ بمعنى أثر والجامع التأثير بشدة فى كل ، والقرينة حالية ٠ أو هو من باب الاستعارة المكنية بتشبيه ــ الكبر ــ بشئ يصيب ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الإصابة وإثبات ذلك تخييل للاستعارة وهو قرينتها٠

وجملة ــ وأصابه الكبر ــ حالية وهى بتقدير ــ قد ــ فى موضع نصب على الحال من فاعل ــ يود ــ والمعنى : أيود أحدكم ذلك فى هذه الحال التى هى مظنة شدة الحاجة إلى منافع تلك الجنة ومؤنة العجز عن تدارك أسباب المعاش"(٢)

وقيل : يقال وددت لو كان كذا فحمل العطف على المعنى كأنه قيل : أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبرُ٠

---

(١) التتميم هو أن يأتى الشاعر أو الكاتب فى كلامه بكلمات لو طرحت لنقص معناه أو صوره مع بقاء الكلام سليماً ٠ نقد الشعر /١٤٤ ٠

(٢) روح المعانى ٣/ ٣٧ ٠

وقولــه :" وله ذرية ضعفاء " فى موضع الحال من الضمير فى ــ أصابه ــ أى أصابه الكبر ، والحال أن له صبية ضعفاء لا يقدرون على الكسب وترتيب معاشه ومعاشهم ، و ــ الضعفاء ــ جمع ضعيف ، وترك التعبير بقوله صغار مع مقابلة الكبر لأنه أنسب كما لا يخفى"(١)

وقولــــه :" فأصابها إعصار " معطوف على سابقه ، والجملة من الفعل والفاعل والمفعول معطوفة على صفة الجنة.

و ــ إعصـــار ــ أى ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود يجتاح الأخضر واليابس ويهلك الحرث والنسل .

وقولــه:" فيه نار " تقدم فيه المسند على المسند إليه للتنبيه على خبريته ، وتذكير الضمير فى " فيه " " لاعتبار التذكير " فى " إعصار " وسمى ذلك الهواء إعصاراً لأنــه يلــتفُ كما يلتف الثوب المعصور ، وقيل : لأنه يعصر السحاب أو يعصر الأجســام المــار بها ، ومجئ " نار"(٢) نكرة للتعظيم ، وقوله " فيه نار" فيه دفع لــتوهم كون الإهلاك مؤجلاً مهما بلغ تأثير هذا الإعصار ، ولم يكتف بذكر النار كأن يقال :ــ فأصابها نار ــ فتأتى على شئ مما تحرقه فيبقى بعد ذلك شئ منها فقــال :" فاحترقت " لدفع هذا الإيهام أيضاً ، ووزن الفعل فيه ما فيه من البلاغة ، وقيل : إنه معطوف على محذوف أى فأحرقها فاحترقت .

وفى الآيـــــة : اســتعارة تمثيلية ، والهيئة المشبهة ــ كما ذكرنا ــ محذوفة وهى هيئة المنفق نفقة متبوعة بالمن والأذى بهيئة الجنة المذكورة صفتها أو هيئــــــة

(١) روح المعانى ٣/ ٣٧

(٢) إطلاق لفظ ــ نار ــ على شدة الحر تشبيه بليغ .

مــن يعمل أعمال البر والحسنات ويضم إليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامــة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباءً منثوراً فى التحسر والتأسف عليها بهيئة جــنة اشــتملت أصــناف الخيرات ثم أصابها ما أصابها فصارت كأن لم تكن ، فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به لهيئة المشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من مفاجأة الخيبة حين رجاء المنفعة وظن الفائدة والخير •

قال ابن القيم :" هذا مثل ضربه الله سبحانه للحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة إليهــا مع عظيم قدرها ومنفعتها ، والذى ذهبت عنه ، وقد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته "(١)

وعــن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال :" ضربت لرجل غنى عمل بطاعة الله تعــالى ثــم بعــث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله ، وفى رواية : فإذا فنى عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء"(٢)

ولا بن أبى الإ صبع ــ رحمه الله ــ تحليل رائع لهذه الآية ــ تحت لون من ألوان البديع • سماه : الاستقصاء ــ : وهو أن يتناول المعنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيــه شيئاً يقول : " وقد جاء فى الكتاب العزيز من ذلك مالا يحلق به سبقاً فانظر إلى استقصــاء هــذا المعــنى حيــن لم يبق فيه بقية لأحد إلخ به سبقاً فانظر إلى استقصــاء هــذا المعنى حين لم يبق فيه بقية لأحد ذلك أنه بعد قولــه ــ جنة من نخيل وأعناب ــ قال :ــ تجرى من تحتها الأنهار ــ وكمل الوصف بقوله :ــ له فيها من كل الثمرات ــ فأتى بكل ما فى الجنة ليشتد الأسف

(١) التفسير القيم ١/ ١٥١ لابن القيم •

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٠٢ •

على إفسادها ثم قال : ــ وأصابه الكبر ــ ثم استقصى المعنى الذى يوجب تعظيم المصـــاب بقوله بعد وصفه بـــ ــ الكِبر ــ ، ــ وله ذرية ضعفاء ــ ولم يقتصر عـــلى كونه له ذرية حتى قال :ــ ضعفاء ــ ثم ذكر استئصالها بالهلاك فى أسرع وقـــت حيـــث قال :ــ فأصابها إعصار فيه نار ــ فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكـــان كافيـــاً ولكـــن لما علم الله سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهـــلاك كمـــا يحصـــل إذا كان فيه نار • فقال سبحانه :ــ فيه نار ــ ثم أخبرنا باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحراقها بإطفاء أنهارها وتجفيف أوراقهـــا وثمارها فأخبر بإحراقها احتراساً من ذلك ، وهذا أحسنُ استقصاء وأتمه بحيث لم يبق فى المعنى موضع استدراك "(١)

وقوله :" كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" تذييل جئ به لبيان الغرض من ضرب الأمثال ، وتوحيد الكاف مع كون المخاطب جمعاً إشارة إلى مصدر الفعل الآتى ، ومافيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه فى الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ، والكاف فى قوله :" كذلك " لـــتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ورفعة الشأن ، وإفراد حرف الخطاب مع تعـــدد المخاطـــبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب ، و ــ كذلـــك ــ جملة فى محل نصب نعت لمصدر محذوف • أى مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الأمور المحسوسة،وــ يبين الله لكم الآيات ــ تنزيـــلها مبيـــنة الفحوى واضحة المدلول لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة ، وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة"(٢)

---

(١) التحرير والتحبير/٥٤٢ ، ٥٤٣ ت د حفنى شرف• (٢) أبو السعود ٢١٩/١ ، ٢٦١ •

وقوله :" لعلكم تتفكرون " جملة فى محل نصب حال ، والمعنى : كى تتفكروا فيها وتعتـــبروا بما تضمنته من العبر وتعملوا بموجبها ، أو لعلكم تعملون أفكاركم فيما يفـــنى ويضـــمحل مـــن الدنيـــا وفيما هو باقٍ لكم فى الأخرى فتزهدون فى الدنيا وتنفقون مما أتاكم الله تعالى منها وترغبون فى الآخرة ولا تفعلون مايحزنكم فيها، و ــ لعل ــ من الله رجاء وتحقيق .

قال الإمام الفخر الرازى :" والمقصود من هذا المثل بيان أنه يحصل فى قلب هذا الإنســـان مـــن الغم والمحنة والحسرة والحيرة مالا يعلمه إلا الله ، فكذلك من أتى بالأعمـــال الحسنة إلا أنه لا يقصد بها وجه الله ، بل يقرن بها أموراً تخرجها عن كونهـــا موجبة للثواب ، فحين يقدم يوم القيامة وهو حينئذ فى غاية الحاجة ونهاية العجز عن الاكتساب عظمت حسرته وتناهت حيرته ، وهذا المثل فى غاية الحسن ونهاية الكمال"(١)

ويقـــول النيسابـــورى :" ولا يخفى أن هذا المثل ــ فى المقصود ــ أبلغ الأمثال فإن الإنسان إذا كان له جنة فى غاية الكمال وكان هو فى نهاية الاحتياج إلى المال وذلك أوان الكبر مع وجود الأولاد والأطفال فإذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة فكم يكون فى قلبه من حسرة لذلك "(٢)

---

(١) التفسير الكبير ٧/ ٦٤ ــ ٦٦ بتصرف .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣/٥٣ ، ٥٤

آكالوا الربا كالشيطان :

٤ـ قال تعالى :" الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون "(١)

مناسبة ورود هذه الآية مع آيات الإنفاق : أن هذه الآية تعد الوجه الآخر المقابل للصـــدقة ٠ فالصدقة عطاء وسماحة وطهارة وزكاة وتعاون وتكافل ، والربا شح وقـــذارة ودنس ، وأثرة وفردية ، ومن ثم فالربا هو الوجه الآخر المقابل للصدقة الوجه الطالح ولذا جاء بها القرآن بعد آيات الصدقة لعقد مقارنة بينهما ٠

تحليل الآية بلاغياً : قوله تعالى :" الذين يأكلون الربا " كلام مستأنف مسوق لذكر حكم الربا وهى الزيادة فى المعاملة بالنقود ، ومن هنا فصلت عما سبق لشبه كمال الاتصـــال ، وهذا التعامل كان وسيلة من أسباب ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين إليهـــم ، وقد لقب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك بربا الجاهلية كما جاء فى خطبته فى حجة الوداع ٠وجئ بالاسم الموصول " الذين " للدلالة على علـــة بناء الخـــبر وهو قوله :" لا يقومون " عليه ، و ــ الأكل ــ فى حقيقته ابتلاع الطعام ، ثم شاع إطلاقه على الانتفاع بالشئ وأخذه بحرص ، وأصله تمثيل ٠

---

(١) البقـــرة / ٢٧٥ ٠

قال الشيخ أبو السعود : " قوله ـ يأكلون الربا ـ أى يأخذونه والتعبير عنه بالأكل تشنيع لهم وهو الزيادة ولشيوعه فى المطعومات مع مافيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الأجل ، وإنما كتب ـ الربوا ـ بالواو كالصلوة على لغة من يفخم فى أمثالها وزيدت الألف تشبيهاً بواو الجمع "(١)

والمراد بـ " الذين يأكلون الربا " من كان على دين الجاهلية • لأن هذا الوعيد والتشنيع لا يناسب إلا التوجه إليهم لأن ذلك من جملة أحوال كفرهم وهم لايرعوون عنها ما داموا على كفرهم • أما المسلمون فسبق لهم تشريع بتحريم الربا بقوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة"(٢) ، وهم لا يقولون :" إنما البيع مثل الربا " فجعل الله هذا الوعيد من جملة أصناف العذاب خاصاً للكافرين لأجل ما تفرع عن كفرهم من وضع الربا"(٣) ، وجاء إنكار القرآن على أهل الجاهلية إعطاء هم الربا فكان أول مانعاه عليهم فى مكة هذا التعامل الربوى والمألوف فى نهج القرآن أنه يذكر أحوال الكفار إغلاظاً عليهم ، وتعريضاً بتخويف المسلمين ، ليكره إياهم لأحوال أهل الكفر ، وقد قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كل ماجاء فى القرآن من ذم أحوال الكفار فمراد منه أيضاً تحذير المسلمين من مثله فى الإسلام •

و ـ الربا ـ كما يقول الفقهاء قسمان :

١ـ ربا النسيئة ـ التأخير والتأجيل ـ وهو الزيادة المشروطة التى يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل ، وهذا النوع محرم بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة•

(١) أبو السعود ٢٦٦/١،روح المعانى ٣/ ٤٨ (٢) آل عمران/١٣٠ (٣) التحرير والتنوير ٣/ ٨٠ •

٢ـ **ربا الفضل** : وهو بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام مع الزيادة وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة ، وأطلق عليه اسم الربا تجوزاً كما يطلق اسم المسبب على السبب "(١)

وقوله :" لا يقومون إلا كما يقوم الذى " إلخ جملة فى محل رفع خبر للاسم الموصول ، وقوله :" لايقومون " أى يوم القيامة من قبورهم حين البعث ·

وقوله:" لا يقومون إلا كما يقوم الذى " أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء وهو قصر إضافى من قصر الصفة على الموصوف ·

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور :" وقوله ــ لا يقومون ــ حقيقة القيام النهوض والاستقلال ، ويطلق مجازاً على تحسن الحال ، وعلى القوة ·

من قولهم ــ قامت السوق ، وقامت الحرب ــ فإن كان القيام المنفى هنا القيام الحقيقى · فالمعنى : لا يقومون ــ يوم يقوم الناسُ لرب العالمين ــ(٢)

وــ إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ــ أى إلا قياماً كقيام الذى يتخبطه الشيطان، وإن كان القيام المجازى فالمعنى إما على أن حرصهم ونشاطهم فى معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعاً لجشعهم قاله ابن عطية ، ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم ، ووفرة مالهم ، وقوة تجارتهم بما يظهر من حال الذى يتخبطه الشيطان حتى تخاله قوياً سريع الحركة·

---

(١) فقه السنة ١٨٨/٣ ، الفقه على المذاهب الأربعة ٢٠٩/٢ ومابعدها ، الفقه الإسلامى وأدلتــه ٦٧١/٤ وما بعدها د/ وهبة الزحيلى ·

(٢) المطففين /٦ ·

مــع أنه لا يملك لنفسه شيئاً"(١) ثم يقول : " فالآية على المعنى الحقيقى وعيد لهــم بابتداء تعذيبهم من وقت القيام للحساب إلى أن يدخلوا النار ،وهذا هو الظاهر وهــو المناسب لقوله ــ ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثل الربا ــ وهى على المعنى المجــازى تشنيع أوتوعد بسوء الحال فى الدنيا ولقى المتاعب ومرارة الحياة تحت صورة يخالها الرائى مستقيمة"(٢)

و " الــذى يتخبطه الشيطان " هو المصروع فى الدنيا ، ولعل الله تعالى جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له كما جعل لبعض المطيعين أمارة تليق به ويعرف بها كرامــة له ٠

وفى الآيــة ٠ تشــبيه تمثيلى : مثلت حال آكلى الربا عند خروجهم من قبورهم يتخــبطون فى مشــيهم ولايدرون قصدهم ويترنحون ترنح السكران ٠ بحال من أصــابه مس فاختل طبعه وانتكست حاله ، وصار يتهافت فى مشيته ويتكاوس فى خطوتــه ، ويــترنح ترنح السكير ثم يهوى مكبا على وجهه من سوء الطالع وقبح المنقــلب ، وشــناعة المصير ، والجزاء ــ كما قيل ــومن جنس العمل ، والوجه الهيئة الحاصلة من التخبط والاضطراب ٠

وقولــــه :" مــن المس " جملة ابتدائية جئ بها كالقيد لسابقتها لبيان أن المراد من تخبط الشيطان للمرء جعله إياه متخبطاً أى متحركاً على غير اتساق

قــال العلامــة الزمخشــرى :" فــإن قلت : بم يتعلق قوله ــ من المس ــ قلت : " بــ ــ لايقومون ــ أى لايقومون من المس الذى بهم إلا كما يقوم المصــروع ،

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٨١ ٠

(٢) السابق ٣/ ٨١ ، ٨٢ ٠

ويجـوز أن يتعلق بـ ـ يقوم ـ : أى كما يقوم المصروع من جنونه والمعنى : أنهـم يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف ، وقيـل : الذين يخرجون من الأجداث يوفضون ـ يسرعون ـ إلا أكلة الربا فإنهم ينهضـون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله فى بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض ـ الإسراع "(١)

وقولـه :" ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثل الربا " جملة استئنافية جاءت إشارة إلى العـذاب الـنازل بهـم ، و ـ ما ـ مصدرية ـ ، والباء سببية ، والمعنى : ذلك العقـاب بسبب قولهم ، وهذا إشارة إلى ما ذكر من حالهم ، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بفظاعه المشار إليه٠

وقولـه :" إنما البيع مثل الربا " جملة فى محل نصب مقول القول ، وهنا أسلوب قصـر إضـافى طريقه ـ إنما ـ للرد على من زعم تخالف حكمهما فحرم الربا وأحـل الـبيع قصر قلب واستعملت ـ إنما ـ هنا لتنزيل غير العالم منزلة العالم بالشـئ غير المنكر له ٠ فقد جعل هؤلاء هذه القضية ـ كون البيع مثل الربا ـ مـن الأمور المسلم بها ٠ كأنها لا ينبغى لأحد أن ينكرها أو يجهلها ٠ فهم جعلوا الـربا هو الأصل ٠ فلم يقولوا : ما الربا إلا مثل البيع أو : إنما الربا مثل البيع ، فجعـلوا الـربا أصلاً ، وعبروا بـ ـ إنما ـ ، ولما صرح فيه بلفظ ـ مثل ـ سـاغ أن يقال :ـ البيع مثل الربا ـ كما يسوغ أن يقال : الربا مثل البـيع ،

---

(١) الكشاف ١/ ٣٣٩ ٠

ولايقال : إن الظاهر أن يقولوا : إنما الربا مثل البيع ٠ لأنه هو الذى قصد إلحاقه بــه فبلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحل حتى شبهوا به البيع على طريق المبالغـــة٠

ويســمى البلاغيون ما فى الآية : تشبيهاً مقلوباً٠ وهو أن يجعل المشبه الذى هو الأصـــل فى الكـــلام مشـــبهاً به ، والمشبه به مشبهاً ، أو أن يجعل الأصل فرعاً للمــبالغة"(١) ، ومعــنى كونـــه مقلوباً : أن يجعل ما الوجه فيه أتم مشبهاً ليتوهم الســـامعُ أن المشـــبه به المقصود بالمبالغة أتم فى وجه الشبه من المشبه ــ الذى أصله مشبه به ــ اعتماداً على القاعدة المقررة:من أن الوجه فى المشبه به أتم"(٢)

وســـماه ابـــنُ الأثير " الطرد والعكس " وعده موضعاً من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ"(٣)

وسماه ابن جنى ــ غلبة الفروع على الأصول ــ وأنك لا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة"(٤)

فكـــان الأصـــل أن يقول هؤلاء : إنما الربا مثل البيع : لأن الكلام فى الربا لا فى البيع ، لكنهم عدلوا عن ذلك وتجرءوا ٠ حيث جعلوا الربا أصلاً ملحقا به البيـــع

---

(١) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز /٧٦ ، نهاية الأدب فى فنون الأدب ٧/ ٤٧ ، الأسرار/١٨١ ت رشيد رضا

(٢) المفتاح / ١٦٣ ، الإيضاح /١٧١ ط صبيح ، المطول / ٣٣٣ ٠

(٣) المثل السائر ١/ ٤٠٣ ٠

(٤) الخصائص ١/ ٣٠٠ ، عروس الأفراح ٣/ ٤٠٧ ضمن شروح التلخيص ٠

فى الجواز ، وأنه الخليق بالحل • ليصلوا إلى غرضهم وهو تحليل ما حرمه الله ، فعكسوا الكلام للمبالغة بجعل المشبه به مشبهاً وهكذا ، وقيل : يجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناءاً على ما فهموه من أن البيع إنما حل لأجل الكسب والفائدة وذلك فى الربا متحقق وفى غيره موهوم •

قال الشيخ الزركشى :" ويحتمل أن يكون المراد إلزام الإسلام ، فيحرم البيع قياساً على الربا ، لاشتماله على الفضل طرداً لأصلهم ، وهو فى المعنى نقض على علة التحريم ، ويؤيده قوله تعالى : ــ وأحل الله البيع وحرم الربا ــ ، وفيه إشارة إلى أن الواجب اتباع أحكام الله واقتفاؤها من غير تعرض لإجرائها على قانون واحد ، وأن الأسرار الإلهية كثيراً ما تخفى ، وهو أعلم بمصالح عباده فيسلم له عنانُ الانقياد ، وأنهم جعلوا ذلك من باب إلزام الجدلى ، وجاء الجواب بفك الملازمة، وأن الحكمة فرقت بينهما ، وفيه إبطال القياس فى مقابلة النص"(١)

ونقول : ليس هؤلاء القائلون بصدد إلحاق الفروع بالأصول على طريقة القياس بل هم كانوا يتعاطون الربا والبيع ، فهما فى الخطور بأذهانهم سواء ، غير أنهم لما سمعوا بتحريم الربا وبقاء البيع على الإباحة سبق البيع حينئذ إلى أذهانهم فأحضروه ليثبتوا به إباحة الربا على الطريقة المسماة فى الأصول بقياس العكس ــ بجعل الفرع أصلاً ــ لأن قياس العكس إنما يلتجأ إليه عند كفاح المناظرة ، لا فى وقت استنباط المجتهد فى خاصة نفسه"(٢)

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣/ ٤٢٧ •

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٨٣ •

وقولــه :" وأحل الله البيع وحرم الربا " جملة مستأنفة · من كلام الله تعالى جواباً ورداً لهــم وللمسلمين وإنكاراً لتسويتهم بينهما ودلالة على أن القياس يهدمه النص لأنـــه جعــل الدليــل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ، وهو إعراض عن مجادلـــتهم إذ لا جدوى فيها لأنهم قالوا ذلك كفراً ونفاقاً فليسوا ممن تشملهم أحكام الإسلام ، وهو إقناع للمسلمين بأن ما قاله الكفار هو شبهة محضة ، وأن الله العليم قد حرم هذا وأباح ذلك ، وما ذلك إلا لحكمة وفروق معتبرة لو تدبرها أهل التدبر لأدركــوا الفــرق بين البيع والربا ، والمراد بالبيع هنا بيع التجارة لا بيع المحتاج ســلعته برأس ماله ، والتعريف في ـــ البيع ، والربا ـــ تعريف الجنس ، وظاهر تعــريف الجــنس · أن الله تعالى أحل البيع بجنسه فيشمل التحليل سائر أفراده · فهــو اســتغراق حقيقي ، وأنه حرم الربا بجنسه كذلك · فثبت بذلك حكم أصلين عظيميــن في معــاملات الناس محتاج إليهما فيها : أحدهما يسمى بيعاً ـــ والآخر يسمى رباً · أولهما مباح معتبر كونه حاجياً للأمة ، وثانيهما محرم ألغيت حاجيته لمــا عارضها من المفسدة · أما معنى قوله ـــ وحرم الربا ـــ فهو في حكم المنفي لأن ـــ حرم ـــ في معنى ـــ منع ـــ فكان مقتضياً استغراق جنس الربا بالصيغة ، إذ لا يطرأ عليه ما يصيره حلالاً"(١)

وقولــه :" فمن جاءه موعظه من ربه فانتهى " جملة استئنافية و ـــ من ـــ شرطية أو موصــولة و " موعظـــة " فـــاعل " جاء " وحذفت تاؤه للفصل وكون التأنيث مجازيـــاً مـــع مـــافي الموعظـــة من معنى التذكير ، وقرئ ـــ جاءته ـــ بالتاء ، والمراد: فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا ، وقوله :" جاءه موعظة"

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، التحرير والتنوير ٣/ ٨٦ .

استعارة مكنية شبهت الموعظة بعاقل يقع منه المجئ ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو المجئ وإثبات ذلك قرينة للاستعارة٠

وقوله :" من ربه " متعلق بالفعل ـ جاءه ـ أو متعلق بمحذوف وقع صفة لـ "موعظة " وعلى كل من التقديرين فيه تعظيم لشأنها وفى ذكر الرب تأنيس لقبول الموعظة إذ فيه إشعار بإصلاح عبده و ـ من ـ لابتداء الغاية أو للتبعيض وحذف المضاف ، فالتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجئ الموعظة للتربية وإلقاء المهابة فى النفوس ٠

وقوله :" فانتهى " معطوف على جاءه " والمعنى : فاتعظ بلا تراخ ، وتبع النهى وامتنع عن فعل ذلك ، والآية تفريع على الوعيد فى قوله : " الذين يأكلون الربا "وقوله :" فله ماسلف " الفاء رابطة لجواب الشرط ، والجملة لا محل لها صلة الموصول ، وتقديم المسند ـ له ـ لتخصيصه بالمسند إليه وقصره عليه ، و" ماسلف " أى ماسلف قبضه من مال الربا لا ماسلف عقده ولم يقبض ، فهذا عذر لمن استرسل على معاملة الربا قبل بلوغ التحريم إليه فما تقدم أخذه قبل التحريم لا يسترد منه ، وقيل : المراد لا مؤاخذة عليه فى الدنيا ولا فى الآخرة فيما تقدم له أخذه من الربا قبل "(١)

وقوله :" وأمره إلى الله " معطوف على سابقه ٠ أى المنتهى بعد التحريم موكول إلى الله تعالى إن شاء عصمه من الربا فلم يفعل ، وإن شاء لم يفعل وقيل : المراد

(١) الكشاف ١/٤٠٠ ، أبو السعود ١/٢٦٦،روح المعانى ٣/٥٠ ،٥١ ، التحرير والتنوير٣/٩٠ ٠

أنـــه يجازيـــه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية أو يحكم فى شـــأنه يوم القيامة بما شاء لا اعتراض لكم عليه ، وهذا من الإيهام المقصود منه التفخيم ، فالمقصود الوعد بقرينة مقابلته بالوعيد فى قوله:" ومن عاد فأولئك "الآية وقولـــــه :" ومـــن عاد " معطوف على ماسبق ، والعود أى الرجوع إلى ماسلف ذكـــره مـــن فعل الربا واعتقاد جوازه والاحتجاج عليه بقياسه على البيع فعاد إلى تحليل الربا والتعامل به والتكسب من ثمرته إن كانت له ثمرة٠

وقولـــــه :" فأولـــئك " إشـــارة إلى " من عاد " والجمع باعتبار المعنى ــ كما أن الإفـــراد فى " عاد " باعتبار اللفظ ، ومافيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفسا د ، و " أصحاب النار " المراد ملازموها٠

وقولـــــه :" هـــم فيهـــا خالدون " جملة مقررة لما قبلها دالة على مكثهم فيها أبد الأبديـــن ، وتقديم الجار والمجرور دليل على استقرارهم فيها وتمكنهم فيها تمكن الظـــرف من المظروف لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها ، وجعل العائد خالداً فى الـــنار إمـــا لأن المـــراد العود إلى قوله :" إنما البيع مثل الربا " أى عاد إلى اســـتحلال الربا وذلك نفاق فإن كثيراً منهم قد شق عليهم ترك التعامل بالربا٠ فعلم الله مـــنهم ذلـــك وجعل عدم إقلاعهم عنه أمارة على كذب إيمانهم ، فالخلود على حقيقته،وإما لأن المراد العود إلى المعاملة بالربا، وهو الظاهر من مقابلته بقوله : "فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى " والخلود طول المكث على سبيل الكناية"(١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٩٠ ٠

إنفاق الكفرة لا ثمــرة له :

٥ ــ **قال تعالى** :" مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون"(١)

تحــليل الآيــة بلاغياً : قوله تعالى :" مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا " جملة مستأنفة مسوقة لضرب المثل فى بيان كيفية عدم إغناء أموالهم التى كانوا يعولون عــليها فى دفــع المضــار النازلة بهم ، ومن هنا فصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتصــال • كأن قوله تعالى :" إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم"(٢) الآيــة أثــارت سؤالاً وهو لماذا لا تغنى عنهم أموالهم ؟ فقيل : " مثل ما ينفقون " إلخ • فهــؤلاء كــانوا يعولون على نفقاتهم فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة ونهمهم الزائف الفاسد •

و ــ ما ــ فى قوله :" ما ينفقون " موصولة اسمية حذف عائدها أى حال ما ينفقه الكفــرة قــربة أو مفاخرة وسمعة أو المنافقون رياءً وخوفاً ، وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة ، والإشارة فى " هذه " مراد بها التحقير •

و " الحيــاة الدنيــا " المدة التى يقضيها العبد محدودة الأجل ووسمت بـــ " الدنيا " لدنوا أجلها وقربها من الآخرة ، وأنها منقطعــة زائلـــة •

وقولـــــه :" كمثل ريح فيها صر " جار ومجرور متعلقان بمحذوف فى محل رفع خـــبر " مثل الذين " ، وـــ الصِرُّ ــ هو البرد الشديد قاله ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وجماعة ، وهو فى الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح الباردة

(١) آل عمران / ١١٧ •

(٢) آل عمران / ١١٦ •

كالصرصــر ، وعــليه يكون معنى النظم : ريح فيها زيح باردة وكلمة ــ فى ــ مــن قوله " فيها " تجريدية حيث انتزع من الريح ريح باردة مبالغة فى بردها وإلا فــهى نفسها صر ، وقيل : إنه صفة بمعنى بارد إلا أن موصوفه محذوف أى برد بــارد فهو من الإسناد المجازى كظل ظليل ــ وفيه بعد ــ لأن المعروف فى مثله ذكر الموصوف وأما حذفه وتقديره فلم يعهد ٠

وجاءت ــ الريح ــ فى قوله " فيها ريح " مفردة لأنها مختصة بالعذاب ، والجمع مختص بالرحمة"(١)،وفى قوله " فيها صر"تتميم يفيد المبالغة والتجسيد والتشخيص والآيــة من قبيل التشبيه المركــب : شبهت حالة ما كانوا ينفقون من أموالهم فى المكــارم والمفاخــر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بحــال الزرع الذى حسه البرد فذهب حطاماً كأن لم يكن ، والوجه الهيئة الحاصلة من ضياع ما يظن فيه النفع والثمرة المرجوة مع بقاء الحسرة والندامة لفوات مافات ٠ وقيــل : هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم ، وقيل : ما أنفقوا فى عداوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاق ما أنفقوه لأجله، وشبه بــ " حرث قوم ظلموا أنفسهم " فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم"(٢) وقــد وصف هؤلاء القوم بكونهم ظالمى أنفسهم لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ وأفظع ، أو لأن المراد الإشارة إلى عدم الفائدة فى الدنيا والآخرة وهو إنما يكون فى هلاك مال الكافر وأما غيره فقد يثاب على ما هلك له لصبره عليه ٠

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٧ ٠

(٢) روح المعانى ٤/ ٣٦ ، أبو السعود ٢/ ٧٥ ٠

قال العلامة الزمخشرى :" فإن قلت : الغرض تشبيه ماأنفقوا فى قلة جدواه وضياعه بالحرث الذى ضربته الصر ، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ماينفقون ممثلاً بالريح . قلت : هو من التشبيه المركب(١) ، ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه الريح دون الحرث"(٢) أى يكون ما يلى الآداة هو المشبه به

يقول السيد الشريف :" فإن قلت : فلم قال ظلموا أنفسهم ولم يقتصر على قوله ــ أصابت الحرث أو أصابت حرث قوم ؟ قلت : لأن الغرض تشبيه ما ينفقون بشئ يذهب على الكلية لا منفعة لهم فيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فأما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب على الكلية لأنه وإن كان يذهب صورة إلا أنه لايذهب معنى لما فيه من حصول أغراض لهم فى الآخرة والثواب بالصبر على الذهاب"(٣)

ويجوز أن يراد مثلُ إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث ، وقرئ ــ تنفقون ــ بالتاء على الخطاب .

وقد علق ابن المنير على الوجه السابق أعنى ــ مثل إهلاك ما ينفقون ــ بقوله : " أصل الكلام ــ والله أعلم ــ مثلُ ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته ، ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة وهو تقديم ما هو أهم من ذكر الحرث فقدمت بذكرها واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه"(٤).

(١) ووجه الشبه عند كونه مركباً قلة الجدوى والضياع . (٢) الكشاف ١/ ٤٥٧ .

(٣) حاشية السيد الشريف على هامش الكشاف ١/ ٤٥٧ ، والتفسير الكبير ٨/ ٢١٥ .

(٤) الإنصاف على الكشاف ١/ ٤٥٨ .

ومـــراد التشبيه فى الآيـــة : مثل نفقات الكفار فى ذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصـــابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع به أصحابه ، وهو من التشـــبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ماهو المقصود إلخ بين ماهو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة من أجزاء الجملتين "(١).

وقوله :" وما ظلمهم الله " استئناف مسوق لنفى الظلم عن الله تعالى ، والضمير إما للمنفقين أى ماظلمهم بضياع نفقاتهم التى أنفقوها على غير الوجه اللائق المعتد به، وإما للقوم المذكورين أى ماظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه لأنهم استحقوا ذلك"(٢)

وقوـــله :" ولكـــن أنفسهم يظلمون " مخففة من الثقيلة مهملة لمجرد الاستدراك ، وجاء الـــنفى فيـــه تأكيداً لما فهم من قبل إشعاراً وتصريحاً . لأنهم أضاعوها بإنفاقها لاعلى ماينبغى.

وقرئ " ولكن " بالتشديد على أن " أنفسهم " اسمها ، وجملة " يظلمون " خبرها والعائد محـــذوف ، والـــتقدير يظـــلمونها وليس مفعولاً مقدماً كما فى قراءة التخفيف ، وتقديم المفعـــول " أنفسهم " لرعاية الفواصل لا للتخصيص . إذ الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفـــاعل لا بـــالمفعول وإلا لا يتطابق الكلام لأن مقتضاه ـــ وما ظلمهم الله ولكن هم يظـــلمون أنفســـهم لا أنهم يظلمون أنفسهم لا غيرهم ، وهو فى الحصر لازم ، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار"(٣)

---

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٤٠٨/١ ، مجمع التفاسير ٥٧٢/١ ،محاسن التأويل٢٠١/٤ ، بدائع التفسير ٥٠٩/١ ، التسهيل ٢٠٧/١ ، ٢٠٨ .

(٢) روح المعانى ٣٧/٤ ، ابو السعود ٥٧/٢ .

(٣) السابقان نفسهما .

الأمـــر بالاعتدال فى الإنفـــاق :

٦ ـ قـــال تعـــالى :" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً"(١)

تحليل الآيـــة : التوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخـــل بهـــذا التوازن ، والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير فيرسم البخل يداً مغـــلولة إلى العـــنق ، ويرســـم الإسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً ، ويرســـم نهاية البخل و نهاية الإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور، والحسير فى اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفاً وعجزاً فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف وكذلك المسرف ينتهى به سرفه إلى وقفـــة الحسير ملوماً فى الحالتين على البخل وعلى السرف وخيرا الأمور الوسط.

وقولـــــه :" ولا تجعـــل يدك " أسلوب نهى مراد به الوعظ والإرشاد إلى التوسط والاعـــتدال وعـــدم الشـــح والبخل ، وعطفت الآية على ما سبق بالواو لبيان عدم الإسراف ، وعدم البخل بعد الحديث عن التبذير والمبذرين ــ فيما سبق ــ وحتى لا يكـــون هناك مدخل لمن تسول له نفسه عدم الإنفاق وأن الواجب هو إمساك اليد عـــن العطية فجاءت هذه الآية لترسم الحياة السوية للبشرية وتجعل لها ميزاناً تزن به منهجها وطريقتها.

وقولـــــه:"ولا تجعل يدك مغلولة "استعارة تمثيلية لمنع الشحيح وإعطاء المسرف. فقد شبه حال البخيل فى امتناعه عن الإنفاق والبذل والعطاء بحال من غلـــت يده

---

(١) الإســـراء / ٢٩ .

إلى عـــنقه فهو لا يقدر على التصرف فى شئ ، وشبه حال المسرف المبذر المتلاف بحـــال من يبسط يده كل البسط فلا يبقى على شئ فى كفه ولايدخر شيئاً ينفعه فى حال الحاجـــة ليخلص إلى نتيجة مجدية وهى التوسط بين الأمرين والاقتصاد الذى هو وسط بيـــن الإســـراف والتقتير"(١) وقد طوبق فى الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى لأن جعل اليد مغلولة هو قبضها وغلها أبلغ فى القبض٠

وقســـما الآية الذين بنيت عليهما هما " ولاتجعل يدك مغلولة " و " ولا تبسطها كل البســـط " تمـــثيلان لمـــنع الشحيح وإسراف المبذر زجراً لهما عنهما وحملاً على مابيـــنهما مـــن الاقتصاد ، وحيث كان قبح الشح مقارناً له معلوماً من أول الأمر روعى ذلـــك فى التصوير بأقبح الصور ، ولما كان غائلة الإسراف فى آخره بين قـــبحه فى أثره فقيل ــ فتقعد ملوماً ــ أى فتصير ملوماً عند الله وعند الناس وعند نفســـك إذا احتجت وندمت على مافعلت ــ محسوراً ــ نادماً أو منقطعاً بك لاشئ عندك من حسره السفر إذا بلغ منه "(٢)

<u>قال الشوكانـــى</u> :"وهذا النهى يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبى ــ صلى الله عـــليه وسلم ــ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمـــراد الـــنهى للإنســـان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ولايوســـع فى الإنفـــاق توسيعاً لاحاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً،فهو نهى عن جانبى الإفراط والتفريط ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط،وهو العدل الذى ندب الله إليه"(٣)

---

(١) محاسن التأويل ٢٢٣/١٠ ، تفسير الخازن ١٥٧/٤ ، حاشية الجمل ٦٢٣/٢ ٠

(٢) أبو السعود ١٦٨/٥ ، روح المعانى ٦٥/١٥ ٠

(٣) فتح القدير ٢٧٩/٣ ٠

ثـم يقول أيضـاً:" وقد مثل الله سبحانه فى هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لايستطيع التصرف بها، ومثل حال من يجاوز الحد فى التصـرف بحـال مـن يبسط يده بسطاً لايتعلق بسببه فيها شئ مما تقبض الأيدى عـليه، وفى هـذا التصـوير مبالغة بليغة ، ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهى عـنهما فقـال :ـ فـتقعد مـلوماً ـ عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ـ محسوراً ـ بسبب ما فعلته من الإسراف أى: منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر"(١) وليس المراد باليد هنا الجارحة على الحقيقة ، وإنما ذلك تمثيل أو كناية .

يقول الشريف الرضى :" وإنما الكلام الأول كناية عن التقتير والكلام الآخر كناية عن التبذير وكلاهما مذموم حتى يقف كل منهما عند حده،ولايجرى إلا إلى أمده"(٢)

وهـذه صـورة رائعـة من روائع التصوير البيانى فى القرآن الكريم وهى صـورة محسوسة تصل إلى جذور النفس ، فصورة اليد المغلولة إلى العنق يمكن لكـل واحد أن يتصورها بدون عناء ولا تكلف ، ولم يجعلها مغلولة فحسب ولكنها إلى العـنق كذلـك ، ووازن بين هذا التعبير وبين قولنا اجتنب البخل ، تجد فروقاً كـثيرة بين اللفظين ، وانظر إلى قوله " كل البسط " لتدرك أن النهى ليس عن أى حالة من حالات البسط ، وإنما عن البسط الذى فيه تفريط .

---

(١) فتح القدير ٣/ ٢٧٩ .

(٢) تلخيص البيان فى مجازات القرآن /١٥٠ .

وجعـل ابـن كثير ــ رحمه الله ــ قوله تعالى :" فتقعد ملوماً محسوراً " من باب اللـف والنشـر المـرتب(١) فقال :" أى فتقعد إن بخلت ــ ملوماً ــ يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك،ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلاشئ تنفقه فتكون كالحسير وهى الدابة التى عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً"(٢)

القرض الحسنُ وجزاؤه :

٧ ــ قال تعالى:"من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجركريم"(٣)

تحـليل الآيــة : وردت هذه فى البقرة أيضاً مع تغيير فى ألفاظ تذييلها ، وسنشير إلى سر التغيير هذا أثناء دراستنا لهذه الآية .

وقولــه تعـالى :" مــن ذا الذى " فيه وجوه أحدها : أن تكون " من " استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء و ــ ذا ــ اسم إشارة خبره ، وــ الذى ــ صفة له أوبدل منه ، ويصــح أن يكــون " مــن ذا " اســتفهاماً برأسه مرفوع المحل بالابتداء وــ الذىــ خبره ، ويصح أن تكون ــ ذا ــ مبتدأ و ــ الذى يقرض الله ــ صفة و ــ مــن ــ خــبر المبـتدأ قدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام أى أيقرض الله قرضاً حسنا ؟ "(٤)

(١) اللف والنشر المرتب هو أن يذكر متعدد ، ثم يتم بمتعدد آخر على ترتيبه فيسمــى مرتباً ، وإن كان غير مرتب سمى مشوشاً الإشارات والتنبيهات /٢٧٦ ، التبيان فى علم المعانى والبديــع والبيان /٣٩٩ للطيبى .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٦ مراجعــة الشيخ خالد محرم .

(٣) الحديد/ ١١ ، البقرة / ٢٤٥ ، التغابــن/١٧ " إن تقرضوا الله قرضاً حسناً " ، المزمــل/ ٢٠ " وأقرضــوا الله قرضاً حسناً " .

(٤) إعراب القرآن وبيانه ٩/ ٤٦٠ .

وقولـــــه :" من ذا الذى يقرض الله " إلخ ندب بليغ " من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله مؤكد للأمر السابق به(١) وللتوبيخ على تركه ، فالاستفهام ليس على حقيقته بل خرج فيه الاستفهام إلى معنى مجازى غرضه الحث والتنبيه ، والقرض الحسن يكــون بالإنفاق الخالص لله عز وجل وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات ، وقال مقاتل : يعنى طيبة بها نفسه"(٢)

قال القرطــبى :" قال القشيرى : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيــب النفس يبتغى به وجه الله دون الرياء والسمعة ،وأن يكون من الحلال ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردئ فيخرجه،وأن يتصدق فى حال يأمل الحياة"(٣)

وإقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلباً للثواب الآجل ، و " قرضاً " إما مصدر بمعنى ــ إقراضاً ــ فيكون منصوباً على المصدرية ، وإما بمعنى المفعول فيكــون منصــوباً عــلى المفعولية ، وقوله سبحانه :" حسناً " صفة للقرض على الوجهين ، وجهة الحسن على الأول الخلوص مثلاً ، وعلى الثانى الحل والطيب ، وأخــرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ القرض الحسن ــ المجاهدة والإنفاق فى سبيل الله تعالى ، وعليه يلتئم النظم أتم التئام "(٤)

---

(١) إشارة إلى قوله :" وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " وقوله " ومالكم ألا تنفقوا " الآيتين ٧ ، ١٠ من ســورة الحديد .

(٢) أبو السعود ٨ / ٢٠٦ ، روح المعانى ٢٧ / ١٧٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٠٨ .

(٤) روح المعانى ٢/ ١٦٢ ، أبو السعود ١/ ٢٣٨ .

وقولــــه :" من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً " استعارة تصريحية تبعية ، فقد شـبه الإنفـاق فى سبيل الله بإقراضه وإسلافه فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشــبه ثـم اشـتق مـنه ــ يقرض ــ بمعنى ــ ينفق ــ على طريق الاستعارة التصــريحية للتصريح بالمشبه به وحذف المشبه التبعية فى الفعل ، والقرينة عقلية لاســتحالة إعطاء الله إعطاءاً حقيقياً ، والجامع إعطاء شئ بعوض ، ومعنى كونه ــ حسناً ــ أى خالصاً من شوائب الرياء • أما القرض الذى يدفع إلى الإنسان من المــال بشــرط رد بدله فهو سنة مؤكدة ، وقد يجب للمضطر ، ويحرم على من يســتعين بــه عــلى معصــية • هــذا على أن التجوز فى الفعل ــ يقرض ــ ، **والأبــلغ** : أن التجوز فى مجموع الجملة وعليه فالآية من قبيل الاستعارة التمثيلية فقد شبهت حال الذى ينفق ماله فى سبيل الله تعالى مخلصاً متحرياً أكرمه وأفضل الجهات رجاء أن يعوضه سبحانه بدله • بحال من يقرض المال لمن يستحقه وهو الله تعالى قرضاً واجب الوفاء والسداد والزيادة فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه بــه وهــو الإقــراض للمشــبه وهو الإنفاق ، والجامع الهيئة الحاصلة من البذل والإعطاء والإخلاص ورجاء الزيادة•

وقولــــه :" فيضاعفه له " منصوب فى جواب الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل: أيقرض الله أحد فيضاعفه له أى فيعطيه أجره أضعافاً•

وقوله :" فيضاعفه " مجاز مرسل لعلاقة السببية أى يضاعف القرض فهو سبب ، والمضاعفة مسببة عنه ، وصيغة المفاعلة ليست على بابها•

ـ كمـا قيـل ـ إذ لا مشـاركة ، وإنما اختيرت للمبالغة المشيرة إليها المغالبة ، والمضاعفة إشارة إلى أنه تعالى يضم إلى قدر الثواب مثله من التفضيل ٠

قـال الشـيخ أبو حيان :" وقرأ عاصم ـ فيضاعفه ـ بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام وفى ذلك قلق ٠ قال أبو على الفارسى : لأن السؤال لم يقع على القرض وإنمـا وقـع السؤال على فاعل القرض وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مسـتفهم عنه لكن هذه الفرقة يعنى من القراء حملت ذلك على المعنى ٠ كأن قوله ـ من ذا الذى يقرض ـ بمنزلة أن لو قال : أيقرض الله أحد فيضاعفه ؟ "(١)

وقـد وصف أبو حيان كلام أبى على الفارسى بالخطأ ووسمه بعدم الصحة فقال : " وهـذا الذى ذهب إليه أبو على من أنه إنما تنصب الفاءُ فعلاً مردوداً على فعل مسـتفهم عـنه ليس بصحيح بل يجوز إذا كان الاستفهام بأدواته الإسمية نحو من يدعونى فاستجيب له وأين بيتك فأزورك ؟ فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعى وعن ظرفى المكان والزمان والحال لا عن الفعـل"(٢)

وقوله:"وله أجر كريم"قدم فيه المسند على المسند إليه للتنبيه على أنه خبر لا نعـت، والمـراد : وذلك الأجر المضموم إليه الإضعاف ـ كريم ـ مرضٍ فى نفسه حقيق بأن يتناقس فيه المتنافسون ، ففيه إشارة إلى أن الأجر كما أنه زائد فى الكم بالغ فى الكيف فالجملة حالية لا عطف على ـ فيضاعفه ـ وجوز العطف والمغايرة ثابتة بين الضعف والأجـر نفسـه فـإن الإضعاف من محض الفضل والمثل فضل هو أجر"(٣) والأجر الكريم عبارة عن الثواب ٠

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢١٩ ٠

(٢) السابق ٨/ ٢٢٠ ٠ (٣) روح المعانى ٢٧ / ١٧٤ ، أبو السعود ٨/ ٢٠٧ ٠

وقـــراءة " فيضـــاعفه " بالنصب قراءة متواترة والفعل وقع صلة لقوله ــ الذى ــ و ــ الذى ــ صفة لــ ــ ذا ــ و ــ ذا ــ خبرا ــ من ــ .

قـــال أبو حيان ــ رحمه الله ــ :" والظاهر أن قوله " وله أجر كريم " هو زيادة على التضعيف المترتب على القرض أى وله مع التضعيف ــ أجر كريم ــ"(١)

وفى سورة البقرة:" فيضاعفه أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون"(٢) و " أضعافاً" جمع ضعف ، وهى حال مبينة(٣) من الهاء .

قال الشيخ أبو البقاء :" و ــ أضعافاً ــ جمع ضعف ، و ــ الضعف ــ هو العين وليـــس بالمصدر ، والمصدر الإضعاف أو المضاعفة ، فعلى هذا يجوز أن يكون حالاً من الهاء فى ــ يضاعفه ــ ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً على المعنى ، لأن معـــنى ــ يضاعفه ــ يصيره أضعافاً ، ويجوز أن يكون جمع ضعف ، والضعف اســـم وقـــع موقع المصدر كالعطاء ، فإنه اسم للمعطى ، فإن قيل : فكيف جمع ؟ قيـــل : لاختلاف جهات التضعيف بحسب اختلاف الإخلاص ، ومقدار المقرض ، واختلاف أنواع الجزاء"(٤)

و " كثيرة "صفة لأضعاف ، ووجود هذه الصفة يرجح إعرابه حالاً ــ كما قيل ــ و " كثيرة " أى لايعلم قدرها إلا الله تعالى .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٠ .

(٢) البقرة / ٢٤٥ .

(٣) مبينة أى مؤكدة أى ما أكدت عاملها وبينته . شرح ابن عقيل ٥٩٢/١ ومابعدها.

(٤) إملاء ما من به الرحمـــن ١/ ٢٠٢ .

وقولـــــه :" والله يقبض ويبسط " جملة استئنافية معطوفة على ما سبق ، موصولة بهــا، لكون الأولى إنشائية فى المعنى ، والثانية خبرية لفظاً ، والمراد : يقتر على بعــض ويوسع على بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه الحكمة التى دق ســـرها وجل قدرها، وإذا علمتم أنه هو القابض والباسط وأن ماعندكم إنما هو من بسطه وعطائه فلا تبخلوا عليه فأقرضوه وأنفقوا مما وسع عليكم ، وقيل : إن المعــنى يقبض الصدقات ، ويبسط الجزاء عليها فالكلام كالتأكيد والتقرير لما قبله ووجه تأخير البسط عليه ظاهر ، ووجه تأخيره على ـــ القبض ـــ الإيماء إلى أنه يعقــب القــبض فى الوجود تسلية للفقراء"(١) " وإليه ترجعون " قدم المسند الجار والمجرور على جملة ـــ ترجعون ـــ إذ التقدير ـــ رجوعكم ـــ وقدم لقصر المسند عــلى المســند إليه وتخصيصه به والمراد : ترجعون إليه لا إلى غيره فيجازيكم على حسب ما قدمتم من الأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وجمــلة " وإليــه تــرجعون " خــبرية معــناها الوعيد ، وبين قوله " فيضاعفه " و"أضــعافاً " جــناس مغاير وهو ما يعرف بالأشتقاق وهو أن يجمع اللفظين أصل واحد فى اللغة ، وكذلك الطباق بين الفعلين " يقبض " و " يبسط "

قــال الإمــام الفخر الرازى :" إنه تعالى ضمن على هذا القرض الحسن أمرين ـــ أحدهمــا ـــ المضاعفة على ما ذكر فى سورة البقرة ، وبين أن مع المضاعفة له أجر كريم ، وفيه قولان : ـــ الأول ـــ وهو قول أصحابنا أن المضاعفة إشارة إلى أنــه تعــالى يضــم إلى قدر الثواب مثله من التفضيل والأجر الكريم عبارة عن الثواب، فإن قيل مذهبكم أن الثواب أيضاً تفضل فإذا لم يحصل الامتياز لم يتــم

(١) روح المعانى ٢/١٦٣ ، أبو السعود ١/ ٢٣٨ .

هــذا ــ الجــواب ــ أنـــه تعالى كتب فى اللوح المحفوظ • أن كل من صدر منه الفعــل الفــلانى ، فله قدر كذا من الثواب ، فذاك القدر هو الثواب ، فإذا ضم إليه مــثله فذلك المثل هو الضعف ، ــ والقول الثانى ــ هو قول الجبائى من المعتزلة أن الأغــواض تضم إلى الثواب فذلك هو المضاعفة ، وإنما وصف الأجر بكونه كــريماً لأنه هو الذى جلب ذلك الضعف ، وبسببه حصلت تلك الزيادة فكان كريماً من هــذا الوجــه"(١) والله أعلـــم•

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ •

الحياة الدنيا وزخرف الأرض لإبقاء للجميع :

١ــ **قال تعالى** : " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون * والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم " (١) ٠

تحليل الآيتين : قوله تعالى : " إنما مثل الحياة كماء أنزلناه " كلام مستأنف مسوق لبيان حال الدنيا وسرعة تقضيها وأنها بعد أن تستهوى الأعين برونقها تجمل أهلها على أن يسفك بعضهم دم بعض ويمتشقوا الحسام فيما بينهم لتعكير صفو السلم الذى يجب أن يسود بينهم وضرب لذلك مثلاً من التشبيه المركب ٠

قال الشيخ أبو حيان ــ رحمه الله ــ " مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال ــ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ــ (٢) ضرب مثلاً عجيبا غريبا للحياة الدنيا تذكر من يبغى فيها على سرعة زوالها وانقضائها وأنها بحال ما تعز وتسر تضمحل ويؤول أمرها إلى الفناء " (٣)

ولما كانت هذه الآية واقعة موقع الاستئناف فصلت عن سابقها لشبه كمال الاتصال ، وليس المراد تشبيه الدنيا بالماء مفردا ٠ بل المراد تشبيه حالها فى

---

(١) يونس / ٢٤ ، ٢٥

(٢) يونس / ٢٣

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤١

" المبحـــث الثالـــث "

" التشبيهـــات الخاصة بالحديث عن الحياة الدنيـــا "

نضـــارتها وبهجتها وما يعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن " (١) ٠

وصيغة القصر " إنما مثل " لتأكيد المقصود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا لأن حالهم فى الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه وينكر أن يكون له انقضاء سريع ومفاجئ والمعـــنى: قصر حالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف ، فالقصر قصر قلب ، بنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة " (٢) ٠

والآيـــة ــ كمـــا ذكرنا ــ من قبيل التشبيه المركب ــ التمثيلى ــ شبهت حال الدنيـــا فى ســـرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال واغترار الناس بها بحال نـــبات الأرض فى جفافـــه وذهابـــه حطامـــا بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضـــرته ورفيقه وظن الناس أنه قد سلم من الجوائح " (٣) ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من سرعة الزوال وانقراض النعيم بعد الإقبال ، والاغترار به ٠

وخص التشبيه بماء السماء دون ماء الأرض ٠ " لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص بخلاف ماء الأرض فكان تشبيه الحياة به أنسب " (٤)

---

(١) الإيضاح ٤/ ٦٧ ، ٦٨ ت خفاجى

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٤١ ٠

(٣) الكشاف ٢/ ٢٣٣

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٣٤٢

وذهــب الشــيخ أبو حيان وتبعه الشيخ الجمل فى خاشيته إلى أن : " إنما هنا ليســت للحصر لا وضعاً ولا استعمالا لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالا غير هذا " (١)

وهذا التباس على أبى حيان ــ رحمه الله ــ لأن الشيخ لو راعى السياق الذى جــاءت فيه " إنما " لأدرك أننا لو انتزعنا من " إنما " إفادتها القصر ، وخلصناها للــتوكيد فقــط لأغفلــنا قدرًا كبيراً من المعنى المراد من مجيئها وهو حسم شبهة المنكرين ، والتعريض بفضلهم وغبائهم ، ولما كان وراء ذلك أكثر من إثبات هذه الصــفة لــلحــياة الدنيا وليس هذا هو المراد فحسب ، وإنما المراد هذا النفى بعد الإثــبات المســتفاد مــن ــ إنما ــ وهو نفى أن تكون الحياة الدنيا كما توهموها فانكبوا عليها وتعلقوا بها ، وهذا هو خلاصة المعنى المراد •

و ــ الحيــاة الدنيــا ــ كما قال صاحب التحرير والتنوير : " تطلق على مدة بقاء الأنــواع الحيــة على الأرض وبقاء الأرض على حالتها • فإطلاق اسم ــ الحياة الدنيــا ــ عــلى تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها فــهى دنيــا ، ووصفها بــ ــ الدنيا ــ بمعنى القريبة أى الحاضرة غير المنتظرة كــنىً عــن الحضور بالقرب ، والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهى الحياة بعد الموت " (٢) ، والتشبيه هنا تشبيه معقول بمحسوس لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تقلص بهجة الحياة •

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٢ والنهر الماد بهامشه ، حاشية الجمل ٢/ ٣٤٢

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣٠ ، ٣٣١٠

والتشـــبيه بالماء دليل على عدم البقاء والاستمرار كما لو قبض الإنسان على المـــاء بأصابعه فلا يبقى شئ منه البتة كما قيل : كقابض على الماء خانته فروج الأصـــابع . والتشـــبيه فى الآية كثرت فيه الجمل ــ كما يقول الإمام عبد القاهر الجـــرجانى ــ رحمه الله ــ : " إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا مخصا كـــانت الحاجـــة إلى الجملة أكثر . ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل ــ إنما مثل الحيـــاة الدنيـــا ــ الآية كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمـــل إذا فصـــلت ، وهى وإن كـــان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحـــدة . ثـــم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه " (١)

يقـــول ابن ناقيا البغدادى : " والتشبيه فى الآية أحسن موقعا ، وأبلغ معنى من جميـــع مـــا وصف به حال الدنيا ، وقيل النفوس إليها مع قلة صحبتها والاستمتاع بلذتها " (٢) .

وقوله : " كما " نكرة مرادها التشريف والتعظيم لهذا الماء الذى به بدأ الحياة ، ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى : " أنزلناه " وهذا الفعل لا يذكر فى القرآن بهذه الصيغة إلا فى مواضع التشريف والتكريم والتعظيم ــ كما هو معلوم ــ

---

(١) أسرار البلاغة / ٧٩ ــ رشيد رضا ، نهاية الإيجاز / ٦٧ ، الإيضاح ٤/ ١١٣ ت خفاجى

(٢) الجمان فى تشبيهات القرآن / ١٠٠

قـــال الزركشـــى : " قال بعضهم " شبه الدنيا بالماء ، ووجه الشبه " أمران : أحدهمـــا أن المـــاء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت ، وإن أخذت قدر الحاجة انـــتفعت بـــه ، فكذلـــك الدنيا ، وثانيهما أن الماء إذا أطبقت كفك عليه لتحفظه لم يحصـــل فيه شئ ، فكذلك الدنيا ، وليس المراد تشبيهتها بالماء وحده ، بل المراد تشـــبيهه بهجة الدنيا فى قلة البقاء والدوام بأنيق النبات الذى يصير به وتلك البهجة والغضاضة والطراوة إلى " ما ذكر " (١)

وقوله : " من السماء " تأكيد لسمو هذا الماء وطهارته ونقائه وعلو مصدره و ــ السماء ــ إما أن يراد من السحاب وإما أن يراد من جهة السماء وعليه فــ" من " ابتدائية ٠

قـــال أبـــو حيـــان : " والمثل هنا يحتمل أن يراد به الصفة وأن يراد به القول الســـائر المشـــبه به حال الثانى بالأول والظاهر تشبيه صفة الحياة الدنيا بماء فيما يكـــون بـــه ويـــترتب عليه من الانتفاع ثم الانقطاع ، وقيل : شبهت الحياة الدنيا بالنـــبات على تلك الأوصاف فيكون التقدير كنبات ماء فحذف المضاف ، وقيل : شـــبهت الحيـــاة بحيـــاة مقدرة على هذه الأوصاف فيكون التقدير كحياة قوم بماء أنزلناه من السماء ــ قيل:ويقوى هذا قوله ــ وظن أهلها أنهم قادرون عليها٠٠"(٢)

واســـتعمال ضـــمير العظمـــة ــ نا ــ فى الفعل ــ أنزلناه ــ دليل على شرف المنزل والمنزل معاً ٠

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣/ ٤٢٢ ٠

(٢) البحر المحيط ٥/ ١٤١

وقولــه : " فاختلط به نبات الأرض " معطوف على ما سبق ، والباء فى قوله " به " قيل : إنها للسببية ــ كما ذكر الزمخشرى ــ والمعنى عليها : فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا " (١) ، وقال أبو السعود : " قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح " (٢) ٠

ويرى **أبو حيان** أنها للمصاحبة فيقول : " والظاهر أن النبات اختلط بالماء ، ومعنى الاختلاط تشبثه به وتلقفه إياه وقبوله له لأنه يجرى له مجرى الغذاء فتكون الباء للمصاحبة وكل مختلطين يصح فى كل منهما أن يقال اختلط بصاحبه فلذلك فسره بعضهم بقوله خالطه الماء وداخله فغذى كل جزء منه " (٣) ٠

وأوضح **الألوسى** معنى المصاحبة بقوله : إن النبات اختلط بالماء نفسه فإنه كالغذاء له فهو يجرى فيه ويخالطه " (٤) ٠

وهذه الجملة موصولة بسابقتها بالفاء الدالة على التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر فيؤذن بسرعة نماء الحياة فى أول أطوارها ، وعبر عنه بالاختلاط بالماء بحيث ظهر قبل جفاف الماء ، أى فاختلط النبات بالماء أى جاوره وقارنه ٠

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٣ ٠

(٢) أبو السعود ٤/ ١٣٧ ٠

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤١ ٠

(٤) روح المعانى ١١/ ١٠٠ ٠

وقولـــه : " نبات الأرض " توكيد لمعنى الضعف والطراوة ثم ما آل إليه حاله بعـــد اخـــتلاطه بالماء فطال وامتد وقوى واشتد وتكاثف وتكاثر ، واشتبك بعضه بـــبعض ، وهـــذا يـــوحى بنضارة العيش ونعيمه وإقبال زهرة الحياة الدنيا وكيف تألقت نضرتها فى العين وأشرقت بهجتها فى النفس فأقبل عليها الإنسان وافتتن بها

وقـــــال الإمام الفخر : " إنه تعالى بين فى هذا التشبيه أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد ، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا تحصل له عاقبة تحمد" (١)

ولـــك أن تتأمل استئناس الماء نبات الأرض ٠ حتى لان له واختلط به ، وكيف أسرع فى بعث الحياة ولا زال الجو رطبا نديا فتكاثر النبات وتكاثف ٠

وقولـــــه : " مما يأكل الناس والأنعام " جار ومجرور فى موضع الحال ، وجملة ـــ يـــأكل الـــناس ـــ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ، والجملة جميعها وصـــف لنبات الأرض الذى منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول ، وأصـــناف يأكـــلها النعام من العشب والكلأ ، وذلك يشبه به ما ينعم به الناس فى الحيـــاة من اللذات وما ينعم به الحيوان ، فإن له حظاً فى نعيم الحياة بمقدار نطاق حياتـــه ، فجاء قوله : " مما يأكل الناس والأنعام " وصفاً لحال هذا النبات ، فليس هـــو النبات الذى يبهج منظره وتسر له النفوس فقط ، بل هو النبات الذى يكون به قوام حياة الناس والأنعام جميعا ٠

---

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٧٧ ٠

قــال الشيخ أبو حيان : " ولما كان النبات ينقسم إلى مأكول وغيره بين أن المراد أحد القسمين بـ ـ من ـ فقال ـ مما يأكل الناس ـ كالحبوب والثمار والبقول ـ والأنعام ـ كالحشيش وسائر ما يرعى " (١) ٠

ولــو أراد سبحانه وتعالى وصف تنوع المأكل لقال : " مما يأكل الناس ويأكل الأنعــام ـ ولكــن هذه المشاركة فى الفعل أوحت بهذه المخالطة فى طلب المتعة والتــلذذ ، والتعــبير بــالأكل عن التمتع بالحياة تعبير سخى جداً يجسم فى الخيال صــورة حســية لهــذا التمتع ٠ يشارك فى إدراكها الحس والذوق وهو أبلغ فى الإحساس ، مما يؤدى إلى تعميق هذا فى النفس ومن ثم ترغيبها عنه " (٢) ٠

والمغايرة فى التعبير عن طريق الالتفات من الماضى الذى سارت عليه الآية فى الأفعــال السابقة إلى المضارع " يأكل " لإيقاظ النفوس ولفت الأنظار وتنبيهها إلى ضــرورة التأمل والتفكر فى هذه الصورة الحافلة بالحركة ، والسعى الحثيث المــتجدد فى طــلب التمتع ، ترى فيه الناس والأنعام لا يفتأون منكبين متهالكين ، يأكــلون كلما أفاقوا من لذة فزعوا إلى أخرى فى حرقة ونهم وعشق حارق للحياة فهــؤلاء ـ الــناس والأنعــام ـ لا يزالون يأكلون ، ولكن ماذا يأكلون ؟ يأكلون الحصيد ويأكلون الفناء ٠

قــال الخازن ـ رحمه الله ـ : " ووجه التمثيل أن غاية هذه الحياة الدنيا التى ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به وقــع

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٣٠

(٢) أسرار التنوع فى تشبيهات القرآن /٤٥٠

اليــأس منه ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها " (١)

وقولـــــه : " حــتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت " غاية شبه بها بلوغ الانــتفاع بخيــرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتمامه وتكاثر أصنافه ، وانهماك الناس فى تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء ٠

" وفى معنى الغاية المستفاد من ــ حتى ــ ما يؤذن بأن بين مبدأ ظهور لذات الحياة وبين منتهاها مراتب جمة وأطواراً كثيرة طويت فى معنى ــ حتى ــ " (٢)

وقولـــــه : " **أخذت الأرض زخرفها وازينت** " استعارة مكنية كما عليه كلمة ــ بعــض القوم ــ شبهت الأرض بالمرأة العروس تريد الزينة فتحضر فاخر الثياب من الحلى والألوان ، وحذف المشبه به ، وأقيم المشبه مقامه وإثبات أخذ الزخرف لها تخييل ، وذكر الفعل" ازينت " ترشيح للاستعارة إذ المرأة تأخذ زخرفها للتزين

قـــال أبو حيان : " وقوله ــ أخذت الأرض زخرفها وازينت ــ جملة بديعة الــلفظ جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخــذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتست وتزينت بأنواع الحلى فاستعير الأخذ وهـــو التناول باليد لاشتمال نبــات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة واستعير لتلك البهجة والنضارة ، والألوان المختلفة لفظ الزخرف وهو الذهب لما

---

(١) تفسير الخازن ٣/ ١٨٤ ، مجمع التفاسير ٣/ ٢٤٥٠

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٤٣.

كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس ــ وازينت ــ أى بنباتها وما أودع فيــه من الحبوب والثمار والأزهار ، ونسبة الأخذ إلى الأرض والتزيين من بديع الاستعارة " (١)

وقولــه : " وظن أهلها أنهم قادرون عليها " معطوف على ما سبق ، والمراد ظــنوا ــ أى أهل الأرض ــ أنهم متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلــتها ، وقيل : الكناية للزروع ، وقيل : للثمرة ، وقيل : للزينة لانفهام ذلك من الكلام " (٢)

والظــن ــ هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزين ، وقيل : بمعنى أيقنوا وليس بســديد ، ومعــنى القــدرة عليها التمكن من تحصيلها ومنفعتها ورفع غلتها وذلك لحســن نموها وسلامتها من العاهات ، والضمير فى " أهلها " عائد على الأرض وهو على حذف مضاف أى أهل نباتها ، وقيل : عائد على الغلة " (٣)

ومعــنى " أنهــم قــادرون عليها " أنهم مستمرون على الانتفاع بها محصلون لــثمراتها فأطــلق على التمكن من الانتفاع ، والتعبير بالجملة الاسمية دلالة على الــدوام والاســتمرار ، واستعمال لفظ القدرة على سبيل الاستعارة التبعية فى اسم الفاعل ، والقرينة قوله "عليها " مع ما اشتمل عليه القول من التأكيدات الظاهرة فيه

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٣.

(٢) روح المعانى ١١/١٠١.

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤٤.

وقولـــه : " **أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً** " جواب ــ إذا ــ وفى هذا إشارة الإرادة الاستئصال فهو ينذر بالتهديد للكافرين ، ويجعل التمثيل أعلق بحياتهم ، ومما زاد هــذه الإشارة وضوحا قوله السابق " وظن أهلها أنهم قادرون عليها " المؤذن بأن أهلها مقصودون بتلك الإصابة .

وأمــر الله تقديره وتكوينه ، وإتيانه : هو إصابة تلك الأرض بالجوائح المعجلة لها باليبس والفناء ، والمراد : نزل بها ما قدرناه من العذاب ، وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم " (١)

وقولــه: " ليلاً أو نهاراً " ظرف متعلق بالفعل " أتاها " أى جاءها فى ليل أو فى نهــار ، ولعــل المراد الإشارة إلى أنه لا فرق فى إتيان العذاب بين زمن غفلتهم وزمن يقظتهم إذ لا يمنع منه مانع ولا يدفع عنه دافع .

وقيل:ــ أتاها أمرنا ــ بإهلاكها وأبهم هذا الإهلاك فى قوله ــ ليلاً أو نهاراً ــ وقــد عــلم تعالى متى يأتيها أمره ، أو تكون ــ أو ــ للتنويع لأن بعض الأرض يأتيها أمره تعالى ليلاً وبعضها نهاراً ولا يخرج كائن عن وقوعه فيهما"(٢)

وقولـــــه : " فجعلـــناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس " معطوف على ماسبق ، والجعــل ــ كمـــا قال الراغب ــ : " عام فى الأفعال كلها ، ومن معانيه تصيير الشئ على حالة دون حالة " (٣) .

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٣ ، أبو السعود ٤/ ١٣٧ ، روح المعانى ١١/ ١٠١ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ١٤٤ ، حاشية الجمل ٢/ ٣٤٢ .

(٣) المفردات / ٩٤ مادة جعل .

و‍ـ الحصـــيد ـ المحصود فعيل بمعنى مفعول ، والمراد به الزرع المقطوع مـــن منابته والإخبار عن الأرض بـــ " حصيدا " على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المفعوليـــة وإنما المحصود نباتها ، والمعنى : فجعلنا زرعها ـ حصيداً ـ شبيهاً بما يحصد من الزرع فى قطعه واستئصاله " (١)

وهـــنا مـــلحظ قوى وهو أن حال هذه الأرض بعد أن عظم الانتفاع بهذا النبات وكمـــل حسنه وبهجته ودنت قطوفه وظنوا أنهم قادرون عليه متمكنون من الانتفاع بغلـــته وقـــع اليأس منه إذ باغتهم أمر الله فأحاط بهذا الزرع فجعله حصيـــــداً ٠ قال قتادة : " إن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون " (٢)

وحـــذف المضاف ٠ نباتها ـ وإضافة الجعل إلى الأرض للمبالغة " حيث أفاد ظاهـــر الكلام جعل الأرض نفسها حصيدا ، وكأنها نفسها لم تكن لتغيرها بتغير ما فيها " (٣) ٠

وقولـــــه : " فجعلناها حصيداً " استعارة تصريحية أصلية لأن أصل الكلام ـ جعلنا نباتها هالكاً فشبه الهالك بالحصيد وأقيم اسم المشبه به مقامه ٠

<u>ويـــرى العلامـــة السكاكى</u> : أن فى الكلام استعارة مكنية فيقول : " فالمستعار له الأرض المزخـــرفة المتزيـــنة والمستعار منه النبات وهما حسيان والجامع الهلاك وهو أمر معقول " (٤)

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٣ ٠

(٢) تفسير الخازن ٣/ ١٨٤ ٠

(٣) روح المعانى ١١/ ١٠١ ٠

(٤) مفتاح العلوم / ١٨٤ ٠

ومعـــنى كلامــــه : أن الأرض المزخرفة والمزينة مشبهة بالنبات الفاخر المونق الـــذى ورد عليه ما يزيله ويفنيه وجعل ــ الحصيد ــ تخيلاً وهو قرينة الاستعارة المكنية .

وقوله : " كأن لم تغن بالأمس " على حذف المضاف والتقدير : كأن لم يغن نباتها أى لم يمكث ولم يقم ، وهذا مبالغة فى التلف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبل ولم يقم بالأرض بهجة خضرة نضرة تسر أهلها فجاء قوله ذلك توكيداً لما قبله(١)

وقولـــه : " بالأمس " مثلٌ فى الوقت القريب كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً (٢) .

والمراد فيما قبل إتيان أمرنا بزمان قريب فإن الأمس مثل فى ذلك .

وقولـــــه : " كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون " تذييل جامع ، والمعنى مثلُ هذا التفصيل ــ نفصل ــ أى نبين الدلالات على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع . فهذه آية من الآيات المبينة وهى واحدة من عموم الآيات ، و ــ اللام ــ فى قوله : " لقـــوم يتفكرون " لام الأجل أى لأجل قوم أى مثل هذا التفصيل الذى فصلناه فى الماضـــى نفصـــل فى المستقبل هذه الآية الجليلة الشأن المنبهة على أحوال الحياة الدنيـــا نوضـــحها ونبيـــنها ــ لقوم يتفكرون ــ فى معانيها ويقفون على حقائقها ، وتخصيصـــهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها ، وفى هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بالآيـــات ليســـوا من أهل التفكر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم ، واستخدام الفعل المضارع دلالة على تجدد الفكر وحدوثه وللإشارة إلى أنه تفكير شديد ومتكـــرر لا ينقطع ولا يزول .

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٣ .

وقولــه : " والله يدعو إلى دار السلام " معطوف على قوله : " كذلك نفصل " السابق ، والمراد : نفصل الآيات التى منها آية حالة الدنيا وتقضيها ، وندعوا إلى دار الســلام دار الخلد ، وعدل فى قوله " والله يدعو " عن الإضمار إلى الإظهار فوضــع هذا موضع قوله ــ ندعو ــ لأن الإضمار فى الجملة يجعلها محتاجة إلى الجملة التى فيها المعاد ، وحذف مفعول " يدعو " لقصد التعميم ، والمراد : يدعو كل أحد ، والدعوة هى الطلب والتحريض وهى هنا أوامر التكليف ونواهيه ٠

وقولــــه : " والله يدعــو " إلــخ ترغيب للناس فى الحياة الأخروية الباقية إثر ترغيــبهم عن الحياة الدنيا الفانية أى يدعو الناس جميعاً إلى دار السلامة عن كل مكــروه وآفة وهى الجنة ، وإنما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضــاً للآفــات أو إلى دار الله تعالى وتخصيص الإضافة التشريفية بهذا الاسم الكــريم للتنبيه على ذلك أو إلى دار يسلم الله أو الملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض (١) ٠

وقولــــه : " ويهدى من يشاء " مبنى على حذف المفعول والتقدير : من يشاء هدايته منهم ٠

قــــال الشــيخ أبو حيان : " ولما كان الدعاء عاماً لم يتقيد بالمشيئة ، ولما كانت الهداية خاصة تقيدت بالمشيئة فقال : ــ ويهدى من يشاء " (٢) ٠

---

(١) أبو السعود ٤/ ١٣٧ ، ١٣٨ ٠

(٢) البحر المحيط ٥/ ١٤٥ ٠

وقولـــــه : " إلى صــراط مستقيم " استعارة تصريحية أصلية شبه الدين الحق بالصــراط المستقيم فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه والجامع الاستقامة والاعتدال فى كل ، والقرينة لفظ ــ إلى ــ لأن الإنسان يهدى إلى الشئ فيدل عليه

والمراد بالصراط المستقيم الطريق الموصل إلى تلك الدار الأخروية ، والتزود بالتقوى والإيمان والعمل الصالح المقرب إلى جنان الخلد .

الحياة الدنيا والهشيم الذى تذروه الريح :

٢ــ قــال تعالى : " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً " (١)

تحـليـل الآيــة : قوله : " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء " استئناف مسوق لبيان حال الدنيا . فلما بين تعالى فى قوله : " واضرب لهم مثلاً رجلين " (٢) حال الكافر والمؤمن وما آل إليه ما افتخر به الكافر من الهلاك بين فى هذا المثل حال الحياة الدنيا واضمحلالها ومصير ما فيها من النعيم والترفه إلى الهلاك .

والمعـــنى : " واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئــنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صحفاً بالمرة ، أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل " (٣)

---

(١) الكهف / ٤٥ .

(٢) الكهف /٣٢ .

(٣) أبو السعود ٥/ ٢٢٤ ، روح المعانى ١٥/ ٢٨٥ .

وتقديـــم ضمير الغيبة فى قوله " واضرب لهم " على المفعول به " مثل " لمزيد العناية والاهتمام بضرب المثل لهؤلاء الغافلين،وكأنهم لشدة غفلتهم ضمير غائب ، وغيـــبة الضـــمير تـــوحى بفقـــدان الحس ، وفيه تحقير لهم وازدراء لشأنهم لعدم تشـــريفهم بالخطاب ، والضمير عائد على المشركين كما يدل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية فى ــ وحشرناهم ، وــ نغادر ــ جئتمونا ، خلقناكم " (١) ٠

والمـــراد بقولـــــه : " الحياة الدنيا " أى القريبة الحاضر غير المنتظرة٠كنى عن الحضور بالقرب،والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهى الحياة بعد الموت"(٢)

والكـــاف فى قولـــه " كماء " فى محل نصب مفعول به ثان أى صير لهم مثل إلخ وقيل : إن الكاف متعلقة بمحذوف صفة لمصدر محذوف أى ضربا كماء ٠

والمـــراد صفتها وحالها وهيئتها كصفة وحال وهيئة ماء ، أو اضرب لهم مثلا لهـــا حـــال أنهـــا ــ كمـــاء أنزلناه ــ أى أنها فى محل نصب حال من " الحياة " المضاف إليه ــ مثل ٠ " (٣)

وقولـــه : " فاختلط به نبات الأرض " معطوف على ما سبق ٠ لكثرته وتكاثفه ووفـــرته الـــتف بعضه ببعض فهو فى غاية الخصب والنضارة ، والازدهار ، أو المراد أن الماء دخل فى النبات حتى روى واهتز ورف ٠

---

(١) الكهف /٤٧ ، ٤٨ ٠

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١ ٠

(٣) حاشية الجمل ٣/ ٢٧ ، التسهيل ٢/ ٣٤٥ ، روح المعانى ١٥/ ٢٨٥ ٠

وقولــه : " أنزلناه " دلالة على شرف المنزل والمنزل ، وهو الماء إذ به تحيى الدنيا ويعيش العباد وتنموا البلاد ، واستعمال ضمير العظمة أدل على هذا الشرف وأسمى مكانة وأرفع شأنا ، و " من السماء لعلوه أى من السحاب المسخر ، أو من جهــة السماء فــ " من " ابتدائية أى يبتدأ نزوله من السماء ، وذكر ـــ الأرض ـــ بعد ذكر ـــ السماء ـــ محسن الطباق وهو محسن معنوى رائع .

والباء فى " به " سببية أى اختلط بسببه أى اختلط بعضه ببعض .

وفى الآيــــــة تشـــبيه تمثيــلى مقلوب : من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس . فالمشبه : حال الدنيا فى إقبالها ونضرتها ، وغرور الإنسان بها ، وإسراع زوالها وانقــراض نعيمها ، والمشبه به : حال النبات وقد اختلط به الماء فنما وازدهر ، وزيــن الأرض حتى تعلق به أصحابه ، وظنوا أنه قد أصبح بمأمن من الآفات ، وبمنجى من المهلكات ، إذا هو ييبس ويزول،ويصبح كأن لم يكن ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من أن كلاً منهما ينمو ويزهو حتى يكون فى حالة تسر وتغر ، ثم لا يلبث أن يزول .

قـــال العلامة الزمخشرى : " شبه حال الدنيا فى نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكــن " (١)

وكـــون التشبيه مقلوباً هنا لأن حق التركيب : فاختلط بنبات الأرض ، ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه فعكس للمبالغــة

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٦ .

في كـــثرته ــ كما هي قاعدة هذا التشبيه ــ وإن شئت قلت : " لما كان الاختلاط عبارة عن شيئين متداخلين صدق على كل منهما أنه مختلط ومختلط به ، لكن في عـــرف اللغة والاستعمال دخول الباء على الكثير غير الطارئ فلذا جعل هذا من القـــلب ، ولمـــا كـــان القلب مقبولاً إذا كان فيه نكتة ، أشار إلى نكتته بعد ما بين المصـــحح له وهو أن كلاً منهما مختلط ومختلط به ، وهي المبالغة في كثرة الماء حتى كأنه الأصل الكثير فالمراد بالعكس هنا القلب " (١)

وتشبيه الدنيا بالماء لعدم استقرارها وبقائها كعدم استقرار الماء في اليد حين تناوله فهو لا يبقى لقابض عليه ، وكذلك الدنيا لا بقاء لها على أي حال ٠

قـــال أبو عبد الله القرطبي : " وقالت الحكماء : إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع ، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم عـلى حالـــة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء لا يبتل ويذهب ، كذلك الدنيا تفنى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يتبل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفـــتها ، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً ، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا ، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر " (٢) ٠

وقولـــه : " فأصبح هشيما " معطوف على قوله : " فاختلط بـــه نبات الأرض " و ــ أصـــبح ــ بمعنى صار ولا يراد تقييد الخبر بالصباح ، وقيل هي دالة على الـــتقييد بالصـــباح لأن الآفات السماوية أكثر ما تطرق ليلاً فهي كقوله : " فأصبح يقلب كفيه " (٣)

(١) حاشية الجمل ٥/ ١٤٣ ، حاشية الشهاب ٦/١٠٥ د دار صادر بيروت ٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٣٥٧ ٠ (٣) الكهف/٤٢،البحر المحيط٦/١٣٣،روح المعاني١٥/ ٢٨٦ ٠

وتعقب ذلك ــ وهو كونه دالاً على التقييد ــ بأنه ليس فى الآية ما يدل على أن اتصافه بكونه ــ هشيما ــ لآفة سماوية بل المراد بيان ما يؤول إليه بعد النضارة من اليبس والتفتت ، والتعبير بالفاء فى قوله : " فأصبح " للإشعار بسرعة زواله وصيرورته بتلك الصفة فليست الفاء فصيحة (١) ، وقيل هى فصيحة ، والتقدير : فزها ومكث مدة ــ فأصبح هشيماً " (٢) .

والهشيم : كسر الشئ الرخو كالنبات،أو ما تهشم وتحطم الواحد هشيمة " (٣) ، وفى استخدام ــ هشيم ــ على وزن فعيل مبالغة تفيد شدة تهشمه وبلوغه غاية التفتت والتلاشى ، والمعنى : فأصبح ذلك النبات الملتف إثر بهجته ورفيفه ــ هشيماً ــ مهشوماً مكسوراً " (٤)

وقوله : " تذروه الرياح " صفة لقوله " فأصبح هشيماً " أى تثيره وتفرقه فى الهواء وتذهب به ، وهذه الجملة تأكيد لعدم بقائه ، وتنصيص على زواله كأنه لم يكن لأن ــ ذرو ــ لها " أصلان أحدهما الشئ يشرف على الشئ ويظله ، والآخر الشئ يتساقط متفرقاً " (٥)

---

(١) هى التى تفصح عن محذوف من الكلام ومقدر منه .

(٢) روح المعانى ١٥/ ٢٨٦ .

(٣) المفردات /٥٤٣مادة هشم ، الكشاف ٢/ ٤٨٦ .

(٤) أبو السعود ٥/ ٢٢٥ .

(٥) مقاييس اللغة مادة ذرو ــ ، أسرار التنوع فى تشبيهات القرآن /٦٢ .

و" الـــرياح " بـــالجمع وليســـت ريحاً دلالة على أن تلك التى تذهب بحياة هذا المؤمـــل وتفرقها وتطيرها كأن لم تكن لأن الجزاء من جنس العمل لرجل تجاذبته الأهـــواء والضـــلالات والأطماع والشهوات من العجب والغرور والافتخار بكثرة المـــال والجـــاه والبطر ثم الجحود لنعم الله والإشراك به وإنكار البعث مع التهكم والسخرية بالمذكر والداعى ٠

واســـتعمال الفعـــل المضارع " تذروه " بعد الأفعال الماضية التفات فيه تجدد واســـتمرار وحياة لا زالت تنبض بالحركة نرى فيه الرياح فى عمل دؤوب وسعى حـــثيث متجدد تذرو الهشيم وتبقى هذه الصورة ماثلة أمام الأعين حتى تتم العظة وتحصل العبرة ، وقرأ بعض القراء " تذروه الريح " بالإفراد ٠

والمـــتأمل فى الآيـــة يرى أنها مبنية على إيجاز بديع وترتيب وتعاقب سريع مـــوح بقصـــر الحياة الدنيا ، وما يقتضيه قصرها من قصر مدة التمتع بها وأنها وشيكة الارتحال سريعة الزوال ، والتعقيب بالفاء فى قوله : " فاختلط و ـــ فأصبح ـــ " لم يترك للزمن فترة يتراخى فيها ويخلد إلى الأرض ـــ كما فى سورة يونس ـــ بـــل ربطـــت الكلام بعضه ببعض ورتبت ثانيه على أوله وثالثه على ثانيه بهذا التعاقب السريع المبنى على الإيجاز ٠

ولهذا لو جعلنا الفاء فصيحة فقدرنا المحذوف ـــ كما ذكرنا سابقاً ـــ على قول من جعلها كذلك لكنا قد أغفلنا جانباً عظيماً مراداً من نظم الآية وهو سرعة زوال الدنيـــا كأنها لم تلبث ولم تمكث فتزهو ، كما أن فى عدم ذكر ذلك وتقديره : فزها ومكث فأصبح ـــ إلخ توكيداً بأنه لم يكن ٠

ولله در الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ حين بين سر الحذف بقوله " فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن "(١)

وقوله : " وكان الله على كل شئ مقتدرا " جملة معترضة فى آخر الكلام . جملة تذييلية موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها ، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها ، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء ، وذلك اقتدار عجيب ، وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذى فى قوله " على كل شئ " وهو بذلك العموم أشبه بالتذييل " (٢) .

وقوله : " مقتدراً " جاء متناسبا مع الحياة الدنيا التى تطويها يد القدرة فى لمحة توطئة لأحداث القيامة الرهيبة بعد ذلك ولذا جاء بإطلاق آخره ومتعلقة . ومعنى : " وكان الله على كل شئ مقتدراً " أى من الأشياء التى من جملتها الإنشاء والإفناء ــ مقتدراً ــ قادراً على الكمال فهو كامل القدرة سبحانه وتعالى .

---

(١) دلائل الإعجاز /١٤٦ ت الشيخ محمود شاكر .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣٢ .

الحياة الدنيـــا لعب ولهو زينة :

٣ـ قـــال تعالى : " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطامـــاً وفى الآخـــرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " (١)

تحليـــل الآية : قوله : " اعلموا أنما الحياة الدنيا " إلخ كلام مستأنف مسوق لتحقير الدنيـــا وهوان أمرها ، وهو خطاب عام للناس جميعًا مؤمنهم ومنافقهم وكافرهم ، وفى هذا الخطاب كشف مبين عن حقيقة الحياة الدنيا حتى يراها الناس فى وضعها الصحيح فلا يغتروا بظاهرها ولا يفتتوا بما تبدى لهم من صور الفتنة والإغراء"(٢)

ولمـــا ذكـــر تعـــالى حال الفريقين فى الآخرة فى قوله : " والذين آمنوا بالله ورســـوله أولـــئك هـــم الصديقون " (٣) إلخ الآية • حقر أمور الدنيا بأنها مما لا يتوصـــل بـــه إلى الفوز الآجل بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب فيه الناس أنفسهم جدا إتعاب الصبيان فى الملاعب من غير فائدة

ولهـــو يـــلهون به أنفسهم ، وزينة كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الـــرفيعة ، وتفاخر بالأنساب ، وتكاثر بالعدد والعدد ، ثم قرر ذلك بقوله ــ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً " (٤)

---

(١) الحديد /٢٠ ، الأنعام /٣٢ ، العنكبوت /٦٤ ، محمد /٣٦ •

(٢) التفسير القرآنى ٧٧٣/٢٧ •

(٣) الحديد / ١٩ •

(٤) أبو السعود ٢١٠/٨ ، روح المعانى ١٨٤/٢٧،حاشية الجمل ٢٩٢/٤ ، محاسن التأويل ١٦/ ٥٠ •

ففى الآيـــة تشبيه تمثيلى : شبه حال الحياة الدنيا فى سرعة انقضائها وقلة جدواها وكونها وشيكة الاضمحلال بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأعجب به الحراث أو الكافــرون بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ، ولأن المؤمن إذا رأى أمراً معجباً انـــتقل فكـــره إلى قدرة صانعه فأعجب بها ، الكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجاباً .

وهـــذا التشـــبيه فضل فيه كل من المشبه والمشبه به . فقد ذكر المشبه بأداة القصر – أنما – ، وما يستهوى الناس فى هذه الدنيا فيستغرق أعمارهم جميعها ، ويشـــغلون بـــه أنفســـهم وأوقـــاتهم ، وماذا غير اللعب واللهو ، والزينة والتفاخر والتكاثر ، أما المشبه به فهو ذلك النبات الذى أحياه الغيث فأعجب الكفار نباته . " فطـــال عرض المشبه – كما يراه الكفار – فهى لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثـــر فى الأموال والأولاد ، وذلك ليؤدى غرضاً ويؤكد هدفاً ، وليقول للكفار : إن هذا الذى تستطيلون أمره فى تصوركم إنما هو قصير زائل ، وعرض حائل ، وحيـــنما ننظر إلى وجه الشبه الذى يجمع بين الطرفين نجد فيه كثيراً من التفصيل الذى يحتاج إلى إمعان فى الفكر وتدقيق فى النظر " (١)

قال العلامـــة الزمخشرى : " أراد أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهى اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر ، وأما الآخرة فما هى إلا أمور عظـــــام وهى العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله ، وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع

---

(١) البيان فى ضوء أساليب القرآن /٥٤ د/ عبد الفتاح لاشين .

قــلة حدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين "(١)

تــأملات فى نظم الآية : قوله : " اعلموا " الذى جاء بفعل الأمر وهو ما افتتح به الكلام إشارة إلى أن ما يأتى بعده له مغزى عظيم وهدف رائع يجب أن يلتفت إليه الذهــن بالكــلية " ، والخطاب فى " اعلموا " قيل : للمؤمنين الغافلين على طريق الالتفات إقبالا عليهم للاهتمام ، أو لجميع الناس .

وأســلوب القصر " إنما الحياة الدنيا " من باب القصر الإضافي جئ به لتنزيل المــنكرين مــنزلة غير المنكرين لأن لديهم من البراهين والأدلة ما لو فطنوا إليها لــرأوها على وجهها الذى وصفها بها القرآن فى كونها لعباً ولهواً وزينة وتفاخراً وتكاثــر ، وفيــه أيضــا تعريض بهم لغفلتهم عن هذه الحقيقة وتحذير لهم من أن يكونــوا كالمــنافقين الذين فتنوا أنفسهم ، وتربصوا وغرتهم الأمانى وغرهم بالله الغــرور ، أو أن يكونــوا كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، أو يكونوا كالكفار الذين كفروا وكذبوا بآيات الله " (٢)

---

(١) الكشاف ٦٥/٤ ، البحر المحيط ٨/ ٢٢٤ .

(٢) إشارة إلى الآيات ١٤ ، ١٦ ، ١٩ من سورة الحديد ، التحرير والتنوير ٤٠١/٢٧ .

ووراء وصف الحياة الدنيا باللعب سهولة انخداع النفس بها وسرعة استجابتها لما هو فى طبعها وفطرتها من حب اللعب الذى فيه من الأنس والمسرة والحلاوة للنفس ما فيه وما هو إلا وهم وسراب لا يلبث أن ينجلى عن إضاعة للأوقات والأزمان التى هى رأس مال الإنسان ثم إن الإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسه العقل "

ومجئ " لعب " نكرة دلالة على أنه لعب عظيم بالغ يكثر ويغلب على أحوال الناس فى الدنيا ويستغرق جزءا عظيما من حياتهم ، وقدم ــ اللعب ــ على ــ اللهو ــ فى الأكثر " لأن ــ اللعب ــ زمانه الصبا واللهو ــ زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب (١) . إلا أنه فى سورة العنكبوت (٢) ٠ قدم ــ اللهو ــ على اللعب ــ " لأن المراد زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء ــ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ــ أى الحياة التى لا أمد لها ولا نهاية لأبدها بدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب " (٣)

قال الراغب : " اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، بقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا اشتغلت عنه بلهو قال : ــ أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ــ وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ــ ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو ، ومن قال أراد باللهو المرأة والولد ٠ فتخصيص لبعض ما هو من زينة الحياة الدنيا التى جعل لهواً ولعباً " (٤) ٠

---

(١) أسرار التكرار فى القرآن /٦٨ للكرماني ٠ (٢) آية ٦٤٠

(٣) أسرار التكرار /٦٨ ، صفاء الكلمة /٢٢٠ د/ عبد الفتاح لاشين ، أسرار التنوع /٦٩ ، ٧٠ ٠

(٤) المفردات /٤٥٥ مادة ــ لهى ــ ٠

ومـــجئ كلمتى " لهو وزينة " نكرة للإيحاء بعظم ذلك وهو كونه لهوا عظيما يشـــغل الـــناس ويشـــغلوا به ، ــ وزينة ــ طاغية تأسر القلب أسرا بينما هى فى الحقيقـــة زيـــنة حقيرة باطلة لا يحصل من ورائها شرف ذاتى ٠ فاللهو فيه معنى الـــلعب وزيادة ، والزينة فيها معنى اللهو وزيادة ، والتكاثر والتفاخر نتيجة وثمرة لانـــبهار النفس بهذه الزينة ، وكأن التكاثر امتداد لنفسه التى يفاخر بحسبها ونسبها وصـــيغة " تفاخـــر وتكاثـــر " عـــلى وزن تفاعل دليل على بلوغه غاية الانفعال والهيجان لأن هذه الصيغة تزيد من حدة التكاثر والتفاخر وطغيانهما ، وتوحى بهذا التـــنافس والتـــباهى والعجب الذى غلب نفوس أهل الهوى ، والتعبير بـــ " بينكم " لتحديد المسافة الضيقة بينكم من الأنساب البالية والمتع الفانية " (١)

وقولـــه : " كمثل " جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى موضع نصب حال من معنى ما تقدم أى ثبتت لها هذه الصفات مشبهة بغيث ٠

قـــال أبو حيان ــ رحمه الله ــ : " وقال ابن عطية ــ كمثل ــ فى موضع رفع صفة لما تقدم ، وصورة هذا المثال أن الإنسان ينشأ فى حجر مملكة فما دون ذلك فيشـــب ويقـــوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس ثم يأخذ بعد ذلك فى انحطاط فينشـــف ويضـــعف وبسقم وتصيبه النوائب فى ماله ودينه ويموت ويضمحل أمره وتصـــير أمواله لغيره وتغير رسومه فأمره مثل مطر أصاب أرضا فنبت عن ذلك الغيـــث نـــبات معجـــب أنيق ثم هاج أى يبس واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضمحل " (٢)

---

(١) أسرار التنوع / ٧٠ ، ٧١ ٠

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤ ٠

وقولـــــه : " غيث " أى المطر ، ومجيئه نكرة بيان بأنه غيث متفرد فى جوده وعظـــم نفعه ، ومن هنا صدر به المثل حفاوة به وإعظاماً لشأنه وقوله : " أعجب الكفـــار " صـــفة لـــ " غيث " والعجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشئ ، ويقال لمن يروقه نفسه فلان معجب بنفسه " (١)

و " الكفـــار " مفعـــول مقـــدم صيغة مبالغة ، و " الكفر فى اللغة ستر الشئ ووصــــف الليل بالكافر لستره الأشخاص والزراع لستره البذر فى الأرض ، وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك آداء شكرها " (٢) .

و " الكفار " قيل : هم الزراع من كفر الحب أى ستره فى الأرض ، وخصوا بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة ، وقيل : مـــن الكفـــــر بالله لأنهم أشـــد تعظيما للدنيا وإعجابـــا بمحاسنها " (٣) ، والتعبير بـــــ " الكفـــار " هنا وبـــ " الزراع " فى سورة الفتح (٤) . للإيماء بأن علمهم لم يـــتجاوز ستر هذا البذر فى الأرض وأن المنبت الحقيقى والزارع الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

وإضـــافة النبات للغيث لتأكيد تفرده عن النبات بخصوبته وبهائه ، ونضارتها وروائه فهو غاية الحسن فليس من مجهودهم الشخصى، وإنما هو نبات ذلك الغيث

---

(١) المفردات /٣٢٢ مادة عجب .

(٢) السابق /٤٣٣ مادة ــ كفر ــ .

(٣) البحر المحيط ٢٢٤/٨ ، التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٤) الفتح/ ٢٩ .

وقولـــــه : " ثـم يهيج " معطوف على ما سبق بـ " ثم " الدالة على الترتيب والــتراخى أى يــتحرك إلى أقصــى مــا يــتأتى له ، وقيل : يجف بعد خضرته ونضــارته ، والمضارع بمعنى الماضى أى هاج لتحقق وقوعه ، وقوله : " فتراه مصــفراً " تعقيــب سريع مترتب على ذلك الهيجان ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطــاب لبيان تلك الحقيقة التى غفل عنها الغافلون فاستغرقوا إعجاباً ، ولم يقل : ــ فيروه مصفراً ــ حتى يتناسق الفعل مع الأفعال السابقة إشارة إلى غفلتهم وأنهم فى غيهم يعمهون ٠

ولم يقل : ــ فيصفر ــ إيذانا بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك " (١)

" واصــفرار النــبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال وهذا هو الأهم فى مقام التزهيد فى متاع الدنيا " (٢) ٠

ولم يأت التعبير بقوله مثلاً ــ فتراه يابساً ــ وذلك لأن الاصفرار هو الشحوب والتغير ، وهو يقابل النضرة والجمال أى الغرض الذى أعجبهم وحال بينهم وبين الجوهــر والمضمون ، ومن هنا كان التعبير بــ ــ مصفرا ــ إفراغاً لهذا النبات من كل معانى الحياة والبهاء والعطاء المثمر حتى جعل خاوياً تصفر فيه الرياح ، ولذا عبر بالاسمية ففيه دلالة على الدوام والثبوت لهذه الصفة وجعلها ملازمة له ، و ــ رأى ــ هنا علمية كما يقول الراغب فى مفرداته إن : " رأى إذا عدى إلى

---

(١) أبو السعود ٨/ ٢١٠٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٠٦٠

مفعوليـــن اقتضى معنى العلم " (١) ، وهذه لفتة جميلة لبيان أن كل راء تتأتى منه الرؤية يرى النبات مصفراً ببصيرته المؤمنة رؤية إثر رؤية .

وقولـــــه : " ثم يكون حطاماً " معطوف على قوله " فتراه مصفراً " أى هشيماً متكســراً مــن اليــبس ، ولم يقل : ــ يجعله حطاماً ــ لبيان كينونة الحطامية فى جبلته وطبعه وفطرته " (٢) .

ويتلاءم التحطيم فى الآية مع تلك الأموال المكدسة والقلوب المستغلظة البالغة غاية الفخر والعجب والقوة والقسوة " (٣) .

وبعــد مـــا بين حقارة أمر الدنيا تزهيداً فيها وتنفيراً عن العكوف عليها أشير إلى فخامـــة شـــأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيباً فى تحصيل نعميها المقيم وتحذيرا من عذابها الأليم وقد ذكر العذاب فقيل : " وفى الآخرة عذاب شديد " لأنـــه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا " ومغفرة " عظيمة " من الله ورضوان " عظيم لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه " (٤)

وقوله : " وفى الآخرة " إلخ قدم فيه المسند الجار والمجرور على المسند إليه لتخصيص المسند بالمسند إليه وقصره عليه بتقديم ما حقه التأخير قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً .

---

(١) المفردات /٢٠٩ مادة ــ رأى ــ .

(٢) نظم الدرر ١٩ / ٢٩٠ .

(٣) أسرار التنوع /٧٧ .

(٤) أبو السعود ٨/ ٢١٠ ، ٢١١ ، روح المعانى ٢٧ / ١٨٥ .

" وفى ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضاً ، ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الأولى " (١)

فقولـــــه : " وفى الآخـــرة عذاب شديد " إلخ تعقيب على تلك الأوصاف التى وصــــفت بها الدنيا من أنها ـ لعب ولهو ـ وذلك بعرض ما يقابلها وهو الآخرة التى لا لعب فيها ولا لهو بل كل أمرها جد فى جد ففيها عذاب شديد وفيها مغفرة مـــن الله ورضوان ، وقدم العذاب على المغفرة لأن الآية فى مواجهة الدين خدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها " (٢) .

ووصـــف العـــذاب بالشديد دليل على تناهيه وأنه يتناسب مع أصحابه وأنه لا هوادة ولا توان فيه ، وقابل العذاب بشيئين بالمغفرة والرضوان فهو من باب " لن يغلب عسر يسرين " (٣) ، وهذا إشارة إلى غلبة الرحمة .

وقوله : " وما الحياة الدنيا " إلخ تأكيد لما سبق . أى تغر الكفار ، فأما المؤمن فالدنيا له متاع وبلاغ إلى الجنة " (٤)

وقولــــــه : " ومـــا الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء . قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً قصر قلب ، والمعنى : أن الدنيا هى نفسها غرور لا حقيقة لها ، وهذا يقتضى أن الإضافة بيانية .

---

(١) روح المعانى ٢٧ / ١٨٥ .

(٢) التفسير القرآنى ٢٧ / ٧٧٨ .

(٣) وذلك إشارة إلى قوله " فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً " سورة الشرح / ٥ ، ٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢١٩ .

فالمعنى : وما التمتع بالدنيا إلا متاع أى تمتع هو الغرور أى الاغترار ٠

قـال الـراغب ـ رحمـه الله ـ : " الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه ، وشـهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين ، وبالدنيا لما قيل الدنيا تغر وتضر وتمر " (١) ٠

وقال الإمام الرازى : " لما وصف ـ تعالى ـ الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء بيـن أن الآخرة إما عذاب شديد دائم ، وإما رضوان وهو أعظم درجات الثواب ، ثـم قال : " وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ـ يعنى لمن أقبل عليها ، وأعرض بها عن طلب الآخرة ٠

قـال سـعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة (٢) ٠

والله أعلم

---

(١) المفردات / ٣٥٩ مادة غرر ٠

(٢) التفسير الكبير ٢٩ / ٢٣٥ ، أبو السعود ٨/ ٢١١ ، روح المعانى ٢٧/ ١٨٥ ٠

" المبحـــث الرابـــع "

" الحديث عن رب العزة وسعة قدرتـــه "

آيـــة الكرســـي :

١ــ قـــال تعالى : " الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خــلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم " (١)

تحــليــل الآية : قوله تعالى : " الله لا إله إلا هو " كلام مستأنف فخم مسوق لذكر تمجيــد الله تعالى وذكر صفاته إبطالاً لكفر الكافرين وقطعا لرجائهم ، وبيان لجمع أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية بعد ذكر هول يوم القيامة وذكر حال الكافــرين ، وجعلت هذه الآية ابتداء لآيات تقرير الوحدانية والبعث ، وجئ باسم الذات هنا لأنه أظهر طريق فى الدلالة على المسمى المنفرد بهذا الاسم ، فإن العلم أعــرف المعـــارف لعدم احتياجه فى الدلالة على مسماه إلى قرينة أو معونة لولا احــتمال تعــدد التســمية ، فــلما انتفى هذا الاحتمال فى اسم الجلالة كان أعرف المعارف لا محالة لاستغنائه عن القرائن والمعونات ، فالقرائن كالتكلم والخطاب ، والمعونات كالمعاد والإشارة باليد والصلة وسبق العهد والإضافة .

وقولـــه : " لا إله إلا هو " خبر للفظ الجلالة " الله " والمقصود من هذه الجملة إثبات الوحدانية ونفى الآلهة بأسلوب القصر الذى طريقه النفى والاستثناء والمراد هو المستحق للعبودية لا غيره قصرا إضافيا من قصر الموصوف على الصفة ،

---

(١) البقرة / ٢٥٥

و" الحى " خبر ثان ، و " القيوم " خبر ثالث ، أو هما صفتان للفظ الجلالة ، والمقصود إثبات الحياة وإبطال استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية لانتقاء الحياة عنهم ، وفصلت هذه الجملة عن التى قبلها للدلالة على استقلالها لأنها لو عطفت لكانت كالتبع " (١) ٠

و" الحى " هو الباقى الذى لا سبيل عليه للموت والفناء و " القيوم " بزنة فيعول من قام بالأمر إذا حفظه ٠ أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، وقيل : هو القائم بذاته المقيم لغيره ، وقيل : القائم بتدبير خلقه من إنشائهم ابتداء ، وإيصال أرزاقهم إليهم ، وهذا ما يظهر من كلام الزمخشرى فى ــ الكشاف ــ بأن هذه الجملة مبينة لما تضمنته جملة " الله لا إله إلا هو ، والمراد أن اختصاصه بالإلهية يقتضى أن لا مدبر غيره ، وعليه فقد فصلت عن سابقتها " (٢)

وتفسير الزمخشرى " الحى " بأنه الباقى إلخ يجعل ذلك كناية فى لازم معناه ، وذلك لأن إثبات الحياة لله تعالى بغير هذا المعنى لا يكون إلا مجازاً أو كناية ٠

وقال الإمام الفخر : " والذى عندى فى هذا الباب أن الحى فى أصل اللغة ليس عبارة عن هذه الصحة (٣) ، بل كل شئ كان كاملاً فى جنسه ٠ فإنه يسمى حياً ، ألا ترى أن عمارة الأرض الخربة تسمى إحياء الموات ، والصفة المسماة فى

---

(١) أبو السعود ١/ ٢٤٧ ، روح المعانى ٣/ ٥، ٦ ، التحرير والتنوير ٣/ ١٧

(٢) الكشاف ١/ ٣٨٤

(٣) صحة العلم والقدرة ٠

عــرف المتكلمين إنما سميت بالحياة لأن كمال حال الجسم أن يكون موصوفا بتلك الصفة فلا جرم سميت تلك الصفة حياة • فثبت أن المفهوم الأصلى من لفظ الحى كونه واقعاً على أكمل أحواله وصفاته " (١) •

والمقصــد الأســمى مــن وصف ــ الله سبحانه ــ هنا بــ " الحى " إبطال عقيدة المشــركين الإلهيــة أصنامهم التى هى جمادات ، وكيف يكون مدبر أمور الخلق جمادات ، وكيف يكون مدبر أمور الخلق جماداً، ووصفه أيضاً بــ " القيوم" إثبات عمــوم العلم له وكمال الحياة ، وإبطال الإلهية أصنام المشركين إذ كان المشركون يعــترفون بــأن مدبــر الكون هو الله تعالى ، وإنما جعلوا آلهتهم شفعاء وشركاء ومقتسمين أمور القبائل "(٢)

وقولــه : " لا تأخذه سنه ولانوم " تأكيد لما قبله من كونه تعالى حياً قيوماً فإن من يعــتريه أحدهمــا يكون موقوف الحياة قاصراً فى الحفظ والتدبير، وقيل: استئناف مؤكد لما سبق ، وقيل : حال مؤكدة من الضمير المستكن فى " القيوم"(٣)

فــهى جملة مقررة لمضمون جملة " الله لا إله إلا هو الحى القيوم " ولذلك فصلت عن التى قبلها فبينهما كمال اتصال•

و ــ السـنة ــ مايتقدم النوم من الفتور ، و ــ النوم ــ حالة تعرض للحيوان من اســترخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأشجرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهــرة عن الإحساس رأساً ، والمراد بيان انتفاء اعتراء شئ منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنــه تعالى•

(١) التفسير الكبير ٧ / ٨ • (٢) التحرير والتنوير ٣/ ١٨ ، ١٩ •

(٣) أبو السعود ١/ ٢٤٧ ، روح المعانى ٣ / ٥ ــ ٧ •

وتقديم ـ السنة ـ على النوم ـ للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجي وتوسيط كلمة " لا " للتنصيص على شمول النفى لكل منهما • فلما قدمت ـ السنة ـ على ـ النوم ـ فى الخارج قدمت عليه فى اللفظ ، وقيل : إنه على طريق التتميم (١) وهو أبلغ لما فيه من التأكيد إذ نفى ـ السنة ـ يقتضى نفى ـ النوم ـ ضمنا فإذا نفى ثانياً كان أبلغ ، ورد بأنه إنما هو على أسلوب الإحاطة والإحصاء وهو متعين فيه مراعاة الترتيب الوجودى والابتداء من الأخف فالأخف•

وذكر العلامة الزركشى فى باب التقديم والتأخير تحت عنوان : ماقدم والمعنى عليه ـ ما يكون التقديم فيه للسبق بالزمان والإيجاد ومن ذلك تقديم ـ السنة ـ على ـ النوم ـ فى قوله تعالى : ـ لاتأخذه سنة ولانوم ـ لأن العادة فى البشر أن تأخذ العبد السنة قبل النوم ، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة"•(٢)

ثم يقول : " ذكره السهيلى ، وذكر معه وجهاً آخر ، وهو أنها وردت فى معرض التمدح والثناء ، وافتقاد السنة أبلغ فى التنزيه فبدئ بالأفضل ، لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم "(٣)

فالترتيب فى هذا على مقتضى الظاهر إذ يكون المعنى لاتغلبه ـ السنة ولا النوم ـ الذى هوى أكبر غلبة منها ، والجملة نفى للتشبيه وتنزيه له تعالى أن يكون له مثل من الأحياء لأنها لاتخلو من ذلك فكيف تشابهه •

---

(١) **التتميم** : هو أن يؤتى فى كلام لايوهم خلاف المقصود بفضلة لنكتة بلاغية ، والفضلة هى الحال والتمييز والجار والمجرور والظرف وهو المسمى قيداً عند البلاغيين المطول /٢٩٦ •

(٢) البرهان ٣ / ٢٤٠ •

(٣) السابق نفسه •

وفيهـا تـأكيد لكونـه تعالى حياً قيوماً لأن النوم آفـة تنافى دوام الحياة وبقاءها وصـفاته تعالى قديمة لازوال لها ، ولأن من يعتريه النوم والغلبة لا يكون واجب الوجود دائمة ولا عالماً مستمرً العلم ولا حافظاً قوىً الحفظ"(١)

ونـفىُ اسـتيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير ، وإثـبات لكمـال العلم ، فإن السنة والنوم يشبهان الموت ، فحياة النائم فى حالهما حياة ضعيفة ، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل فى وقت استيلائهما عـلى الإحسـاس ، ونفى السنة عن الله تعالى لايغنى عن نفى النوم عنه لأن من الأحيـاء مـن لاتعتريه السنة فإذا نام نام عميقاً ، ومن الناس من تأخذه السنة فى غيـر وقـت الـنوم غلـبة ، والمقصود أن الله لا يحجب علمه شئ حجباً ضعيفاً ولاطويلاً ولا غلبة ولا اكتساباً "(٢)

وعليه فلا داعى إلى ما ذكره كل من الفخر الرازى ، والقاضى البيضاوى: من أن تقديـم ــ السنة ــ على ــ النوم ــ مراع فيه ترتيب الوجود ، وأن ذكر النوم من قبيل الاحتراس.(٣)

وقولـه :" له مافى السماوات ومافى الأرض " تقرير لقيوميته تعالى ، واحتجاج عـلى تفرده فى الإلهية ، والمراد بما فيهما ماهو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم .

---

(١) روح المعانى ٣ / ٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ١٩ ، ٢٠ .

(٣) التفسير الكبير ٥/٧ ومابعدها ، تفسير البيضاوى ٣٤١/١ ــ ٣٤٣ ، والاحتراس هو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعـه .

فيعلم من الآية نفى كون الشمس والقمر وسائر النجوم والملائكة والأصنام والطواغيت آلهة مستحقة للعبادة ، وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لكونها تعليلاً لاتصافه تعالى بالقيومية فإن من كانت جميع الموجودات ملكاً له فهو حقيق بأن يكون قيومها وألا يهملها.

وتقديم المسند " له " للتنبيه على أنه خبر وليس نعتاً ، ولقصر المسند على المسند إليه وتخصيصه به .

واللام فى " له للملك ، والتعريف فى " السماوات ، و ـ الأرض ـ للاستغراق الحقيقى ، والمراد استغراق أمكنة الموجودات ، فقد دلت الجملة على عموم الموجودات بالموصول وصلته ، وإذا ثبت ملكه للعموم ثبت أنه لايشذ عن ملكه موجود فحصل معنى الحصر ، ولكنه زاده تأكيداً بتقديم المسند ـ أى لا لغيره ـ لإفادة الرد على أصناف المشركين ، من الصابئة عبدة الكواكب كالسريان واليونان ، ومن مشركى العرب ، لأن مجرد حصول معنى الحصر بالعموم لايكفى فى الدلالة على إبطال العقائد الضالة .فهذه الجملة أفادت تعليم التوحيد بعمومها ، وأفادت إبطال عقائد أهل الشرك بخصوصية القصر، وهذا بلاغة معجزة "(١)

وقوله :" من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه " جملة مستأنفة مسوقة للرد على المشركين الذين زعموا أن الأصنام تشفع لهم ، والاستفهام هنا استفهام إنكارى ، ومن هنا دخلت " إلا " والمقصود منه بيان كبرياء شأنه تعالى وأنه لا أحد يساويه

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٠ .

أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفعاً على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلاً عن أن يستقل بدفعه عناداً أو مناصبة وعداوة وفى ذلك تأييس للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله تعالى ٠ فهو بيان لملكوته وكبريائه وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام "(١)

فجملة " من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه " مقررة لمضمون جملة " له مافى السموات وما فى الأرض " لما أفادته لام الملك من شمول ملكه تعالى لجميع مافى السموات ومافى الأرض ، وما تضمنه تقديم المجرور من قصر ذلك الملك عليه تعالى قصر قلب ، فبطل وصف الإلهية عن غيره تعالى بالمطابقة ، وبطل حق الإدلال عليه والشفاعة عنده – التى لا ترد – بالالتزام ٠ لأن الإدلال من شأن المساوى والمقارب ، والشفاعة إدلال ، وهذا إبطال لمعتقد معظم مشركى العرب لأنهم لم يثبتوا لآلهتهم وطواغيتهم ألوهية تامة فأكد هذا المدلول بالصريح ، ولذلك فصلت هذه الجملة عما قبلها "(٢)

والإذن هنا معناه الأمر كما ورد فى الحديث الشريف " اشفع تشفع "(٣)

أو العلم أو التمكين إن شفع أحد بلا أمر ، و " من " وخبر المبتدأ قالوا :" ذا " ويكون " الذى " نعتاً " لـ " ذا " أو بدلاً منه ، وعليه يكون " ذا " اسم إشارة وفى ذلك بعد لأن " ذا " إذا كان اسم إشارة وكان خبراً عن " من " استقلت بهما الجملة وهى محتاجة إلى الموصول بعدها "(٤)

(١) الكشاف ٣٨٤/١ ، البحر المحيط٢٧٨/٢، أبوالسعود ٢٤٨/١، روح المعانى٩/٣ ٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/٣ ٠ (٣) مسلم ك الإيمان ح ٣٢٧ م ١٨٤/١ ، ١٨٥ من حديث أبى هريرة ، الدارمى ٢٨/١ ، ابن ماجه ك الزهد ح ١٢ ٤٣ م٥٢٤/٤ ، ٥٢٥ من حديث أنس بن مالك ٠

(٤) البحر المحيط ٢/ ٢٧٨ ٠

والــذى يظهر للمتأمل فى الآية أن " ذا " مزيدة للتأكيد إذْ ليس ثم مشار إليه معين، والعرب تزيد ــ ذا ــ لما تدل عليه الإشارة من وجود شخص معين يتعلق به حكم الاســتفهام ، حــتى إذا أظهر عدم وجوده كان ذلك أدل على أن ليس ثمة متطلع ينصب نفسه لا دعاء هذا الحكم .

وقوله :" يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم "خبر عما قبله أو جملة مستأنفة أو حال من ضمير ، يشفع " أو من المجرور فى " بإذنه " .

والمراد :يعلم ما كان قبلهم وما كان بعدهم ، وقيل : ما بين أيديهم من خير أوشر، وماخــلفهم ممــا فعلوه كذلك ، وقيل : ما يدركونه وما لا يدركونه أو ما يحسونه ويعقــلونه والكــل محــتمل ، ووجه الإطلاق فيه ــ كما قيل ــ ظاهر ، وضمير الجمع فى " أيديهم " و" خلفهم " يعود على ــ ما فى السموات ــ إلخ إلا أنه غلب من يعقل على غيره ، وقيل : للعقلاء فى ضمنه فلا تغليب ، ويجوز أن يعود على مادل عليه " من ذا " من الملائكة والأنبياء ، وقيل : الأنبياء خاصة ، وقوله :"يعلم مــابين أيديهــم ومــا خــلفهم " كناية عن إحاطة علمه سبحانه ، والتعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدد العلم واستمراره"(١)

وجــاء قولــه :" يعلم مابين أيدهم وما خلفهم " تقريراً وتكميلاً لما تضمنه مجموع جملــتى :" الــحى القيوم لا تأخذه سنة ولانوم " ولما تضمنته جملة " من ذا الذى يشــفع عــنده إلا بإذنــه " فإن الأوليين دلتا على عموم علمه بما حدث ووجد من الأكوان ولم تدلا على علمه بما سيكون فأكد وكمل بقوله " يعلم " الآية ، وهــى

---

(١) أبو السعود ١/ ٢٤٨ ، روح المعانى ٣ / ٩ .

أيضـــاً تعليل لجملة " من ذا الذى " إذ قد يتجه سؤال لماذا حرموا الشفاعة إلا بعد الإذن فقيــل لأنهــم لا يعلمون من يستحقون الشفاعة وربما غرتهم الظواهر، والله ســبحانه وتعالى يعلم من يستحقها إلخ لأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ومن هنا فصلت عما قبلها "(١)

وفى ذلــك استعارة تمثيلية لأن ما بين أيدى المرء هو أمامه فهو يستقبله ويشاهده ويســعى للوصول إليه ، وما خلفه هو ماوراء ظهره فهو قد تخلف عنه ، وانقطع ولايشاهده ، وقد تجاوزه ولايتصل به بعد فاستعيرت هذه الهيئة لحالة علمه تعالى، وإحاطــة هــذا العلم لأحوالهم بحال ما يعلمه الإنسان ويشاهده ، والمقصود عموم العلم بســائر الكائــنات فشــبهت هيئة علمه تعالى بهيئة ما يعلمه الإنسان ، والجامع الهيئة الحاصــلة من الإحاطة والعلم والإدراك ، وفيها طباق معنوى لأن ما بين أيديهم معناه أمامهم .

وقولــه :" ولا يحيطون بشئ من علمه " جملة معطوفة على ماتقدم ، والإحاطة بالشئ عــلماً عــلمه كمــا هو على الحقيقة ، والمعنى لا يعلم أحد من هؤلاء كنة شئ مامن معــلوماته تعــالى ، وقــوله :" يحيطون " استعارة تبعية . شبه العلم التام المحيط بجميــع المعــلومات باحتواء الشئ جميع أطرافه بحيث لا يشذ منه شئ من أولــه ولا آخــره . ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه الفعل " يحيطون " بمعنى يعلمون علماً تاماً ، والقرينة قوله " بشئ " والعلم مراد به المعلوم ، وعطفت هذه الجملة على ما قبلها لمغايرتها له لأن ذلك يشعر بأنه سبحانه يعلم كل شئ ، وهذه تفيد أنه لايعلمه غيره ومجموعها دال على تفرده تعالى بالعلم

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ٢٢ .

الـــذاتى الـــذى هـــو من صفات الكمال التى يجب أن يتصف الإله تعالى شأنه بها بـــالفعل ومـــن هنا جاء عطف هذا على ما سبق لأنها تكملة لقوله :" يعلم ما بين أيديهـــم " وإضافة العلم إلى ضمير اسم الجلالة تخصيص له بالعلوم الغيبية اللدنية التى استأثر سبحانه بها ولم ينصب عليها دلائل عقلية أو عادية ٠

وقولـــــه :" إلا بمـــا شـــاء " أسلوب قصر للتنبيه على أنه سبحانه قد يطلع بعض أصـــفيائه عـــلى ماهو من خوادس علمه ، ومفعول " شاء " محذوف تقديره : أن يعـــلمهم به ، والمعنى : لا يعلمون من الغيب الذى هو معلوم الله شيئاً إلا ما شاء أن يعلمهم ، أو إلا بما أنبأ به الأنبياء تثبيتاً لنبوتهم "(١)

وقولـــه :" وسع كرسيه السماوات والأرض " خبر سابع ، أو فى محل نصب حال جـــاءت تقريـــراً لمـــا تضمنته الجمل كلها من عظمة الله تعالى وكبريائه وعلمه وقدرتـــه وبيـــان عظمة مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه ، أو لبيان سعة ملكه ــ كذلك ــ وقد وقعت هذه الجمل مترتبة متفرعـــة٠

قال العلامة الزمخشرى :" وفى قوله ــ وسع كرسيه ــ أربعة أوجـــــه :

أحدهـــا ٠ أن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته ، وماهو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط لا كرسى ثمة ولاقعود ولاقاعد ، وإنما تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسى ، والثانى وسع علمه وسمى العلم كرسياً تسمية بمكانه الذى هو كرســـى العـــالم والثالث وسع ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك ، والرابع مـــاروى أنـــه خلق كرسياً هو بين يدى العرش دونه السماوات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شئ ، وعن الحسن : الكرسى هو العرش "(٢)

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٧٩ ٠ (٢) الكشاف ١/ ٣٨٥ ، ٣٨٦ ٠

وعن فضل هذه الآية نعرض لما ذكره الشيخان ابن المنير وأبو حيان ٠

يقـول ابـن المنير ـ رحمة الله ـ : اشتملت آية الكرسى على ما لم تشتمل عليه آيـة من أسماء الله عـزَّ وجلَّ ، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً فيها اسـم الله تعالى ظاهراً فى بعضها ومستكناً فى بعض ، ويظهر لكثير من العادين مـنها سـتة عشر إلا على بصير حاد البصيرة لدقة استخراجه : الأول ـ الله ـ الثانى ـ هو ـ الثالث ـ الحـىُّ ـ الرابع ـ القيوم ـ الخامس ضمير ـ لاتأخذه ـ السادس ضمير ـ له ـ السابع ضمير ـ عنده ـ الثامن ضمير ـ إلا بإذنه ـ التاسع ضمير ـ يعلم ـ العاشر ضمير ـ علمه ـ الحادى عشر ضمير ـ شاء ـ الثانى عشر ضمير ـ كرسيه ـ الثالث عشر ضمير ـ ولايؤوده ـ الرابع عشر ـ وهـو ـ الخـامس عشـر ـ العلى ـ السادس عشر ـ العظيم ـ فهذه عدة الأسـماء المبـنية وأمـا الخـفى فالضمير الذى اشتمل عليه المصدر فى قوله ـ حفظهمـا ـ فإنه مصدر مضاف إلى المفعول ، وهو الضمير البارز ولابد له من فاعل وهو الله ، ويظهر عند فك المصدر فيقول : ولا يؤوده أن يحفظهما هو"(١)

فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى

ويقـول أبـو حيان ـ رحمه الله ـ: " وتضمنت هذه الآية الكريمة صفات الذات مـنها الوحدانية بقوله " لا إله إلا هو " والحياة الدالة على البقاء بقوله ـ الحى ـ والقـدرة بقوله ـ القيوم ـ واستطرد من القيومية لانتفاء مايؤول إلى العجز وهو مايعرض للقادر غيره تعالى من الغفلة والآفات فينتفى عنه وصفه بالقدرة إذ ذاك

---

(١) الإنصاف على الكشاف ١/٣٨٥ ، ٣٨٦ ٠

واستطرد من القيومية الدالة على القدرة إلى ملكه وقهره وغلبته لما فى السماوات والأرض إذ الملك آثار القدرة لأن لمالك التصرف فى المملوك والإرادة بقوله ـ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ـ فهذا دال على الاختيار والإرادة والعلم بقوله ـ يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ـ ثم سلب عنهم العلم إلا أن أعلمهم هو تعالى فلما تكلمت صفات الذات العلا واندرج معها شئ من صفات الفعل وانتفى عنه تعالى أن يكون محلاً للحوادث ختم ذلك بكونه العلى القدر العظيم الشأن"(١)

الله منوِّر السماوات والأرض :

٢ـ قال تعالى :" الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم "(٢)

تحليل الآية: فى هذه الآية الكريمة دليل على النور المعنوى أى أن الله جلّ سبحانه منور السماوات والأرض ٠ أنار السماوات بالكواكب المضيئة والنجوم السيارة ، وأنار الأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام ٠

يقول الطبرى : أى هادى أهل السماوات والأرض فهم بنوره إلى الحقّ يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون "(٣)

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٨١ ٠

(٢) النور / ٣٥ ٠

(٣) جامع البيان ١٨ / ١٠٥ ٠

ويجوز أن يقال : الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداؤها ، وعنه صدورها وبقدرته استقامت أمورها "(١)

وقوله :" الله نور السماوات والأرض " استئناف مسوق إما لتحقيق أن بيانه تعالى المؤذن به قوله سبحانه :" ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين "(٢) ليس مقصوراً على ما ورد فى هذه السورة الكريمة، وإما لتقرير ما فى القرآن الجليل من البيان ويتأتى هذا على بعض الأقوال السابقة فى بيان المراد بالنور وهو وجه قوى فى مناسبة الآية لما قبلها ، وقيل أيضاً : تنويره سبحانه إياهما بما فيهما من الآيات التكوينية والتنزيلية الدالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته عز وجل والهداية إلى صلاح المعاش والمعاد.

قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ :" وعبر عنه ـ أى ماذكر من التنوير بالآيات ـ بالتنوير الذى هو أقوى مراتب البيان وأجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر بإظهاره كما أن النور نير بذاته وما عداه مستنير به ، وأضيف النور إلى السموات والأرض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل ما يليق به من الأمور التى لها مدخل فى إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقه من الأجرام العلوية والسفلية فإنهما قطران للعالم الجسمانى الذى لا مظهر للنور الحسى سواه."(٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٥٦ .

(٢) النور / ٣٤ .

(٣) أبو السعود ٦/ ١٧٥ .

ثم يقول متابعاً توضيحه لبيان سر إضافة النور إلى السموات والأرض :" أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات إذ ما من موجود إلا وقد بيـن كونه من أحواله ما يستحق البيان إما تفصيلاً أو إجمالاً كيف لا ولاريب فى بيان كونه دليلاً على وجود الصانع وصفاته ، وشاهداً بصحة البيان أو على تعلق البيان بأهلهما "(١)

وتخصـيص " السـموات والأرض " بالذكـر لأنهمـا المقر المعروف للمكلفين المحـتاجين لما يدلهما ويهديهما لما سبق ، وإضافة النور إليهما للدلالة على سعة إشـراقة أولاشـتمالهما على الأنوار الحسية والعقلية وقصور الإدراكات البشرية عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما"(٢)

" كمشـكاة " أى كصـنعتها فى الإنارة والتنوير ، والمشكاة هى الكوة غير النافذة، ووصفت بذلك ليكون أجمع للضوء ، ووضع فى هذه الكوّة سراج ثاقب ساطع.

<u>قال ابن جـزى</u> :" المعنى صفة نور الله فى وضوحه كصفة المشكاة فيها مصباح عـلى أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة ، وإنما شبه بالمشكاة ـــ وإن كـان نـور الله أعظم ـــ لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل "(٣)

" فالـنور المضروب له المثل بالمشكاة ـــ إلى آخره ـــ وصف لشرع الله وحدوده وحلاله وحرامه ، والمثل الذى هو مثل لشرع الله فى هذا الشـأن الذى هو نظام

(١) أبو السعود ٦/ ١٧٥ .

(٢) روح المعانى ١٨/ ١٦٥ .

(٣) التسهيل فى علوم التنزيل ٣/ ٦٧ .

علاقات الرجال بالنساء فى المجتمع الإسلامى جاء هكذا :" كمشكاة " : أى كوة ضيقة ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعل نورها أكثر توهجاً"(١)

وهــذه المشكاة بداخلها " مصباح " أى سراج ضخم ثاقب " المصباح فى زجاجة " أراد قــنديلاً من زجاج شامى أزهر ٠ شبهه فى زهرته بأحد الدرارى من الكواكب وهى المشاهير كالمشترى والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها ٠

" الزجاجة كأنها كوكب درى " أى تشبه الكوكب الدرى فى صفائها وحسنها ، وفى إعــادة ــ المصباح والزجاجة ــ معرفين إثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهمــا مع انتظام الكلام بأن يقال : كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شأنهما ورفع مكانتهما بالتفسير إثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وبإثــبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبئ عن القصد الأصلى دون الوصف المنبئ عن الإشارة إلى الثبوت فى الجملة مالا يخفى "(٢)

ومحل الجملة الأولى " المصباح فى زجاجة " الرفع على أنها صفة لــ " مصباح" ومحل الثانية الجر على أنها صفة لــ "زجاجة" واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل : فيها مصباح هو فى زجاجة هى كأنها كوكب درى٠

و " يوقد من شجرة مباركة " أى يبتدأ إيقاد المصباح " من شجرة مباركة " فــ"من" لابــتداء الغايــة على حذف مضاف أى من زيت شجرة ، و" مباركة " أى كثيرة المــنافع بــأن رويــت ذبالته بزيتها فيشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة و" مباركة " صفة لشجرة و " زيتونة " بدل من "شجرة " ٠

(١) دراسة فى البلاغة والشعر /٢٢ د محمد أبو موسى ٠

(٢) أبو السعود ٦/ ١٧٦ ، روح المعانى ١٨ / ١٦٨ ٠

سـر وصف هذه الشجرة بالبركـة:

قيل : إنما وصف ـ الشجرة ـ بكونها مباركة لأنها تنبت فى الأرض التى بارك الله تعالى فيها للعالمين ، وقيل : بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقوله :" زيتونة " بدل من " شجرة " وقيل : عطف بيان على رأى الكوفيين فى تجويزهم عطف البيان فى النكرات بخلاف البصريين الذين لا يجوزنه إلا فى المعارف.(١) ومجئ " شجرة "مبهمة إلخ ووصفها بالبركة ثم الإبدال منها أوبيانها فى " زيتونة " تفخيم لشأنها.(٢)

وقرئ " توقد " بالتاء مضارع أو قد مبنياً للمفعول على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة وإسناد الفعل إليها قيل : على سبيل المبالغة ، وقيل: هو بتقدير مضاف أى مصباحها، والتعبير بالفعل المضارع على القراءتين للدلالة على التجدد والحدوث ، وقرئ توقد على صيغة الماضى من التفعل أى ابتداء ثقوب المصابح منها.(٣)

وقوله :" لا شرقية ولا غربية " صفة ثانية لـ " شجرة " ودخلت " لا " لتفيد النفى فلا تحول بين الصفة والموصوف ، و" ولا غربية " معطوف على سابقه ، وبينهما طباق حقيقى اسمى ، والمراد ضاحية للشمس لايظللها جبل ولاشجر ولا يحجبها عنها شئ من حين تطلع إلى أن تغرب وذلك أحسن لزيتها ، وقيل : منبتها الشام،

---

(١) مغنى اللبيب ٢/ ١٣٨ وما بعدها.

(٢) روح المعانى ١٨ / ١٦٨ ، أبو السعود ٦ / ١٧٦ .

(٣)البحر المحيط ٦ / ٤٥٦ ، أبو السعود ٦ / ١٧٦ .

وأجـود الزيـتون زيتون الشام ، وقيل : لا فى مضحى ولا مقنأة ــ المكان الذى لاتطـلع عليه الشمس ــ ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها ، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها"٠(١)

وفى قولــه " الله نــور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح " إلخ تشـابه الأطراف ، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى لكون ماختم به كالعلة لما بدئ به أو العكس أو كالدليل عليه أو نحو ذلك٠(٢)

وفى قولــه :" يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار" صفة ثالثة لــ " شجرة " وهو مبالغة فى وصف إضاءة الزيت وحسنه وجودته أى يكاد زيت هذه الزيتونة يضئ مــن صفائه وحسن ضيائه ولو لم تمسسه نار ٠ فكيف إذا مسته النار ؟ وهذه الآية يوردهـا عـلماء الـبديع شـاهداً لما يسمى بالغلو المقبول ــ ويقصد به ما يكون الوصـف المـدعى فيـه غير ممكن عقلاً ولاعادة ، وأن يقترن به ما يقربه إلى الصحة والإمكان ٠ لأن إضاءة الزيت مع عدم مسيس النار مستحيلة عقلاً وعادة، وبدخـول الفعـل " يكاد " خرج ذلك عن المحال وأفاد أنه لم يقع ولكن قرب من الوقوع مبالغة"(٣) ، فهذا الزيت يضئ بنفسه من غير مس النار لصفائه ولمعانه٠ وجـواب " لــون محذوف والتقدير لأضاء بدلالة ما تقدم عليه ، و" لو " تفيد هنا استقصـاء الأحـوال أى حتى فى هذه الحال ــ كونه لا تمسه النار ــ وفى الآية تشبيه اختلف فيه هل هو تشبيه تمثيلى أى مركب قصد فيه تشبيه جملة بجملـة

(١) الكشاف ٢٤١/٣ ، روح المعانى ١٦٨/١٨ ٠

(٢) الإيضاح ٢١/٦ ت د خفاجى ٠

(٣) السابق ٦/ ٦٣ ، البديع فى ضوء أساليب القرآن /٦٤ د / عبد الفتاح لا شين ٠

مـــن غير نظر إلى مقابلة جزء بجزء بل قصد تشبيه هداه وإتقانه صنعته فى كل مخـــلوق عـــلى الجمـــلة بهـــذه الجملة من النور الذى تتخذونه وهو أبلغ صفات النورعـــندكم ، أو تشبيه غير تمثيلى أى غير مركب قصد فيه مقابلة جزء بجزء، والـــذى عليه جمهور البلاغيين أن التشبيه فى الآية من قبيل التشبيه المركب الذى يبـــنى على تشبيه الهيئة بالهيئة أو الحالة بالحالة والمجموع بالمجموع وهو تشبيه تمثيـــلى: شـــبهت هيئة نور الله الذى وضعه فى قلب عبده المؤمن بهيئة المصباح الوهاج الموضوع فى كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى الصفاء والحسن إلخ والوجه الهيئة الحاصلة من الهداية والإشراق والصفاء ، وسمى التشبيه تمثيلياً لأن وجـــه الشبه منتزع من متعدد ، ويعد هذا التشبيه من روائع التشبيه ٠

يقـــول القاســـمى :" وهذا التشبيه العجيب الذى تضمنته الآية٠ فيه من الأسرار والمعـــانى وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ماتقربه عيونُ أهله وتبتهج به قلوبهم ، وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان : إحداهما طريقة التشـــبيه المـــركب وهى أقرب مأخذاً ، وأسلم من التكلف ٠ وهى أن تشبه الجملة برمـــتها بـــنور المؤمـــن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به ، وعلى هذا عامة أمثال القرآن "(١)

ثـــم يقـــول :" فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذى وضعه فى قلب عـــبده المؤمـــن وخصـــه به ٠ والطريقة الثانية طريقة التشبيه المفصل٠ فقيل : المشكاة صدر المؤمن ، والزجاجة قلبه شبه قلبه بالزجاجة لرقتها ، وصفائـــــــها

---

(١) محاسن التأويل ٥/ ٣١٤ ٠

وصلابتها ، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ماهي عليه ويتباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد فى أمر الله تعالى ، ويتصلب فى ذات الله تعالى ، ويغلظ على أعداء الله"(١) وإلى ذلك ذهب القرطبى والألوسى٠(٢)

وقوله :" نور على نور " خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا الذى شبهت به الحق نور متضاعف ، والمعنى : نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج وحسن الزجاجة وصفاء الزيت فاكتمل النور الممثل به ٠ أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة بما فصل عن صفة المشكاة أى نور عظيم كائن على نور كذلك فـ " نور" خبر مبتدأ محذوف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، والجملة فذلكة للتمثيل ، وتصريح لما حصل منه وتمهيد لما يعقبه ، فالمراد من الضمير النور الذى مثلت صنعته العظيمة الشأن بما سمعت لا النور المشبه به وحمله عليه لا يليق ـ كما قيل ـ بشأن التنزيل وليس معنى كونه نوراً فوق نور أنه نور واحد معين غير معين فوق نور آخر مثله ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل إنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بماذكر ٠ فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر ، والقنديل أعون

(١) محاسن التأويل ٥/ ٣١٤ ٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٣٤ ، روح المعانى ١٨ / ١٧٠ ، التفسير الكبير ٢٣ / ٣١٤ ٠

شـــئ على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه ، وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً مرتبـــة أخرى عادة "(١)

وقولـــــه:" يهـــدى الله لنوره من يشاء " جملة مستأنفة مسوقة لتقرير تنفيذ مشيئته سبحانه ، والمراد يوفق الله لإصابة الحق مَـــنْ نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف مـــن نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس.

قال الشيخ أبو السعود:" وإظهاره فى مقام الإضمار لزيادة تكريره ، وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل"(٢)

ســـرُّ إضافة النور إلى لفظ الجلالـــة:

هذا النور ــ الذى ذكر ــ يضاف إلى الله تعالى. إذْ هو معطيه لعبده وواهبه إيـــاه ويضاف إلى العبد. إذ هو محله وقابله. فيضاف إلى الفاعل والقابل ولهذا الـــنور فاعل وقابل ، ومحـــلٌ وحامل، ومادة ، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار. الهادى لنوره من يشـــاء ، والقـــابل : العـــبد المؤمـــن ، والمحـــلُّ قلبه ، والحامل: همته وعزيمته وإرادته، والمادة : قوله وعمله"(٣)

وقوله:" من يشاء " مفعول الفعل " يهدى " ومفعول " يشاء " محذوف والمعنى: من يشاء هدايته من عباده بأن يوفقهم سبحانه لفهم وجوه دلالة الأدلة العقلية والسمعية

(١) محاسن التأويل ٣١٢/٥ ، أبو السعود ١٧٧/٦ .

(٢) أبو السعود ٦/ ١٧٧ .

(٣) محاسن التأويل ٥ / ٣١٤ .

التى نور بها السموات والأرض على وجه ينتفعون به أو بأن يوفقهم لفهم ما فى القرآن من دلائل حقيقته وكونه من عنده عزَّ وجلَّ من الإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان ، وأيا ماكان ففيه إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته تعالى وأن إظهار الأسباب بمعزل عن الإفضاء إلى المطالب"(١)

وقوله:" ويضرب الله الأمثال للناس " معطوف على ما سبق ، وضرب المثل استعارة تبعية فى الفعل والمراد البيان والتوضيح فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه استعير الضرب للتوضيح والتبيين ثم اشتق من الضرب بمعنى التوضيح والبيان " يضرب " على سبيل الاستعارة التبعية والقرينة عقلية ، والمعنى هنا يبين الله لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم فى تضاعيف الهداية حسبما يقتضيه حالهم فإن لضرب المثل دخلاً عظيماً فى باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس وتصوير لأوابد المعانى لصورة المأنوس ، ولذلك مثل جل وعلا نوره المراد به ما يشمل القرآن أو القرآن المبين فقط بنور المشكاة ، وإظهار الاسم الجليل " الله " فى مقام الإضمار كما ذكر أبو السعود ـ رحمه الله ـ للإيذان باختلاف ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الأمثال الذى هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الجملة الأولى بمن شاء والجملة الثانية بالناس كافة"(٢)

---

(١) روح المعانى ١٨ / ١٧٣ .

(٢) أبو السعود ٦/ ١٧٧ ، روح المعانى ١٨ / ١٧٣ .

وقولـــــه:" والله بكـــل شئ عليم " استئناف أو عطف على ما سبق ، والجملة اعتراض تذييــلى مقرر لما قبله ، وقيل : جئ بها لوعد من تدبرً الأمثال ، ووعيد لمن لم يكترث بهـــا ، وقيــل : لبيان أن فائدة ضرب الأمثال التى هى التوضيح إنما هى للناس وليس بـــذاك ، وإظهـــار الاسم الجليل " الله " لتأكيد استقلال الجملة والإشعار بعلة الحكم وبما ذكر آنفاً من اختلاف حال المحكوم به ذاتاً وتعلقاً"(١) ، وهو عليم بكل شئ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو باطناً.

عرض الأمانة وقبول الإنسان لها:

٣ــ قـــال تعالى:" إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً "(٢)

تحليل الآية بلاغياً: قوله :" إنا عرضنا الأمانة " إلخ تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة وهو إيماء إلى قوله تعالى:" ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً"(٣)

وســـماها أمانـــة مـــن حيـــث إنهـــا واجبة الأداء ، والمعنى : أنها لعظمة شأنها بحيث لوعرضـــت عـــلى هـــذه الأجرام العظام، وكانت ذات شعور وإدراك لأبين أن يحملنها وأشـــفقن مـــنها وحملها الإنسان مع ضعف بنيته ورخاوة قوته لاجرم فاز الراعى لها والقائم بحقوقها بخير الدارين "(٤)

فقولـــه :" إنا عرضنا الأمانة " كلام مستأنف مسوق للتنويه بشأن الأمانة وتفخيم أمرها، والمراد بالأمانة الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء.

(١)

(٢) الأحزاب / ٧٢ .

(٣) الأحزاب / ٧١ .

(٤) البيضاوى بهامش حاشية الشيخ زادة ٤/ ٧٧ .

قال الشيخ أبو السعود :" لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام"(١)

والتمثيل هنا مراد به الاستعارة التمثيلية فقد شبهت الحالة المحققة فى الطاعة التى عبر عنها بالأمانة من عظم أمرها وثقل رعاية حقها بالحالة المفروضة منها وهى أنها لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها فكما يصح تشبيه الحال المحققة كما فى قولنا لمن لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإنه قد شبهت حاله المحققة فى تردده واضطرابه بين الرأيين وترك المضى على أحدهما بحال أخرى محققة أيضاً وهى حال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى على الذهاب فكذا يصح تشبيه الحال المحققة بالحال المفروضة ـ كما فى الآية التى معنا ـ فإن المفروضات تتخيل فى الذهن فيصح جعلها مشبهاً بها فإن عرض الأمانة على الجماد وإبائه وإشفاقه وإن كان أمراً مستحيلاً فى نفسه إلا أنه يصح فرضه وجعله مشبهاً به، والغرض من التشبيه تصوير عظم شأن الأمانة والعرض والإشفاق والإباء على حقائقها، والحمل بمعنى الاحتمال والإلزام لرعاية حقها"(٢)

---

(١) أبو السعود ٧/ ١١٨ ، روح المعانى ٢٢/ ٩٦ ، محاسن التأويل ١٣/ ٣٢٤ .

(٢) حاشية الشيخ زادة ٤ / ٧٧ .

وعـــبر ســـبحانه عـــن طاعة الله ورسوله بالأمانة تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعهـــا الله تعـــالى المكـــلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقيـــاد وأمـــرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشئ من حقوقهـــا ، وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعـــرض عليها لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالإباء والإشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بـــالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة " (١) والمعـــنى المـــترتب على ذلك: هو أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبيـــن قـــبولها وأشـــفقن مـــنها ، ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفـــروض بصـــورة المحقـــق رومـــاً لـــزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضـــيحه، والتمـــثيل هنا يقوم على ما هو متخيل فى الذهن فإن عرض الأمانة عـــلى الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم فالمشبه به غير معقول، ولكـــنا نتخيل حال التكليف فى صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت عـــلى السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، والأمانة التى هى الطاعـــات كأنها راكبة للمؤمن وهو حاملها ألا نراهم يقولون : ركبت الديون فلاناً ، ولى عليه حق فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها.

(١) أبو السعود ١١٨/٧ ، روح المعانى ٩٦/٢٢ ، تفسير الخازن ٧٩/٥ ، ٢٨٠ ، تفسير المراغى ٢٢ / ٤٥ ، ٤٦ .

وإلى ما ذكرناه أشار العلامة الزمخشرى بقوله :" فإن قلت : قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حالـــه فى تخيله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابـــه فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهه ، وكل واحد من الممثل والممثل به شـــئ مســـتقيم داخل تحت الصحة والمعرفة ، وليس كذلك ما فى هذه الآية ، فإن عـــرض الأمانـــة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم ، فكيف صـــح بناء التمثيل على المحال ؟ وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقـــول . قـــلت : الممـــثل به فى الآية وفى قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفى نظائـــره مفروض ، والمفروضات تتخيل فى الذهن ، كما المحققات . مثلت حال التكـــليف فى صـــعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها "(١)

والســـــرُّ فى التعـــبير بـــ " أشفقن منها " بدلاً من ــ خفن منها ــ لأن الخائف مضـــطر إلى أن يـــتحرك ويبـــتعد عن مصدر الخطر الذى يتهدد وجوده بخلاف المشفق ذا لا خطر يتهدده إنه أشبه بحلم مزعج من أحلام اليقظـــة "(٢)

مـــا معـــنى الواو فى " وحملها الإنسان " ؟ هل هى واو عطف ؟ فأين المعطوف عليه ؟ أم هى واو الحال ؟ فمن صاحبُ الحال ؟ وما المعنى إذن ؟

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٧٧ ، البحر المحيط ٧ / ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢) التفسير القرآنى ٢٢/ ٧٦٥ .

والجـواب عـن ذلك :

إذا قيل:إنها واوا العطف ــ كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين ــ كان المعطوف عـليه قوله تعالى ــ فأبين أن يحملنها وأشفقــن منها وحملها الإنسان ــ والمعنى عـلى هــذا أن الإنســان كــان داخلاً فى هذا العرض،وأنه بعض موجودات هذه الأكــوان التى عرضت عليها الأمانة،وقد عجزت جميعها عن حملها وأشفقت منها إلا الإنسان وحده من بينها فإنه قبل حملها بمشهد من الوجود كله فى هذا الامتحان العام وإذا قيــل : إنهــا واو الحــال ــ وهــذا ما نراه ــ فيكون قوله تعالى :" وحملها الإنسان: جملة حالية ، ويكون صاحب الحال الضمير العائد على الأمانة فى قوله تعــالى :" فأبين أن يحملنها وأشفقن منها " ، ويكون المعنى : أننا عرضنا الأمانة عــلى الســموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، والحال أن الإنســان قــد حمــلها ، وحمل الإنسان للأمانة عند عرضها عليه. إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده أو بتكليفه إياها يوم الميثاق ــ أى تكلفها والتزمها مع مافيه مــن ضعف البنية ورخاوة القوة ــ وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى أو عن اعترافه بقوله ــ بلى ــ "(١)

وجــاء تخصــيص الإنسان بالذكر مع أنَّ الجنَّ مكلفون أيضاً وكذا الملائكة ــ عــليهم الســلام ــ وإن لم يكن فى ذلك كلفة عليهم لما أنه ليس فيه ما يخالف طباعهم لأنَّ الكلام مع الإنسان وعنه الحديث.

(١) إشارة إلى قوله تعالى :" وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألســت بربكم قالوا بلى شهدنا " الآية /١٧٢ الأعراف ، وانظر أبا السعود ٧ / ١١٨ ، روح المعانى٩٦/٢٢، الطبرى ٢٢/ ٤١ ، الجمل ٣/ ٤٥٨ .

وقولـــــه تعـــالى :" إنه كان ظلوماً جهولاً " اعتراض وسط بين الجمل ، وغايته للإيـــذان من أول الأمر بعدم وفائه بما تحمل ، والتأكيد لمظنة التردد أى أنه كان مفرطاً فى الظلم مبالغاً فى الجهل أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطـــرتهم السليمة أو قبولهم السابق دون من عداهم الذين لم يبدلوا فطرة الله تعالى تـــبديلاً ، وهـــذا كـــلام خبرى قوى فى بيان هذه الحالة ومن الضرب الثانى من أضرب الخبر الطلبى أكد بـــ " إن " لتردد صاحبه وشكه ، ويكفى فى صدق الحكم على الجنس بشئ لوجوده فى بعض أفراده فضلاً عن وجوده فى غالبها .

ووصـــف ـــ الإنســـان ـــ بأنـــه ظـــلوم جهول فى الواقع إشارة إلى تلك الخسارة العظيمـــة الـــتى خسرها الإنسان بتضييع الأمانة التى كانت بين يديه ، والتى حين تخلى عنها فقد كل شئ ونزل من القمة إلى القاع ـــ كما يقال ـــ وهذا أسلوب من أســـاليب الـــبلاغة فى إظهـــار عظمـــة الشئ بذم من فرط فيه وقصر فى حفظه وحراســـته كمـــا يقـــال عن إنسان كانت بين يديه فرصة عظيمة مسعدة فأضاعها بإهمالـــه وتواكله فلا يجد إلا من يلوم ويقرع بمثل هذه الكلمات : غبى ، حيوان ، جـــاهل . ولذا قيل : إن قوله تعالى :" إنه كان ظلوماً جهولاً " لا يعد تعقيباً على قولـــه تعالى :" وحملها الإنسان " وإنما هو تعقيب على محذوف تقديره : وحملها الإنسان فلم يحسن حملها ، ولم يؤدها على وجهها ، وأنه بهذا التقصير كان ظلوماً جهولاً .

قدرته سبحانه وتعالى :

٤ـ قـال تعالى:" أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللـنا هـا لهـم فمـنها ركوبهم ومنها يأكلون ٠ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون "(١)

تحليل الآيات بلاغياً : قوله تعالى :" أو لم يروا " استفهام إنكارى تعجيبى بالهمزة، والـواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أى أو لم ينظروا نظر اعتـبار أو ألـم يلاحظـوا ولم يعلموا علماً يقيناً متاخماً للمعاينة ، ويتفكروا فيما أبدعـته أيديـنا مـن غيـر واسطة ، وبلا شريك ولا معين ـ مما ـ خلقناه لهم ولأجـلهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ؟

والـلام فى " لهم " من قوله " خلقنا لهم " لام الأجل ، والمراد لأجلهم ، وانتفاعهم بما خلـق ٠

وقولـــه :" مما عملت أيدينا " جملة دالة على كمال القدرة والخلق أى مما تولينا إحداثه بالذات من غير مدخل لغيرنا فيه لا خلقاً ولا كسباً ٠

وفى قوله :" مما عملت أيدينا " استعارة تمثيلية حيث شبهت حالة اختصاصه تعالى بالخـلق والتكوين بحال من يعمل أمراً بيديه ويصنعه بنفسه ، واستعير لفظ العمل للخلق على سبيل الاستعارة التمثيلية باستعارة الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من الاختصاص والعمل والإيجاد فى كل ٠

---

(١) يس / ٧١ ـ ٧٣ ٠

وفـائدة هـذه الاستعارة المبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإحداث والاعتناء به ، ويجـوز أن يكـون سبحانه قد كنى عن الإيجاد بعمل الأيدى فيمن له ذلك ثم بعد الشـيوع أريـد بـه مـا أريـد مجازاً متفرعاً على الكناية وإيثار صيغة التعظيم – خلقـنا – والأيدى مجموعة تعظيماً لشأن الأثر وأنه أمر عجيب وصنع غريب وقولـه :" أنعاماً " مفعول " خلقنا " وجاء مؤخراً عن الجارين المتعلقين به اعتناءً بـالمقدم وتشويقاً إلى المؤخر ، وجمعاً بينه وبين ما يتعلق به من أحكامه المتفرعة عليه"(١)

والمـراد بالأنعـام الأزواج الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام فى قوله : " ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين – ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين "(٢) وخصـها بالذكـر لبدائع الفطرة والحكمة فيها التى لايصح أن يقدر عليها إلا هو سبحانه وتعالى ٠

والفـاء فى قوله " فهم لها " للتفريع على مقدر ، والمراد خلقنا لهم أنعاماً وملكناها لهم فهم بسبب ذلك ما لكون لها ٠

وأمـثرت الجمـلة الاسمية " فهم لها ما لكون " للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واسـتمرارها ، والـلام متعـلقة بـ " مالكون " مقوية لعمله أى فهم ما لكون لها بتمليكـنا إياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالإنتفاع بها لايزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها بأقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا إياها لهم والأول أظهـر"(٣)

(١) روح المعانى ٢٣ / ٥٠ ٠

(٢) سورة الأنعام / ١٤٣ ، ١٤٤ ٠ (٣)تفسير أبى السعود ٧/ ١٧٨ ٠

وقولـــه :" وذللناها لهم " استعارة تبعية فى الفعل بمعنى جعلناها وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم فى شئ مما يريدون بها حتى الذبح ٠ ثم استعير اللفظ الدال عـــلى المشبه به للمشبه أى كونها منقادة سهلة هينة ، وهو الذى عبر عنه بالتذليل ثم اشتق منه الفعل ــ ذلل ــ والقرينة حالية ، والتذليل أبلغ ٩

وجـــاء قولـــه " وذ للـــناها " تأسيســـاً لـــنعمة عـــلى حيال قوله السابق " فهم لها مالكـــــون" لاتتمة له ، والمعنى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شئ مما يريدون بها حتى الذبح ٠

والفاء فى قوله :" فمنها ركوبهم " تفريعية لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى فـــبعضٌ مـــنها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب ، وعدم التعرض لـــلحمل لكونـــه من تتمات الركوب ، وقرئ ــ ركوبهم ــ وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع"(١)

وقـــرأ الحســـن والأعمش " فمنها ركوبهم " بضـــمِّ الرَّاء وبغير تاء وهو مصدر كـــالقعود والدخـــول فإمـــا أن يؤول بالمفعول ، أو يقدر مضاف فى الكلام إما فى جانب المسند إليه أى ذو ركوبهم أو فى جانب المسند أى فمن منافعها ركوبهم"(٢)

وقولـــه :" ومنها يأكلون " معطوف على قوله :" فمنها ركوبهم " والمراد : وبعض مـــنها يأكـــلون لحمه ، وقيل : إن التبعيض هنا باعتبار الأجزاء وفيما قيل باعتبار الجزئيات ، وعبر فى جانب الأكل بالفعل لأن الأكل عام فى الأنعام جميعها وكثير مســـتمر بخـــلاف الركوب ، وقيل : إن الفعل موضوع هنا موضع المصدر وهو بمعنى المفعول جئ به كذلك للفاصلة ٠

(١) تفسير أبى السعود ٧/ ١٧٨ ٠ (٢) روح المعانى ٢٣ / ٥١ ٠

وقوله :" ولهم فيها " قدم فيه المسند على المسند إليه لغرض بلاغي وهو التنبيه من أول الأمــر عــلى أنه خبر لا نعت فلو قيل : منافع ومشارب لهم لتوهم ابتداء كون " لهم " صفة لما قبله ، والمراد : " ولهم فيها " أى فى الأنعام بكلا قسميها .

والتعــبير بـــ " مــنافع " دليــل عــلى أن المراد بها غير الركوب والأكل كالجلود، والأصواف والأوبار وغيرها كالحراثة بالثيران .

وقولـــه :" ومشارب " معطوف على قوله :" منافع " وهى جمع مشرب مصدر بمعنى المفعول والمراد به اللبن ، وخصت مع دخولها فى المنافع لشرفها واعتناء العرب بها ، وجمــع المشـــارب لتنوع أصنافها ، ولا شك فى تعددها ، وقالوا : إن تعميم المشارب للزبد والسمن والجبن والأقط لا يصح إلا بالتغليب أو التجوز لأنها غير مشروبة ، ولا حاجــة إليــه مــع دخولها فى المنافع ، وجوز أن تكون المشارب جمع مشرب موضع الشرب .

والهمزة فى قوله:"أفلا يشكرون" للاستفهام الإنكارى التوبيخى، والفاء عاطفة ولانافية ، والمراد:أيشاهدون هذه النعم فلا يشكرون المنعم بها ويخصونه سبحانه بالعبادة ؟

ومجئ الفعل "يشكرون" بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والحدوث أى تجدد الشكر وحدوثه شيئاً فشيئاً ودفعة دفعة،والغرض من هذه الآيات ـــ التى ذكرناها ـــ تعديـــد النعم وإقامة الحجة عليهم .

أمره تعالى بين الكاف والنون :

<u>٥ـــ قـــال تعـــالى:</u>" إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون "(١)

---

(١) يس / ٨٢ ، ٨٣ ، النحل " إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون "/٤٠ .

تحليل الآيتين : قوله :" إنما أمره إذا أراد شيئاً " بيان مؤكد لقدرته سبحانه وتعالى فى كونه يخلق ما يشاء حسبما يشاء وهذا الخلق يتم بعلمه وإرادته فهو سبحانه خلاق عليم ٠ فقوله تعالى " إنما أمره " إلخ إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلاً وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك "(١) وعليه فقد جاء قوله " إنما أمره " إلخ بياناً لعدم تخلف الشئ عن تعلق إرادته به ٠ و"إذا" ظرف زمان دال على المستقبل وهى إذا دخلت على الماضى جعلته فى معنى المستقبل وهى دالة على الحين والوقت ٠

والمعنى : ــ إنما أمره ــ أى شأنه تعالى شأنه فى الإيجاد ، وجوز فيه أن يراد الأمر القولى فيوافق قوله تعالى :" إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون"(٢) ويراد به القول النافذ ٠

وقوله :" إذا أراد شيئاً " أى إيجاد شئ من الأشياء " أن يقول له كن أى أوجد "فيكون " أى فهو يكون ويوجد ، والظاهر أن هناك قولاً لفظياً هو لفظ " كن " وإليه ٠٠ إلخ لفظياً هو لفظ " كن " وإليه ذهب معظم السلف ، وشؤون الله تعالى وراء ماتصل إليه الأفهام، وقيل : ليس هناك قول لفظى لئلا يلزم التسلسل ، ويجوز أن يكون هناك قول نفسي وقوله للشئ تعلقه به "(٣)

(١) التفسير الكبير ٢٦ / ١١١ ٠

(٢) النحل / ٤٠٠

(٣) روح المعانى ٢٣ / ٥٦ ، ٥٧ ، التفسير الكبير ٢٦ / ١١٢ ، ١١٣ بتصرف ٠

وقــرأ الجمهــور " فيكــون " بالــرفع على الاستئناف ، والفاء عاطفة ، والفعل المضارع وفاعله جملة فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أى فهو يكون ، والجملة معطوفــة على قوله " أمره " ، وقرأ ابنُ عامر والكسائى " فيكون " بالنصب عطفاً عــلى " يقول " ، وجوز كونه منصوباً فى جواب الأمر ، وأباه بعضهم لعدم كونه أمراً حقيقــة.

وفى قوله تعالى:" إنما أمره إذا أراد شيئاً " إلخ استعارة تمثيلية : حيث شبهت هيئة ســرعة تأثيــر قدرته تعالى ونفاذها فى الأشياء بهيئة أمر الآمر المطاع للمأمور المطيــع فى سرعة حصول المأمور به من غير توقف ولا امتناع ، فإذا أراد شيئاً وجدَ من غير إبطاء ولاتأخير ولا تقصير.

قـــال الشـــريف الرضـــى :" وهذه استعارة لأنه ليس هناك على الحقيقة شئ يؤمر ولاقــول يسمع ، وإنما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة، وسرعة وجود المراد من غير معاناة ولامشقة فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى فإذا أراد أمراً كان لوقته من غير أن يبطئ إيجاده أو يتقاعس إنفاذه "(١)

قـــال العلامـــة الزمخشرى :" فإن قلت : ما حقيقة قوله ـــ أن يقول له كن فيكون قـــلت : هـــو من مجاز الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شئ من المكونات ، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع "(٢)

---

(١) تلخيص البيان / ١٤٢ .

(٢) الكشاف ٣ / ٣٣٢ .

وقوله :" فسبحان الذى بينه ملكوت كل شئ " تنزيه له عز شأنه عما وصفوه تعالى به ، وتعجيب مما قالوا فى شأنه تعالى ، والفاء للإشارة إلى أن مافصل من شئونه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه أكمل إيجاب ، كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للإشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء ، والملكوت مبالغة كالرحموت والرهبوت ، ومعناه الملك الواسع التام للمبالغة ، والفاء جزائية أى إذا علم ذلك "فسبحان " أو سببية لأن ما قيل سبب لتنزيهه سبحانه ، وفى تعليق سبحان بما فى حيزه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكاً للملك كله قادراً على كل شئ مقتضٍ للتسبيح، وفسر الملكوت أيضاً بعالم الأمر والغيب فتخصيصه بالذكر قيل لا ختصاص التصرف فيه به تعالى من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة ، وقرأ طلحة والأعمش " ملكة " على وزن شجرة أى بيده ضبط كل شئ ، وقرئ " مملكة " على وزن مفعلة،وقرئ "ملك " والمعنى أنه متصرف فيه على ما أراد وقضى"(١)

وقوله :" وإليه ترجعون " قصر طريقه تقديم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور قصر حقيقى من قصر الصفة على الموصوف أى صفة الرجوع إليه تعالى إليه لا إلى غيره • فقوله :" وإليه ترجعون " وعد للمقرين ووعيد للمنكرين فالخطاب عام للمؤمنين والمشركين ، وقيل : هو وعيد فقط على أن الخطاب للمشركين لا غير توبيخاً لهم ، ولهذا عدل عن مقتضى الظاهر وهو ــ وإليه يرجع الأمر كله ــ ففيه دلالة على أنهم استحقوا غضباً عظيماً ، وقرأ زيد بن على ــ رضى الله عنهما ــ " يرجعون " مبنياً للفاعل بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى"(٢)

---

(١) الكشاف ٣٣٢/٣ ، البحر المحيط ٧/ ٣٤٩ ، أبو السعود ٧/ ١٨٢ ، روح المعانى٢٣/ ٥٧ .

(٢) روح المعانى ٢٣ / ٥٧ .

طاعـــة السماء والأرض له سبحانه :

٦ــ قال تعالى :" ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين "(١)

تحـليل الآيــة بلاغياً : قوله تعالى :" ثم استوى " معطوف على ما سبق للترتيب الإخبارى لا الزمانى ، وهو شروع فى بيان كيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير، ولعـل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادئ معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان ، والمراد ثم قصد نحوها قصداً سوياً لايلوى على غيره"(٢)

والتعبير بـــ " ثم " راجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة ، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس .

قـــال الإمـــام الفخر :" قوله ــ استوى ــ أى استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذى هو ضد الا عوجاج، ونظيــره قولهم استقام إليه وامتد إليه ، والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك "(٣)

ويفهـــم مـــنن هذا أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض وبه قال ابن عباس ــ رضى الله تعالى عنهما ــ

---

(١) فصلت / ١١ .

(٢) أبو السعود ٨ / ٥ .

(٣) التفسير الكبير ٢٧ / ١٠٥ .

وخـــص سبحانه وتعالى الاستواء إلى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك مـــتوجهاً إليها وإلى الأرض كما يفيده قوله :" فقال لها وللأرض ائتيا " استغناء بما تقدم من ذكر تقديرها ، وتقدير مافيها"(١) ٠ كأنه قيل : فقال لها وللأرض التى قدر وجودها ووجود ما فيها٠

قـــال الـــراغب الأصـــفهانى عـــن الاستواء إنه : " متى عدى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء كقوله ــ الرحمن على العرش استوى ــ (٢) ، وإذا عدى بإلى اقتضى معـــنى الانتهاء إليه إما بالذات أو بالتدبير ، وعلى الثانى قوله :ــ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ــ "٠(٣)

وقولـــــه:" وهى دخان " جملة حالية ، وفيها تشبيه بليغ صورى وذلك لأن صورة الســماء صورة الدخان فى مرأى العين ، والمراد بالدخان البخار الذى تتشكل منه الطبقاتُ الهوائية ، وهو لا ينافى ما توصلت إليه النظريات العلمية الحديثة٠

وفى قولـــــه " ثم استوى إلى السماء " استعارة مكنية إذْ المستعار هنا الاستواء ، والمستعار منه هو كل جسم مستو معتدل ، والمستعار له هو الحق جل جلاله ، ثم حـــذف المشـــبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الاستواء وإثبات هذا اللازم تخييلية وهى قرينة الاستعارة المكنية٠

---

(١) فتح القدير ٤/٦٣٥ ٠

(٢) طــــه/ ٥ ٠

(٣) المفردات /٢٥١ مادة ســـوا ٠

والمـــراد بقولـــه :" وهى دخـــان " أى أمـــر ظلمانى عبر به عن مادتها أو عن ، الأجزاء الصغيرة التى ركبت هى منها ، أو دخان مرتفع من بخار الماء.

وقولـــــه:" فقال لها وللأرض ائتيان إلخ معطوف على ما سبق ،والمعنى: ــ ائتيا ــ بمـــا خلقت فيكما من المنافع فليس المعنى على إتيان ذاتهما وإيجادهما بل إتيان مافيهمـــا مما ذكر بمعنى إظهاره ، والأمر للتسخير قيل ولا بد على هذا أن يكون المرتـــرتب بعـــد جعل السماوات سبعاً ، أو مضمون مجموع الجمل بعد الفاء وإلا فالأمر بالإتيان بهذا المعنى مترتب على خلق الأرض والسماء ، وقيل :ــ ائتيا ــ أى كونـــا واحدثا على وجه معين وفى وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق إرادتـــه تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير أن يكون هناك آمر ومأمور"(١)

قـــال العلامـــة الزمخشرى : " فإن قلت : لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما فى الأمـــر بالإتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غيـــر مدحوة ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال : ــ والأرض بعد ذلك دحاها ــ(٢) فالمعنى ائتيا على ما ينبغى من الشكل ائتى يا أرض مدحوة وقراراً ومهاداً وائـــتى ياســـماء ســـقفاً مقبـــبة.ثـــم قـــال:فـــإن قـــلت:مامعـــنى ــ طوعـــاً أوكـــرها ــ ؟قلت: هو تمثيل للزوم تأثير قدرته فيهما وأن امتناعها لتأثير قدرته محال كما يقول الجبارلمن تحت يده:لتفعلن هذا شئت أوأبيت ولتفعلنه طوعاً أوكرهاً"(٣)

(١) أبو السعود ٨ / ٥ ، روح المعانى ٢٤ / ١٠٣ .

(٢) النازعات / ٣٠

(٣) الكشاف ٣/ ٤٤٦ .

وقولـه " طوعاً أو كرهاً " مصدران وقعا موقع الحال أى طائعتين أو كارهتين ، وخوطـبا مخاطبـتهم عـلى طريق الاستعارة المكنية بتشبيههما بالعقلاء ثم حذف المشـبه بـه ودل عـليه بشئ من لوازمه وهو الأمر والخطاب ، أو على طريق الاستعارة التمثيلية بأن مثلت حالتهما فى الطاعة والانقياد وتأثير الأمر فيهما بحال مالك قوى جبار أمره نافذ وحكمه مطاع · ثم أثبت لهما ما هو من صفات العقلاء مـن الطـوع والكـره ترشـيحاً للاستعارة ، وهما ـ طوعاً أو كرهاً ـ مؤولان بـ ـ طائع وكاره ـ لأن المصدر لا يقع حالاً بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً "(١)

معنى الإتيان فى الآيـــة :

يرى الزمخشرى أن معنى الإتيان هنا هو " الحصول والوقوع كما تقول أتى عمله مرضياً وجاء مقبولاً ، ويجوز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذى أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قراراً للسماء وكون المساء سقفاً للأرض وتنصره قراءة من قرأ آتيا آتينا من المؤاتاة وهى الموافقة : أى لـتؤات كـل واحدة أختها ولتوافقهما ، قالتا : وافقنا وساعدنا ، ويحتمل وافقا أمرى ومشيئتى ولا تمتنعا "(٢)

وقولـه :" قالتا أتينا طائعين " استعارة تمثيلية شبهت هيئة انقيادهما وكمال تأثرهما عـن القـدرة الربانية وحصولهما كما أمرا به وتصويراً لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع منبئ عن ذلك والكره موهـم

(١) تفسير الطبرى ٢٤/ ٦٤ ، محاسن التأويل ١٤/ ٢٥٩ ، تفسير الخازن٦/ ١٠٦ ،تفسير المراغى ٢٤/ ١١٢ · (٢) الكشاف ٣/ ٤٤٦ ·

لخلافــه بحــال السيد المطاع أمره النافذ حكمه مع عبيده ورعاياه لا يتخلفوه عن حكمـــه وأمـــره فـــتكون مـــنهم الطاعة والذلة ،فاستعير التركيب الدال على ذلك والجامع الخضوع والطاعة والانقياد .

لمـــاذا قال تعالى :" طائعين " بالتذكير ، ولم يقل :ـــ طائعتين ـــ أوـــ طائعات ـــ بالتأنيث ؟

والجـــواب عن ذلك : أنه سبحانه وتعالى قال :" طائعين " بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء باعتبار كونهما فى معرض الخطاب والجواب ولاوجه للتأنيث عـــند إخـــبارهم عن أنفسهم لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط ،" ولم يقل سبحانه ـــ طائعـــتين ـــ على اللفظ ، أو ـــ طائعات ـــ على المعنى لأنهما سماوات وأرضون لأنهـــن لمـــا جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل : طائعين فى موضع ـــ طائعات ـــ "(١)

فكـــان مقتضـــى الظاهـــر ـــ طائعات ـــ أو ـــ طائعتين ـــ نظراً إلى الخطاب ، والإجابـــة والوصف بالطوع والكره فقال ـــ طائعين ـــ فعبر بتغليب المذكر العاقل على المؤنث أو تنزيله منزلته.

وإســـناد القـــول لكـــل من الأرض والسماء وتوجيه الخطاب لهما من باب المجاز العقلى لعلاقة المكانية ، والغرض من هذا المجاز تمثيل وتصوير قدرة الله تعالى ، واستحالة وقوع الامتناع منهما وليس إثباتاً للطواعية والكراهية لهما .

---

(١) تفسير النسفى / ١٠٧٠

علم الله وقربه من عباده:

٧ـ قــال تعــالى :" ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريــد "(١)

تحـليل الآيــــة بلاغياً: قوله :" ولقفد خلقنا الإنسان " كلام مستأنف مسوق لبيان قدرة الله تعالى على الخلق والإيجاد والعلم والقرب ، واللام فى " لقد " جواب لقسم محــذوف ، والمــراد : خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول فى قلبه وخاطره ولا يخــفى عليــنا شئ من خفاياه ونواياه . فالتعريف فى " الإنسان " تعريف الجنس للاســتغراق ليشمل جميع جنس الإنسان ، ويحتمل أن يكون ذلك تتميماً لبيان خلق الإنسان ، أو هو تنبيه على أمر يوجب عودهم عن مقالهم .

وقولــــه :" ولقد خلقنا " إشارة إلى أنه لا يخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم ومكــنونات ضمائرهم .وقوله:" ونعلم ما توسوس به نفسه " معطوف على قوله : " خلقــنا الإنســان " ولذلك وصل به من عطف الجمل بعضها ، وعبر بالمضارع " نعــلم ـ توسوس " للدلالة على تجدد علم الله وحدوثه شيئاً فشيئاً إذ كلما وقعت الوسوســة من الإنسان كان هناك العلم بها ، والوسوسة هى الصوت الخفى ومنها وســواس الحلى ، ووسوسة النفس هى ما يخطر ببال الإنسان يهجس فى ضميره من حديث النفس .

والــباء فى قولــــه :" بــه : مثلها فى قولنا : صوت بكذا وهمس به أى صلة ، والضمير فيها لــ " ما " وهى موصولـــــة والباء صلة " توسوس " ، ويجوز أن

---

(١) ق / ١٧ .

تكـــون " ما " مصدرية والباء للتعدية والضمير فى " به " للإنسان ، والمراد : أن النفس تجعل الإنسان قائماً به الوسوسة فالمحدث هو الإنسان لأن الوسوسة بمنزلة الحديـــث فيكـــون نظير حدث نفسه بكذا وهم يقولون ذلك كما يقولون حدثته نفسه بكذا"(١) ٠ قال لبيد بن ربيعـــة:

وأكذب النفس إذا حدثتها ٠٠ إن صدق النفس يزرى بالأمل(٢)

وقوله:" ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " جملة معطوفة على ما سبق من الخلق والعـــلم ، وعـــرف المسند إليه بضمير المتكلم " نحن " للتعظيم والدلالة على شدة القـــرب ، فقولـــه :" ونحن أقرب " بيان لكمال علم الله تعالى ، والمراد : نعلم به وبأحوالـــه لا يخـــفى علينا شئ من خفياته من باب المجاز المرسل لعلاقة السببية فأطـــلق السبب وأريد المسبب عنه ، وهو القرب وأريد علم الأحوال ٠ لأن القرب من الشئ فى العادة سبب العلم به وبأحواله٠

---

(١) الكشاف ٤/٥ ، أبو السعود ٨/ ١٢٨ ، روح المعانى ٢٦/ ١٧٨ ٠

(٢) ديوانه /١٨٠ ط الكويت سنة١٩٦٢م ، شرح المفضليات للتبريزى ٢/٩٤١ ت على البجاوى ط دار نهضة مصر سنة ١٩٧٧م ٠

قـــال الشيخ أبو حيان : " قوله ــ ولقد خلقنا الإنسان ــ هذه آيات فيها إقامة حجج عــلى الكفــار فى إنكــارهم البعث و ــ الإنسان ــ اسم جنس ، وقيل : ــ آدم ، ــ ونحــن أقرب ــ قرب علم به وبأحواله لا يخفى عليه شئ من خفياته فكأن ذاته قريبة منه كما يقال : الله فى كل مكان أى بعلمه وهو منزه عن الأمكنة "(١)

وقولـــــه :" حبل الوريد " استعارة تمثيلية • شبهت هيئة علمه تعالى بأحوال العبد وبخطرات النفس وقربه من عبده • بهيئة حبل الوريد القريب من القلب فهو أقرب شئ من جسد العبد إليه • ومن هنا استعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، و" حبل الوريد " مثل لفرط القرب • فهو تمثيل لهذا القرب بطريق الاستعارة كما قالت العرب : هو منى مقعد القابلة ، وهو منى معقد الإزار •

و " حبل الوريد " هو عرق كبير فى العنق متصل بالقلــب •

قـــال العلامـــة الزمخشـــرى :" والحبل : العرق شبه بواحد الحبال ، والوريدان : عــرقان مكتــنفان لصفحتى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليــه، وقيــل :سمى وريداً لأن الروح ترده• فإن قلت: ماوجه إضافة الحبل إلى الوريــد، والشــئ لا يضـــاف إلى نفســـه ؟ قلت:فيه وجهان : أحدهما : أن تكون الإضـــافة للــبيان كقولهم بعير سانية(٢)،والثانى:أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما فى عضو واحد كما لو قيل حبل العلباء"(٣)

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٣ •

(٢) بعير سانية: هى التى تسقى الأرض من سنت الناقة إذا سقت الأرض ويستقى عليـــــها الماء المفردات /٢٤٥ ، أساس البلاغة /٢٢٢ مادة سنا ، سنو •

(٣) الكشاف ٤/ ٦ •

وقـال ابـن كـثير :" والمـراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، والحـلول والاتحـاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتصر به فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد.

كما قال فى المحتضر ــ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون(١) ــ يريد به الملائكة "(٢)

إحياء الأرض بيده تعالى :

٨ــ **قـال تعالى :**" اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون "(٣)

تحليل الآيـة بلاغياً : قوله :" اعلموا أن الله يحي الأرض " كلام مستأنف مسوق لخطـاب المؤمـنين المذكوريـن عـلى طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، والتعـبير بـالفعل " اعلموا " للدلالة على أن هناك طمساً وجهالة قد غطيا قلوب ــ الذيـن أوتـوا الكتاب ــ من اليهود والنصارى ، وأن قلوبهم قد قست وضلت أعمالهم فأراد الله تعالى أن يعلم المؤمنين أنه من الواجب الخشوع وعدم الاقتداء بهؤلاء ثم العلم بقدرته تعالى على إحياء القلوب الميتة وإخراجها من ضلالتها وغيابتها.

والتعـبير بـالفعل الأمر " اعلموا " للعظة والاعتبار ، ومجئ " أن " لتوكيد قدرته سـبحانه وحـده على الإحياء ، ومجئ الفعل " يحيى " مضارعاً للدلالة على تجدد الإحياء واستمراره شيئاً فشيئاً ودفعـة دفعة.

---

(١) الواقعـة/ ٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٣ .

(٣) الحديد / ١٧ .

وقولـــه:" اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها " استعارة تمثيلية فقد شبهت حالة تليين القلوب بالذكر والتلاوة بعد قساوتها وبعدها عن استماع الحق والعمل بأوامره بحالة إحياء الأرض الموات بإنزال الغيث فيبعث فيها الحياة فينتفع بها الإنسان والحيوان ، والجامع الهيئة الحاصلة من اشتمال كل واحد منهما ـــ القلوب والأرض ـــ على بلوغ الشئ إلى كماله المتوقع بعد خلوه عنه •

أو هو أيضاً:استعارة تمثيلية لإحياء الأموات بأن شبهت هيئة إحيائها وإنباتها بماء الحياة وإخـــراجها مـــن قـــبورها بهيـــئة إحيـــاء الأرض بإنزال المطر عليها وإخراج الحب وصيرورته نباتا، وأن من قدر على الثانى قادرعلى الأول فحقه أن تخشع القلوب لذكره

قـــال الإمام الفخر :" قوله تعالى ـــ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ـــ فيه وجهان : الأول: أنه تمثيل والمعنى أن القلوب التى ماتت بسبب القساوة فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها كما يحيى الله الأرض بالغيث، والثانى : أن المراد من قوله ـــ يحيى الأرض بعد موتها ـــ بعث الأموات فذكر ذلك ترغيباً فى الخشـــوع والخضوع وزجراً عن القساوة "(١) ، وقال ابن عباس ـــ رضى الله عـــنهما ـــ : يـــلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتة منيبة ، وكذلك يحيى القلوب الميتة بالعلم والحكمـــة•

قال الشيخ أبو حيان : " يظهر أنه تمثيل لتليين القلوب بعد قسوتها ولتأثير ذكر الله فيهـــا كمـــا يؤثر الغيث فى الأرض فتعود بعد إجدابها مخصبة كذلك تعود القلوب النافرة مقبلة يظهر فيها أثر الطاعات والخشوع "(٢)

---

(١) التفسير الكبير ٢٣١/٢٩ ، أبو السعود ٢٠٩/٨ ، روح المعانى ٢٧/ ١٨١ •

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣ •

وهذا المثل جاء لإبراز العبرة والموعظة ، ولبيان كمال قدرته تعالى .

وقولـــه:" قـد بينا لكم الآيات " جملة تحقيقية لبيان عظيم قدرته تعالى فى إحياء الأرض بعـد موتها ، وإحياء القلوب بعد قساوتها وتليينها بالذكر والطاعة والبيان والتبيين الإيضاح والإظهار والتعبير به أبلغ للدلالة على شدة الظهور والوضوح، وتقديـم الجار والمجرور " لكم " للقصر بتقديم ما حقه التأخير أى لكم لا لغيركم ، وفى التعبير بـ " بينا " شدة تأثير وقوة تأثر .

و " الآيات " جمع آية وهى الحجة الواضحة والدلالة الدامغة على صدق المتحدث وصـحة دعواه ، والمراد : وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا .

وقولـــه:" لعلكم تعقلون " أسلوب ترج لأنه شئ محبوب قريبُ الحصول مترقب الوقوع ، و ـ لعل ـ من الله تحقيق ، والمعنى : كى تعقلوا ما فى ـ الآيات . وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين .

والتعبير بالفعل المضارع " تعقلون " للدلالـة على تجدده وحدوثه واستمراره .

والتعـبير بالتعقل لأن هذه الآيات تحتاج إلى استعمال العقل واستخدامه فبه يستدل على النتيجة المرضية والعاقبة المحمودة .

أثـر القرآن فى الجمادات :

٩ـ قال تعالى :" لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون "(١)

---

(١) الحشـــر/ ٢١ .

تحليل الآيــة : قوله:" لو أنزلنا هذا القرآن " كلام مستأنف مسوق للتشبيه بوجوب الخشــوع والخشــية مــن القرآن كما ينفعل الجبل الجماد لعظيم القرآن وجلاله ، والمعــنى : لو خلقنا فى الجبل عقلاً وتمييزاً كما خلقنا للإنسان ، وأنزلنا عليه هذا القرآن بوعده ووعيده لخشع وخضع وتشقق خوفاً من الله تعالى ومهابة له ، وهذا تصــوير وتشــبيه تمثيلى حيث شبهت حال عظمة قدر القرآن وقوة تأثيره ، وأنه بحيــث لــو خوطب به جبل ــ على شدته وصلابته ــ لرأيته ذليلاً متصدعاً من خشية الله. بحال من أثقل بحمل ثقيل أناخت أصلابه وساخت قوائمه ، والمراد من هذا التصوير والتمثيل توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن ، بل يعرض عمــا فيــه مــن عجائب وعظائم ، فهذه الآية فى بيان عظم القرآن ، ودناءة حال الإنسان "(١) فقوله :" ــ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً ــ حث على تــأمل مواعــظ القرآن ، وبين أنه لا عذر فى ترك التدبر ، فإنه لو خوطب بهذا القــرآن الجبالُ مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة أى متشققة من خشية الله تعالى "(٢)

ومجئ " جبل " نكرة للتعظيم ، والمراد : جبل عظيم ، واللام فى " لرأيته " رابطة لجواب أداة الشرط " لو " و " خاشعاً مفعول ثانٍ أو حال لأن الرؤية تحتمل الرؤية القلــبية أو الرؤية البصرية ، و " متصدعاً " حال ثانية أو هو نعت لــ " خاشعاً "، وقوله :" لرأيته " أى مع كونه علماً فى القسوة وعدم التأثر مما يصادمه.

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٣/ ٤٧٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٤١ .

قـــال شيخنا أبو حيان :" والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تأثره لهذا الـــذى لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعـــرض له الخشوع والتصدع فابن آدم كان أولى بذلك لكنه على حقارته وضعفه لايتأثر "(١)

وقـــد وصـــف ابنُ المنير قول الزمخشرى بأن ما فى الآية من قبيل التخييل على طريق التمثيل بسوء الأدب إذ يقول :" قوله تعالى ــ لو أنزلنا ــ إلخ
قـــال : فيـــه هذا تخييل وتمثيل • قال أحمد : وهذا مما تقدم إنكارى عليه فيه أفلا كان يتأدبُ بأدب الآية حيث سمى الله هذا مثلاً ، ولم يقل : وتلك الخيالات نضربها للناس"(٢)

وقـــد تعرضنا فى حديثنا عن اجتماع التمثيل والتخييل فى كلام الزمخشرى عند قوله تعالى :" يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد "(٣) الآية
وقولـــــه :" وتـــلك الأمثال نضربها للناس " معطوف على قوله:" لو أنزلنا " وهو إشارة إلى أن قوله :" لو أنزلنا " تمثيل • فالكلام بتقدير وقوع تلك ، أوالمراد تلك وأشـــباهها ، وتعـــريف المسند إليه " الأمثال " باسم الإشارة البعيد لتعظيم الأمثال المضـــروبة ، وأنهـــا رفيعة القدر والمنزلة فمن الواجب التنبه لها ومدحها لذلك ، وتعريف " الأمثال " بأل كناية عن أنها ليست أمثالاً عادية ، وإنما هى أمثال تهدى النفوس وتذهب غيها وتردها إلى حاق رشدها•

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٥١ •

(٢) الإنصاف من الكشاف ٤/ ٨٨ •

(٣) ق /٣٠ ، انظر ص ٢٧٢ من هذا البحث

وقولــــه:" نضــربها " استعارة تبعية أى نفصلها ونوضحها ، والضرب أبلغ لقوة تأثيــره فى نفــوس المضروبة لهم الأمثال فاستعار اللفظ الدال على المشبه به ــ الضرب ــ للمشبه التفصيل والإيضاح ــ ثم اشتق منه ــ نضرب ــ بمعنى نفصل ونوضح والقرينة عقلية.

والتعــبير بــنون العظمــة فى قوله " نضربها " لمناسبة المقام ذلك فهو مقام تنبيه وحث وامتنان بالتبيين والإيضاح.

واللام فى قوله :" للناس " لام الأجل أى لأجل الناس ولهم لا لغيرهم. إذ هم أهل للــتفكر والــتعقل فمــن الواجــب عليهم أن يقفوا على كنه هذه الأمثال فيتدبروها ويعملوا بمضامينها.

وقوله:" لعلهم يتفكرون " رجاء التفكر وإعمال العقل ، وــ لعل ــ من الله تحقيق ، و " يــتفكرون " فعل مضارع دال على التجدد والحدوث والاستمرار ، والغرض مــن ذكــر هــذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار ، وغلظ طباعهم ، والمراد بالتفكر هنا : أى يتفكرون فى آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون .

خلق الموت والحياة للاختبار:

١٠ ــ قــال تعــالى:" الــذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملاً وهو العزيز الغفور"(١)

---

(١) الملك / ٢ ، هود / ٧ ، الكهف / ٧ " ليبلوكم أيكم أحسن عملاً " .

تحليل الآية : قوله تعالى :" الذى خلق الموت والحياة " جملة مفصولة عن سابقتها لكونها مبدلة منها فوجب الفصل بينهما لكمال الاتصال ،

وجـاءت هـذه الآية شروعاً فى تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، وبيان ابتـنائهما عـلى قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة ، والموصول " الـذى خلق " بدل من الموصول الأول " الذى بيده الملك "(١) بدل بعض من كل داخـل معـه فى حكم الشهادة بتعاليه تعالى ، والموت عند العلماء صفة وجودية مضادة للحياة "(٢) ، وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول لقصد التعظيم والتفخيم، والسـرّ فى تقديم " الموت " على " الحياة " لأنه أقوى داعياً إلى العمل فمن الناس مـن يجعله نصب عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الكلام أهم، والمـوت هو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه ، والحياة هى الأصل فى النعم ولولاها لم يتنعم أحد فى الدنيا وهى الأصل أيضاً فى نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم "(٣)

فـفى تقديـم الموت على الحياة مزيد عظة وتذكرة وزجر عن المعاصى ، وحث عـلى حسـن العمـل ، ولأنه أهيب فى النفوس ، والمراد أنه أعطاكم الحياة التى تقـدرون بها على العمل وتستمكنون منه ، وسلط عليكم الموت الذى هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذى لابد منه.

---

(١) الملك/ ١ .

(٢) أبو السعود ٩/ ٢ ، روح المعانى ٢٩ / ٤ .

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٥٦ .

و ــ أل ــ فى " الموت والحياة " قيل : عوض عن مضاف إليه ، والتقدير: خلق موتكــم وحيــاتكم أيها المكلفون "(١) ، وبين " الموت والحياة " طباق حقيقى لفظى والأولى أن تكــون " أل " لا ستغراق الجنس ، وجواز التعويض بأل عن المضاف إليه مذهب الكوفيين وبعض البصريين وكثير من المتأخرين فأجازوا نيابة أل عن الضمير المضاف إليه ،وخرجوا على ذلك قوله تعالى:ــ فإن الجنة هى المأوى(٢) ومــررت برجل حسن الوجه وضرب زيد الظهر والبطنُ إذا رفع الوجه والظهر والبطن ، والمعروف من كلامهم أن المراد بالمضاف إليه ضمير الغائب ، والمــانعون يقــدرون ــ هى المأوى له ــ ، والوجهُ منه والظهرُ والبطنُ منه أى المانعون للتعويض "(٣)

ويــرى بعــض المحدثيــن : أن القــول بالــتعويض فى الآية لا يتفق مع مذهب المجيــزين غالــبا ، وكــون ــ أل ــ للاستغراق أعونَ على فهم المعنى ، وأليق بعظمة الله فى تعلق خلقه بالموت والحياة على الإطلاق "(٤)

وقولـــــه :" ليبلوكم أيكم أحسن عملاً " جملة تعليلية لقوله " خلق الموت والحياة " فــاللام للتعليل متعلقة بـــ " خلق " والتعليل هنا ليس على حقيقته لأن أفعاله تعالى منزهة عن الغرض .

---

(١) أبو السعود ٩/ ٣ ، روح المعانى ٢٩ / ٥ .

(٢) النازعات / ٤١ .

(٣) مغنى اللبيب لابن هشام ١/ ٥٢ .

(٤) دراسات فى لغة القرآن والسنة والأدب/١٤ د مصطفى إمام القاهرة سنة ١٩٨٢م مكتبة الأزهر .

وقيـل : إن اللام للعاقبة والصيرورة ، وأصل البلاء الاختبار أى ليعاملكم معاملة مَـنْ يختـبركم أيكـم أحسن عملاً فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت طبقات علومكم وأعمالكم فإنَّ العمل غيرُ مختص بعمل الجوارح ، والاختبار غير مـراد فى حـقّ الله تعالى • إنما المراد ــ كما ذكرنا ــ أنه سبحانه يعامل عباده معاملة المختبر • ففى الكلام استعارة تمثيلية تبعية فى تشبيه حالهم فى تكليفه تعالى لهـم بـتكاليفه ، وخلق الموت والحياة لهم وإثباته لهم وعقوبته• بحال المختبر مع مـن جـربه واختـبره لينظر مدى طاعته أو عصيانه فيكرمه أو يهينه ، والجامع الهيئة الحاصلة من الاختبار والمجازاة أو الإهانة •

وقولـه :" أحسن عملاً " أى أخلصه وأصوبه لأنه إذا كان خالصاً غير صواب لم يقـبل ، وكذلك إذا كان صواباً غير خالص ، فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى ، والصواب أن يكون على السنة "(١)

وجئ باسـم التفضـيل " أحسـن " وإن عم جميع المكلفين تحريضاً على اجتناب القبيح، وأنه لايعبأ به أصلاً ، وإنما النظر إلى المحاسن على مراتبها•

<u>قـال الشيخ أبو السعود</u>:" وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لهم باعتبار أعمـالهم المنقسمة إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات ، والمقصد الأصـلى مـن الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعـة فى الباقين أيضاً لكمال تعاضُد الموجبات له ، وأما الإعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلاً عن الانتظام فى سلك الغايـة للأفعال

(١) الكشاف ٤ / ١٣٤ .

الإلهيــة ، وإنمـــا هـــو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولاتقــريب ، وفيـــه من الترغيب فى الترقى إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها مالا يخفى "(١)

وقوله :" وهو والعزيز الغفور" تذييل لما سبق لبيان عزته وقوته ومغفرته سبحانه وتعــالى و " العزيــز " الغالب الذى لا يعجزه شئ ، وأصل العزة أنها حالة مانعة لصاحبها من أن يغلب من قولهم أرض عزاز أى صلبة "(٢)

وقــد يوصــف بهــا الإنسان لكنها لا تكون فيه حقيقية لازمة إلا أن يجعلها الله له مــنحة منه سبحانه ، والله عزيز لأنه يقهر ولا يقهر ، ووصفه بـــ " العزيز " فى الآية مناسب لتهديد من أساء العمل٠

و " الغفــور " خــبر ثــان ، والمراد به المتعطف بالمغفرة المرة بعد المرة لعباده المســيئين التائــبين عما وقع منهم من إساءة بعد توبتهم إلى ربهم ورجوعهم إلى جــنابه القــوى رغــبة ورهباً فهو وصف مناسب مع ما قبله من العزة والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب "(٣)

وتعــريف المسند إليه بضمير الغائب " هو " بدون ذكر اسم الجلالة صراحة لكونه معلوماً للتعظيم والتكريم وكون العزة والمغفرة خاصتين به لا بغيره أى هو العزيز الغفور لا غيره٠

---

(١) أبو السعود ٩/ ٣ ٠

(٢) المفردات /٣٣٢ ، ٣٣ ٠

(٣) السابق / ٣٦٢ ٠

قال الإمام الفخر:" واعلم أن كونه عزيزاً غفوراً لا يتم إلا بعد كونه قادراً على كل المقــدورات عالمــاً بكل المعلومات . أما أنه لا بد من القدرة التامة ، فلأجل أن يــتمكن من إيصال جزاء كل أحد بتمامه إليه سواء كان عقاباً أو ثواباً . فثبت أن كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن بثبوتها إلا بعد ثبوت القدرة التامة والعلم التام . فلهذا الســبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين فى هذا المقام ليناسب قوله :ــ وهو على كل شئ قديرت "(١) والله أعلــــــم .

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٥٧ ، ٥٨ .

" الفصـــل الثانــــــى "

وتحتـــــه مبحثـــــــان :

الأول : الآيات الخاصـــــة بالمنافقـــين .

الثانى : الآيات الخاصّـــــة بالكافرين .

"المبحـــث الأول "

الآيـــــات الخاصة بالمنافقـــين

إيمان باللسان مجرد خـــداع :

١ـ قـال تعـالى :" ومن الناس منْ يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخـادعون الله والذيـن آمـنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون٠ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون "٠(١)

تحـليل الآيـات : قوله :" ومن الناس " كلام مستأنف مسوق لذكر المنافقين الذين آمـنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم ٠ فقد افتتح سبحانه بذكر المتقين ثم ثنى بالكافرين ظاهراً وباطناً ، وثلث بالمنافقين ٠

والــلام فى " الــناس " إما للجنس وإما للعهد الخارجىّ فإن كان الأول فـ " من " نكرة موصوفة ، وإن كان الثانى فهى موصولة فعلى الأولى : ومن الناس ناس أو فـريق ، وعــلى الثانية مراد بها عبد الله بنُ أبىّ وأشياعه ، وجوز ابن هشام(٢) وجماعــة أن تكـون موصولة على تقدير الجنس وموصوفة على تقدير العهد لأن بعــض الجـنس قــد يتعين لوجه ما ، وبعض المعينين قد يجهل باعتبار حال من أحوالــه كأهل محلة محصورين فيهم قاتل لم يعرف بعينه كونه قاتلاً ، وإن عرف شخصه فلا وجه للتخصيص عند هؤلاء "(٣)

وقولــه:" ومن الناس " شروع فى بيان أنّ بعض منْ حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصــرين على ماذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد بل يضمون إليه فنوناً أخر من الشر والفساد ، وتعديد لجناياتهم الشنيعة المستتبعة لأحوال هائلـــة

(١) البقرة / ٨ـ١٠ ، النساء / ١٤٢ " إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم "

(٢) مغنى اللبيب ٢/١٨ ، ١٩ ٠

(٣) روح المعانى ١/ ١٤٣ ٠

عاجـــلة وأجـــلة ، وفى قوله:" يقول آمنا " مراعاة للفظ " من " ولمعناها فى قوله" آمنا بالله " بالجمع ، وإفراده فى الأول ، والمراد " باليوم الآخر " من وقت الحشر إلى مالا يتناهى أو إلى دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار إذ لا حد وراءه ، وتخصيصـــهم للإيمان بهما بالذكر " بالله وباليوم الآخر " وتكرير الباء لادعاء أنهم قـــد حازوا الإيمان من قطريه وأحاطوا به من طرفيه ، وأنهم قد آمنوا بكل منهما عـــلى الأصـــالة والاستحكام وقد دسوا تحته ماهم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكـــن إيمـــانهم بواحـــد مـــنهما إيماناً فى الحقيقة إذ كانوا مشركين بالله ، وحكاية عـــبارتهم لـــبيان كمـــال خبثهم ودعارتهم فإن ماقالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخـــداع وعقيدتهـــم عقيدتهـــم لـــم يكن ذلك إيماناً فكيف وهم يقولونه تمويهاً على المؤمنين واستهزاءً بهم "(١)

وقوله:" وماهم بمؤمنين " جملة حالية ، وقدم الفاعل وأتبع حرف النفى رد لدعوى أولـــئك المنافقين على أبلغ وجه لأن انخراطهم فى سلك المؤمنين من لوازم ثبوت الإيمـــان الحقيـــقى لهم وانتفاء اللازم أعدل شاهد على انتفاء الملزوم فسلك طريق الكناية لرد دعواهم الكاذبة ، وقد بولغ فى نفى اللازم بالدلالة على دوامه المستلزم لانـــتفاء حدوث الملزوم مطلقاً ، وأكد ذلك النفى بالباء أيضاً ، وهذا سبب العدول عـــن الـــرد بـــ ــ ماآمنوا ــ المطابق لصدر الكلام ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة فى الرد بإفادة انتفـــاء الإيمـــان عنـــهم

(١) الكشاف ١/١٦٨ ، ١٦٩ ، أبو السعود ١/٤٠ ، روح المعانى ١/ ١٤٤ .

فى جميع الأزمنة لا فى الماضى فقط كما تفيده الجملة الفعلية ، وإطلاق الوصف للإشـارة إلى العموم وأنهم ليسوا من الإيمان فى شئ ، وقد يقيد بما قيد به سابقه لأنه واقع فى جوابه إلا أن نفى المطلق يستلزم نفى المقيد فهو أبلغ وأوكد "(١)

وقوله :" يخادعون الله والذين آمنوا " بياين لـ " يقول " وتوضيح لما هو غرضهم ممـا يقولون أو استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل : مالهم يقولـون ذلـك وهم غير مؤمنين فقيل "يخادعون الله " إلخ ولذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها أى ــ يخدعون ــ وبها قرئ ٠٠إله :" ، وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المـبالغة فى الكيفية فإن الفعل متى غلب فيه بولغ فيه قطعاً أو فى الكمية كما فى الممارسـة والمزاولة فإنهم كانوا مداومين على الخدع ، والخدع أن يوهم صاحبه خـلاف مـا يـريد بـه من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب ، أو يوهمه المساعدة على مايريد هو به ليغتر بذلك فينجوا منه بسهولة من قول العرب ضب خـادع وخدع وهو الذى إذا أمر الحارش يده على باب جحره يوهمه الإقبال عليه فيخـرج مـن بابـه الآخر ، وكلا المعنيين مناسب للمقام فإنهم كانوا يريدون بما صـنهوا أن يطـلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة"(١)

وفى قولـه :" يخـادعون الله " اسـتعارة تمثيلية : شبه حالهم مع الله تعالى فى إظهار الإيمان وإخفاء الكفر مع إصرارهم عليه يعتقدون ــ بجهلهم ــ أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين بحال رعية تخادع سلطانها بإظهار ولائها وطاعتها له مع إضمار النفاق والخلاف وتدبير المكائد .

(١) أبو السعود /١/٤٠ .

ثـم اسـتعيرت الهيـئة الدالـة على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية ، والجامع الهيئة الحاصلة من إظهار ما يخالف الباطن مع المكر والخبث وسـوء الـنية ، وفـائدة الاستعارة إظهار كمال شناعة جناياتهم فيعاملون معاملة الخادعين .

أو ما فى الآية من قبيل المجاز العقلى بأن ينسب إليه تعالى ما حقه أن ينسب إلى الرسـول ـ صـلى الله عـليه وسـلم ـ إبانة لمكانته عنده تعالى مع إفادة كمال الشـناعة . فجعل الخداع المنسوب إليه لتعاطيهم أفعال المخادع .. إلخ ظناً منهم أنهم يستطيعون ذلك لصدق نفيه ولذلك قال :" وما يخدعون إلا أنفسهم "

أو يكـون ذلك من باب المشاكلة فى قوله :" يخادعون الله " لأن المفاعلة تقتضى المشـاركة فى المعنى ، وقد أطلق عليه تعالى مقابلاً لما ذكره من خداع المنافقين كمقابـلة المكـر بمكرهم مشاكلة حقيقية لوقوع ذلك فى صحبة الفعل فسماه بذلك مشاكلة .

" أو يكـون ذلك لمجرد التوطئة والتمهيد لما بعده من نسبته إلى ـ الذين آمنوا ـ والإيذان بقوه اختصاصهم به تعالى ، وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقى بـناءً عـلى زعمهم الفاسد وترجمة عن اعتقادهم الباطل كأنه قيل : يزعمون أنهم يخدعـون الله والله يخدعهم أو على جعلها استعارة تبعية أو تمثيلاً لما أن صورة صـنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم بإجراء أحكام الإسلام عليهم وهم عنده أخبث الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجاً لهم"(١)

---

(١) أبو السعود ١/ ٤١ .

وامتـــثال الرســـول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنين بأمر الله تعالى فى ذلك مجـــازاة لهـــم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل لا يرتضيه الذوق السليم أما الأول فلأن المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لـــم يتصـــور منهم التصدى للخدع ، وأما الثانى فلأن مقتضى المقام إيراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة وبيان أن غائلتها آيلة إليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عزوعلا ــ وما يخدعون إلا أنفسهم ــ فالتعرض لحال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقـــه "(١)

وقوله:" وما يخدعون إلا أنفسم " جملة حالية من الضمير فى قولـــه :" ويخادعون" والمـــراد :يفعـــلون ما يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم فإن دائرة فعـــلهم مقصـــورة عليهم ، أو " ما يخدعون " حقيقة " إلا أنفسهم " حيث يغرونها بالأكاذيب والأمانى الباطلة فيلقونها فى مهاوى الردى.

وقولـــــه:" وما يشعرون " حال أيضاً من ضمير " وما يخدعون " والمعنى : أنهم يقتصرون على خدع أنفسهم ، والحال أنهم ما يشعرون بذلك لتماديهم فى الغواية، وحـــذف المفعـــول إما لظهوره أو لعمومه أى ما يشعرون بشئ أصلاً جعل لحوق وبـــال مـــا صنعوا بهم فى الظهور بمنزلة الأمر المحسوس الذى لايخفى إلا على فاقد الحواس مختل المشاعر .

قولـــه:" فى قلوبهم مرض " جملة مقررة لما يفيده قوله تعالى :" وماهم بمؤمنين " من استمرار عدم إيمانهم أو تعليل له كأنه قيل : مالهم لا يؤمنون ؟ فقـــــــيل :

---

(١) أبو السعود ١/ ٤١ .

فى قـلوبهم مرض " يمنعه ، ولذا فصلت عن سابقتها ، و ـ المرض ـ فى اللغة قـد يستعمل فى القلب على سبيل الحقيقة بأن يراد به الألم وكونه مرضاً حقيقة لا شبهة فيه كما نقول : فى جوفه مرض ، وقد يستعمل على سبيل المجاز فالمراد به المعـنى المجازى أى الاستعارة التصريحية الأصلية حيث استعير لبعض أمراض القـلب كسـوء الاعـتقاد والكفر ، أو الهيئة الباعثة على ارتكاب الرذائل كالغل والحسـد والـبغض ، أو هو مستعار لما ران على قلوبهم من جهل وسوء عقيدة وغيـر ذلك من أصناف الجهالات المؤدية إلى المهالك ، وقد وصف الله صدورهم وقـلوبهم بذلـك لأنهـا كـانت تغلى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين غلا وحنقاً يبغضونهم .

وقوله:" فزادهم الله مرضاً " جملة معطوفة على ماقبلها ، والفاء للدلالة على ترتب مضـمونها عليه وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السـبب ، والمـراد : طبع الله على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنـذار ، وقيل : زادهم كفراً بزيادة التكاليف الشرعية لأنهم كانوا كلما ازدادت الـتكاليف بـنزول الوحى يزدادون كفراً ، ومع إعزاز المسلمين ومشاهدتهم لذلك زادهم الله مرضاً مافعل بهم من إلقاء الروع وقذف الرعب فى قلوبهم عند إعزاز الدين بإمداد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإنزال الملائكة وتأييده بفنون النصر والتمكين "(١)

---

(١) الكشاف ١/١٧٥ ـ ١٧٧ ، الإنصاف بهامشه ، أبو السعود ١/ ٤٢ .

وإسناد الزيادة إليه تعالى مجازى على طريق المجاز العقلى لعلاقة السببية فأسنده الله تعـالى إلى نفسـه إسناداً للفعل إلى المسبب له فهو إسناد مجازى سواء فسر المـرض بالكفر أو الحسد والغل أو الضعف والخور فزيادة المرض تكون مجازاً عـن الطـبع والإسناد إلى الله تعالى . ومجئ " مرض ـ مرضاً " نكرة للدلالة عـلى كونـه نوعاً مبهماً غير مايتعارفه الناس من الأمراض ، وفى الثانى قيل : لكونه مغايراً للأول ضرورة أن المزيد يغاير المزيد عليه ، ولك أن تقول : المراد بالمرض الثانى هو الطبع : أى زادهم الله طبعاً "(١)

وقولـه:" ولهم عذاب أليم " معطوف على ما قبله أو استئناف وقدم المسندُ " الجار والمجرور " لكونه خبراً ، ووصف العذاب بكونه مؤلماً للمبالغة على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المصدرية بإسناد الفعل إلى مصدره.

وقولـه:" بمـا كانوا يكذبون " أى بسبب كذبهم ، والمراد بكذبهم قولهم " آمنا بالله وباليوم الآخر " وكلمة " كانوا مقحمة لإفادة دوام كذبهم وتجدده أى بسبب كذبهم أو أن الـباء للمقابلة أى بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر وهو قولهم " آمنا " إلخ ، وهم غير مؤمنين فإنه إخبار بإحداثهم الإيمان فيما مضى لا إنشاء للإيمان ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم ، وفيه رمز إلى قبح الكفر وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لا حق بهم من أجل كذبهم"(٢)

---

(١) الإنصاف بهامش الكشاف ١/ ١٧٧ .

(٢) الكشاف ١/ ١٧٨ ، الإنصاف بهامشه ، أبو السعود ١/ ٤٢ .

المنافقون والمستوقد ناراً والبرد الشديد :

٢ـ قـال تعـالى:" مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بـنورهم وتـركهم فى ظـلمات لا يبصورن٠ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ٠ أوكصـيب مـن المساء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصـواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ٠ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضـاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير "(١)

تحليل الآيـات : قوله تعالى :" مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً " جملة مقررة لجملة قصـة المـنافقين المسـرودة إلى هنا فلذا لم تعطف على ما قبلها ٠ حيث أعقبت تفاصيل صفات هؤلاء المنافقين بتصوير مجموعها فى صورة واحدة بتشبيه حالهم بهيـئة محسوسـة وهـذه تشـبيه التمـثيل إلحاقاً لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة ٠ لأن النفس إلى المحسوس أميل ، وإتماماً للبيان بجمع المتفرقات فى السـمع المطالـة فى اللفظ فى صورة واحدة لأن للإجمال بعد التفصيل وقعاً من نفـوس السامعين وتقريراً لجميع ما تقدم فى الذهب بصورة تخالف ماصور سالفاً لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها٠

ومـن هنا فجملة " مثلهم الذى استوقد ناراً " واقعة من الجمل الماضية موقع البيان والتقرير والفذلكة فكان بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال فلذلك فصلت ولم تعطف"(٢)

(١) البقرة /١٧ ـ ٢٠ ٠

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٨ ٠

ولما جاء بحقيقة صفتهم – أعنى صفة المنافقين – عقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف وتتميماً للبيان ، والمثل فى أصل كلام العرب بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل ، والمعنى حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً"(١) إلخ.

ولما شاع إطلاق لفظ المثل " بفتحتين " على الحالة العجيبة الشأن جعل البلغاء إذا أرادوا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة أعنى وصفين منتزعين من متعدد أتوافى جانب المشبه والمشبه به معاً أو فى جانب أحدهما بلفظ المثل ، وأدخلوا الكاف ونحوها من حروف التشبيه على المشبه به منها ولا يطلقون ذلك على التشبيه البسيط " المفرد " فلا يقولون مثل فلان كمثل الأسد ، ومن أجل إطلاق لفظ المثل اقتبس علماء البيان مصطلحهم فى تسمية التشبيه المركب بتشبيه التمثيل ، وتسمية استعمال المركب الدال على هيئة منتزعة من متعود فى غير ماوضع له مجموعه بعلاقة المشابهة استعارة تمثيلية.

وقوله:" كمثل الذى استوقد نافراً " مفرد مراد به مشبه واحد لأن مستوقد النار واحد ولامعنى لاجتماع جماعة على استيقاد نار ، ولايريبك كون الحالة المشبهة حالة جماعة المنافقين . كأن تشبيه الهيئة بالهيئة إنما يتعلق بتصوير الهيئة المشبهة بها لا بكونها على وزن الهيئة المشبهة فإن المراد تشبيه حال المنافقين فى ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقبه بالضلالة ودوامه بحال – من استوقد ناراً –، وقوله " الذى " أى – الذين – كما فى قوله تعالى :" وخضتهم كالذى خاضوا"(٢)

(١) الكشاف ١/١٩٥ ، محاسن التأويل ٢/ ٥٣ . (٢) التوبة / ٦٩ .

إلا أنـــه وحــد الضـــمير فى قولـــه تعالى : " استوقد ناراً " نظراً إلى الصورة والمجموع فجمع الضمير مراعاة للمعنى .

فشـــبهت قصة المنافقين بقصة المستوقد ، ووقود النار سطوعها ، وارتفاع لهبها ، ومـــجئ " ناراً " نكرة للتعظيم ، وهى مشتقة من نار ينور إذا تفر لأن فيها حركة واضطراباً والنور مشتق منها"(١)

وقولـــه :" فـــلما أضاءت ما حوله " تفريع على قوله :" استوقد " فالفاء هنا للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى : فلما أضاءت النار ماحول المستوقد أو فلما أضاء ماحوله والتأنيث لكونه عبارة عن الأماكن أو أضاءت النار نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لإشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها"(٢)

و " لمـــا " حـــرف يدل على وقوع شئ عند وقوع غيره فوقوع جوابها مقارن لوقـــوع شـــرطها ، ولنتأمل قوله تعالى :" أضاءت ما حوله " كيف جعل ضوءها خارجـــاً عنه مفصلاً ، ولو اتصل ضوءها به ولا بسه لم يذهب ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية فرجع الضوء إلى معونه ، وبقيت الظلمة فى معدنها ، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به"(٣)

و" أضـــاء " يـــأتى متعدياً ولازماً فعلى الأول " ما " موصولة أو موصوفة ، والظرف صلة أو صفة وهى المفعول والفاعل ضمير النار، وعلى الثانى فـــ"ما"

---

(١) الكشاف ١/ ١٩٧ ، محاسن التأويل ٢/ ٥٣ ، تأويل مشكل القرآن / ٣٦١ .

(٢) أبو السعود ١/٥٠ .

(٣) بدائع التفسير لابن القيم ١/ ٢٧٤ .

كذلك وهى الفاعل ، وأنث فعله لتأويله بمؤنث كالأمكنة والجهات أو الفاعل ضمير النار و "ما" زائدة أو فى محل نصب على الظرفية ، وإذا جعل الفاعل ضمير النار والفعل لازم يكون الإسناد إلى السبب لأن النار لم توجد حول المستوقد ووجد ضوؤها فجعل إشراق ضوئها حوله بمنزلة إشراقها نفسها على ماقيل"(١)

قال العلامة الزمخشرى :" فإن قلت : أين جواب ـ لما ـ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن جوابه ـ ذهب الله بنورهم ـ والثانى أنه محذوف كما حذف فى قوله: ـ فلما ذهبوا به ـ (٢) وإنما جاز حذفه لا ستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه "(٣)

ثم يرجح الزمخشرى الحذف فيقول :" وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التى تحصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ فى أداء المعنى كأنه قيل : ـ فلما أضاءت ماحوله ـ فمدت فبقوا خابطين فى ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح فى إحياء النار"(٤)

ولم يكتف الزمخشرى بتقدير الجواب بل نظر إلى تعلق قوله :" ذهب الله بنورهم" وموقعه من الجملة . فيقول:" فإن قلت : فإذا قدر الجواب محذوفاً فبم يتعلق قوله ـ ذهب الله بنورهم ـ ؟ قلت : يكون كلاماً مستأنفاً كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذى طفئت ناره اعترض سائل فقال : مابالهم قد أشبهت حالهم حال هذا

---

(١) روح المعانى ١/ ١٦٥ .

(٢) يوسف / ١٥ .

(٣) الكشاف ١/ ١٩٨ .

(٤) الكشاف ١/ ١٩٩ .

المســتوقد ؟ فقيــل له : ذهب الله بنورهم ، أو يكون " لا " من جملة التمثيل على سبيل البيان"(١)

ويرى ابنُ المنير : أن الحمل على الاستئناف ضعيف لأن السبب فى تشبيه حالهم قد علم مما سبق ٠ فلا معنى للسؤال عن وجه الشبه أو تعيين المشبه وجعله بدلاً مــن جمــلة التمــثيل يدل على أن المذكور لفظاً أو فى بتأدية الغرض مما حذف لقصور العبارة عنه وهو بالحل٠ نعم لو قيل ــ ذهب الله ــ ابتداء كلام لبيان حال المشــبه لــم يكن بعيداً ، ولعل ماذكره المصنف من نكتة الحذف ليس إيثاراً له بل إيناســاً بــه وإزالة لاستبعاده فالوجه هو الأول ، وأجيب بأن الحذف لما كان أبلغ كانت المبالغة فى المشبه أكثر والتطابق بين التمثيلين أو فر ، وأيضاً إذهاب النور وتــركهم فى ظــلمات يدل على أنه كان لهم نور فزال وصاروا متحيرين خابطين فــتكون المــبالغة فى الطرفين معاً ، أما فى المشبه به فبالحذف ، وأما فى الشبه فباللفظ ، وهذا أو فى بتأدية الغرض الذى هو بيان حال المنافقين "(٢)

وجمــع الضــمير فى قوله :" بنورهم " وإفراده فى قوله : " حوله " فللحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى ٠ مع كون الضمير فى قوله :" بنورهم " الجمعى مجــاوراً للضــمير فى المفرد فى قوله:" حوله " مراعاة للحال المشبهة وهى حال المــنافقين لا لــلحال المشبه بها ، وهى حال المستوقد الواحد على وجه بديع فى الرجوع إلى الغرض الأصلى وهو انطماس نور الإيمان منهم ٠ فهــــو عائد إلى

---

(١) الكشاف ١/ ١٩٩ ٠

(٢) الإنصاف على الكشاف ١/ ١٩٩ ٠

المنافقين لا إلى – الذى – قريباً من رد العجز على الصدر فأشبه تجريد الاستعارة المفردة وهو من التفنين(١) ، وحسنه أن التمثيل جمع بين ذكر المشبه وذكر المشبه به فالمتكلم بالخيار فى مراعاة كليهما لأن الوصف لهما فيكون ذلك البعض نوعاً واحداً فى المشبه والمشبه به ٠ فما ثبت به يلاحظ كالثابت للمشبه ، وهذا يقتضى أن تكون جملة – ذهب الله بنورهم – جواب – لما – فيكون جمع ضمائر – بنورهم – ، – وتركهم – إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر أن يقول :– ذهب الله بنوره وتركته –"(٢)

وقوله:" بنورهم " ولم يقل : – بنارهم – ليطابق أول الآية ٠ فإن النار فيها إشراق وإحراق فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور وأبقى عليهم مافيها من الإحراق – وهو النارية – ، وقوله أيضاً: " بنورهم " ولم يقل :– بضوئهم – مع قوله " فلما أضاءت ماحوله " أن الضوء هو زيادة فى النور ، فلو قيل :– ذهب الله بضوئهم – لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ٠ فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشئ وزيادته وأيضاً فإنه أبلغ فى النفى عنهم ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم"(٣)

---

(١) هو الانتقال من فن إلى فن أو هو الإتيان فى كلام بفنين مختلفين جواهر البلاغة/٣٠٢ ، البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران /١٤٥ السيد الجميلى٠

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ٠

(٣) تفسير الطبرى ١/١١٠ ، محاسن التأويل ٢/ ٦٦ ، بدائع التفسير ١/ ٢٧٤ ٠

يقــول الشيخ الطاهر ابن عاشور:" واختير هنا لفظ النور عوضاً عن النار المبتدأ به للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ليدل على أن الله أذهب نور الإيمان مــن قــلوب المنافقين. فهذا إيجاز بديع كأنه قيل :ـ فلما أضاءت ذهب الله بناره فكذلــك ذهــب الله بــنورهم وهــو أسلوب لا عهد للعرب بمثله فهو من أساليب الإعجاز"(١)

ويقــول الزمخشــرى موضحاً سر إسناد الفعل " ذهب " إلى لفظ الجلالة " الله " : "فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى فى قوله : ـ ذهب الله بنورهم ـ؟ قــلت : إذا طفــئت النار بسبب سماوى ريح أو مطر فقد أطفأها الله تعالى وذهب بــنور المستوقد ، ووجه آخر و"هو أن " يكون المستوقد فى هذا الوجه مستوقد نار لايرضاها الله"(٢)

ويوضــح الشــيخ ابنُ المنير كلام الزمخشرى السابق فيقول :" المقصود بقوله : فما معنى إسناد الفعل ـ ؟ بيان إزالة المانع المعنوى. أجاب أولاً بأن الإسناد إليه تعــالى المــبالغة فى إذهاب النور. وثانياً بأن المراد مستوقد ناراً لايرضاها الله تعــالى فــلا يكون إطفاؤها قبيحاً ثم إن هذه النار إما أن تكون مجازية وإما حقيقة فــإن قيل : المنافق مستوقد نار الفتنة والعداوة مع ما ذكر من الإضاءة فلا معنى للتشبيه . قلنا : هذا المستوقد أعم منه .

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٩٥ .

(٢) الكشاف١/ ٢٠٠ .

ـ قولـــه وتـــلك النار متقاصرة مدة اشتعالها إلخ ـ أشار به إلى معنى ذهاب الله بــنورهم إذا حمــلت الـــنار على المجازية ، ولما استعير لفظ النار للفتنة رشحت بالإضاءة التى تلائم معناه الحقيقى "(١)

ومعـــنى " ذهب الله بنورهم " أطفأ نارهم فعبر بالنور لأنه المقصود من الاستيقاد، وأســند إذهابـــه إلى الله تعـــالى لأنه حصل بلا سبب من ريح أو مطر أو إطفاء مطفئ، والعرب والناس جميعاً يسندون الأمر الذى لم يتضح سببه لاسم الله تعالى

السر فى التعبير بـــ " ذهب " المعدى بالباء:

عبر فى الآية بالفعل " ذهب " المعدى بالياء ولم يعبر بـــ ـ أذهب ـ المعدى بالهمزة. لأن الأول أبلغ ، وهذه الأبلغية فى التعدية بالباء نشأت من أصل الوضع لأن أصــل ـ ذهـــب به ـ أن يدل على أنهما ذهبا متلازمين فهو أشد فى تحقيق ذهاب المصاحب كقوله:" فلما ذهبوا به "(٢)

وأذهـــبه جعلـــه ذاهـــباً بأمره أو إرساله فلما كان الذى يريد إذهاب شخص إذهاباً لاشك فيه يتولى حراسة ذلك بفنسه حتى يوقن بحصول امتثال أمره صار ـ ذهب به ـ مفيداً معنى ـ أذهبه ـ ثم تنوس ذلك بكثرة الاستعمال فقالوا: ـ ذهب به ـ ونحـــوه ولم لم يصاحبه فى ذهابه ، ثم جعلت الهمزة لمجرد التعدية فى الاستعمال فيقولـــون : ذهـــب القمـــار بمـــال فلان ولايريدون أنه ذهب معه ولكنهم تحفظوا ألايستعملوا ذلك إلا فى مقام تأكيد الادهاب فبقيت المبالغة فيه "(٣)

(١) الإنصاف على الكشاف ١/ ٢٠٠ .

(٢) يوسف / ١٥ .

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٢٩٦ .

وأبان الفرق ووضحه العلامة الزمخشري بقوله :" والفرق بين أذهبه وذهب به أن معــه أزالــه وجعلــه ذاهباً ويقال ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بماله أخذه ، والمعنى : أخذ الله نورهم وأمسكه ، وما يمسك الله فلامرسل له فهو أبلغ الإذهاب "(١)

و ــ ذهب ــ فيه من الأخذ والإمساك ماليس فى ــ أذهبه ــ فإن الباء وإن كانت للتعدية كالهمزة إلا أن فيها معنى المصاحبة واللصوق٠

وقولــه :" وتركهم فى ظلمات لا يبصرون " عطف على قوله :" ذهب الله بنورهم" وهــو أو فى بتأدية المراد فيستفاد منه التقرير لانتفاء النور بالكلية تبعاً لما فيه من ذكــر الظــلمة٠ فتضمنت هذه الجملة تقريراً لمضمون قوله :" ذهب الله بنورهم " لأن من ذهب نوره بقى فى ظلمه لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التى صــاروا إليهــا فإن الدلالة الصريحة من الارتسام فى ذهن السامع ماليس للدلالة الضــمنية فــإن قولــه :" ذهب الله بنورهم" يفيد أنهم لما استوقدوا ناراً فانطفأت انعدمت الفائدة وخابت المساعى ، ولكن قد يذهل السامع عما صاروا إليه عند هاته الحالــة فيكــون قوله بعد ذلك ــ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ــ تذكيراً بذلك وتنبيهاً إليه"(٢)

وهــناك لفــتة أخــرى فى هذه الجملة : وهى أنها تفيد مع ما سبق ذكره أنهم لم يعودوا إلى الاستنارة من بعد٠ على مافى قوله: ــ وتركهم ــ من إفادة تحقيرهم٠

والــترك فى " تركهم " المشهور فيه طرح الشئ كتــرك العصا من اليد أو تخليته محسوســاً كان أو غــيره وإن لم يكن فى اليد كتـــرك الوطــن والدين ،

(١) الكشاف ١/ ٢٠٠ ، ٢٠١ ٠ (٢) روح المعانى ١/ ١٦٧ ، التحرير والتنوير ١/ ٢٩٦ ٠

وقال الراغـــب: ترك الشئ رفضه قصداً واختياراً أو قهراً واضطراراً"(١)

وقولـــه:" فى ظلمات " أى مستقرين ــ فى ظلمات ــ متمكنين فيها تحيط بهم من جميع الجوانب لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم ، والظلمة هى عدم النور وانطماسه بالمـــرة لا سيما إذا كانت الظلمات متضاعفة متراكمة متراكبة بعضها على بعض كمـــا يفيـــده الجمع والتنكيرالتفخيمى من بيان شدة الظلمة وهى مامدة زائدة على ماأســـتفيد ضـــمناً من جملة " ذهب الله بنورهم " ، وما يقتضيه جمع ــ ظلمات ــ مـــن تقديـــر تشبيهات ثلاثة لضلالات ثلاث من ضلالاتهم ، وبهذا الاعتبار الزائد على تقرير مضمون الجملة قبلها عطفت على الجملة ولم تفصل وجمع "ظلمات " لقصـــد بيان شدة الظلمة فإن الكثرة لما كانت فى العرف سبب القوة أطلقوها على مطلق القوة ، وإن لم يكن تعدد ولاكثرة ، وـــ الظلمة ــ مأخوذة من قول العرب: ماظلمك أن تفعل كذا ؟ أى مامنعك ٠ فسميت كذلك لأنها تسد البصر وتمنعه من الرؤيـــة٠

إفراد النور ، وجمع الظلمات ٠ ما السر فى ذلك ؟

جاء قوله تعالى :" بنورهم " مفرداً ، وقوله : " فى ظلمات " جمعاً لأن الحق واحد هو صراط الله المستقيم ــ الذى لا صراط يوصل إليه سواه ــ وهو عبادته وحده لاشـــريك له بمـــا شرعه على لسان رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لابالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسول ــ صلى الله عليه وسلـــــم ــ مـــن الهدى ودين الحق ٠ بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة ، ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل٠

(١) المفردات /٧٤ مادة ترك٠

يقــول الشــيخ الطاهر ابن عاشور :" ويتعين فى هذه الآية أن جمع ــ ظلمات ــ أشــير بــه إلى أحوال المنافقين كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة وتلك هى حالــة الكفر ، وحالة الكذب ، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين ، ومايتبع تلك الأحوال من آثــار النفــاق "(١)

ثم يوضح قيمة التمثيل فى هذه الجملة فيقول :" وهذا التمثيل تمثيل لحال المنافقين فى تــردهــم بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر فوجــهُ الشبه هو ظهور أمر نافع ثم انعدامه قبل الانتفاع به فإن فى إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمــان وبشاشــته لأن للإسلام نوراً وبركة ثم لا يلبثون أن يرجعوا عند خلوهم بشياطينهم فيزول عنهم ذلك ويرجعوا فى ظلمة الكفر أشد ماكانوا عليه لأنهم كانوا فى كفــر فصــاروا فى كفر وكذب ، وما يتفرع عن النفاق من المزام. فإن الذى يســتوقد الــنار فى الظلام يتطلب رؤية الأشياء فإذا انطفأت النار صار أشد حيرة مــنه فى أول الأمــر لأن ضوء النار قد عود بصره فيظهر أثر الظلمة فى المرة الــثانية أقوى ويرسخ الكفر فيهم"(٢) ، ومن هنا نرى أن جمع الظلمات إما لتعددها فى الواقــع ســواء رجــع ضمير الجمع إلى المستوقدين أو المنافقين أو لأنها فى الحقيقــة ، وإن كانت ظلمة واحدة لكنها لشدتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة ، أو لأنها لما كان لكل واحد ظلمة تخصه جمعت بذلك الاعتبار.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٩٨.

(٢) السابق نفســـه.

وقولـه :" لا يبصرون " بيان لتصوير حال من انطفأت نوره بعد أن استضاء به ، ومفعـول " لا يبصرون " محذوف لقصد عموم نفى المبصرات فنزل الفعل منزلة اللازم ، ولا يقدر له مفعول ، وهو أبلغ كأنه قيل : لا إحساس بصر لهم ، أوليس لهم إبصار"(١)

وقـد أجمـل القرآن وجه الشبه فى تشبيه حال المنافقين اعتماداً على فطنة السـامع لأنه يستخرجه من مجموع ما تقدم من شرح حالهم ابتداء من قوله تعالى: " ومـن النا مَـنْ يقول آمنا بالله "(٢) إلخ.

يقـول ابـنُ جـزِّى :" فإن قيل : ما وجه تشبيه المنافقين بصاحب النار التى أضاءت ثم أظلمت ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها .

أن منفعـتهم فى الدنيـا بدعـوى الإيمان شبيه بالنور ، وعذابهم فى الآخرة شبيه بالظـلمة بعـده ، والـثانى : أن اسـتخفاء كفرهم كالنور ، وفضيحتهم كالظلمة. والثالث : أن ذلك فيمن آمن منهم ثم كفر . فإيمانه نور وكفره بعده ظلمة ، ويرجح هذا قوله تعالى :ـ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ـ"(٣)

وقوله تعالى :" حم بكـم عمى " أخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير المنافقين أوخبر واحـد بالتأويل المشهور كما فى قولهم ـ هذا حلو حامض ـ والصمم آفة مانعة من السماع وأصله الصلابة واكتناز الأجزاء . سمى به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله هـواء الصوت

(١) الكشاف ١/ ٢١٠ ، التحرير والتنوير ١/ ٢٩٨ .

(٢) البقرة / ٨.

(٣) المنافقون / ٣ ، التسهيل لابن جزى ١/ ٦٦ .

بـــتموجه ، والـــبكـــمُ الخرس والعمى عدمُ البصر عما من شأنه أن يبصر وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتـــلى عـــليهم مـــن الآيات والذكر الحكيم وأبوا أن يتلقوها بالقبول ، وينطقوا بها ألسنتهم صاروا كفا قدى تلك المشاعر بالكلية"(١).

وحـــذف المســـند إليه فى هذا المقام استعمال شائع عند العرب إذا ذكروا موصوفاً بأوصاف أو أخبار جعلوه كأنه قد عرف للسامع فيقولون فلان أو فتى أو رجل أى هو فلان إلخ ، والمقام مقام ذم لهؤلاء محذف المسند إليه إمعاناً ومبالغة فيه.

والحديـــث عـــن هـــؤلاء المنافقين بهذه الأخبار جاء على طريقة التشبيه البليغ . حيـــث شـــبهوا فى انعدام آثار الإحساس منهم بالصم البكم العمى . أى كل واحد مـــنهم اجتمعت له الصفات الثلاث ، وذلك شأن الأخبار الواردة بصيغة الجمع بعد مبـــتدأ هو اسم دال على جمع . فالمعنى كل واحد منهم كالأصم الأبكم الأعمى ، وليـــس المعـــنى عـــلى الـــتوزيع فلا يفهم أن بعضهم كالأصم وبعضهم كالأبكم ، وبعضهم كالأعمى ، وليست الآية من قبيل الاستعارة عند محققى أهل البيان"(٢)

يقـــول العلامـــة الزمخشرى:" فإن قلت : هل يسمى ما فى الآية استعارة ؟ قلت : مختـــلف فيـــه ، والمحققـــون على تسميته تشبيهاً بليغاً لااستعارة لأن المستعار له مذكـــور وهـــم المـــنافقون ، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعـــل الكـــلام خـــلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام كقول زهير: (٣)

(١) أبو السعود ١/ ٥١ ، روح المعانى ١/١٦٨ ، ١٦٩ (٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٩٩ ـــ ٣٠٠ .

(٣) ديوانه/٣٠ ش ثعلب ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٣ هـــ ، سنة ١٩٤٤م .

لدى أسدٍ شاكى السَّـلاح مقذف .. له لِـبد أظفارُه لم تعلـــم

ومــن ثــم ترى المعلقين السحرة منهم كأنهم يتناسبون التشبيه ويضربون عن توهمــه صــفحاً ، وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه فى حكم المنطوق به "(١)

ويوضــح ابنُ المنير كلام الزمخشرى بقوله :"ــ قوله على تسميته تشبيهاً بليغاً ــ حيث حمل المشبه به على المشبه كأنه هو بعينه ــ لأن المستعار له مذكور بلفظه تقديراً مع لفظ المستعار منه،فيكون لفظ المستعار منه مستعملاً فى معناه الحقيقى ، كما أن لفظ المستعار له كذلك فلا استعارة هناك حقيقة بل ــ الاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ــ فلا يكون لفظه فى نظم الكلام المشتمل على لفظ المستعار منه فقد استعير حينئذ لفظ المشبه به للمشبه "(٢)

والفاء فى قوله :" فهم لايرجعون " للدلالة على ترتب ما بعدها على ماقبلها ٠ أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه أوعــن الضــلالة الــتى أخذوها ، وجاء ذلك تسجيلاً عليهم بالطبع ، أو أريد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين فى مكانهم لا يبرحون ولايدرون أيتقدمون أم يتأخرون ؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه"٠(٣)

وقــد جاءت هذه الآية " نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعــرى السمع والنطـــــق

(١) الكشاف ١/ ٢٠٤ ــ ٢٠٦ ٠

(٢) الإنصاف على الكشاف ١/ ٢٠٤ بتصرف ٠

(٣) أبو السعود ١/ ٥٢ ، الكشاف ١/ ٢٠٧ ٠

ولاخـــتلال مشعر الأبصار، وقيل : الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى كالضـــمائر المتقدمة فالآية الكريمة تتمة للتمثيل وتكميل له بأن ما أصابهم ليس مجرد انطفـــاء نـــارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها بل اختلت مشـــاعرهم جميعاً ، واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أوالحقيقة فبقوا جامدين فى مكانـــاتهم لا يـــرجعون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون؟ وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه ، والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم ، وقرئ ــ حمـــا بكمـــاً عميـــاً ــ إمـــا على الذم كما فى قوله تعالى :ــ حمالة الحطب(١) ــ والمخصـــوص بـــالذم هـــم المـــنافقون أو المستوقدون وإما على الحالية من الضمير المنصوب فى ــ تركهم ــ أو المرفوع فى ــ يبصرون ــ وإما على المفعولية لـــ ــ تركهم ــ فالضميران للمستوقدين"(٢) ·

وقوله:"أو كصيب من السماء " شروع فى تمثيل حالهم إثر تمثيل وبيان لكل دقيق منها وجـــليل ويوفى حقها من التفظيع والتهويل فإن تفننهم فى فنون الكفر والضلال وتنقلهم فيها من حال إلى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، ولقد نعى سبحانه عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم وهو عطف على الأول على حذف مضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك أى كمثل ذوى صيب وكلمة "أو" للإيذان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معاً،والصيب فيعل من الصـــوب وهـــو الـــنزول الـــذى له وقـــع وتأثير يطلق على المطر وعلى السحاب· قال الشماخ(٣)

---

(١) المسد/٤ · (٢) أبو السعود ١/ ٥٢ ، المحرر الوجيز ١/ ١٧٨ ·

(٣) ملحق ديوانه/٤٣٢ وقال شارحه لم نعثر على صدره وذكره الزمخشرى فى كشافه س د/ صلاح الدين الهادى ط دار المعارف مصر·

عفا آية نسجُ الجنوب مع الصبا .. وأسحمُ دانٍ صادقُ الوعد صيبُ

ولعـل الأول ــ المطر ــ هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى ، وتقدير الجملة ههنا فى عطفها على قوله " الذى استوقد ناراً " كمثل ذوى صيب فيظهر مرجع ضمير الجمع فيما بعد وتحصيل الملائمة للمعطوف عليه والمشبه .

لِـمَ جئ بقوله :" أو كصيب " نكرة ؟

جاء قوله تعالى :" أو كصيب " منكراً لأنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمـثيل الأول ، وأمـد بـه ما فيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التى هى الصـاد المسـتعلية واليـاء المشددة والباء الشديدة ، ومادته الثانية أعنى الصوب المنـبئ عـن شـدة الانسـكاب ، ومن جهة بنائه الدال على الثبات ، وقرئ ــ أوكصائب ــ وــ صيب ــ أبلغ منه ، والتنكير فيه للتنويع والتعظيم "(١)

وإعـادة حرف التشبيه مع حذف العطف المغنى عن إعادة العامل ، وهذا التكرير مستعمل فى كلامهم ، وحسنه هنا أن فيه إشارة إلى اختلاف الحالين المشبهين وهم فى الغـالب لايكررونه فى العطف ، فالغرض من هذا التمثيل تمثيل حالة مغايرة للحالة التى مثلت فى قوله تعالى:"مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً بنوع إطلاق وتقييد فقولـه:" أو كصـيب ــ تقديـره : أو كفريق ذى صيب أى كقوم. فشبهت حال المنافقين بحال قوم سائرين فى ليل بأرض قوم أصابها الغيث وكان أهلها كانن فى ساكنهم كما علم ذلك فى قوله:ــ كلما أضاء لهم مشوا فيه ــ فذلك الغيث نفع أهل

(١) أبو السعود ١/ ٥٢ ، ٥٣ ، روح المعانى ١/ ١٧٠ ، ١٧١ .

الأرض ولم يصبهم مما اتصل به من الظلمات والرعد والبرق فالصيب مستعار للقرآن وهدى الإسلام ، وتشبيه بالغيث وارد ، ولاتجد حالة صالحة لتمثيل هيئة اختلاط نفع وضر مثل حالة المطر والسحاب ، وهو من بديع التمثيل القرآنى"(١)

وقوله:" من السماء " فـ " من " هنا لابتداء الغاية ، وقيل : يحتمل أن تكون للتبعيض على حذف مضاف أى من أمطار السماء وليس بشئ ، وقوله " السماء" وصف كاشف جئ به لزيادة استحضار صورة الصيب فى هذا التمثيل لأن المقام مقام إطناب.

مجئ " السماء " معرفة :

جاءت " السماء " فى الآية معرفة للإيذان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد فإن كل أفق من آفاقها أى كل ما يحيط به كل أفق منها سماء على حدة ، والمعنى أنه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق ، وقيل : المراد بـ"السماء" السحاب واللام لتعريف الماهية"(٢)

و" السماء " كل ماعلاك من سقف ونحوه والمعروفة عند خواص أهل الأرض والمرئية عند عوامهم ، والمراد بها هنا الأفق ، والتعريف للاستغراق لا للعهد الذهنى كما ينساق لبعض الأذهان فيفيد أن الغمام آخذ بالآفاق كلها فيشعر بقوة المصيبة مع ما فيه من تمهيد الظلمة ولهذا القصد ذكرها ، وعندى أن الذكر يحتمل أن يكون أيضاً للتهويل والإشارة إلى أن مايؤذيهم جاء من فوق رؤسهم ، وذلك أبلغ فى الإيذاء "(٣).

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، تفسير الخازن وبهامشه البغوى ١/ ٣٧ .

(٢) أبو السعود ١/٥٣ . (٣) روح المعانى ١/ ١٧١ .

وعلى كون التعريف للاستغراق يكون قوله:" من السماء " تقييداً للصيب بمعنى من جميع الأقطار فى الجو ، ووصفه بكونه " من السماء " للإشعار بأنه أمر لايملكون دفعه"(١)

قوله:" فيه ظلمات ورعد وبرق " ضمير " فيه " عائد إلى ـ صيب ـ والظرفية مجازية بمعنى ـ معه ـ وإن حملت ـ فى ـ على الظرفية ـ كما هو الشائع فى كلام المفسرين ـ احتيج إلى حمل الملابسة التي تقتضيها الظرفية على مطلق الملابسة الشاملة للسببية والمجاورة وغيرهما ففيه بذلك المعنى ظلمات ثلاث . ظلمة تكاثفه بتتابعه ، وظلمة غمامه مع ظلمة الليل التى يستشعرها الذوق من قوله تعالى :ـ كلما أضاء لهم مشوا فيه ـ وكذا، فيه رعد وبرق لأنهما فى منشئه ومحل ينصب منه"(٢)

وجمع " ظلمات " هنا للتنويع أى أنواع منها وهى ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة إظلال مايلزمه من الغمام الأسحم المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل وجعله محلاً لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة فى شدته وتهويلاً لأمره ، وإيذاناً بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام ، وهو السر فى عدم جعل الظلمات هو الأصل المتتبع للبواقى مع ظهور ظرفيتها للكل إذ لو قيل :ـ أو كظلمات فيها صيب ـ إلخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلاً عن كونها غالبة على غيرها"(٣)

(١) تفسير المنار ١/ ١٧٤ .

(٢) الكشاف ١/ ٢١٥ ، روح المعانى ١/ ١٧٢ .

(٣) أبوالسعود ١/ ٥٣ .

و ــ الــرعد ــ هــو صـــوت يسمع من السحاب ، والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجــرامَ السحاب بعضها ببعض أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح إياه سوقاً عنيفاً ، و ــ البرق ــ هو مايلمع من السحاب من برق الشئ بريقاً أى لمع وكلاهما فى الأصل مصدر ولذلك لم يجمعا ، وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما إليه وكونهما فى الظلمات الكائنة فيه ، والتنوين فى الكــل للــتفخيم والــتهويل • كأنه قيل : فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف"(١)

وقوله:" يجعلون أصابعهم فى آذانهم " جاز رجوع الضمير فى " يجعلون " إلى أصحاب الصــيب مـــع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب• لأن المحذوف باق معناه ، وإن سقط لفظــه ، وإيثار ــ جعل ــ المنبئ عن دوام الملابسة واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيــد لمجــرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة فى بيان سد المسامع باعتبار الــزمان كما أن إيراد ــ الأصابع ــ بدل ــ الأنامل ــ للإشباع فى بيان سدها باعتبار الذات كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها كما هو المعتاد ، ويجوز أن يكون هذا إيماءً إلى كمـــال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لايهتدون إلى استعمال الجوارح على الــنهج المعــتاد ، وكــذا الحال فى عدم تعيين الأصبع المعتاد أعنى السبابة وقيل ذلك لرعاية الأدب"(٢)

والجملة استئناف لامحل لها من الإعراب مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة فماذا يصنعون فى تضاعيف تلك الشدة ؟ فقيل :" يجعلون" إلخ ومن هنا فصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال•

(١) الكشاف ١/ ٢١٥ ، ٢١٦ ، أبو السعود ١/ ٥٣ •

(٢) السابقان نفسهما •

قــال العلامــة الزمخشرى :" ولامحل لقوله ــ يجعلون ــ لكونه مستأنفاً لأنه لما ذكــر الرعد والبرق على مايؤذن بالشدة والهول فكأن قائلاً قال : فكيف حالهم مع مــثل ذلــك الــرعد ؟ فقيل : ــ يجعلون أصابعهم فى آذانهم ــ فإن قلت : رأس الأصبع هو الذى يجعل فى الأذن فهلا قيل أناملهم ٠ قلت : هذا من الاتساعات فى الــلغة التى لايكاد الحاصر يحصرها وأيضاً ففى ذكر ــ الأصابع ــ من المبالغة ماليس فى ذكر ــ الأنامل ــ فإن قلت : فالأصبع التى تسد بها الأذن أصبع خاصة فــلم ذكــر الاســم العام دون الخاص ؟ قلت : لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتــنابها أولى بــآداب القرآن ٠ ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدعاءة "(١)

وقولــه :" يجعلون أصابعهم فى آذانهم " من قبيل المجاز المرسل(٢) لعلاقة الكلية ــ كمــا هــو رأى جمهور البلاغيين ــ حيث أطلق الكل وهو ــ الأصابع وأريد الجــزء وهو ــ الأنامل ــ والقرينة عقلية وهى استحالة وضع الأصبع كاملة فى الأذن ، وفى هــذا من المبالغة فى الاحتراز عن استماع الصاعقة بسد المسامع ، وهو أدل على شدة الحيرة والدهشــة٠

وقولــه:" مــن الصــواعق " متعــلق بــ " يجعلون " و " من " للتعليل أى لأجل الصواعق إذ هى علة جعل الأصابع فى الآذان ، والصاعقة قصفة رعـــد تنقض

---

(١) الكشاف ١/ ٢١٦ ، ٢١٧ ٠

(٢) المجاز المرسل : هو استعمال اللفظ فى غير ماوضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من ذلك٠

معهـــا شقة من نار قالوا تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه وهى نار لطيفة حديدة لا تمر بشئ إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمور .

وقوله :" حذر الموت " منصوب على أنه مفعول له معرفاً بالإضافة كحذر الموت أى أنـــه تشـــبيه مؤكد وهو أبلغ من المرسل لحذف أداته ووجازته والمراد حذراً كحذر الموت ، والموت زوال الحياة ، وقيل : هو عرض يضادها .

وقولـــه:" والله محيـــط بالكافـــرين " اعتراض للتذكير بأن المقصود التمثيل لحال المـــنافقين فى كفـــرهم لا لمجـــرد التفـــنن فى التمثيل ، وهو اعتراض راجع إلى المـــنافقين إذ قـــد حـــق عليهم التمثل واتضح منه حالهم فآن أن ينبه على وعيدهم وتهديدهم ، وفى هذا رجوع إلى أصل الغرض .

" وإحاطـــه الله تعالى بالكافرين مجاز حيث شبه شمول قدرته تعالى إياهم بإحاطته المحيـــط بما أحاط به فى امتناع الفوات كان هناك استعارة تبعية فى الصفة سارية إليها من مصدرها ، وإن شبه حاله تعالى معهم بحال المحيط مع المحاط : أى شبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها كان هناك استعارة تمثيلية لا تصرف فى شـــئ مـــن ألفـــاظ مفرداتها إلا أنه لم يصرح ههنا إلا بلفظ ماهو العمدة فى الهيئة المشبه بها أعنى الإحاطة ، والبواقى من الألفاظ منوية فى الإرادة ، ومن زعم أن كـــون هـــذه الاســـتعارة تبعية لا ينافى كونها تمثيلية لما فى الطرفين من اعتبار الـــتركيب إن أراد بـــه أن معـــنى الإحاطة مركب فبطلانه ظاهر لأنها كالضرب مدلولها مفرد ، وإن أراد اعتبار هيئة من مدلولها مع غيره لم يكن مدلول الإحاطة

حينــئذ مشبها به فكيف تسرى منه استعارة إلى الوصف المشتق منها ، ومن ههنا ينكشف لك أن الاستعارة التمثيلية لا تكون تبعية أصلاً "(١).

والجمــلة ــ كمــا ذكــرنا ــ اعتراضية منبهة على أن ماصنعوا من ســد الآذان بالأصابع لا يغنى عنهم شيئاً فإن القدر لايدافعه الحذر والحيل لا ترد بأس الله عز وجل ، وفائدة وضع " الكافرين " موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب . الإيــذان بــأن مــا دهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم ، وقيل : هذا الاعــتراض من جملة أحوال المشبه على أن المراد بـــ " الكافرين " المنافقون قد دل بـــه على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وإنما وسط بيــن أحــوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لإظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه"(٢)

وقولــه:" يكاد البرق " استئناف آخر وقع جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل : فكيف حــالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل يكاد ذلك ، ومن هنا فصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتصــال ، و " يخطف أبصارهم " أى يختلسها ، ويستلبها بسرعة ، وــ كاد ــ من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ولايكون خبرها إلا مضارعاً عارياً عن كلمة ــ أن ــ وشذ مجيئه اسماً صريحاً كما فى قوله:فأبت إلى فهم وماكدت آيباً .

---

(١) الإنصــاف على الكشاف ١/ ٢١٨ .

(٢) أبو السعود ١/ ٥٤ ، روح المعانى ١/ ١٧٥ ، الإنصاف على الكشاف ١/٢٩١ .

وســــر مجيئها مع المضارع فلدلالته على الحال المناسب للقرب حتى كأنه لشدة قــربه وقــع ، وأما أنه غير مقترن بـــ ــ أن ــ فلمنافاتها لما قصدوا وقد تعددت القــراءات فى قوله " يخطف " والخطف الأخذ الأخذ بسرعة وهو أى " يخطف " اســتعارة تــبعية في الفعــل حيث استعير اللفــظ الدال على المشبه به للمشبه ، واشتق منه الفعل " يخطف " والقرينة حالية مفهومة من سياق الجملة والحالة التى عليها هؤلاء القوم.

وقولــه:" كــلما أضاء لهم مشوا فيه " استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول : كيف يصــنعون فى تــارتى خفــوق الــبرق وخفيته ؟ وهذا التمثيل لشــدة الأمر على المــنافقين بشــدته عــلى أصحاب الصيب وماهم فيه من غاية التحير والجهل بما يــأتون ويــذرون • إذا صادفوا من البرق خفقــة مع خوف أن يخطف أبصارهم انــتهزوا تلك الخفقــة فرصة فخطوا خطوات يسيرة • فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفيــن متقيدين عن الحركة ، ولو شاء الله لزاد فى قصيف الرعد فأصمهم أوفى ضــوء الــبرق فأعمــاهم ، و ــ أضاء ــ إما متعد بمعنى : كلما نور لهم ممشى ومسلكاً أخذوه والمفعول محذوف •

وإمــا غيــر مــتعد بمعــنى كلما لمع لهم ــ مشوا ــ فى مطرح نوره وملقى ضــوئه، ويعضده قراءة ابن أبى عبلة ــ كلما ضاء لهم ــ والمشُ جنس الحركة المخصوصة فإذا استد فهو سعى ، فإذا ازداد فهو عدو"(١)

---

(١) الكشاف والإنصاف عليه ١/ ٢١٩ ، ٢٢٠ •

يقــول العلامــة الزمخشــرى:" فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة ــ كلما ــ ومع الإظلام ــ إذا ــ ؟ قلت :لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المــش وتأتيه ــ وهذا كناية عن شدة الأمر تأكيداً لغاية الحيرة ــ فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتجسس"(١)

وكلمة " كلما " دالة على عموم مدخولها ، وقد استعملت هنا فى لازم معناها كناية أومجازاً وهو الحرص والمحبة لما دخلت عليه ، وهو تمثيل لحال حيرة المنافقين بحال حيرة السائرين فى الليل المظلم المرْعد المبرق٠

وــ فى ــ فى قوله " فيه " للتعليل ، والمعنى مشوا لأجل الإضاءة فيه ، وللإشارة إلى ضــعف قواهم لمزيد خوفهم ودهشتهم لم يأت سبحانه بما يدل على السرعة ، ولمــا حذف مفعول ــ أضاء ــ وكانت النكرة أصلاً أشار إلى أنهم لفرط الحيرة كــانوا يخــبطون خبط عشواء ويمشون كل ممشى ، ومعنى " أظلم عليهم " اختفى عــنهم ، والمشهور استعمال ــ أظلم ــ لازماً ، وعلى احتمال التعدى هنا، ويؤيده قراءة زيد بن قطيب والضحاك ــ أظلــم ــ بالبناء للمفعول مع اتفاق النحاة على أن المطرد بناء المجهول من المتعدى بنفسه يكون المفعول محذوفاً أى ــ إذا أظلم ــ البرق بسبب خفائه معاينة الطريق"(٢)

وقوــله :" قــاموا " أى وقفــوا فى أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة أخرى عسى أن يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم٠

---

(١) الكشاف ١/ ٢٢٠ ٠

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٥ ــ ٣٠٧ ، روح المعانى ١/ ١٧٦ ٠

وقولـه:" ولـو شـاء الله لذهـب بسـمعهم وأبصارهم " معطوف على مجموع الجمل الاسـتئنافية ، ولم يجعلوه معطوفاً على الأقرب ومن تتمته لخروجه عن التمثيل وعدم صلاحيته للجواب ، وعطف ماليس بجواب على الجواب ليس بصواب ، وجوزه بعض المحققيـن إذ لا بـأس بـأن يزاد فى الجواب ما يناسبه وإن لم يكن له دخل فيه بل قد يستحسن ذلك إذا اقتضاه المقام"(١)

وهذه الجملة " ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم " رجوع إلى وعيد المنافقين الذيـن هم المقصودون من التمثيل. فالضمائر التى فى جملة " ولو شاء الله " راجعهة إلى أصـل الكـلام ، وتوزيـع الضـمائر دل عليه السياق . فعبر عن زواجر القرآن بالصـواعق وعـن انحطاط قلوب المنافقين وهى البصائر عن قرار نور الإيمان فيها بخطـف الـبرق للأبصار ، وعبر عما يحصل للمنافقين من الشك فى صحة اعتقادهم بمشـى السـارى فى ظـلمة إذا أضـاء له البرق ، وعن إقلاعهم عن ذلك الشك حين رجوعهم إلى كفرهم بوقوف الماشى عند انقطاع البرق على طريقة التمثيل. فجاء بهذه الجمـل الحالية والمستأنفة تنبيهاً على وجه الشبه وتقريراً لقوة مشابهة الزواجر، وآيات الهـدى والإيمـان بالـرعد والبرق فى حصول أثرى النفع والضر عنهما مع تفنن فى البلاغة وطرائق الحقيقة والمجاز"(٢)

ويـرى الألوسى :أن مَـنْ قال إنه قد جئ بهذه الجملة لتوبيخ المنافقين رأيه هو محل للـتوبيخ فيقول:" والقول بأنه أتى بها لتوبيخ المنافقين حيث لم ينتهوا لأن من قدر على إيجـاد قصـيف الرعد ووميضه، وإعدامهما قادر على إذهاب سمعهم وأبصارهم أفلا يرجعون عن ضلالهم محل للتوبيخ إذ لايصح عطف الممثل له على حال الممثل به "(٣)

(١) روح المعانى ١/ ١٧٦ .

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٠٥ ، ٣٠٦ . (٣) روح المعانى ١/ ١٧٦ .

ومفعـول " شـاء " محـذوف لأن الجواب يدل عليه ، والمعنى : ولو شاء الله أن يذهـب بسـمعهم وأبصـارهم لذهب بها ، ولقد تكاثر هذا الحذف فى ــ شاء ــ وــ أراد ــ لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشئ المستغرب كقول الشاعر(١)

فلو شئت أن أبكى دمــاً لبكيته .. عليه ولكن ساحه الصبر أوسع

والمعـنى :ــ ولوشـاء الله لذهـب بسـمعهم ــ بقصيف الرعد ــ وأبصارهم ــ بوميض البرق "(٢)

ونكتة الحذف هنا ــ البيان بعد الإبهام ــ " فإنه لا يكتفى فى الشئ المستغرب بدلالة الجواب عليه بل يصرح به اعتناءً بتعيينه ودفعاً لذهاب الوهم إلى غيره بناء على استبعاد تعلق الفعل به واستغرابه ألا ترى أنك إذا قلت : لو شئت لبكيت دماً جاز أن يتوهم أن قصدك إلى تعليق المشيئة ببكاء الدمع على مجرى العادة ، وأن مـا ذكرته من بكاء الدم واقع بدله من غير قصد إليه . كأنك قلت : لو شئت أن أبكى دمعاً بكيت دماً. إلا أنك اعتمدت فى حذف المفعول بذكر البكاء فى الجواب وفى تعييـن متعلقه بالمعتاد. فهذا وإن كان مرجوحاً لأن تقييد البكاء فى الجواب بـالدم يـدل دلالـة ظاهرة على أنه المراد لكنه محتمل ، فإذا أبرز المفعول زال الاحتمال وصار الكلام نصاً فيما قصد به "(٣)

وكـلمة " لو " ههنا مستعملة لربط جوابها بشرطها مجردة عن الدلالة على انتفاء أحدهما لانتفاء الآخر فهى بمنزلة إن ، وقد يقال : إنها باقية على أصلها، وقصد

(١) معاهد التنصيص ١/٢٤٦ وروايته عليك ط السعادة مصر سنة١٣٦٧هـ ، سنة ١٩٤٧م ت الشيخ محمد محيى الدين

(٢) الكشاف ١/ ٢٢١ ، ٢٢٢ . (٣) الانتصاف على الكشاف ١/ ٢٢١ .

بهـا التنـبيه عـلـى أن مشقتهم بسبب الرعد والبرق وصلت غايتها وقاربت إزالة الحـواس بحيـث لـو تعلق بها المشيئة لزالت بلا حاجة إلى زيادة قصيف الرعد وضوء البرق "(١)

والضـمير فى قوله:" بسمعهم وأبصارهم " ظاهره أن يعود إلى أصحاب الصيب المشبه بحالهم لحال المنافقين لأن الإخبار بإمكان إتلاف الأسماع والأبصار يناسب أهل الصيب المشبه بحالهم بمقتضى قوله :" يكاد البرق يخطف أبصارهم " وقوله: "يجعـلون أصابعهم فى آذانهم " ، والمقصود أن الرعد والبرق الواقعين فى الهيئة المشـبه بها هما رعد وبرق بلغا منتهى قوة جنسيهما بحيث لا يمنع قصيف الرعد مـن إتلاف سامعيه ولا يمنع وميض البرق من إتلاف أبصار ناظريه إلا مشيئة الله عدم وقوع ذلك لحكمة"(٢)

وقوله:" إن الله على كل شئ قدير " تذييل لما سبق ، وفيه ترشيح للتوجيه المقصود للـتهديد زيـادة فى تذكيـرهم وإبلاغاً لهم وقطعاً لمعذرتهم فى الدنيا والآخرة . فجـاءت هـذه الجملة كالتعليل للشرطية والتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إذهاب ما ذكر لأن القادر على الككل قادر على البعض ، والشئ لغة مايصح أن يعـلم ويخـبر عـنه وهو شامل للمعدوم والموجود الواجب والممكن وتختلف إطلاقاته ، ويعلم المراد منه بالقرائن "(٣)

---

(١) الانتصاف على الكشاف ١/ ٢٢١ .

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٨ .

(٣) روح المعانى ١/ ١٧٨ .

وخلاصـــة القول فى التمثيلين : أنهما من التمثيلات المركبة كما نص على ذلك العلامـــة الزمخشرى إذ يقول:" والصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعاً من التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد شئ يقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل . بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معـــزولاً بعضـــها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امـــرؤ القيـــس(١) ، وجاء فى القرآن ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضـــامت وتلاصـــقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها كقوله تعالى :ـــ مثل الذين حملوا التوراة(٢) ـــ الآية "(٣)

ثم يقول :" فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شـــيئاً واحداً فلا . فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم وما خطبوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

فـــإن قلت : الذى كنت تقدره فى المفرق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولـــك ـــ ـــ أو كمـــثل ذوى صـــيب ـــ هل تقدر مثله فى المركب منه ؟ قلت : لولاطـــلب الـــراجع فى قوله تعالى ـــ يجعلون أصابعهم فى آذانهم ـــ مايرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره. لأنى أراعى الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام"(٤)

(١) يشير إلى قوله: كأن قلوب الطير رطباً ويابساً . . لدى وكرها العناب والحشف البالى .

ديوانه /٢٨ ش الشيخ عبد المتعال الصعيدى .

(٢) الجمعه/ ٥ . (٣) الكشاف ٢١١/١ .(٤) السابق ٢١٢/١ ، ٢١٣ ، أبو السعود ١/ ٥٧ .

أى التمثيلين أبلغ الأول أم الثانى ؟ ولماذا ؟

يقول العلامة الزمخشرى :" فإن قلت : أى التمثيلين أبلغ ؟ قلت : الثانى ، لأنه دل علـى فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخر ، وهم يتدرجون فى نحو هذا مـن الأهون إلى الأغلظ ، فإن قلت : لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشـك ، قـلت :" أو " فى أصلها لتساوى شيئين فصاعداً فى الشك ثم اتسع منها فاسـتعيرت للتسـاوى فى غير الشك ، وذلك كقولك جالس الحسن أو ابن سيرين تـريد أنهما سيان فى استصواب أن يجالسا ، ومنه قوله تعالى : ــ ولاتطع منهم آثمـا أو كفوراً ــ (١) أى الآثم والكفور متساويان فى وجوب عصيانهما ، فكذلك قولـه :ــ أو كصـيب معـناه ، أن كيفيـة قصة المنافقين مشبهة لكيفيتى هاتين القصـتين ، وأن القصـتين سـواء فى اسـتقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب ، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك"(٢)

ويعلـق الدكـتور محمـد أبو موسى على كلام الزخشرى السابق فيقول : " والمـثل الثانى فى سورة البقرة ــ أو كصيب من السماء ــ أبلغ من المثل الأول ــ مثـلهم كمثل الذى استوقد ناراً ــ كما قال الزمخشرى ــ ولا حرج علينا حين نقـول : إن فى القـرآن بـليغاً وأبلغ ، لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز ، وإن كان الـبعض يـرى أن الاختلاف، فى ظهور البلاغة يعنى أنها فى بعض الآيات أظهر مـنها فى البعض الآخر ، أما البلاغة فهى فى الكل على حد واحد لاتفاوت فيها ، والمهم أننا نرى فى المثل الثانى مزيداً من التنوع والغزارة فى العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال وترى المثل بهذا أفسح مدى من المثل الأول "(٣)

(١) الإنسان/٢٤ (٢) الكشاف١/٢١٣، ٢١٤ (٣) دراسة فى البلاغة والشعر/٣٧ .

ثــم يوضـــح السر فى ذلك بقوله :" تأمل المحيط الذى تتحرك فيه الأحداث ، تجد الصـــيب والظلمات والرعد والبرق وخطف الأبصار ، ثم تأمل الإشارات اللغوية ذات الـــدلالات المتســـعة على الأحوال النفسية. تأمل :ـــ يجعلون أصابعهـــم ـــ والأصـــل: أنا ملهم ، وقد دل هذا على أن القوم انخلعت قلوبهم وطاشت من هول المخافـــة، لأنهـــم صاروا فى فم الموت ، ثم تأمل كلمة ـــ الخطف ـــ ومافيها من حدة، وشراسة وقسوة ، وتأمل :ـــ كلما أضاء لهم مشوا فيه ـــ وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعاً من الضوء ليفلتوا من هول الهلاك وهكذا"(١)

ويبين موقف المثل الأول من الثانى. إذ يقول :" أما المثل الأول . فليس فيه إلا المســـتوقد وحالـــته المخذولة ، من حيث تراه يكدح حتى يستخرج ناراً ، أى نار تقطـــع هـــذه الوحشـــة المطبقة على النفس حتى إذا أضاءت ما حوله وآتاه الهدى ضـــربه الخذلان وذهب الله بهذا النور ، وبقى مغروساً فى جوف الظلمات ، وهنا إشـــارات لماحـــة فى إسناد الذهاب بالنور إلى الله الرحيم الرحمن ، هذه الإشارة هى فيـــض الخذلان الذى أصابه وما آل إليه من ضلال وفساد وجفوة حتى إن الله سبحانه ـــ الذى وسع كل شئ رحمه وعلماً ـــ يذهب بنورهم ويتركهم فى ظلمات لايبصرون ، وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتتنوع وتتفق وتختلف "(٢)

وللدكـــتور محمـــد عبد الله دراز ـــ رحمه الله ـــ وجهة نظر فى المثلين السابقين تختلف عن وجهة نظر المفسرين لهما إذ يقول :" لعلك ترى هنا شيئاً من المخالفة لكلام المفسرين إذ جعلوا المثلين كليهما راجعين إلى المنافقين خاصة ، وجعلناهما

(١) دراسة فى البلاغة والشعر / ٣٧ .

(٢) السابق / ٣٧ ، ٣٨ .

موزعيـــن على الطائفتين نشراً على ترتيب اللف ، ولكنك إذا رجعت بنفسك إلى إجـــراء المثــلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف الـــتى ذكرها الله للكافرين ، وأن الذى ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثانى وحده"٠(١)

ثـــم يوضح ذلك ويبينه بقوله:" فهؤلاء القوم الذين ــ ذهب الله بنورهم ؟ وتركهم فى ظــلمات لايبصـــرون ٠ صم بكـــم عمى فهم لا يرجعون ــ أليسوا هم أولئك القوم الذين ــ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ــ وهذه الظــلمات الثابتة المستقرة التى ليس فيها بصيص من نور ، وليس فيها تقلب ولا تذبذب هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ، ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنــك لا تجــد هــذه الصورة إلا فى المثل الثانى حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقــوف والمســير ، وكذلك ترى فى المثل الثانى قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهــب الله بهـــا ولـــو شاء لذهب ، وهذا مناسب لقوله فى المنافقين ــ فى قلوبهم مرض ــ فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلى على القلوب والحواس ٠ نعم يمكــن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح إذا ضممنا إليه ضميمة ٠ ذلك بأن نقــول : إن المـــثل الأول يصـــور حال المنافقين فى بواطنهم ، وهو الأمر الذى يشاركون فيه سائر الكفار ، والمثل الثانى يصور حالهم فى ظواهر هم"٠(٢)

---

(١) النبأ العظيم / ١٦٨ ٠

(٢) السابق / ١٦٨ ، ١٦٩ ٠

السير على منهج أهل الضلال ومتابعتهم :

٣ـ قال تعالى :" كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بهلاقهم وخضتم كالذى حاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون"(١)

تحليل الآية : قوله:" كالذين من قبلكم " التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد والكاف للتشبيه ، وهى فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أى : أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة ، أوفى حيز النصب بفعل مقدر أى فعلتم مثل الذين من قبلكم ، والمعنى : أنه تعالى شبه حال المنافقين بحال الكفار الذين كانوا قبلهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الأيدى عن الخيرات .

ثم إنه تعالى وصف أولئك الكفار بأنهم كانوا أشد قوة من هؤلاء المنافقين وأكثر أموالاً وأولاداً ، ثم استمتعوا مدة بالدنيا ثم هلكوا وباعوا وانقلبوا إلى العقاب الدائم . فأنتم مع ضعفكم وقلة خيرات الدنيا عندكم أولى أن تكونوا كذلك وقيل : إنه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله تعالى لأجل طلب لذات الدنيا بمن قبلهم من الكفار ، ثم وصفهم تعالى بكثرة الأموال والأولاد بأنهم استمتعوا بخلاقهم ، و ـ الخلاق ـ النصيب ، وهو ما خلق للإنسان ، أى قدر له من خير ، كما قيل له : قسم لأنها قسم ونصيب ، لأنه نصب أى ثبت . فذكر تعالى أنهم استمتعوا بخلاقهم فأنتم أيها المنافقون استمتعتم بخلاقكم كما استمتع أولئك بخلاقهم"(٢)

(١) التوبة / ٦٩ .

(٢) التفسير الكبير ٦/ ٩٨ ، ٩٩ .

وقوله : "كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً" تفسير للتشبيه وبيان لوجه الشبه بين المخاطبين ومن قبلهم فلا محل لها من الإعراب ، وفيه إيذان بأن المخاطبين أولى وأحق بأن يصيبهم ما أصابهم .

وقوله : "فاستمتعوا بخلاقهم" أى تمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا ، وفي صيغة الاستفعال ما ليس في التفعل من الاستزادة والاستدامة في التمتع ، واشتقاق ـ الخلاق ـ من الخلق بمعنى التقدير ، وهو أصل معناه لغة .

وقوله : "فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم" ذم للأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم (١) فيها عن النظر في العاقبة والسعى في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم ، ولذلك اختير الإطناب بزيادة " فاستمتعوا بخلاقهم " وهذا كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف ، وأنت تفعل مثله ، ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى استمتعتم استمتاعاً كاستمتاع الذين " (٢) .

قال العلامة الزمخشري : " فإن قلت : أى فائدة في قوله : فاستمتعوا بخلاقهم ـ ؟ **وقوله** : - كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ـ مغن عنه كما أغنى قوله :- كالذى خاضوا ـ عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته

---

(١) من اللهو والانصراف .

(٢) روح المعاني ١٠/١٣٤ .

أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، ورضاهم بها، والتهائهم بشهواتهم الغانية عن النظر في العاقبة، وطلب الفلاح في الآخرة، وأن يخسس أمر الاستمتاع، ويهجن أمر الراضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم، وأما خضتم كالذى خاضوا ــ فمعطوف على ما قبله مستند إليه، مستغن باستناده إليه عن تلك المقدمة " (١) .

وقوله : "وخضتم" أى دخلتم في الباطل " كالذى خاضوا " أى كالذين فحذفت نونه تخفيفاً كما في قول الشاعر :

إن الذى حانت بفلج دماؤهم ٠٠ هم القوم كل القوم يا أم خالد

ويجوز أن يكون " الذى " صفة لمفرد اللفظ مجموع المعنى كالفوج والفريق، فلوحظ في الصفة اللفظ وفى الضمير المعنى، أو هو صفة مصدر محذوف أى : كالخوض الذى خاضوه، ورجح ذلك بعدم التكلف فيه .

قال الفراء : إن "الذى" تكون مصدرية، وخرج هذا عليه أى كخوضهم، وهو كما قال أبو البقاء نادر " (٢) .

وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، وحينئذ إما أن يقدر فيها ما يجعلها على طرزه لعطفها عليه، أولاً يقدر إشارة إلي الاعتناء بالأول .

وقوله : "كما استمتع" إلخ استعارة تمثيلية حيث شبه حالهم في التمتع بالنصيب والحظوظ الدنيوية والانصراف عن الآخرة بحال الأولين السابقين في تمتعهم بما أوتوا فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه، وفي تكرير الاستمتاع تأكيد

(١)الكشاف ٢/ ٢٠١ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ٤٨، ٥٣، ٤٠٠ ت محمد على النجار ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، الإملاء ٢/ ١٨

ومبالغة في ذم المخاطبين وتقبيح حالهم واستهجان أمرهم ، والجامع الهيئة الحاصلة من التمتع والإقبال على الدنيا والانصراف عن الآخرة .

وقوله : "وخضتم كالذى خاضوا" استعارة تصريحية تبعية حيث شبه الباطل بماء وحذف المشبه وأبقى المشبه به وهو الماء . فشبه الدخول في هذا الباطل بالخوض في الماء لأنه يكون فيه فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه ــ خضتم ــ والقرينة حالية يدل عليها سياق الكلام .

وقوله : " أولئك إشارة إلي المتصفين بالصفات المعدودة من المشبهين والمشبه بهم ، وكونه إشارة إلي الأخير يقتضى أن يكون حكم المشبهين مفهوماً ضمناً ويؤدى إلي خلو تلوين الخطاب عن الفائدة إذ الظاهر حينئذ أولئكم ، والخطاب لسيد المخاطبين ــ عليه الصلاة والسلام ــ أو لكل من يصلح له أى . أولئك المتصفون بما ذكر من القبائح " (١) .

وقوله : "حبطت أعمالهم" استعارة تبعية في الفعل مستعار من حبط البهيمة إذا رعت البنات الذى يقتلها في الربيع قبل نضجه وذلك لضياع أعمالهم كلية وسقوطها جملة ، والمراد بالأعمال : التى كانوا يستحقون بها أجوراً حسنة لو قارنت الإيمان ، والحبط السقوط والبطلان ، والاضمحلال ، والمراد أنهم لم يستحقوا عليها ثواباً وكرامة .

وقوله : "في الدنيا والآخرة" ظرف لحبوط الأعمال ، والمعنى بطلت حسناتهم في الدنيا بسبب الموت والفقر والانتقال من العز إلي الذل ومن القوة إلي

---

(١) روح المعاني ١٠/١٣٤ .

الضعف ، وفي الآخرة بسبب أنهم لايثابون عليها بل يعاقبون أشد العقاب .

وقوله : "وأولئك هم الخاسرون" أى : الموصوفون بحبط الأعمال في الدارين الكاملون في الخسران الجامعون لمباديه وأسبابه طراً ، وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للإشعار بخساسة الأوصاف المشار إليها للحبط والخسران " (١) وعلو كعبهم في هذا الضياع والبوار .

وتكرير اسم الإشارة في **قوله : "وأولئك هم الخاسرون"** إظهاراً لمزيد العناية بالمشار إليهم وتنبيهاً على أنه ثبتت لهم الأثرة بالبطلان كما ثبتت لهم الأثرة بالخسران على طريق الاستقلال والانفراد ، ولتكون كل من الصفتين على انفراد مميزة لهم عما عداهم . فهم جديرون بالحبوط والضياع ، وهم جديرون بالخسران ، وهم جديرون بهما معاً ،ولذلك توسط العاطف بينهما لمقتضى المغايرة ، لأن الخسران مغاير للحبوط والبطلان ، وإن كان نتيجة له وثمرة من ثماره .

و"**هم**" ضمير فصل يدل على أن الواقع بعده خبر لا صفة ، وأن المسند ثابت للمسند إليه على طريق الاختصاص والحصر . فهم الخاسرون لا غير ، وتعريف " الخاسرون " بالألف واللام للدلالة على أن هؤلاء هم الذين بلغك عنهم أنهم خاسرون ، فاللام للعهد الخارجي ، وقيل : إنها للجنس لتعيين الحقيقة أى حقيقة كونهم موصوفين بالخسران والبوار .

عدم الثبات على المبدأ :

٤- قال تعالى : "ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين " (٢).

(١) روح المعاني ١/١٣٤ ، أبو السعود ٤/٦-٨١ ، ٨٢ .

(٢) الحج/١١ .

تحليل الآية : قوله : ومن الناس من يعبد الله على حرف "شروع في حال المذبذين اثربيان حال المجاهرين أى : ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين ، لا فى وسطه وقلبه ، وجملة " **ومن الناس** " مستأنفة مسوقة لبيان حال المرتابين في إيمانهم الشاكين في دينهم .

وقوله : "ومن الناس" خبر مقدم لقصر ما بعده عليه ، و"**من يعبد**" نكرة موصوفة وهى مبتدأ مؤخر أى : موصوفة بالعبادة القلقة غير المستقرة ولا الثابتة فهى عرضة للأهواء يعصف بها أقل ما يحدث لهم من بلاء أو ضر ، وجملة " يعبد الله " صفة لـ " **من** " و " **على** " حرف حال من فاعل " يعبد " أي مضطرباً مترجرجاً " (١) .

والمراد : "ومن الناس من يعبد الله على حرف " أى على شك ، وأصله من حرف الشيء أى طرفه الذي هو قائم عليه غير مستقر فقيل للشاك في دين الله : إنه ــ يعبد الله على حرف ــ لأنه لم يدخل فيه بنية الثبات والتمكن ، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكينة وطمأنينة ، ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف . كالذي ينحرف إلي طرف الجيش فإن أحس بظفر وغنيمة قر وإلا فر ، وطار على وجهه " (٢) .

وهنا استعارة تمثيلية حيث شبه حال هؤلاء المنافقين فى تذبذبهم واضطرابهم وعدم استقرارهم على مبدأ ديني سوى بحال الإنسان الحال على حرف جبل في عدم ثباته ، ونزل من دخل في الإسلام من غير اعتقاد وصحة قصد منزلة الحال على طرف شئ في تزلزله وعدم ثباته ، وفي تقريره بيان للمعنى المجازى

(١) إعراب القرآن وبيانه ٤٠١/٦ .

(٢) الكشاف ٧/٣ ، حاشية الجمل ١٥٥/٣ ، الطبرى ٩٣/١٧ ، محاسن التأويل ١١/١٢ .

المراد ، والجامع : الهيئة الحاصلة من الاضطراب وعدم الاستقرار على حالة واحدة لفساد المعتقد وسوء المبدأ .

وقوله : "فإن أصابه خير" تفسير لذلك وبيان لوجه الشبه ، والمراد من الخير هنا الخير الدنيوى كالرخاء والعافية والولد أى : إن أصابه ما يشتهى " اطمأن به " أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يزحزحهم عاصف ولا يثنيهم عاطف .

وقوله : "وإن أصابته فتنة" جملة موصولة بما قبلها لمشاركتها إياها في حكم إعرابي واحد لمزيد بيان حال هذا المذبذب ، والمراد : إن أصابه شئ يفتن من مكروه يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله .

وقوله : "انقلب على وجهه" استعارة تبعية في الفعل حيث شبه الرجوع والنكوص عن الدين والارتداد عنه إلي الكفر بعد الإصابة المكروه مباشرة بالانقلاب على الوجه ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه " انقلب " بمعنى رجع إلي حالته الأولى من الكفر ، والجامع سرعة التحول والصيرورة إلي الحالة الأولى ، والقرينة **قوله "على وجهه"** .

وقيل : إنه كناية عن الهزيمة النفسية التي أصابته بعد هذه الهزة العنيفة .

وقوله : "خسر الدنيا والآخرة" جملة مستأنفة ، أو بدل من " انقلب "

والمراد : فقد الدنيا والآخرة وضيعهما حيث فاته ما يسره فيهما .

وقيل : " ذهبا منه وفقدهما ، فلاحظ له في الدنيا من الغنيمة ، والثناء الحسن ، ولا

فى الآخرة من الأجر وما أعده الله للصالحين من عباده " (١) .

وقرئ ـ خاسر ـ يزنه فاعل منصوباً على الحال لأن إضافته لفظية ، وقرئ ـ خاسر ـ بالرفع على أنه فاعل " انقلب " وفيه وضع الظاهر موضع الضمير ليفيد تعليل انقلابه بخسرانه ، وقيل : إنه من التجريد (٢) ففيه مبالغة ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أى هو خاسر ، والجملة واردة على الذم والشتم " (٣) .

وقوله : "ذلك" إشارة إلي ما ذكر من الخسران ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه في غاية ما يكون ، وقيل : إن أداة البعد لكون المشار إليه غير مذكور صريحاً " (٤) .

وقوله : "هو الخسران المبين" عرف فيه المسند إليه بالضمير والألف واللام لكونه خسراناً واضحاً لا خسران مثله ، ووصف " الخسران " بـ " **المبين** " دلالة على جرم ما يرتكبه هؤلاء ، وأن مصيرهم إلي ضياع بين وخسران فادح لا شبيه له .

المنافق يتلون كالحرباء :

٥- قال تعالى : "أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد

---

(١) فتح القدير ٥٥١/٣ .

(٢) التجريد : أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة ، مبالغة في كمالها في المنتزع منه .

(٣) روح المعاني ١٢٤/١٧ ، البحر المحيط ٣٥٥/٦ . فتح القدير ٥٥١/٣ .

(٤) روح المعاني ١٢٤/١٧ .

أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ". (١)

تحليل الآية : قوله :" أشحة عليكم " حال من فاعل " يأتون " (٢) ، أو منصوب على الذم بفعل محذوف تقديره أذم ، والمعنى : بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة ، وقيل بأنفسهم ، وقيل : بالغنيمة عند القسم ، وقرئ " أشحة " بالرفع على إضمار مبتدأ اى هم إلخ .

قال الشيخ أبو حيان : " والصواب أن يعم شحهم كل ما فيه منفعة للمؤمنين " (٣) .

وقال العلامة الزمخشري : " في وقت الحرب أضناء بكم يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف " (٤) .

وقوله : " فإذا جاء الخوف " جملة مستأنفة لبيان وصف الشح المذكور في **قوله : " أشحة عليكم "** والمعنى : من العدو وتوقع أن يستأصل أهل المدينة ، **وقوله : " جاء الخوف "** استعارة مكنية شبه الخوف بإنسان يأتي ثم حذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو المجيء ، وإثبات هذا اللازم استعارة تخيلية .

وقوله : رأيتهم " جملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم وجملة " ينظرون إليك " حال لأن الرؤية هنا بصرية و " **إليك** " جار ومجرور متعلقان بقوله " ينظرون " .

---

(١) الأحزاب ١٩ .

(٢) إشارة إلى قوله " ولا يأتون البأس إلا قليلاً " الأحزاب /١٨ .

(٣) البحر المحيط ٧/٢٢٠ .

(٤) الكشاف ٣ : ٢٥٥ .

والتعبيرب " رأيتهم " الماضى للدلالة على تحقق وقوع الرؤية منهم لشدة خوفهم وقلقهم ، والتعبير بـ " ينظرون " المضارع لتجدد النظر وحدوثه منهم شيئاً فشيئاً ودفعة د فعة .

وقوله : " تدور أعينهم " جملة حالية من فاعل " ينظرون " وهو الواو ، والمراد دائرة أعينهم من شدة الخوف ، ولم يقل : ـ دارت ـ بالماضى ، بل عبر بالمضارع " تدور " لتجدد الدوران والتقلب .

وقوله : " كالذى يغشى عليه من الموت " نعت لمصدر محذوف أى : تدور دوراناً كدوران عين الذى ، أو حال من فاعل " ينظرون " أو حال من " أعينهم " أى ينظرون نظراً كائناً نظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولواذاً بك ، أو ينظرون كائنين كالذى إلخ .

وجملة " يغشى عليه من الموت " صلة " الذى " و " يغشى " فعل مضارع مبنى للمجهول ونائب الفاعل مصدر مختص بلام العهد ، أو بصفة محذوفة ، والمعنى : ويغشى الغشيان المعهود .

وقوله : " تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت " تشبيه تمثيلي حيث شبهت حالة هؤلاء المنافقين يأتيهم الخوف من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه الكرام ـ رضى الله عنهم جميعاً ـ بحالة المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذاراً وخوراً ولواذاً بك ، والوجه الحالة الحادثة من شدة الخوف والاضطراب والحذر والترقب . فوجه الشبه منتزع من متعدد .

وفى **قوله : " فإذا جاء الخوف. عليه من الموت " فن التنديروهو** : أن يأتى المتكلم بنادرة حلوة أو نكتة مستطرفة وهو يقع في الجد والهزل فهو لا يدخل في نطاق التهكم ولا في نطاق فن الهزل الذى يراد به الجد ، ويجوز أن يدخل في نطاق باب المبالغة "(١) ، وذلك واضح في مبالغته تعالى في وصف المنافقين بالخوف والجبن حيث أخبر عنهم أنهم تدور أعينهم حالة الملاحظة كحالة من يغشى عليه من الموت ، ولو اقتصر على **قوله : " كالذى يغشى عليه من الموت "** لكان كافياً بالمقصود ولكنه زاد شيئاً بقوله " من الموت " إذ إن حالة المغشى عليه من الموت أشد وأنكى من حالة المغشى عليه من غير الموت ، ولو جاء سبحانه في مواضع الموت بالخوف لكان الكلام بليغاً لا محالة غير أن ما جاء في التنزيل ابلغ ، وهو مع ذلك خارج مخرج الحق متنزل منزلة الصدق فإن كان من قوى النفس شجاع القلب لا يرضى بالنفاق بل يظهر ما يبطنه الخائف لأنه لا يبالى بالموت " (٢) .

وقوله : " فإذا ذهب الخوف " جملة معطوفة على سابقتها موصولة بها من عطف الجمل على الجمل ، ولاتفاق الجملتين في الخبرية ، و " **إذا** " ظرف زمان في المستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة " ذهب الخوف " في محل جر بإضافة الظرف إليها .

وجملة " سلقوكم بألسنة حداد " جواب للشرط الغير جازم لا محل لها من الإعراب

---

(١) بديع القرآن /٢٨٥ ت د حفنى شرف ط دار نهضة مصر ط ثانية . نهاية الأرب ١٧٢/٧ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٦١٩/٧ .

وهى استعارة مكنية فقد شبه اللسان بالسيف ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من خصائصه ولوازمه وهو الضرب وذلك على تفسير السلق بالضرب ، والحامل عليه وصف الألسنة بالحداد فهذا الوصف ترشيح للاستعارة .

قال العلامة الزمخشري : "فإذا ذهب الخوف – وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرقرقة عليكم إلي الخير وهو المال والغنيمة ، ونسوا تلك الحالة الأولى واجترأوا عليكم وضربوكم بألسنتهم **وقالوا : "وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه"** (١) .

وقوله : "أشحة على الخير" حال أو منصوب على الذم ، والمراد : خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أى بخلاء على المال والغنيمة .

وقوله : "أولئك" إشارة إلي هؤلاء المنافقين الموصوفين بالأوصاف السابقة ، وجاءت الإشارة بالبعيد لعلو منزلتهم في النفاق وبعد درجتهم عن الإيمان ، ومن هنا عرف المسند إليه باسم الإشارة البعيد للإيذان ببعد منزلتهم وعلو كعبهم فيه .

وقوله : "لم يؤمنوا" نفي وصفهم بصفة الإيمان ، والمراد : لم يؤمنوا حقيقة بقلوبهم وإن أسلموا ظاهراً .

قال القرطبى : " – **أولئك لم يؤمنوا** – يعنى بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان ، والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر " (٢) .

---

(١) الكشاف ٣/٢٥٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٣٧ .

وقوله : "فأحبط الله أعمالهم" معطوف على قوله : **"لم يؤمنوا"** وهو استعارة تبعية في الفعل ــ أحبط ــ بمعنى أذهب ثم استعير اللفظ الدال على المستعار له ثم اشتق منه ــ أحبط ــ بمعنى أذهب أو أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعاً لمنفعة دنيوية أصلاً . من حبطت البهيمة إي نفقت ، وإسناد الإحباط إليه تعالى لأنه هو الفاعل له والقادر عليه .

وفى الكشاف : "فإن قلت : هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط ؟ قلت : لا ، ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يواطئه القلب ، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدي عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل ،وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره ، وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الإعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثوراً " (١) .

والواو في قوله : وكان ذلك على الله حالية أو استئنافية ، و " كان " واسمها وخبرها و " **على الله** " حال ، والإشارة بـــ " **ذلك** " للإحباط ، والمعنى : أن أعمالهم جديرة بالإحباط لا يصرف عنه صارف ، وليس هو بالأمر الصعب العسير ، وتخصيص اليسر بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالي يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطه لكمال تعاضد الدواعي وعدم الصوارف بالكلية " (٢) .

---

(١) الكشاف ٢٥٥/٣ .

(٢) أبو السعود ٩٦/٧ .

" وقيل : ذلك إشارة إلي حالهم من الشح ونحوه ، والمعنى كان ذلك الحال عليه عز وجل هيناً لا يبالي به ولا يجعله سبحانه سبباً لخذلان المؤمنين وليس بذاك ، والمقصود مما ذكر التهديد والتخويف " (١) .

قال صاحب الكشاف ــ رحمه الله ــ : " فإن قلت : ما معنى قوله ــ وكان ذلك على الله يسيرا ــ وكل شئ عليه يسير ؟ قلت : معناه أن أعمالهم حقيقة بالإحباط تدعوا إليه الدواعي ولا يصرف عنه صارف " (٢) .

إغواء الشيطان للإنسان ثم تبرؤه منه :

٦- قال تعالى : "كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان لكفر فلما كفر إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين" (٣) .

تحليل الآيات : قوله : "كمثل الذين من قبلهم" بيان لحال اليهود من بني النضير ، أو من اليهود جميعاً ، ومن المنافقين كمثل أهل بدر ــ كما قاله مجاهد ــ أو كبني قينقاع ــ كما قاله ابن عباس ــ وهم شعب من اليهود كانوا حوالى المدينة غزاهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم السبت على راس عشرين من الهجرة في شوال قبل غزوة بني النضير ، حيث كانت في ربيع سنة أربع ، وأجلاهم ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلي أذرعات بالشام .

---

(١) روح المعاني ١٦٦/٢١ .

(٢) الكشاف ٢٥٥/٣ .

(٣) الحشر /١٥-١٧ .

والمراد بالتشبيه هنا التشبيه التمثيلي لحال هؤلاء اليهود من بنى النضير أو غيرهم فيما وقع لهم من الإجلاء والذل والمهانة مثل حال أهل مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر والقتل وليس ذلك ببعيد ، والوجه هو الهيئة الحاصلة من الهوان والمذلة والقتل والأسر .

وقيل : أى مثل هؤلاء المنافقين كمثل منافقى الأمم الماضية ، ومقصود التشبيه في الآية هو بيان حال اليهود وما حصل لهم في الدنيا من الوبال وما سيحصل لهم في الآخرة من العذاب بحال المشركين في هذين الأمرين ، فالمراد بـ " مثلهم " ما نزل بهم في الدنيا وما سينزل بهم في الآخرة فترك الإيمان ليس هو المثل بل هو سببه ففي الأمرين سببية تعليلية " (١) .

يقول ابن جرير الطبري : " ولم يخصص الله عز وجل منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض ، وكل ذائق وبال أمره فمن قربت مدته منهم قبلهم فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل " (٢) .

وقوله : قريباً " منصوب على الظرفية لقوله تعالى : " **ذاقوا وبال أمرهم** " ، والمعنى : ذاقوا سوء عاقبة كفرهم في زمن قريب من عصيانهم أى لم تتأخر عقوبتهم وعوقبوا في الدنيا إثر عصيانهم .

قال العلامة الزمخشري : " فإن قلت : بم انتصب ــ قريباً ــ ؟ قلت : بـ ــ مثل ــ على معنى كوجود مثل أهل بدر قريباً ــ ذاقوا وبال أمرهم ــ سوء

(١) حاشية الجمل ٣١٩/٤ ، تفسير الخازن ٦٦/٧ ، تفسير المراغي ٤٦/٢٨، ٤٧ .

(٢) جامع البيان ٣٢/٢٨ .

عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من قولهم . كلاً وبيل وخيم سيئ العاقبة : يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا " (١) .

" **قوله : "ولهم في الآخرة عذاب أليم"** تقدم فيه المسند الجار والمجرور : **لهم** " على المسند إليه " عذاب " للتنبيه على خبريته ونفى كونه نعتاً ، ومجيء المسند إليه " عذاب " نكرة للتفخيم والتهويل ، والمراد " عذاب " لا يقادر قدره ، ولا يكتنه أمره ، ووصف العذاب بالأليم مجاز عقلي لعلاقة المفعولية .

أي : المؤلم في كونه مؤلماً للأبدان والأرواح .

وقوله : "كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر" خبر لمبتدأ محذوف لبيان حال الغواية من **اليهود ومن الشيطان أيضاً .**

وقوله : "كمثل الشيطان" إلخ تشبيه تمثيلي . شبه حال إغراء المنافقين اليهود على **القتال** ، ووعدهم إياهم **النصر** ثم مشاركتهم لهم وإخلافهم بحال الشيطان إذ **استغوى الإنسان بكيده ثم تبرا منه في العاقبة** ، والمراد : **استغواؤه قريشاً** يوم بدر ، وقوله لهم : " **لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءات الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون** " (٢) .

فجاء قوله : "كمثل الشيطان" بياناً لحالهم متضمناً لحال أخرى لليهود ، وهي اغترارهم بمقابلة المنافقين أولاً وخيبتهم آخراً ، وقد أجمل في النظم الكريم حيث

---

(١) الكشاف ٨٦/٤ .

(٢) الأنفال /٤٨ .

أسند كل من الخبرين إلي المقدر المضاف إلي ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلاً من المثلين إلي ما يماثله . كأنه قيل : مثل اليهود في حلول العذاب بهم ـ كمثل الذين من قبلهم ـ إلخ ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل عنهم ـ كمثل الشيطان " (١) .

وقوله : "إذ قال للإنسان اكفر" إذ فيه ظرف لما مضى من الزمان متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ، أو هو متعلق بمحذوف على أنه حال من قوله : "**كمثل الشيطان**" كأنه بيان له ، والمراد **بقوله : "اكفر"** الإغراء ، والمعنى : أغراه على الكفر وحثه عليه إغراء الآمر للمأموريه على طريق الاستعارة التبعية في الفعل ، وقوله : " فلما كفر " ترشيح للاستعارة ، والمراد فلما حصلت منه الغواية وحصل من الإنسان الكفر والضلال تبرأ الشيطان منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك ، أو يكون هذا القول تمثيلاً لحال الشيطان ـ كما ذكرنا سابقاً مع من سول وأملي لهم .

وذهب البعض : إلي أن المراد بالشيطان إبليس ، وبالإنسان أبو جهل ـ عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ـ قال له يوم بدر : " لا غالب لكم " فلما حدث ما حدث أعلن البراءة منهم وأظهر الخوف من الله تعالى ، وروى عن مجاهد

---

(١) أبو السعود ٢٢٢/٨ . روح المعاني ٥٩/٢٨ .

قوله : إنه لما شبه أولاً حال إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدر شبه هنا حال المنافقين بحال الشيطان في قصة أهل بدر .

وقوله : "**إني أخاف الله رب العالمين**" تعليل كاذب لبراءته منه وإلا فهو لا يخاف الله ، وقوله ذلك كذب منه ورياء لأنه لو خاف الله لامتثل أمره وما عصاه ، وتكرار " إن " توكيد لكذبه كأن محدثه ينكر عليه ذلك ، وقوله : رب العالمين " زيادة في بيان ربوبية الله تعالى للخلائق وهذا قمة المكر منه والخبث ولكن أني له ذلك إذ فضحه الله وأظهر خبثه .

قال الشيخ أبو حيان : " وقيل التمثيل بشيطان مخصوص مع عابد مخصوص استودع امرأة فوقع عليها فحملت فخشي الفضيحة فقتلها ودفنها . سول له الشيطان ذلك ثم شهره فاستخرجت فوجدت مقتولة وكان قد قال إنها ماتت ودفنتها فعلموا بذلك فتعرض له الشيطان وقال اكفر واسجد لي وإني أنجيك ففعل وتركه عند ذلك وقال إني برئ منك ، وقول الشيطان – إني أخاف الله – رياء ولا يمنعه الخوف عن سوء يوقع ابن آدم فيه " (١) .

وقوله : "**فكان عاقبتهما أنهما في النار**" معطوف على ما سبق لبيان العاقبة التى صار إليها كلا الفريقان . ، وقوله : " **في النار** " متعلق بقوله : " **خالدين فيها** " قدم عليها للاختصاص ، وقوله :"فيها " تأكيد لقوله : " في النار " وإعادة ذلك بضميره ، وجوز أن يكون " في النار " خبراً لأن و – خالدان – على ما قرأ

---

(١) البحر المحيط ٨/٢٥٠

عبد الله وزيد بن على والأعمش ، وابن ابى عبلة خبراً ثانياً ، وهى في قراءة الجمهور حال من الضمير في الجار والمجرور " (١) وقوله : " **وذلك جزاء الظالمين** " إشارة إلي الخلود في النار ، و " جزاء أي مجازاتهم ، وعرف المسند إليه باسم الإشارة ليتميز جزاؤهم أكمل تميز فهم أهل لهذا الجزاء ، والإشارة بالبعيد " **الكاف** " لتفخيم هذا الجزاء وبعد منزلته ، وأنه جزاء يتناسب مع حال هؤلاء ، وهو تذييل قوى لبيان عاقبة هؤلاء الظالمين ، ووصفهم بـ " **الظالمين** " لأن حالتهم كذلك فقد ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ممن سايرهم والمراد من " الظالمين " الإطلاق دون المذكورين المتحدث عنهم خاصة ، والمعنى : وذلك عقاب كل ظالم فاجر ، منتهك لحرمات الله تعالى والدين فكان عاقبة اليهود والمنافقين ، ومن نهج نهجهم ، مثل عاقبة هذا الإنسان ــ الذي ذكرنا قصته ــ والشيطان حيث صارا إلي النار المؤبدة .

أجسام البغال وأحلام العصافير :

٧- قال تعالى : " وإذ رايتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أني يؤفكون " (٢) .

تحليل الآية : قوله : " وإذا رأيتهم " انتقال من وصف المنافقين بما وصفوا به أولاً إلي صفات أخر اتصفوا بها ، وهي صفات توضح حقيقتهم وما تنطوي عليه نفوسهم

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ٦٠ .

(٢) المنافقون /٤ .

فالوصف جاء مفتتحاً بقوله : " **وإذا رأيتهم** " فجملة " **وإذا رأيتهم** " معطوفة على جملة " فهم لَا يفقهون " (١) واقعة موقع الاحتراس والتتميم (٢) . لدفع إيهام من يغره ظاهر صورهم ، وأتبع انتفاء فقه عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم فإنها أجسام خالية عن كمال الأنفس كقول حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه-(٣) .

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ • • جسم البغال وأحلام العصافير

وتفيد مع الاحتراس تنبيهاً على دخائلهم بحيث لو حذف حرف العطف من الجملتين لصح وقوعهما موقع الاستئناف الابتدائي ، ولكن أوثر العطف للتنبيه على أن هاتين صفتان تحسبان كمالاً وهما نقيصتان لعدم تناسقهما مع ما شأنه أن يكون كمالاً .

فالخطاب في قوله : " **وإذا رأيتهم** " لغير من يشمل كل من يراهم ممن يظن أن تغرهم صورهم فلا يدخل فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله قد أطلعه على أحوالهم وأوقفه على تعيينهم .

والمراد بالسماع في قوله : " **تسمع لقولهم** " الإصغاء إليهم لحسن إبانتهم وفصاحة كلامهم مع تغريرهم بحلاوة معانيهم وتمويه حالهم على المسلمين ، واللام في

(١) المنافقون /٣ .

(٢) الاحتراس : هو أن يؤتي بعد كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الإيهام ، والتتميم . هو زيادة كلمة أو أكثر توجد في المعنى حسناً بحيث لو حذفت صار الكلام مبتذلاً .

(٣) شرح ديوانه /٢٦٧ للبرقوقي وروايته من طول ومن عظم .

قوله : " **لقولهم** " لتضمين " تسمع " معنى تصغ أيها السامع إذ ليس في الإخبـــار بالسماع للقول فـــائدة لـــو لا أنــــه ضمـــن تعنـــى الإصغـــاء لوعـــى كلامـــهم .

قيل : كان عبد الله بن ابى جسيماً فصيحاً يحضر مجلس رسول الله ــ صلـــى الله عليه وسلم في نفر من أمثاله كالجد بن قيس ومعتب بن قشـــير فكـــان ــ عليـــه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون من هياكلهم ويسمعون لكلامهم " (١) .

والخطاب لكل من يصلح له الخطاب ، وقرأ عكرمة وعطية العوفى ــ يســـمع ، **وقيل** : هو لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيد المخاطبين . لأن أجســامهم إذا أعجبته ــ صلـــى الله عليــــه وســلم ــ فـــأولى أن تعجـــب غـــيره ، وكـــذا السماع لقولهم .

وقوله : "كأنهم خشب مسندة" كلام مستأنف استئنافاً بيانياً جاء جواباً عن سؤال ينشـــأ عن وصف حسن أجسامهم وذلاقة كلامهم فإنه في صورة مدح فلا يناسب ما قبلـــه من ذمهم فيترقب السامع ما يرد بعد هذا الوصف ، ومن هنـــا فصلـــت الجملـــة التشبيهية عن سابقتها لشبه كمال الاتصال ، ويجوز أن تكون الجملة فـــي محـــل نصب حال من ضميري الغيبة في قوله : " رايتهم تعجبك أجسامهم " ومعنـــاه أن حسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين ، والمسندة : هى التى سندت إلـــي حائط أو نحوه أمليت إليه فهى غليظة طويلة قوية لكنها غير منتفع بها في ســـقف ولا مشدود بها جدار .

---

(١) الكشاف ١٠٩/٤ ، روح المعاني ١١٠/٢٨ ، التفسير الكبير ١٥/٣٠ ، أبو السعود ٢٥٢/٨ .

المسندة إلي الحائط ، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به اسند إلي الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع ، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب إلي الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم " (١) .

وقرئ " خشب " بإسكان الشين تخفيف " خشب " المضموم وهي الخشبة التى نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم لنفاقهم .

وقوله : " يحسبون كل صيحة عليهم " جملة مستأنفة ايضاً لبيان حال هؤلاء المنافقين ، ومصورة لجبنهم وهلعهم ، و " عليهم " ثاني مفعولي " يحسبون " : أى يحسبون كل صيحة واقعة عليهم ، وضارة لهم لجبنهم وهلعهم وما فى قلوبهم من الرعب إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعاً بهم ، وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم " (٢) .

وفى قوله : يحسبون كل صيحة عليهم " تشبيه تمثيلي أيضا : شبهت حالتهم وما هم فيه من جبن وهلع لنفوسهم واضطراب قلوبهم بحيث لو نادى مناد في معسكرهم أو انفلتت داية أو أنشدت ضالة وجفت قلوبهم ، وزايلهم رشدهم وحسبوا أن هنالك شراً يتربص بهم وكيداً ينتظر الإيقاع بأرواحهم . بحال المذعور الوجل كلما سمع خففه ريح أو ضربه قدم ارتاعت نفسه وطار قلبه فزعاً ظاناً أن عمره قد ضاع

---

(١) الكشاف ١٠٩/٤ ، روح المعاني ١١١/٢٨ .

(٢) الكشاف ١٠٩/٤ .

معها ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الهلع والفزع ، وضياع صواب الرشـد واضطراب القلب والعقل .

وقوله : "هم العدو فاحذرهم" يجوز أن تكون استئنافاً بيانيـاً ناشـئاً عـن جملـة "يحسبون كل صيحة " لأن تلك الجملة لغرابة معناها تثير سؤالاً عن سبب هلعـهم وتخوفهم من كل ما يتخيل منه بأس المسلمين فيجاب بأن ذلك لأنهم أعداء ألـداء للمسلمين ينظرون إليهم بمرآة نفوسهم ، ومن هنا فصلت هذه الجملة عمـا قبلـها لشبه كمال الاتصال ، ويجوز أن تكون بمنزلة العلة لجملة " يحسبون كل صيحة " على هذا المعنى أيضاً .

والتعريف في "العدو" تعريف الجنس الدال على تعين كمال حقيقة العدو فيـهم لأن أعدى الأعداء هو العدو المتظاهر بالموالاة وهو مداح وتحت ضلوعه الداء الدوى

والمراد بهم : الكاملون في العدواة من باب تعريف المسند إليه بأل ، وعنى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم . لأن الفاء لترتيب هذا الأمر لكونهم أعـدى الأعداء ، والفاء في **قوله : "فاحذرهم"** فاء الفصيحة ، وهى التى تفصح عن مقـدر في الكلام ، والتقدير : إن عرفت صفتهم وماهية أحوالـهم فـاحذرهم ولا تغـتر بظاهرهم . وجملة " قاتلهم الله " تذييل . فإنه جمع على الإجمال ما يغنـى عـن تعداد مذامهم مسوق للتعجيب من حال توغلهم في الضلالـة والجهالـة بعدولـهم عن الحق .

فافتتح التعجيب منهم بجملة أصلها دعاء بالإهلاك والاستئصال ولكنها غلب فيـها الاستعمال في التعجب أو التعجيب من سوء الحال الذى جره صاحبه لنفسه فـإن

كثيراً من الكلم التي هي دعاء بسوء تستعمل في التعجيب من فعل أو قول مكروه ، واستعمال ذلك في التعجب مجاز مرسل للملازمة بين بلوغ الحال في السوء وبين الدعاء على صاحبه بالهلاك . إذ لا نفع له ولا للناس في بقائه ، ثم الملازمة بين الدعاءِ والهلاك وبين التعجب من سوء الحال فهي ملازمة بمرتبتين كناية رمزية " (١) .

فهذا القول دعاء وطلب من ذاته أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالي ، وهو من أسلوب التجريد بطريق الكناية . فلا يكون من إقامة الظاهر مقام الضمير لأنه يفوت به نضارة الكلام ، أو تعليم للمؤمنين أن يدعو عليهم بذلك فهو على معنى قولوا : قتلهم الله ، وجوز أن لا يكون من الطلب في شئ بأن يكون المراد أن وقوع اللعن بهم مقرر لابد منه ، وذكر بعضهم أن قاتله الله كلمة ذم وتوبيخ ، وتستعملها العرب في موضع التعجب من غير قصد إلي لعن ، والمشهور تعقيبها بالتعجب نحو قاتله الله ما أشعره وكذا قوله سبحانه هنا :- قاتلهم الله ــ " (٢) .

وقوله : " أنى يؤفكون " تعجيب من حالهم . فالاستفهام هنا مستعمل في التعجيب على وجه المجاز المرسل . لأن الأمر العجيب من شأنه أن يستفهم عن حال حصوله . فالاستفهام عنه من لوازم أعجوبته ــ فجملة " أنى يؤفكون " بيان للتعجيب الإجمالي المفاد بجملة " قاتلهم الله ".

---

(١) من الأسماء المضمنة معنى الاستفهام في القرآن /١٠١ للمؤلف نفسه .

(٢) الكشاف ٤/١١٠ ، روح المعاني ٢٨/١١٢ .

و " **يؤفكون** " أى يصرفون ، والمراد :صرفهم عن الهدى . أى كيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى ، أو كيف أمكن لمضلليهم أن يصرفوهم عن الـــهدى مع وضوح الدلالة ، و " أنـــى " ظـــرف متضمـــن معنـــى الاســـتفهام معمـــول لما بعده " (١) . والله أعلم .

---

(١) البحــر المحيــط ٢٧٣/٨ ، أبــو الســعود ٢٥٢/٨ ، روح المعــاني ١١٢/٢٨ ، التحريـــر والتنوير ٢٤٣/٢٨ .

المبحث الثاني

" الآيات الخاصة بالحديث عن الكافرين "

وقوله : "كأنهم خشب مسندة" تشبيه مرسل تمثيلي . شبهت حال رؤساء المنافقين في المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويستندون فيه إلي الجدر ، وكان النبي ــ عليه الصلاة والسلام ومن حضر يتعجبون من هياكلهم المنصوبة . بحال الخشب المنصوبة المسندة إلي الحائط في كونهم صوراً خالية عن العلم والنظر ، فهم أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام . ووجه الشبه : هو الهيئة الحاصلة من وجود أشباح خالية عن العلم والنظر والفائدة المرجوة .

قال الشيخ أبو حيان : " شبهوا بالخشب لعزوب إفهامهم وفراغ قلوبهم من الإيمان ولم يكف حتى جعلها مسندة إلي الحائط لا انتفاع بها لأنها إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها ، واما إذا كانت غير منتفع بها فإنها تكون مهملة مسندة إلي الخيطان أو ملقاة على الأرض قد صففت ، أو شبهوا بالخشب التى هي الأصنام وقد أسندت إلي الحيطان ، والجملة التشبيهية مستأنفة أو على إضمارهم " (١) .

وهذا التشبيه وصف لهم بالجبن والخور ، وأفيد بهذا التشبيه أن أجسامهم المعجب بها ومقالهم المصفي إليه خاليان " عن النفع كخلو الخشب المسندة عن الفائدة . فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لب وشجاعة ودراية وإذا اختبرتموهم وجدتموهم على خلاف ذلك فلا تحتفلوا بهم .

قال العلامة الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى قوله :- كأنهم خشب مسندة ــ ؟ قلت : شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب

---

(١) البحر المحيط ٢٧٢/٨ .

الختم على القلوب جزاء الكفر :

١- قال تعالى : " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم " (١) .

تحليل الآية : قوله " ختم الله على قلوبهم " استئناف تعليلي لما سبق من الحكم وبيان لما يقتضيه ـ الإنذار وعدمه ـ أو بيان وتأكيد له ، وعلى كل فقد فصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال ، والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد ، والختم على الشئ الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة له او لما فيه من التعرض كما في البيت الفارغ والأول هو الأنسب بالمقام لأنه ليس المراد به صيانة ما فى قلوبهم بل إحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم في الغى وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ولا ينفذ فيها الحق أصلا " (٢) .

و - الختم ـ إما استعارة تبعية بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلي هو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ومستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضى ، وإما استعارة تمثيلية بأن تشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت هى لأجله من الأمور الدينية النافعة وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولاً مستتبعاً لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها

---

(١) البقرة /٧ ، الجاثية /٢٣ " ختم على سمعه وقلبه " الآية .

(٢) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/١٥٥، ١٥٦ ، ابو السعود ٣٧/١ .

وبين ما أعدت لأجله بالكلية ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفى التشبيه مركباً من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الأمرفي تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم والباقى منوى مراد قصداً بألفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب ، وتلك الألفاظ وإن كان لها مدخل في تحقيق وجه الشبه الذى هو أمر عقلي منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما أعد له بسبب مانع قوى ، والتجوز هنا في المجموع والاستعارة على هذا تمثيلية " (١) فالختم إذاً على ما ذهب إليه المحققون كالشيخ عبد القاهر وأضرابه استعارة تمثيلية . (٢) وإسناد إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلي الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عند أهل السنة والجماعة من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالي ، وورد الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح ، أما المعتزلة فيحملون ما فى الآية على المجاز العقلي ، وأن حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافى والنبو عن الحق بحال قلوب محقق " ختم " الله عليها مثلاً . كقولهم : سال به الوادى إذا هلك ، وطارت به العنقاء من باب الإسناد . مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه إلخ كقلوب الأغنام التى هى في خلوها كقلوب البهائم ، أو بحال قلوب البهائم أنفسها ، أو بحال قلوب

(١) الكشاف ١/١٥٦ ــ ١٥٨ ، حاشية السيد بهامشه ، أبو السعود ١/٣٧ ، روح المعاني ١/١٣٢ .

(٢) أسرار البلاغة /١٩٣ ت رشيد رضا ، المفتاح /١٧٧ ، الإيضاح ٥/١٠٨ ت د خفاجى ، المطول /٣٩٠ ، حاشية السيد بهامش المطول /٣٩١ .

مقدر ختم الله عليها حتى لا تعى شيئاً ولا تفقه ، وليس له عز وجل فعل في تجافيها عن الحق ونبوها عن قبوله وهو متعال عن ذلك ، ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله تعالى فيكون الختم مسنداً إلي اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة من إسناد الفعل إلي سببه " (١) .

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر ، إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذى أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلي المسبب .

وقوله : " وعلى سمعهم " معطوف على ما قبله داخل في حكم الختم لقوله عز وجل " وختم على سمعه وقلبه " (٢) وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم ولاشتراكهما في الإدراك من جميع الجوانب ، وإعادة الجار للتأكيد والإشعار بتغاير الختمين ، وتقديم " ختم الله على قلوبهم " للإيذان بأنها الأصل في عدم الإيمان وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم بناء على أنه طريق إليها فالختم عليه ختم عليها بل هى مختومة بختم على حدة لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله .

وجاء السمع مفرداً لوحدة المسموع دون القلوب والأبصار لتنوع المدركات والمرئيات ، والسمع إدراك القوة السامعة ، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا لأنه هو المختوم عليه أصالة ، وتقديم حاله على حال أبصارهم ـ للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال أو لأن جنايتهم من حيث

---

(١) الكشاف ١/١٦٠ .

(٢) الجاثية /٢٣ .

السمع الذى به يتلقى الأحكام الشرعية وبه يتحقق الإنذار أعظم منها من حيث البصر الذى به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد فبيانها أحق بالتقديم ، وأنسب بالمقام " (١) .

وقوله : "وعلى أبصارهم غشاوة " جملة معطوفة على ما قبلها موصولة بها لاتفاقهما في الخبرية ، وقدم المسند على المسند إليه للتنبيه على خبريته ، والأبصار جمع بصر ، والغشاوة هي التغطية بنيت لما يشتمل على الشئ كالعصابة والعمامة .

ومجئ " غشاوة " نكرة لبيان أن " على أبصارهم " نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله ، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله تعالى " (٢) .

فالتنكير على رأى الزمخشري هذا يفيد النوع ، ويرى السكاكى : أن المراد بالتنكير هنا التفخيم والتهويل والتعظيم (٣) والمراد : غشاوة عظيمة تليق بحالهم ، والزمخشرى أدق رأياً وأرهف من ذلك حساً .

وفي الآية جملتان خبريتان إحداهما فعلية مقدمة للإشارة إلي أن ذلك قد وقع وفرغ منه ، والثانية اسمية دالة على الثبوت ودوام المضمون حتى كأن الغشاوة جبلية فيهم فإن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة في الكون والنفوس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك أيضاً كذلك فاستعمل الجملة الاسمية ، وأما

---

(١) الكشاف ١/١٦٣ ، ١٦٤ ، حاشية السيد بهامشه، أبو السعود ١/٣٨ .

(٢) الكشاف ١/١٦٥ .

(٣) المفتاح /١٩٢ .

الآيات التى تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حينا فحينا أوثر في بيان الختم عليها وعلى ما هى أحد طريقى معرفته أعنى القلب استعمل الجملة الفعلية " (١).

وقوله : ولهم عذاب عظيم" وعيد وبيان لما يستحقونه في الآخرة ، والعذاب كالنكال بناء ومعنى ، وقدم المسند أيضا على المسند إليه للتنبيه على خبريته ، وهو مختص بهم ، ومجيئه نكرة للتفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك ، وفيه إشارة إلي أنه نوع منه مجهول الكم والكيف ، ووصفه بكونه " عظيم " لدفع الإبهام بقلته وندرته ، وللتأكيد بأنه بالغ حد العظمة ، وصرح البعض بحملة على النوعية والتعظيم ، واللام في " لهم " للأستحقاق وهى كما قال ابن هشام : " هى الواقعة بين معنى وذات نحو الحمد لله " (٢) ، وهى هنا كذلك إلا أنه قدم الخبر استحسانا لأن المبتدأ نكرة موصوفة ولو أخر جاز ، ويجوز أن يكون تقديمه للتخصيص ، فالجملة مساقه لبيان إصرارهم بأن مشاعرهم ختمت وإن الشقوة عليهم ختمت ، وقيل : عطفت على ــ الذين كفروا ــ والجامع أن ما سبق بيان لحالهم وهذا بيان ما يستحقونه ، أو على خبر إن والجامع الشركة في المسند إليه مع تناسب مفهوم المسندين " (٣) .

---

(١) ابو السعود ٣٨/١ ، روح المعاني ١٣٦/١ .

(٢) مغنى اللبيب ١٧٥/١ .

(٣) روح المعاني ١٣٧/١ .

نبذ العهود سمة الكافرين :

٢- قال تعالى : "أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بـل أكـثرهم لا يؤمنـون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتـاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون " (١) .

تحليل الآيتين : قوله "أو" استفهام مستعمل في التوبيخ معطوف على جملة القسم وهى قوله : " **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** " (٢) .

ويرى الزمخشري وأبو السعود : أن الهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيـه المقام أى : اكفروا بها وهى في غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهداً " (٣).

وقد اعترض على ذلك الألوسى وسايره الطاهر ابن عاشور بقوله : " والقول بـأن الهمزة للاستفهام عن مقدر محذوف ، والواو عاطفة ما بعدها على المحذوف وجه بعيد ، وفيه ارتكاب ما لا ضرورة تدعو إليه " (٤) .

وقد قدم الظرف " كلما " ليكون موالياً للاستفهام المراد منه التعجيـب ليظـهر أن محل العجب هو استمرار ذلك منهم الدال على أنه سجية لهم وليس ذلك لعـارض عرض في بعض الرسل وفى بعض الأزمنة ، والتقدير : أفاستكبرتم كلما جـاءكم رسول فقدم الظرف للأهتمام لأنه محل العجب ، وقد دل العموم الذى في " كلمـا " على شمول التكذيب أو القتل لجميع الرسل المرسلين إليهم لأن عموم الأزمـان

---

(١) البقرة /١٠٠، ١٠١ .

(٢) البقرة /٩٩ .

(٣) الكشاف ١/٣٠٠ ، ابو السعود ١/١٣٥ .

(٤) روح المعاني ١/٣٣٥ ، التحرير والتنوير ١/٦٠٣ .

يستلزم عموم الأفراد المظروفة فيها " (١) .
وقرئ بسكون الواو من " **أو**" على أن تقدير النظم الكريم ؛ وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مرات كثيرة .
وقوله : "نبذه فريق منهم" أي راموا بالزمام ورفضوه ، وإسناد النبذ إلي فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه ، واصل ــ النبذ ــ إلقاء الشيء من اليد وهو هنا استعارة لنقض العهد حيث شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شئ كان ممسوكاً باليد كما سموا المحافظة على العهد والوفاء به تمسكاً ، والمراد بالعهد : عهد التوراة أي ما اشتملت عليه من أخذ العهد على بنى إسرائيل بالعمل بما أمروا به أخذاً مكرراً حتى سميت **التوراة** بالعهد ، وقد تكرر منهم نقض العهد مع أنبيائهم ، ومن جملة العهد الذي أخذ عليهم أن يؤمنوا بالرسول المصدق للتوراة ، وأسند ــ النبذ ــ إلي ــ فريق ــ إما باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهود كما تؤذن به كلمة " كلما " أو احتراساً من شمول الذم للذين آمنوا منهم ، وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله : " بل أكثرهم لا يؤمنون فهذا التذييل يحتمل أن يراد بالأكثر فيه ــ النابذون ــ وأن يراد من عداهم فعلى الأول يكون ذلك رداً لما يتوهم أن ــ الفريق ــ هم الأقلون بناء على أن المتبادر منه القليل ، وعلى الثاني رد لما يتوهم أن من لم ينبذ جهاراً يؤمنون به سراً ، والعطف على التقديرين من عطف الجمل ، ويحتمل أن يكون من عطف المفردات بأن يكون

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٧٥ ، ٥٧٦ .

ــ أكثرهم ــ معطوفاً على ــ فريق ــ وجملة ــ لا يؤمنــــون ــ حــال مــن ــ أكثرهم ــ والعامل فيها ــ نبذه ــ " (١) ، وما فى الآية يعد من أفانين البلاغة وهـو أن يظهر المتكلم أنه يوفى حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتــدرج وتدبر قبل الإبطال ، ولك أن تجعلها للانتقال من شئ إلي ما هو أقوى منه في ذلك الغرض لأن ــ النبذ ــ قد يكون بمعنى عدم العمل دون الكفر والأول أظهر " (٢).

وقوله : "ولما جاءهم رسول" معطوف على قوله : " **أوكلما** " عطف القصة على القصة لغرابة هاته الشئون ، والرسول هو " محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، والتنكـير للتفخيم ، والضمير في ــ جاءهم ــ لبنى إسرائيل لا لعلمائهم فقط .

وقوله : " من عند الله " متعلق بـــ " جاء " أو بمحذوف وقع صفة للرسول لإفـــادة مزيد تعظيمه إذ قدر الرسول على قدر المرسل بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامــة الذاتية بالفخامة الإضافية ، وقوله : " مصدق لما معهم " أى : من التـــوراة مــن حيث إنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرر صحتها ، وحقق حقية نبـــوة موســـى ــ عليه السلام ــ بما أنزل عليه أو من حيث إنه ــ عليه السلام ــ جاء على وفـــق ما نعت فيها ، وحمل البعض ــ ما ــ على العموم لتشمل جميع الكتـــب الإلهيــة التى نزلت قبل " (٣) .

---

(١) روح المعاني ٣٣٦/١ ، أبو السعود ١٣٥/١ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٠٣/١ .

(٣) أبو السعود ١٣٥/١ ، روح المعاني ٣٣٦/١ .

وقوله : " نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب " أى التوراة وهم اليهود الذين كانوا في عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا في عهد سليمان ــ عليه السلام ــ كما قيل : لأن النبذ عند مجئ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يتصور منهم ، وإفراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله عز وجل ــ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ــ لأنه معظم جناياتهم ، ولأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين وإيثارهم له عليه ، والمراد بإيتائها إما إيتاء علمها بالدراسة والحفظ ، والوقوف على ما فيها . فالموصول عبارة عن علمائهم ، وإما مجرد إنزالها عليهم فهو عبارة عن الكل ، وعلى التقديرين فوضعه موضع الضمير للإيذان بكمال التنافى بين ما أثبت لهم في حيز الصلة وبين ما صدر عنهم من النبذ " (١) .

وقوله : " كتاب الله " أى التوراة لأنهم بكفرهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها ، وقيل : ــ كتاب الله ــ القرآن نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول " (٢) .

ويؤيد ما ذكره العلامة الزمخشري : من أن المراد بــ " **كتاب الله** " التوراة : أن النبذ يقتضى سابقة الأخذ في الجملة ــ أى المنبوذ وهم لم يتمسكوا بالقرآن ــ وهو متحقق بالنسبة إليها ، وأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ، وأن مذمتهم في أنهم نبذوا الكتاب الذى أوتوه واعترفوا بحقيته أشد فإنه يفيد أنه كان

---

(١) أبو السعود ١/١٣٥ ، روح المعاني ١/٣٣٦ .

(٢) الكشاف ١/٣٠٠ .

مجرد مكابرة وعناد ، ومعنى نبذهم لها إطراح أحكامها أو ما فيها من صفة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ " (١) .

وايد ذلك ايضاً أبو حيان : بأن الكلام مع الرسول فيصير المعنى أنه يصدق ما بايديهم من التوراة ، وهم بالعكس يكذبون ما جاء به من القرآن ويتركونه ولا يؤمنون به بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول " (٢) .

وقد اعترض الشيخ الطاهر ابن عاشور على ذلك بقوله : " و ــ كتاب الله ــ ظاهر في أنه المراد به القرآن لأنه الأتم في نسبته إلي الله . فالنبذ على هذا مراد به تركه بعد سماعه فنزل السماع منزلة الأخذ ونزل الكفر به بعد سماعه منزلة النبذ ، (٣) ثم يذكر رأى الزمخشري ــ ويعلق عليه فيقول : " وفيه نظر لأن ذلك في إعادة الاسم المعرف باللام ، أو تجعل النبذ تمثيلاً لحال قلة اكترات المعرض بالشيء فليس مراداً به معناه " (٤) . وإضافة الكتاب إلي الاسم الكريم تعظيماً له وتهويلاً لما إجترءوا عليه من الكفر به .

وقوله : " وراء ظهورهم " تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن شئ تجاوزه فخلفه وراء ظهره ، فقد شبه تركهم كتاب الله تعالى وإعراضهم عنه بحالة شئ يرمى به وراء الظهر فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه والجامع الهيئة الحاصلة من عدم الالتفات وقلة المبالاة ، ثم استعمل ههنا ما كان مستعملاً

---

(١) روح المعاني ٣٣٦/١ .

(٢) البحر المحيط ٣٢٥/١ .

(٣) التحرير والتنوير ٦٠٤/١ .

(٤) السابق نفسه .

هناك ـــ وهو النبذ وراء الظهر ـــ والعرب كثيراً ما تستعمل ذلك في هذا المعنى .

فهو استعارة تمثيلية .

وإضافة الوراء إلي الظهر لتأكيد بعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء ، وإن كان هو هنا بمعنى الوراء فالإضافة كالبيان لذلك وقوله : " كأنهم لا يعلمون " تسجيل عليهم بأنهم عالمون بأن القرآن كتاب الله ، أو كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل ، وهى جملة حالية : أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه . فإن أريد بهم أحبارهم فالمعنى : كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ ففيه إيذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله أولا يعلمونه أصلاً كما إذا أريد بهم الكل وفي هذين الوجهين زيادة مبالغة في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة هذا وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالعلم المنفى في قوله تعالى : ـــ كأنهم لا يعلمون ـــ هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما في الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون في ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعنادا " (١) .

دعاء وداع دون جدوى :

٢- قال تعالى : " ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون " (٢) .

(١) الكشاف ٣٠٠/١ ، أبو السعود ١٣٦/١ ، روح المعاني ٣٣٧/١ .

(٢) البقرة /١٧١ .

تحليل الآية : قوله : " ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق " إلخ جملة ابتدائية واردة لتقرير ما قبلها أو معطوفة عليه ، والجامع أن الأولى لبيان حال الكفار الذين ذكر حال تلقيهم الدعوة إلي اتباع الدين بالإعراض ، وذكر فساد عقيدتهم ، ـ وهذه الآية ـ تمثيل لها وهو تمثيل فظيع لحالهم إبلاغاً في البيان واستحضاراً لهم بالمثال ، وفي الآية مضاف محذوف إما من جانب المشبه أو المشبه به ـ أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق ـ أو مثل الذين كفروا ـ كمثل الذى ينعق ـ ووضع المظهر وهو الموصول ـ موضع المضمر ـ وهو البهائم ـ ليتمكن من إجراء الصفة التى هي وجه الشبه عليه ، وحاصل المعنى على التقديرين : أن الكفرة لانهماكهم في التقليد وإخلادهم إلي ما هم عليه من الضلالة لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ولا يتأملون فيما يقرر معهم فهم في ذلك كالبهائم التى ينعق عليها صاحبها وهى لا تسمع إلا جرس النغمة ودوى الصوت ، وقيل : المراد تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته ، أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهذا يغنى عن الإضمار لكن لا يساعد هذا الوجه قوله تعالى :ـ إلا دعاء ونداء ـ لأن الأصنام بمعزل عن ذلك فلا دخل للاستثناء في التشبيه إلا أن يجعل من التشبيه المركب ويلتزم كون مجموع ـ لا يسمع إلا دعاء ونداء ـ كناية عن عدم الفهم والاستجابة " (١) .

---

(١) الكشاف ٣٢٨/١ ، المحرر الوجيز ٤٨٠/١ ، أبو السعود ١٩٠/١ ، روح المعاني ٤١/٢ ، محاسن التأويل ٣٥/٣ .

قال صاحب الكتاب "سيبويه : " فلم يشبهوا بما ينعق ، وإنما شبهوا بـــالمنعوق بــه ، وإنما المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يســمع ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى " (١) وقد وصلت هذه الجملة بما سبق فعطفت بالواو هنا ولم تفصل كما فصل قولــه تعــالى : " مثلــهم كمثل الذى استوقد ناراً " (٢) لأنه أريد جعل هذه صفة مستقلة لهم في تلقى دعــوة الإسلام ولو لم تعطف لما صح ذلك .

والمثل هنا لما أضيف إلي ـــ الذين كفروا ـــ كان ظاهراً في تشبيه حالـــهم عنــد سماع دعوة النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إياهم إلي الإسلام بحال الأنعام عنــد سماع دعوة من ينعق بها في أنهم لا يفهمون إلا أن النبى ـــ صلى الله عليه وســلم- يدعوهم إلي متابعته من غير تبصر في دلائل صدقه وصحة دينه . فكل من الحالة المشبهة والحالة المشبه بها يشتمل على أشياء : داع ومدعو ودعوة وفهم وإعراض وتصميم . وكل من هاته الأشياء التى هي أجزاء التشبيه المركب وقـــد أوجزتــه الآية إيجازاً بديعاً " (٣).

قال الفراء : " أضاف تعالى المثل إلي ـــ الذين كفروا ـــ ثم شبههم بـــالراعى ولــم يقل كالغنم والمعنى ـــ والله أعلم -: مثل الذين كفروا كالبهائم التى تفقه ما يقـــول الراعى أكثر من الصوت فأضاف التشبيه إلي الراعي ، والمعنى في المرعـــى .

---

(١) الكتاب ٢١٢/١ ت عبد السلام هارون ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ ط ٢ .

(٢) البقرة /١٧ .

(٣) التحرير والتنوير ١٠٧/٢ .

قال : ومثله في الكلام – فلان يخافك كخوف الأسد – المعنى كخوفه الأسد لأن الأسد معروف أنه المخوف " (١) .

وقال ابن القيم : " ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرق . فإن جعلته من المركب : كان تشبيها للكفار – في عدم فقههم وانتفاعهم – بالغنم التى ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرد الذى هو الدعاء والنداء ، وإن جعلته من التشبيه المفرق . فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلي الطريق والهدى بمنزلة الذى ينعق بها ، ودعاؤهم إلي الهدى بمنزلة النعق ، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق " (٢).

والذى عليه جمهور البلاغيين : أن التشبيه في الاية من قبيل التشبيه المركب . لأن المقصود منه " ابتداء هو تشبيه حال الكفار لا محالة ، ويستتبع ذلك تشبيه حال النبى – صلى الله عليه وسلم – وحال دعوته ، وللكفار هنا حالتان : إحداهما حالة الإعراض عن داعى الإسلام ، والثانية حالة الإقبال على عبادة الأصنام ، وقد تضمنت الآية السابقة وهى قوله : – وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله " (٣) – الحالتين . واعظم ذلك عبادة الأصنام . فجاء هذا المثل بيانا لما طوى في الاية السابقة " (٤) .

---

(١) معاني القرآن ٩٩/١ .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢٣٧/١ ، ٢٣٨ .

(٣) البقرة /١٧٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١٠٧/٢ .

يقول القاسمى : " وقد أفهم هذا الإيجاز البليغ ـ أعنى ما جاء في الآية ـ تمثيلين في مثل واحد . فكأن وفاء اللفظ : مثل الذين كفروا ومثل داعيهم كمثل الراعي ومثل ما يرعى من البهائم وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب ، ومن لا يصل فهمه إلي جمع المثلين يقتصر على تأويله بمثل واحد فيقدر في الكلام : ومثل داعى الذين كفروا " (١) .

فإن قلت : مقتضى الظاهر أن يقال : ومثل الذين كفروا كمثل غنم الذى ينعق . لأن الكفار هم المشبهون والذى ينعق يشبهه داعى الكفار فلماذا عدل عن ذلك ؟ وهل هذا الأسلوب يدل على أن المقصود تشبيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعائه لهم بالذى ينعق ؟ قلت : كلا الأمرين منتف .

فإن قوله :.ومثل الذين ـ صريح في أنه تشبيه هيئة بهيئة ، وإذا كان كذلك كانت أجزاء المركبين غير منظور إليها استقلالاً وأيها ذكرت في جانب المركب المشبه والمركب المشبه به أجزأك ، وإنما كان الغالب أن يبدأوا الجملة الدالة على المركب المشبه به بما يقابل المذكور في المركب المشبه كما فى قوله تعالى ـ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ـ وقد لا يلتزمون ذلك " (٢) .

وقوله : " **إلا دعاءً ونداءً** " من تكملة أوصاف بعض أجزاء المركب التمثيلي في جانب المشبه به ، وذلك صالح لأن يكون مجرد إتمام للتشبيه إن كان المراد تشبيه المشركين بقلة الإدراك ، ولأن يكون احتراساً في التشبيه إن كان المراد تشبيه

---

(١) محاسن التأويل ٣/٣٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/١٠٧ .

الأصنام حين يدعو بها المشركون بالغنم حين ينعق بها رعاتها فهي لا تسمع إلا دعاء ونداء ، ومعلوم أن الأصنام لا تسمع لا دعاء ولا نداء" (١) .

وقيل : " إنما حذف المضاف من الموصول الثاني لدلالة كلمة ــ ماــ عليه فإنها عبارة عنه مشعرة مع ما في حيز الصلة بما هو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من انهماكهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما ألقى إليهم من الآيات كمثل بها ثم الذى ينعق بها وهى لا تسمع منع إلا جرس النغمة ودوى الصوت (٢) والدعاء والنداء بمعنى واحد ، وقيل : إن الدعاء ما يسمع ، والنداء قد يسمع وقد لا يسمع ، وقيل : إن الدعاء للقريب والنداء للبعيد .

وقوله : "صم بكم عمى" أخبار لمحذوف وهو المسند إليه من باب الذم لهم ، وهذه الأوصاف إن رجعت للمشركين فهى تشبيه بليغ وهو الظاهر ، وإن رجعت إلى الأصنام المفهومة من ــ ينعق ــ فهى حقيقة ، والأول أحق لأن الأصنام لما فرضها المشركون عقلاء آلهة ، وأريد إثبات انعدام الإحساس منهم عبر عنها بهذه الأوصاف تهكماً بالمشركين **فقيل** :" **صم بكم عمى** "

قوله : "فهم لا يعقلون" تفريع كمجئ النتيجة بعد البرهان فإن كان ذلك راجعاً للمشركين فالاستنتاج عقب الاستدلال ظاهر لخفاء النتيجة في بادئ الرأى ، أى إن تأملتم وجدتموهم لا يعقلون . لأنهم كالأنعام والصم والبكم إلخ ، وإن كان راجعاً للأصنام فالاستنتاج للتنبيه على غباوة المشركين الذين عبدوها ، ومجئ الضمير

---

(١) السابق ١٠٨/٢ .

(٢) أبو السعود ١٩٠/١ .

لهم بضمير العقلاء تهكم بالمشركين لأنهم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء"(١) .

والمراد من قوله : " فهم لا يعقلون " أى لا يعقلون شيئاً لأن طريق التعقل هو التدبر في مبادئ الأمور المعقولة والتأمل في ترتيبها وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فإذا كانوا صماً بكماً عمياً فقد انسدت عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية .

إهمال الله تعالى لجاحد دينه :

٤- قال تعالى : " الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون " (٢) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " الذين اتخذوا دينهم " بيان وتوضيح وتفسير للكافرين في قوله : " إن الله حرمهما على الكافرين " (٣) الذين جعلوا دين الله سخرية ولعباً ، وقد خدعتهم الدنيا بزخارفها العاجلة الكاذبة ، وانشغلت نفوسهم بشهواتها القاتلة ونسوا لقاء الله يوم القيامة فلم يطف بخيالهم ، ولم يخطر ببالهم . فجاء قوله : " **الذين اتخذوا دينهم** " وصفاً لهؤلاء الكافرين .

وقوله : " دينهم لهواً ولعباً " هو دين الإسلام " لعباً ولهواً " حيث سخروا به واستهزأوا أو عبادتهم لأنهم كانوا مستغرقين في اللهو واللعب وشرب الخمر والعزف

(١) التحرير والتنوير ٢/١٠٩ .

(٢) الأعراف /٥١ ، الجاثية /٣٤ " وقيل اليوم ننساكم " الآية .

(٣) الأعراف /٥٠ .

والرقص لم تكن لهم عبادة إلا ذلك ، وهو الدين الذي كلفوه ودعوا إليه ، واضـلف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللهو واللعب ديناً ، ويحتمل أن يكون المعنـــى : اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهوا (١) .

وقال الإمام الرازى : " إن المحقق في الدين هو الذي ينصر الدين لأجـــل أنـــه قـــام الدليل على أنه حق وصدق وصواب . فأما الذين ينصرونه ليتوسلوا به إلي أخـــذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الأموال فهم نصروا الدين للدنيـــا ، وقـد حكم الله على الدنيا في سائر الآيات بأنها لعب ولهو ، قال : وهو الأقرب " (٢) .

وقوله : "وغرتهم الحياة الدنيا" جملة معطوفة على قولـــه : " **اتخذوا دينهم لهواً ولعباً**" موصولة بها لاتفاقهما في الخبرية من عطف الجملة على الجملة ، وإسناد الغـرور إلي الحياة الدنيا مجاز عقلي لعلاقة السببية والمراد زخارفها وشهواتها ولما كـانت الحياة سبباً في ذلك أسند الغرور إليها ، والمعنى : خدعتهم بزخارفـــها العاجلـة وشهواتها القاتلة ، وهذا شأنها مع أهلها تغر وتضر ، وتخدع ثم تصـــرع ، كأنـــه تعالى يقول : اتخذوا دينهم لهوا ولعباً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا لأجل اسـتيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهـــر ليتوسلوا بها إلي طعام الدنيا .

وقيل : غرتهم من الفر بفتح الفين أى ملأت أفواههم وأشبعتهم .

والفاء فى قوله : " **فاليوم ننساهم** " فاء الفصيحة . و " اليوم " ظرف زمان متعلـق

---

(١) البحر المحيط ١٤٥/٤، ١٥٥ بتصرف .

(٢) التفسير الكبير ٢٩/١٣ .

بالفعل " ننساهم " ، و، " ما " في قوله " كما " مصدرية أى كنسيانهم ، والمعنى ففى هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ، ولم يهتموا به " ولم يشغلوا أنفسهم بشأنه .

وفى قوله : "فاليوم ننساهم" استعارة تمثيلية لأن الله تعالى منزه عن حقيقة النسيان ، وكذلك وصفهم بالنسيان لأنهم لم يكونوا معترفين بلقاء يوم القيامة ولا عارفين به ، والنسيان إنما يكون بعد المعرفة .

<u>وبيان الاستعارة</u> : أنه تعالى شبه حال معاملته مع الكفار بمعاملة من نسى عبده من الخير ولم يلتفت إليه ، وشبه عدم إخطارهم لقاء الله ببالهم وعدم مبالاتهم بحال من عرف شيئاً ونسيه ، والجامع الهيئة الحاصلة من الترك وعدم الأهتمام ، وكثرت مثل هذه الاستعارات في القرآن العظيم لأن المعاني التى في عالم الغيب لا يمكن أن يعبر عنها إلا بما يماثلها من عالم الشهادة (١) .

فقوله : "فاليوم ننساهم" أى نفعل بهم فعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتداد بهم وتركهم في النار تركاً كلياً فالكلام خارج مخرج التمثيل " (٢).

وقوله : "كما نسوا لقاء يومهم هذا" قيل : في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ننساهم نسياناً مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذى لا ينبغي أن ينسى ، وليس الكلام على حقيقته أيضاً لأنهم لم يكونوا ذاكرى ذلك حتى ينسوه بل

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٢٤٣/٢ .

(٢) روح المعاني ١٢٧/٨ ، ٢/٢٦ .

شبه عدم إخطارهم يوم القيامة ببالهم وعدم استعدادهم له بحال من عرف شيئاً ثم نسيه " (١) .

وقيل : معنى "لقاء يومكم هذا" أى كما تركتم عدته وهى التقوى والإيمان به أو كما لم ينالوا أنتم بلقائه ولم تخطروه ببال كالشئ الذى يطرح نسياً منسياً ، ويجوز أن يكون التعبير بنسيانه لأن علمه مركوز في فطرتهم أو لتمكنهم منه بظهور دلائله في النسيان الأول مشاكله " (٢) .

وإضافة ــ اللقاء ــ إلي ــ اليوم ــ من إضافة المصدر إلي ظرفه فهى على معنى ــ في ــ والمفعول المقدر أى لقاءكم الله تعالى وجزاء الله سبحانه في يومكم هذا ، **وقوله : "لقاء يومكم"** ينزل منزلة **قوله : "مكر الليل"** (٣) من باب المجاز الحكمى(٤) ، ومن هنا أجرى المضاف إليه مجرى المفعول به ــ كما قال العلامة سعد الدين التفتازاني (٥) .

قال جار الله الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى إضافة اللقاء إلي اليوم ؟

قلت : كمعنى إضافة ــ المكر ــ في قوله تعالى : ــ بل مكر الليل والنهار ــ أى

---

(١) روح المعاني ١٢٧/٨ .

(٢) السابق ٢/٢٦ ، الكشاف ٥١٤/٣ .

(٣) سبأ /٣٣ .

(٤) هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلي ملابس له غير ما هو له بتأول وهو المجاز العقلي ، وسمى حكمياً لكونه منسوباً للحكم بمعنى الإدراك ، أو كونه منسوباً للحكم بمعنى النسبة والإسناد لتعلقه بها الإيضاح ٨٢/١ ت خفاجي .

(٥) المطول /٥٩ ، تهذيب السعد /٩٠ ، شروح التلخيص ٢٤٠/١ ، ٢٤١ .

نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه " (١) .

وقوله : " وما كانوا بآياتنا يجحدون " معطوف على ــ كما نسوا ــ والمعنى : وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى إنكاراً مستمراً ، و ــ ما ــ مصدرية والمصدر المنسبك معطوف ــ كما ذكرنا ــ على المصدر الأول كنسيانهم .

وقدم الجار والمجرور ــ بآياتنا ــ لبيان كذبهم وإنكارهم وجحودهم ومدى سخريتهم واستخفافهم بهذه الآيات .

والتعبير بالفعل المضارع " يجحدون " للدلالة على تجدد الجحود ووقوعه منهم شيئاً فشيئاً . لأن حالة الجحود متجددة مستمرة لا تنقطع منهم أبداً ، ولم يتركوا باباً للجدل واللدد إلا فتحوه ، ولا طريقاً إلا سلكوه فأصبح عادة لهم .

خلق أناس لجهنم كالأنعام :

٥- قال تعالى : "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " (٢) .

تحليل الآية : قوله : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً " كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله بطريق التذييل ، والذرأ بالهمزة الخلق ، وهذا تفسير ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وغيره ، والواو للقسم واللام للتأكيد وقد للتحقيق وتقدير الكلام ــ والله تعالى لقد خلقنا ــ .

---

(١) الكشاف ٣/٤١٥ .

(٢) الأعراف /١٧٩

واللام في قوله : " لجهنم " للعاقبة عند كثير من العلماء كما في قوله تعالى : " **ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك** " (١) ، وقوله " **كثيراً من الجن والإنس** " المراد بهم المصرون على الكفر في علمه سبحانه وتعالى .

ويرى العلامة الزمخشري : " أنهم جعلوا لإغراقهم في الكفر وشدة شكائمهم فيه وأنه لا يتأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخولها ، وأشار إلي أن ذلك تذييل لقصة اليهود بعد ما عد من قبائحهم تسلية لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كأنه قيل : إنهم من الذين لا ينجع فيهم الإنذار فدعهم واشتغل بأمر نفسك ومن هو على دينك في لزوم التوحيد (٢) والآية على ما قيل من باب الكناية الإيمائية ، وهى التى قلت فيها : الوسائط بين المكنى والمكنى عنه ، وقيل : المراد بالكثير الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ولكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدى إلى ذلك بل لعلمه سبحانه وتعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر ، فهذا الاعتبار جعل خلقهم مغياً بجهنم كما أن جمع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغياً بها " (٣) .

---

(١) يونس /٨٨ .

(٢) الكشاف ٢/١٣١.

(٣) أبو السعود ٣، ١٣، ٢٩ ، محاسن التأويل ٦٧/١٣ .

السر في تقديم الجن على الإنس :

قدم ــ الجن ــ في الآية على ــ الإنس ــ لأنهم أعرف من الأنس في الاتصاف بما ذكر من الصفات وأكثر عددا وأقدم خلقا ، ولا يشكل أنهم خلقوا من النار فلا يشق عليهم دخولها ولا يضرهم شيئا لأنا نقول في دفع ذلك على علاته خلقهم من النار بمعنى أن الغالب عليهم الجزء النارى لا يأبى تضررهم بها فإن الإنس خلقوا من الطين ويتضررون به ، ويوضح ذلك أن حقيقة النار لم تبق فيهم على ما هى عليه قبل خلقهم منها كما أن حقيقة الطين لم تبق في الإنس على ما هى عليه قبل خلقهم منها على أن المخلوق من نار هو البدن والمعذب هو الروح وليست مخلوقة منها وعذاب الروح في قالب نارى معقول كعذابها في قالب طينى " (١) .

وقوله : " لهم قلوب " : وقوله : " لهم قلوب " في محل النصب صفة أخرى لـ " كثيرا " ، **وقوله " لا يفقهون بها "** في محل الرفع على أنه صفة لـ " قلوب " مبينة لكونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لما ينبغى أن يكون أو هى مؤكدة لما يفيده تنكيرها وإبهامها من كونها كذلك ، وفصلت هذه الجملة عن سابقتها لأنها جاءت جوابا عن سؤال مقدر في الأولى . كأنه قيل : ولم استحق أولئك جهنم ؟ ولم ذرئوا لها ؟ فقيل : لهم قلوب لا يفقهون بها . ففصلت لشبه كمال الاتصال ، وأريد بالقلب اللطيفة الإنسانية ، وبالفقه الفهم ، وهو المعنى اللغوى له ، والفعل هنا متعد إلا أنه حذف مفعوله للتعميم أى لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئا مما شأنه أن يفهم فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا .

قال الإمام الفخر الرازى : " احتج العلماء بقوله تعالى :- لهم قلوب لا يفقهون بها -

---

(١) روح المعاني ١١٩/٩ .

على أن محل العلم هو القلب لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم ، وهذا إنما يصح لو كان محل الفهم والفقه هو القلب " (١) .

وقوله : "ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها" معطوف على قوله : "**لهم قلوب لا يفقهون بها**" موصول به لاتفاقهما في الخبرية ، واشتراكهما معاً في الحكم الإعرابي . والمراد : لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولياً ، ولا يسمعون بهذه الآذان شيئاً من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية ، وأمر الوصفية في هذين الوصفين مثله الوصف في قوله "لهم قلوب" ، والمراد بالإبصار والسماع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام وفي إعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بدون ذلك أن يقال : وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها ما لا يخفى من تقرير سوء حالهم ، وكذا في إثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصف كل بما وصف به دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال : ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ما لا يخفى على ما قيل من الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ، وتفسير الآية على هذا الوجه واعتبار حذف المفعول لما ذكرنا من الأفعال الثلاثة هو الذي اختاره بعض المحققين لما فيه من الإفصاح بكنه حالهم على ما أشار إليه ، واختار بعضهم التخصيص . أي لا يفقهون الحق ودلائله ولا يبصرون ما خلق الله تعالى إبصار

---

(١) التفسير الكبير ٦٨/١٥ .

اعتبار ، ولا يسمعون الآيات والمواعظ سماع تأمل وتفكر ، وأيا ما كان فالمراد أنهم لم يصرفوا ما خلق لهم لما خلق له فكأنهم خلقوا كذلك ، ولو أريدت الحقيقة لم يتوجه الذم ولم تقم الحجة " (١) .

وقوله : "أولئك" إشارة إلي الموصوفين بالأوصاف المذكورة " **كالأنعام** " أى في انتفاء الشعور على الوجه المذكور ، وقيل : إن مشاعرهم متوجهة إلي أسباب التعيس مقصورة عليها وكأن وجه الشبه مدرك مما قبل فتكون الجملة كالتأكيد له فلذا فصلت عنه فبين الجملتين كمال اتصال حيث جاءت الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيدا معنويا ، والمراد : أنهم ما داموا لا يستفيدون من هذه الجوارح التي أنعم الله بها عليهم ـ وهى القلوب ، والأعين ، والآذان ـ فليس معنى هذا إلا أنهم كالأنعام .

وتشبيه هؤلاء المخلوقين لجهنم مع وجود أدوات تمنعهم من دخولها وهى القلوب التى لا يفقهون بها شيئا ، والأعين التى لا بصر بها ، والآذان التى لا فائدة من وجودها بالأنعام التى لا تفقه شيئا وهى سائمة مطلقة .

والتشبيه هنا تشبيه تمثيلى : حيث شبهت حال هؤلاء جاءهم الرسل بالدلائل والبراهين ومنحوا قلوبا وعقولا وأبصارا وآذانا لكنهم لم ينتفعوا بشيء من ذلك البتة بحال الأنعام دعاها راعيها فلا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من وجود آلات النفع دون جدوى ولذا كانت العاقبة النار .

---

(١) روح المعاني ٩/١١٩ ، ١٢٠ .

وقوله : "بل هم أضل" قصر طريقه العطف بـ " بل " حيث قصرت صفة الضلالة على هؤلاء لكونهم أهلا لها . فهؤلاء أضل من الأنعام لأنها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجهد في جلبها وسلبها غاية ما يمكنها ، وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لم يميزوا بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم ويقدمون على العذاب الأليم .

السر في وصفهم بكونهم أضل من الأنعام :

قيل : إن الأنعام إذا زجرت أنزجرت وإذا أرشدت إلي طريق اهتدت وهؤلاء لا يهتدون إلي شئ من الخيرات ، وقيل : لأنها لم تعط قدره على تحصيل الفضائل ، وهؤلاء أعطوا ولم ينتفعوا بما أعطوا ، ولأنها وإن لم تكن مطيعة لم تكن عاصية ، وهؤلاء عصاه فهم أسوأ حالا منها ، وقيل : لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه ، وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه ، وبالجملة كون هؤلاء أضل مما لا شك فيه ، ووجوه ذلك كثيرة ولا تنافى بين الخيرين كما لا يخفى " (١) .

وقوله : "أولئك" الثانية إشارة إلي هؤلاء المنعوتين بما ذكر من مشابهة الأنعام والأشرار منها ، وقد عرف المسند إليه باسم الإشارة وأعيد ذكره هنا لإحضارهم أمام المخاطبين للحكم عليهم حضوريا بهذا الحكم المهين حكما مبينا على المشاهدة والحس شأن اسم الإشارة ، وفى ذلك تمييزهم أكمل تمييز والمبالغة في ذمهم وأنهم لما وصفوا بما وصفوا به صاروا جديرين بما ذكر بعد اسم الإشارة في

---

(١) روح المعاني ١٢٠/٩ ، التفسير الكبيرة ٦٩،٦٨/١٥ ، محاسن التأويل ٦٧١/٣ .

كونهم غافلين لاهين ، واختير اسم الإشارة الذى للبعيد وهو ـ أولئك ـ للإشارة بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الخسية وعدم الفقه والبصر وعدم الاستماع لدلائل الحق والرشاد .

وكرر اسم الإشارة " **أولئك** " إظهاراً لمزيد العناية بالمشار إليهم وتنبيهاً على أنه قد ثبتت لهم الأثرة بالضلال كما ثبتت لهم الأثرة بالغفلة على طريق الاستقلال والانفراد ، ولتكون كل من الصفتين على انفراد مميزة لهم عما عداهم . فهم جديرون بالضلال ، وهم جديرون بالغفلة ، وهم جديرون بهما معاً .

وقوله : " **أولئك كالأنعام** " فهى تأكيد لها ، لأن كونهم كالأنعام لا معنى له إلا أنهم غافلون ، ولو أن هذه الجملة وصلت ، فقيل : وأولئك هم الغافلون لأدى هذا إلى معنى غير صحيح ، وهو أن الأنعام ليست في غفلة " (١) و " هم " ضمير فصل يدل على أن الواقع بعده خبر لا صفة ، وأن المسند ثابت للمسند إليه على طريق الاختصاص والحصر فهم الغافلون لا غيرهم .

وتعريف " **الغافلون** " بالألف واللام للدلالة على أن الموصوفين هم الذين بلغك عنهم أنهم غافلون ، فاللام للعهد الخارجي ، وقيل : للجنس لتعيين الحقيقة ، **وقوله** :" **هم الغافلون** " أى الكاملون في الغفلة عما فيه صلاحهم ، وقال عطاء : الغافلون عما أعد الله تعالى لأوليائه من الثواب ، ولأعدائه من العقاب .

وجعل بعضهم هذه الجملة كالبيان للجملة التي قبلها فلذا فصلت عنها فبينهما كمال الاتصال ، وهو من مواطن الفصل بين الجمل ، وفي الآية بيان أن على الإنسان

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني /٤٢٨ د فضل عباس .

أن يستخدم ما وهبه الله في الإصلاح وما يعود عليه بالنفع .

عادة آل فرعون الكفر :

٦- قال تعالى : "كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب" (١) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " كدأب آل فرعون " خبر مبتدأ محذوف أى دأب هؤلاء كائن كدأب إلخ ، والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشئ آخر حيث شبه حالهم في كفرهم وتكذيبهم الرسل والآيات التي أنزلت إليهم بحال المعروفين بالإهلاك لذلك لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم المهلكة ،والوجه الهيئة الحاصلة من التكذيب والكفر والإهلاك ، والدأب هو العادة المستمرة ، والمراد شأنهم الذى استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ ــ كدأب آل فرعون ــ المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال . تشبيهاً تمثيلياً .

وقوله : "والذين من قبلهم" موصول بما سبقه معطوف عليه أى من قبل آل فرعون وأصحابه من الأمم الذين فعلوا ما فعلوا ولقوا من العذاب ما لقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم . وذكر الموصول للتسوية بينهم وهم السابقون مع آل فرعون فهم جميعاً في الجرم سيان ، وذلك لتقبيح حالهم وإبطال أعمالهم .

وقوله تعالى : "كفروا بآيات الله"تفسير لدأبهم لكن بملاحظة أنه الذي فعلوه لا كداب آل فرعون ومن بعدهم فإن ذلك معلوم منه بقضية التشبيه ، والجملة

---

(١) الأنفال /٥٢ ، آل عمران /١١ .

لا محل لها من الإعراب لكونها تفسيرية ، وقيل : إنها مستأنفة استئنافاً نحوياً أو بيانياً (١) ومن هنا فصلت عن سابقتها إذ الجملة الأولى أثارت سؤالاً تقديره : ما شأنهم أو ما حالهم ؟ فقيل : كفروا بآيات الله . . ، وقيل : إنها حالية بتقدير ـ قد ـ فهي في محل نصب . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما - : والمعنى أن آل فرعون أيقنوا أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبى فكذبوه ، فكذلك حال هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ـ بالصدق كذبوه ، فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزلها بآل فرعون .

وقوله : "فأخذهم الله بذنوبهم" عطف على ما سبق وحكمه في التفسير والبيان حكم قوله " كفروا " لكن بملاحظة الدأب الذى فعل بهم " والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها ، وذكر الذنوب لتأكيد ما أفادته الفاء من السببية مع الإشارة إلي أن لهم مع كفرهم ذنوباً أخر لها دخل في استتباع العقاب ، وجوز أن يراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم إياه كما هو المعتبر في مدلول الدأب إما لتغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصى

(١) الاستئناف النحوى : هو كل كلام منقطع عن غيره أو ما كان مبتدأ به ، والاستئناف البياني : هو ما كانت الجملة الثانية فيه جواباً عن سؤال مفهوم من الجملة الأولى وسمى الأول نحوياً لأن بحثه في علم النحو ، وسمى الثاني بيانياً لأنه هو الذى يعنى به علماء البلاغة

بمنزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة ، وإلي كون المراد بدأبهم مجموع ما فعلوه ، وما فعل بهم يشير إلي ما ذكرناه سابقا عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ، وقيل : المراد بدأ بهم ما فعلوا فقط ، وقيل : ما فعل بهم فقط وليس بشئ .

وقوله : "إن الله قوى شديد العقاب" إعتراض مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ أى أنه سبحانه لا يغلبه غالب فيدفع عقابه عمن أراد معاقبته " (١) .

واستخدام آداة التأكيد " إن " والجملة الأسمية ليناسب الأخذ والعقاب إذ إن ذلك يستحق أن يؤكد له الكلام ، والقوى هو الذى لا يغلب ولا يعاجز وهو شديد العقاب لأن الذين ذكروا يناسبهم هذا الوصف ويلائم أحوالهم .

دأب آل فرعون التكذيب :

٧- قال تعالى : " كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين " (٢) .

تحليل الاية : قوله : "كداب آل فرعون" استئناف آخر على ما ذكره بعض المحققين مسوق لتقرير ما سبق له الاستئناف الأول ، ومن هنا جاء مفصولا ، والمراد تشبيه دأبهم بداب المذكورين لكن لا بطريق التكرار المحصن بل بتغيير العنوان ، وجعل الداب عبارة عما يلازم معناه الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا

---

(١) روح المعاني ١٩/١٠ ، محاسن التأويل ٥٣/٤ .

(٢) الأنفال /٥٤ ، آل عمران /١١ .

مما نطق به **قوله تعالى** : " **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** " (١) أى دأب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم .

وقوله سبحانه : " **كذبوا بآيات ربهم** " تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم ، وأشير بلفظ ــ الرب-إلي أن ذلك التغيير كان بكفران نعمه تعالى لما فيه من الدلالة على أنه مربيهم المنعم عليهم .

وقوله : " **فأهلكناهم** " تفسير لهذا الدأب الذي فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته جل شأنه .

وفي الإهلاك رمز وإشارة إلي التغيير ، ولذا عبر به دون الأخذ المعبر به أولاً ــ أى في الآية السابقة ــ وليس الأخذ مثله في ذلك ، ألا ترى أنه كثيراً ما يطلق الإهلاك على إخراج الشئ عن نظامه الذى هو عليه ولم نر كثيراً إطلاق الأخذ على ذلك ، وقيل : إنما عبر أولاً بالأخذ وهنا بالإهلاك لأن جنايتهم هنا الكفران وهو يقتضى أعظم النكال والإهلاك مشير إليه ولا كذلك الأخذ ، وأما دأب قريش فمستفاد مما ذكر بحكم التشبيه فلله تعالى در التنزيل حيث اكتفى في كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين .

قال القاسمى : " وفيه إشارة إلي دفع ما يتوهم من التكرار في الآيتين بتغاير التشبيهين فيهما . فلا يحتاج إلي دعوى التأكيد . فمعنى الأول : حال هؤلاء كحال آل فرعون في الكفر فأخذهم وأتاهم العذاب ، ومعنى الثاني : حال هؤلاء كحال

---

(١) الأنفال /٥٣

آل فرعون في تغييرهم النعم وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التغيير ، وهو أنه أغرقهم ، وقيل : إن النظم يأباه لأن وجه التشبيه في الأول كفرهم المترتب عليه العقاب فينبغي أن يكون وجهه في الثاني قوله : " كذبوا " لأنه مثله . إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد تشبيه صالحة لأن تكون وجه الشبه فتحمل عليه ، وأما قوله : " ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة " فكا لتعليل لحلول النكال معترض بين التشبيهين غير مختص بقوم فجعله وجهاً للتشبيه بعيد عن الفصاحة " (١) .

والفاء في " **فأهلكناهم** " لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرغة عليها ، والالتفات إلي نون العظمة في ــ أهلكنا ــ جرياً على سنن الكبرياء للتهويل أى لتهويل الخطب . فالتشبيه في الآية تمثيلي .

وقوله : "وأغرقنا آل فرعون" معطوف على " **أهلكناهم** " وفى عطفه عليه مع اندراج مضمونه تحت مضمونه إيذان بكمال هول الإغراق وكونه إغراقاً فظيعاً هم له أهل وكان نتيجة حتمية لغرورهم وتكذيبهم وتكبرهم .

وقوله : " **وكل** " مبتدأ سوغ الابتداء به مع كونه نكرة لإضافته ، وفيه معنى العموم ، أى كل من الفرق المذكورين ، أو كل من هؤلاء وأولئك ، أو كل من آل فرعون وكفار قريش على ما قيل بناء على أن ما قبله في تشبيه داب كفرة قريش بداب آل فرعون صريحاً وتعييناً ، وأن مثله يكفى قرينة للتخصيص .

وقوله : "كانوا ظالمين" خبر " كل " وجمع الضمير فى " كانوا " وفي **قوله** " **ظالمين** " مراعاة لمعنى " **كل** " ، لأن " **كل** " متى قطعت عن الإضافة جاز

---

(١) محاسن التأويل ٥٤/٤ .

مراعاة لفظها تارة ، ومراعاة معناها أخرى ، وإنما اختير هنا مراعـــاة المعنـــى لأجل الفواصل ، ولو روعي اللفظ فقط فقيل : وكـــل كـــان ظالمـــاً . لـــم تتفـــق الفواصل ، والمراد " ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي ولو عمم لكان له وجه ، أو واضعين الكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم " (١).

الفائدة المترتبة على تكرار الآية "كدأب آل فرعون" :

كررت هذه الآية لفوائد نلخصها فيما يلي :

١- أن الكلام الثاني يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول فتكون الجملة تفسيرية.

٢- ذكر في الآية الأولى : أنهم كفروا بآيات الله وجحدوهـــا ، وفـــى الثانيـــة إشارة إلي أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها .

٣- أن التكرير للتأكيد فتكون الجملة مؤكدة تابعة للأولى .

وإلي ما ذكرنا أشار الخازن ــ رحمه الله ــ بقوله : " فإن قلت : ما الفـــائدة فـــي تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟ قلت : فيها فوائد . منها : أن الكلام الثـــاني يجـــرى مجرى التفصيل للكلام الأول لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم ، وفي الآية الثانيـــة ذكر إغراقهم فهذه تفسير للأولى . الفائدة الثانية : أنه ذكر في الآية الأولى أنـــهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففى الآية الأولى إشـــارة إلي أنهم أنكروا آيات الله وجحدوها ، وفى الآية الثانية إشارة إلي أنهم كذبوا بـــها مع جحودهم لها وكفرهم بها . الفائدة الثالثة : أن تكرير هذه القصة للتأكيد ، وفـــى قوله ــ كذبوا بآيات ربهم ــ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق ، وفـــى

---

(١) روح المعاني ١٠/٢٠، ٢١ ، محاسن التأويل ٤/٥٤ .

ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب " (١) .

لله الدعوة الصادقة :

٨- **قال تعالى :** "له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلي الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " (٢) .

تحليل الآية : قوله : " **له دعوة الحق** " صدر بالجار والمجرور مقدماً على خبره ، و " **دعوة الحق** " مبتدأ مؤخر وهى إضافة الموصوف إلي صفته أى لدعوة الحق المطابقة للواقع ، وفي ذلك تخصيص بأن مصدر كل شئ من عند الله وإليه وله ، فإذاً ــ له دعوة الحق ــ وراع تلك الإضافة في قوله : - دعوة الحق ــ لأى غرض تلك ؟ إنها من إضافة الموصوف إلي الصفة فحاصل المعنى أن الذى يستحق أن يعبد هو الله تعالى لا غيره فهو حق وله دعوة الحق " (٣) .

وفى هذا التقديم : " إيذان بملابسة هذه الدعوة للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال : ــ كلمة الحق ــ ومن هنا فإن الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ، وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لغيره لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن

---

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٤٣/٣ ، حاشية الجمل على الجلالين ٢٥١/٢ ، التفسير الكبير ١٨٧/١٥ ، ١٨٨ .

(٢) الرعد /١٤ .

(٣) النظم القرآنى في سورة الرعد /٩٠ د محمد سعد الدبل .

يعبد وحده بالدعاء والالتجاء " (١) .

وقوله : " والذين يدعون من دونه " بيان لمثال ما يعبد من الأصنام ويدعى في عدم النفع والجدوى . أي الأصنام التي يدعوها المشركون من دونه تعالى " **لا يستجيبون لهم بشئ** " من مطلوباتهم ، وقد جاءت صلة الموصول " الذين " فعلاً مضارعاً في قوله : " يدعون " ولم يقل : دعوا ، وذلك لأن المضارع يشعر بالتجدد والحدوث مع ما في ذلك من الاستمرار التجددي والمداومة على هذه الدعوة ، وإنما اختار هذا الأسلوب " الذين يدعون " ولم يقل : - المدعوون من دونه ـ لأن دلالة الجملة الفعلية التي هي صلة الموصول على التجدد والاستمرار أدل على المراد من الجملة الأسمية الدالة على الثبوت فقط . ففي التجديد نشاط وقوة ، وجاء نفي **الاستجابة في قوله : " لا يستجيبون لهم بشئ "** فعلاً مضارعاً أيضاً دلالة على أنه كلما تجددت الدعوة تجدد عدم الاستجابة .

وقوله : " إلا كباسط كفيه إلي الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه " استثناء أي إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أي كاستجابة الماء لمن مد يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظمأه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم ، والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيهم أخيب ما يكون أحد في سعيه لما هو

---

(١) أبو السعود ١١/٥ ، محاسن التأويل ٣٤٦/٩ ، الطبري ٨٦/١٣ ، النيسابوري ٧٦/١٣ ، تفسير السعدي ٩٦/٤ .

مضطر إليه فضلا عن مجرد الحاجة " (١) .

وحاصل ذلك : أنه تعالى شبه حال آلهتهم ــ حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلا عن الاستطاعة للاستجابة وبقائهم لذلك في الخسران ــ بحال ماء مرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك في زيادة ظمأ وشدة خسران ، أو شبه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شئ أصلا وركاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدرى ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلي الماء يبغى وصوله إلي فيه (٢).

والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل . حيث لا يلاحظ التشبيه في جميع مفردات الأطراف إذ الماء في نفسه شئ نافع بخلاف آلهتهم ، والمراد نفى الاستجابة رأسا إلا أن الكلام ابرز في معرض آلهتكم بهم فأثبت للماء استجابة زيادة في التخسير والتخسير فالاستثناء هنا مفرغ من أعم عام المصدر . أى : لا يستجيبون شيئا من الاستجابة إلا استجابة كائنة في هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو في الحقيقة من باب التعليق بالمحال .

والضمير"هو للماء و" بالغه " للفم ، وقيل:الأول للباسط،والثاني للماء،ومعنى " ببالغه ، للفم ، وقيل : الأول للباسط ، والثاني للماء ، ومعنى " ببالغه " يبالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه ولا يبسط يده إليه فضلاً عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه.

وبسط الكف هو نشر الأصابع ممدودة كما في قول ابى تمام (٣) :

(١) تفسير ابى السعوده /١١ .

(٢) السابق نفسه ، محاسن التأويل ٣٤٦/٩ ، الجمان/١٢٨ ، ١٢٩ ، من روائع القرآن /٢٩٦، ٢٩٧: تفسير المراغي ٨٣/١٣ .

(٣) ديوانه /٢٣٢ ط صادر بيروت ص ٢٩ ش الخطيب التبريزى ط دار المعارف القاهرة .

تعود بسط الكف حتى لو أنه ٠٠ أراد نقياضا لم تطعه أنامله

وقال الخازن والبغوى : " قيل شبههم في قلة جدوى دعائـــهم لآلهتـــهم بمـــن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطها ناشراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلـــغ طلبته من شربه ، وقيل : إن القابض على الماء ناشراً أصابعه لا يكون فـــي يـده منه شئ ولا يبلغ إلي فيه منه شئ .

كذلك الذى يدعو الأصنام لأنها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شئ ، وقيل : شـبه بالرجل العطشان الذى يرى الماء من بعيد بعينيه فهو يشـير بكفيـه إلـي المـاء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبدا هذا معنى قول مجاهد " (١) .

وروى عن عطاء : أنه قال : شبه حالهم بحال العطشان الجالس على شفير البئر وهـو يمد يديه إلي البئر فلا هو يبلغ إلي قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع إليه فـلا ينفعه بسط الكف إلي الماء ، ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلـــك الذيـن يدعـون الأصنام لا ينفعهم ذلك وقال ابن عباس ــ رضى الله عنـــهما ــ : كالعطشـــان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ، ولا يبلغ الماء فـاه ما دام باسطاً كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الأصنـــام حيـن لا ينفعهم البتة " (٢) .

وقوله تعالى : "وما دعاء الكافرين إلا في ضلال" تذييل ختم به هذا التصوير الدقيق ، وفـــى الآية قصر موصوف على صفة قصراً أضافياً طريقه النفى والاستثناء ، والمراد : ومـا دعاء الكافرين أصنامهم إلا في ضلال . يضل عنهم إذا احتاجـــوا إليـــه . قـــال

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٤/١٢ .

(٢) حاشية الجمل ٢/٤٩٦ ، ٤٧٩ ، تفسير القرآن للسمعاني ٣/٨٥ .

ابن عباس في هذه الآية : أصواتهم محجوبة عن الله تعالى ، وانظر معي لسلاسة تلك الألفاظ وسهولتها مع أنها تعبر عن مشهد يتطلب ألفاظا أقوى وأشد ، ولكن عدل عن غيرها إليها لأن التصوير جاء منتزعا من القريب الواقع فجئ له بألفاظ قريبة المتناول ، وهذا شأن الأسلوب القرآني في اتباع طريقة التصوير إذ يعمل على تقريب المعنى ، وتقريره في الأذهان .

ردا لأيدى في الأفواه دليل على الكفر :

٩- قال تعالى : " ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب " (١) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " ألم يأتكم " الهمزة للأستفهام التقريرى ، وهذا يحتمل أن يكون خطابا من موسى لقومه . فيكون داخلا تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطابا لقوم موسى وتذكيرا لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجئ رسل الله إليهم ، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحذيرا لهم عن مخالفته " (٢) .

قال الشيخ الألوسى : " **قوله ــ ألم يأتكم** " الذين من قبلكم ــ ليتدبروا ما أصاب كلى واحد من حزبى المؤمن والكافر فيتم له ــ عليه السلام ــ مقصودة منهم ، وجوز أن يكون من تتمة قوله ــ عليه السلام ــ :- إن تكفروا (٣) ــ إلخ على أنه كالبيان

(١) إبراهيم /٩ .

(٢) فتح القدير ١٢١/٣ .

(٣) إبراهيم /٨ .

لما أشير إليه في الجواب من عود ضرر الكفران على الكافر دونه عـز وجـل ، **وقيل** : هو من كلامه تعالى جئ تتمة لقوله سبحانه :ــ لئن شـكرتم ــ (١) إلـخ وبياناً لشدة عذابه ، ونقل كلام موسى ــ عليه السلام ــ معـترض فـي البيـن ، **وقيل** : هو ابتداء كلام منه تعالى مخاطباً به أمة محمد ــ صلى الله عليه وسـلم ــ بعد ما ذكـر إرساله ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالقرآن وقص عليهم من قصـص موسى ــ عليه السلام ــ مع أمته ، ولعل تخصيص تذكيرهم بما أصـاب أولئـك المعدودين مع قرب غيرهم للإشارة إلي أن إهلاكـه تعـالى الظـالمين ونصـره المؤمنين عادة قديمة له سبحانه وتعالى(٢) .

وقد وصف الشيخ أبو السعود : كون الخطاب لأمة الرسول ــ صلى الله عليه وسـلم ــ بالبعد ، ثم يقول أيضاً : " لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فـي عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غـيرهم أسوة لهم في الخلو قبل هؤلاء " (٣) .

قوله : " قوم نوح " بدل من الموصول ، أو عطف بيان ، وفى الحالتين فصلت هـذه الجملة عن سابقتها " الذين من قبلكم " لأن بينهما كمال الاتصال .

وقوله : " وعاد وثمود والذين من بعدهم " معطوف على " **قوم نوح** " ووصل به لاتفاقـهما فـي الخبريـة فوجـب الوصـل ، و " مـن بعدهـم " أى مـن بعـد هـؤلاء

---

(١) إبراهيم /٧ .

(٢) روح المعاني ١٣/١٩١، ١٩٢ .

(٣) ابو السعود ٥/٣٥ .

المذكورين **وقوله : " لا يعلمهم إلا الله "** جملة اسمية معترضة بين المفسر وهـو ـ نبأ الذين من قبلكم ـ وتفسيره وهو ـ جاءتهم رسلهم بالبينـات ـ ، ويجـوز أن يكون الموصول وهذه الجملة خبره وجملة المبتدأ وخبره اعتراض ، والمعنى على الوجهين : أنهم ـ إلا أن مرجع الضمير في ـ أنهم ـ مختلـف ـ مـن الكـثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومعنى الاعتراض على **الأولى**: ألم يأتكم أنباء الجم الغفير الذى لا يحصى كثرة فتعتبروا بها إن في ذلك لمعتبراً ، وعلى الثـاني هو ترق ، ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى عددهم كأنـه يقـول : دع التفصيل فإنه لا مطمع في الحصر ، وفيه لطف لإيـهام الجمـع بيـن الإجمـال والتفصيل " (١) .

وقد رجح العلامة الزمخشرى الوجه الثاني . (٢)

وفى قوله " لا يعلمهم إلا الله " قصر حقيقى من قصر الصفة على الموصوف طريقـه النفى والاستثناء أى لا يعلمهم غيره .

" وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً إلي صفاتهم وأحوالهم ، وأخلاقـهم ومدد أعمارهم أى : هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ولا يعلمها غـيره ، أو يكـون راجعاً إلي ذواتهم أى : لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه " (٣) .

وقوله : " جاءتهم رسلهم بالبينات " جملة مستأنفة لبيان النبـأ المذكـور فـي **قوله :**

---

(١) روح المعاني ١٣/١٩٢ .

(٢) الكشاف ٢/٣٦٨ .

(٣) فتح القدير ٣/١٢١ .

" **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم** " والمعنى : جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة فبين كل رسول منهم لأمته طريق الحق وهداهم إليه ليخرجهم من ـ الظلمات إلي النور ـ .

وقوله : " فردوا أيديهم في افواههم " معطوف على قوله : " **جاءتهم** " تعقيباً للتكذيب ، وجاء ذلك بياناً لحال هؤلاء الأقوام ، " والضمير في كل من " ايديهم ، أفواههم ـ للكفار ، والأيدى على حقيقتها ، والرد مجاز عن الإشارة وهى تحتمل المقارنة ، والتقدم والتأخر ، والمراد : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك للرسل ـ عليهم السلام ـ أن يكفوا ويسكتوا عن كلامهم كأنهم قالوا اسكتوا فلا ينفعكم الإكثار ونحن مصرون على الكفر لا نقلع عنه " (١) .

وقيل : جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما **في قوله تعالى : " عضوا عليكم الأنامل من الغيظ "** (٢) لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم ، وقيل : إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلي أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات اى : اسكتوا واتركوا هذا الذى جئتم به تكذيباً لهم ورداً لقولهم ، **وقيل** : المعنى أنهم أشاروا إلي أنفسهم وما يصدر عنهم من المقالة ، وهى قولهم :ـ **إنا كفرنا بما أرسلتم به** ، وقيل : المعنى ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار ، وقيل : جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم . فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثاني للرسل " (٣) .

---

(١) روح المعاني ١٩٣/١٣ .

(٢) آل عمران/ ١١٩ .

(٣) فتح القدير ١٢١/٣ ، روح المعاني ١٩٣/١٣ ، ابو السعود ٣٦/٥

قال القاضي البيضاوى : " أوردوها في أفواه الأنبياء يمنعونهم من التكلم " وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلاً ، وقيل : الأيدي ــ بمعنى الأيادي أي ردوا أيادي الأنبياء التي هي مواعظهم وما أوحى إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلي حيث جاءت منه .

وحلل الشيخ زادة كلام البيضاوى السابق بقوله : " **قوله** ــ وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلاً ــ بأن يمثل الهيئة الحاصلة في دعوة الأنبياء إياهم إلي التوحيد والإيمان بإظهار المعجزة والبرهان ورد هؤلاء ما سمعوا منهم وما رأوا أبلغ الرد والإنكار بالهيئة الحاصلة من مباشرة أحد بأن يتكلم بمراده ويمنعه الآخر عنه بأن يضع يده على فم صاحبه يقسره على السكوت . فإذاً لا يد ولا فم هناك ، وقوله ــ الأيدي بمعنى الأيادي ــ إنما قال بمعنى الأيادي لأن الأيادي هي النعم أى على أن تكون ــ الأيدي ــ جمع يد بمعنى النعمة كالأيادي ، وإن كان أكثر استعمال الأيدي في الجوارح والأيادي في النعم ، وقوله : ــ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلي حيث جاءت منه ــ إشارة إلي أن رد ــ الأيدي ــ إلى الأفواه من قبيل التمثيل قطعاً على تقدير أن يكون المراد رد أيادي الأنبياء إلي افواهم لامتناع رد أحكام الأنبياء وشرائعهم إلي أفواههم حقيقة فوجب حمل الكلام على الاستعارة التمثيلية بأن مثل رد الكفار مواعظ رسلهم برد الكلام الخارج من الفم إلي الفم فقيل : ردوا أيديهم أى مواعظهم في أفواههم " (١) .

ومن يتأمل كلام أبى حيان يظهر له أن قوله تعالى : " **ردوا أيديهم في أفواههم** "

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٣/١٢٦ ، ١٢٧ ، تلخيص البيان /١٢٦ .

جاء على الحقيقة . حيث يقول أبو حيان : " وقال الحسن وغيره : جعلوا أيدي أنفسهم في أفواه الرسل رداً لقولهم وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم فعلى هذا الضمير في ــ أيديهم ــ عائد على الكفار و ــ في أفواههم ــ عائد على الرسل ، وقيل : المراد بالأيدي هنا النعم جمع يد المراد بها النعمة أى ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواه الأنبياء لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلي حيث جاءت منه على طريق المثل ، وقيل : الضمير في ــ أفواههم ــ على هذا القول عائد على الكفار و ــ في ــ بمعنى الباء أي بأفواههم ، والمعنى كذبوهم بأفواههم " (١) .

والرأى الأول القائل : بأن الكفار وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك للرسل ــ عليهم السلام ــ بالكف والسكوت . هو الوجه القوى ، والذي تشهد له بلاغة التنزيل ــ كما يقول الألوسي ــ لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل ــ عليهم السلام ــ كل الإنكار جمعوا في الإنكار بين الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب وصدروا الجملة بإن ، ويليه الوجه الثاني وهو قوله ــ جعلوا أيدى أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً ــ " (٢) .

فتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمير الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد دل على قنوطهم بالمرة .

---

(١) البحر المحيط ٤٠٨/٥ .

(٢) روح المعاني ١٩٤/١٣ .

وقوله : "وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به" معطوف على قوله : " ردوا أيديهم " والمراد :- إنا كفرنا بما أرسلتم به ـ أى بالذى أرسلتم به على زعمكم ، وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالتهم ، ومرادهم بالكفر بها بدلالتها على صحة رسالتهم أو الكتب والشرائع وحاصله أنهم أشاروا إلي جوابهم كأنهم قالوا : هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق " (١) .

وقوله : "وإنا لفى شك مما تدعونا إليه مريب" جملة معطوفة على ماسبق من عطف الجمل على الجمل لتشريكها في الحكم الإعرابي ، ولهذا وصل بينها وبين ما سبق ، والشك هو الارتياب والقلق النفسى لعدم اطمئنانها بشئ .

وقوله : " مما تدعوننا إليه " أى من الإيمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم في ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فإنهم كفروا بها قطعاً حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا : فأتونا بسلطان مبين ـ " (٢) .

هل هناك منافاة بين جزمهم بالكفر وشكهم المذكور ؟ :

ليست هناك منافاة بين الجزم بالكفر والشك الموصوف بكونه مريباً وذلك لأن متعلق الكفر والشك واحد ، وعليه تكون الواو بمعنى ـ أو ـ أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزماً بما أرسلتم به . فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه ، وأيا ما كان فلا سبيل إلي الإقرار والتصديق ، وقيل : إن الكفر عدم

---

(١) السابق ١٣/١٩٣ ، أبو السعود ٣٦/٥ .

(٢) إبراهيم /١٠ ، أبو السعود ٣٦/٥ .

الإيمان عمن هو من شأنه ـ فكفرنا ـ بمعنى لم نصدق ، وبذلك فسره ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وذلك لا ينافى الشك " (١) .

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ : " بادروا أولاً إلي الكفر وهو التكذيب المحض ثم أخبروا بأنهم في شك وهو التردد كأنهم نظروا بعض نظر اقتضى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلي التردد أو هما قولان من طائفتين طائفة بادرت بالتكذيب والكفر ، وطائفة شكت والشك في مثل ما جاءت به الرسل كفر ، وقرأ طلحة ـ مما تدعونا ـ بإدغام نون الرفع في الضمير كما تدغم في نون الوقاية في مثل ـ أتحاجونى ـ (٢) والمعنى : مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله و ـ مريب ـ صفة توكيدية " (٣) .

أعمال الكافرين رماد لا يبقى له أثر :

١٠- **قال تعالى :** " مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد " (٤) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " مثل الذين كفروا بربهم " كلام مستأنف منقطع عما قبله ، وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره : فيما نقص أو فيما يتلى عليكم ـ مثل الذين كفروا ـ وقوله : - أعمالهم كرماد ـ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم ؟ فقال :ـ أعمالهم كرماد ـ وقال المفسرون والفراء :

---

(١) روح المعاني ١٣/١٩٤ .

(٢) الأنعام /٨٠ .

(٣) البحر المحيط ٥/٤٠٩ .

(٤) إبراهيم /١٨ .

مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتماداً على ما ذكره بعد المضاف إليه ، وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : صفة ـ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ـ كقولك في صفة زيد عرضه مصون وما له مبذول ، والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد إحراقه بالنار ، والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيه ، وقيل : معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنه قد تقدم ذكرها " (١) .

والمثل مستعار للصفة التى فيها غرابة ـ شبه تعالى أعمالهم التى كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها ـ كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان في حبوطها ـ لكونها على غير تقوى وإيمان رماد طيرته الريح العاصف .

وقوله تعالى : "لا يقدرون" إلخ مستأنفة فذلكة للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه . أى : لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا على شئ منها .أى لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شئ " (٢) .

يقول الرماني : " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلي ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة " (٣) .

ووراء قوله : "كرماد" إيماء إلي عملية الاحتراق لأن الرماد ما يبقى بعد احتراق الشئ (٤) ،وفي ذلك من السحق والإهانة والذلة لهؤلاء الكافرين ما فيه .

---

(١) تفسير الخازن ٣٧/٤ ، معاني القرآن للفراء ٧٢/٢ ، تفسير الطبرى ١٣٢/١٣ .

(٢) محاسن التأويل ٢٠/١٠ ، حاشية الجمل ٥٢٠/٢ ، تفسير المراغى ١٤١/١٣ ، الجمان في تشبيهات القرآن /١٣٠ .

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن /٨٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٣/٩ .

وفي تنكير " رماد " ما يوحى بكثرته وأنه رماد عظيم مكدس مما يدل على كثرة ما حرق ووراء ذلك كثرة أعمالهم الخبيثة الفاسدة المبنية على غير أساس من إيمان بالله وابتغاء وجهه ، وفى تلك الحسرة البالغة حين يصبح ما كان يعجب به الكافر ويباهى فى أحلك ساعاته وأعسرها رماداً " (١)

وفى قوله : "كرماد اشتدت به الريح" يظهر مدى التلائم بين الصور المحسوسة والمعنى الممثل . حيث تجد الهول والرعب الكائنين في ثورة الريح وعصفه . الصورة فيها ريح توشك أن تدمر . فليست هى الأحوال الأليفة الوادعة والتى يشعر الإنسان فيها بحنان الوجود ، والطبيعة الحاضنة الرؤوم " (٢) .

فالقرآن لم يشبهها بالرماد فحسب ، ولكنه رماد أصابته ريح شديدة وليس هذا فحسب بل في يوم عاصف كذلك ، فماذا عساها تبقى منه يا ترى ؟ كذلك أعمال أولئك أرأيت دقة فيها الاستيعاب ، أى استيعاب الموضوع المتحدث عنه أكثر من هذه الدقة بكل طمأنينة نقول لا " (٣) .

قال أبو السعود : " الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام . مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى ، وفيه تهكم بهم ، وفى توصيف الضلال بالبعد إشارة إلي بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب ، و ــ اشتدت به ــ من ــ شد ــ بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة أو من الشدة بمعنى القوة أى : قويت بملابسة حمله ، و ــ العصف ــ قوة هبوب الريح ، وصف به زمانها على الإسناد المجازى نحو ، نهاره صائم ــ " (٤) .

(١) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن /١٧٤ ، ١٧٥ د ملك بخش .

(٢) التصوير البياني /٩٨ ، ٩٩ بتصرف .

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان /٩٨ .

(٤) أبو السعود ٥/٤٦ .

ويريد أبو السعود بالإسناد هنا المجاز العقلي أي إسناد اسم الفاعل إلي زمانه لعلاقة الزمانية والقرينة عقلية . لأن اليوم نفسه لا يوصف بالعصوف ، وإنما يقع فيه ذلك للمبالغة في جعل الزمن كله كأنه عاصف .

ثم يبين عز وجل الغرض من التشبيه وهو أنهم لا يقدرون على شئ مما كسبوا ، وكيف يؤكد عدم قدرتهم على الانتفاع بما كسبوا كما لا يقدر أحد على الإمساك بهذا الرماد والذى اشتدت به الريح في يوم عاصف فضلاً عن إعادته إلي ماهيته قبل الاحتراق أى خلقه من جديد فأى ضلال أبعد من ذلك " (١) .

والتشبيه في الآية تمثيلى : فقد شبهت حال هؤلاء الكافرين يعملون أعمالاً يظنون نفعها ويطلبون ثوابها ثم تضيع هباءً كأن لمن تكن . بحال رماد طيرته الريح في يوم شديد العصف لا يبقى منه شيئاً ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من اعتقاد النفع والثمرة المرجوة إلا أن النتيجة تكون بخلاف ذلك من حيث الضياع والذهاب .

ووجد القرآن في الرماد الدقيق الذى لا يقوى على البقاء أمام الريح في يوم عاصف شبهاً لأعمالهم التى لا أثر لها ولا نتيجة .

فالتشبيه هنا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار التى لم ينتفعوا بها ، ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شئ ، وكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شئ .

---

(١) أسرار التنوع /١٧٥ ، ١٧٦ .

وقد اختلف العلماء في هذه الأعمال ما هي؟ فقيل هي : ما عملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الأرحام وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين ، وإن كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لأن كفره أحبطها وأبطلها كلها ، وقيل : المراد بالأعمال عبادتهم لهذه الأصنام التي ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ، ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم ، وقيل : أراد بالأعمال التى عملوها في الدنيا واشركوا فيها غير الله فإنها لا تنفعهم لأنها صارت كالرماد الذى ذرته الريح وصار هباء لا ينتفع به (١) .

وقوله : "ذلك هو الضلال البعيد" تذييل جامع لخلاصة حالهم . (٢) .

والإشارة بـ " ذلك " أى لما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع اعتقادهم وحسبانهم أنهم على شئ ، وتعريف المسند إليه بالضمير فيه من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفى ،والمراد أنهم قد ضلوا عن الحق ، وبعدوا عنه بمراحل ، وتعريف المسند إليه أيضاً : الضلال " بالألف واللام للاستغراق ليستغرق جميع أنواع الضلال والمراد الضلال البالغ الحد أو الذي لا ضلال بعده ، أو هو الضلال الكامل ، وذلك للمبالغة فيه ، " والمراد بالبعد ضد القرب ــ الضلال البعيد ــ أى الضلال الذى يصعب الرجوع منه إلي الهدى تشبيهاً بمن ضل عن محجة الطريق بعداً متناهياً فلا يكاد يرجى له العود إليها " (٣) . والغرض بيان

(١) تفسير الخازن ٣٧/٤ ، جامع البيان للطبرى ١٣٢/١٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١٧/١٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن مادة " بعد " .

غاية التضاد وأنه بعد لا يوازن وزانه ، والبعد مستفاد من البعد المسافى إلي تفاوت ما بين الحق والباطل أو ما بين أهلهما .

وبين الضلال البعيد والرماد الذي طيرته الريح العاصف بعيداً تناسب بديع .

والمراد : هو تشبيه أعمال الكافرين في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً لأنها غير مبنية على أساس صحيح من الإيمان بالله والعمل مخلصاً لوجهه الكريم برماد طيرته الريح العاصف فذهب بدداً ولم يبق له أثر " (١) .

وإذا ما نظرنا إلي العناصر التي كونت أسلوب التشبيه من الرماد والريح الشديدة واليوم العاصف رأيت كيف تنافرت تنافراً شديداً وتضادت لتعبر بتنافرها وتضادها عن تبدد تلك الأعمال هباءً منثوراً وكيف بنيت عناصر التشبيه ومواده على المبالغة والجزالة والقوة التي تتناسب مع شدة الموقف وهوله .

وأخيراً لنتأمل هذا التناسق والتناسب العجيب بين هذا المشهد المكفهر الذي يكاد يغصُّ فيه الإنسان فلا يبتلع هواء ممزوجاً برماد ولا يطيق فتح عينيه أو التنفس في هذا المحيط الهائج حوله وكيف يتلاءم هذا مع العذاب الشديد الذي يحاط بالكافر في جهنم يتجرعه ولا يكاد يستسيغه وتغصُّ به حلوقهم والموت محاط بهم من كل جانب (٢) .

---

(١) الكشاف ٣٧٢/٢ .

(٢) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن /١٧٦ ، ١٧٧ بتصرف .

أعمى الله بصائر الكفرة فلم يهتدوا :

١١- قال تعالى : " وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً " (١) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " وجعلنا جملة موصولة بما سبق من قوله " وإذا قرأت القرآن " (٢) الآية لبيان حال هؤلاء الكفرة بالآخرة .

وهذه الجملة معطوفة على السابقة لاتفاقهما في الخبرية وتشريكهما في الحكم .

وقوله : " على قلوبهم أكنة " دليل على استعلاء الأغطية على قلوبهم وتمكنها منهم من باب الاستعارة التبعية في الحرف " على " وتقديم الجار والمجرور على المفعول لقصر ذلك على قلوبهم هم وليس غيرهم ، ومجئ المفعول " أكنة " نكرة للتكثير أى أغطية كثيرة ، ويوضح ذلك المقام الذى ورد فيه هذا المفعول .

وقوله : " أن يفقهوه " مفعول له بتقدير مضاف على تأويل المصدر أى كراهة أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى أو مفعول به لفعل مقدر مفهوم من الجملة أو من " **أكنة** " لا أن " **جعلنا** " أو شيئاً مما ذكر قد ضمنه كما يتوهم أى منعناهم فقهه والوقوف على كنهه " (٣) .

وقوله : " وفي آذانهم وقراً " معطوف على ما قبله مبنى على حذف جملة وهى ـ أن يسمعوه ـ والمراد : جعلنا في آذانهم صمماً وثقلاً عظيماً مانعاً من سماعه اللائق به

---

(١) الإسراء /٤٦ ، الأنعام /٢٥ ، الكهف /٥٧ .

(٢) الإسراء /٤٥ .

(٣) روح المعاني ٨٧/١٥ .

فإنهم كانوا يسمعونه من غير تدبر ، وذلك بسبب ما هذه الآذان من خذلان الله تعالى إياها عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له " (١) .

قال الإمام الفخر : "**وجعل في آذانهم وقراً** ، ومعلوم أنهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين . فعلمنا أن المراد منعهم عن الإيمان ومنعهم من سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه " (٢) .

وقال الشيخ أبو السعود : " وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون النبي - صلى الله عليه وسلم - وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جئ بها بياناً لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه إلا لمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيهاً على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب (٣) كيف لا وقصدهم بذلك إنما هو الإخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبى - صلى الله عليه وسلم - جهلاً وكفراً من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن سحراً وشعراً وأساطير الأولين ، وقس عليه حال النبي - صلى الله عليه وسلم - لا الإخبار بأن هناك أمراً وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم ، ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام " (٤) .

---

(١) محاسن التأويل ٢٣٦/١٠ .

(٢) التفسير الكبير ٢٢٤/١٠ ، ٢٢٥ .

(٣) فصلت /٥ .

(٤) تفسير أبى السعود ١٧٦/٥ ، محاسن التأويل ٢٣٦/١٠ .

فقوله تعالى : "وجعلنا على قلوبهم أكنة" استعارة تمثيلية : حيث شبهت حالة قلوبهم وقد ضربت عليها الأغطية فلم يدخلها نور القرآن ولا هدايته وسدت مسامعهم عن سماعة بحالة الأغطية الموضوعة على الأشياء فلا يدخلها شئ ولا يخرج منها بجامع الانسداد والمنع في كل فلا هداية ولا رشاد ولكن ضلال وفساد وضياع وحسرة .

وقوله تعالى : "وإذا ذكرت ربك" جملة معطوفة على ما سبق موصولة به لبيان فساد معتقد هؤلاء وتفسير للحالة التى كانوا عليها وملتزميها والمراد : وإذا ذكرت ربك وحده غير مقرون بذكره ذكر شئ من آلهتهم التى يزعمونها كما كانوا يقولون بالله تعالى واللاب مثلاً ، ويصدق هذا يذكره سبحانه مع نفى الآلهة ، واستخدام لفظ " ربك " **دون لفظ الجلالة** " الله " ليربط قلبه بالمربى الأول سبحانه وتعالى ولتربية المهابة في النفوس واستعمال كاف الخطاب لتقوية ذلك وتعظيم الأمر .

وقوله : "وحده" قال عنه العلامة الزمخشري : " هو ـ من باب رجع عوده على بدئه ـ وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسد الحال ، اصله يحد وحده بمعنى واحداً وحده " (١).

وقوله : "ولوا على أدبارهم نفوراً" مصدر والتقدير : هربوا نفوراً أو نفروا نفوراً ، **والمراد** : " هرباً من استماع التوحيد لتشتت أهوائهم وتفرق شتهم في عبادة متعبداتهم من أصنام الجسمانيات والشهوات فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها " (٢) .

---

(١) الكشاف ٢/٤٥٢ .

(٢) محاسن التأويل ١٠/٢٣٧ .

وقال الشريف الرضى : " -**وجعلنا على قلوبهم** ــ إلخ وهذه استعارة لأنه ليس هناك على الحقيقة كنان على قلب ولا وقر في سمع وإنما المراد به أنهم لاستثقالهم سماع القرآن عند أمر الله تعالى نبيه ــ عليه السلام ــ بتلاوته على أسماعهم وإفراغه في آذانهم كالذين ــ على قلوبهم أكنة ــ دون علمه ــ وفي آذانهم وقراً ــ دون فهمه وإن كانوا من قبل نفوسهم أتوا وبسوء اختيارهم أخذوا ولو لم يكن الأمر كذلك لما ذموا على إطراحه ولعذروا بالإضراب عن استماعه " (١) .

وفى توضيح قضية ذكر الله واستماع القرآن هذه قال الإمام الفخر : "واعلم أن المراد أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين ، لأنهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيئاً ، وإذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولّوا نفوراً وتركوا ذلك المجلس " (٢) .

وعد الشيطان غرور رغم قوته وسلطانه :

١٢- قال تعالى : " واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً " (٣) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " واستفززمنهم " أسلوب إنشائي طريقة الأمر ، وقد خرج فيه الأمر عن حقيقته إلي معنى مجازى مراد به التعجيز والتهديد ، والمعنى : أنت لا تقدر على إضلال أحد ، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت ، وهذا " تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر فهي المعركة

---

(١) تلخيص البيان /١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) التفسير الكبير ٢٢٥/١٠ .

(٣) الإسراء /٦٤ .

الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة فإذا استدرجوا إلي العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال " (١) .

قال العلامة الزمخشري : " **فإن قلت** : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله ؟ قلت : هو كلام ورد مورد التمثيل . مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجندة من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ، وقيل بصوته بدعائه إلي الشر وخيله ورجله كل راكب وما شٍ من أهل العبث " (٢) .

وخلاصة كلامه : أن هذا من باب الاستعارة التمثيلية المركبة استعير فيه المجموع والهيئة وهى هيئة الشيطان في تسلطه وإغوائه واستمالته القلوب للضلال والفساد للمجموع والهيئة وهى هيئة المغوار والفارس الذى أغار على قوم فسلبهم قوتهم وفرق جمعهم وأفسد حالهم ، والجامع ما ذكر من هيئة استئصالهم وإهلاكهم أو غلبته وتسخيره لهم .

" **واستفزز** " أى استخف يقال استفزه إذا استخفه فخدعه وأوقعه فيما أراده منه ، والأمر فيه – كما ذكرنا – مراد منه التهديد ، وكذلك ما عطف عليه من الأوامر التالية ، ويمنع من إرادة الحقيقة أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء وقوله : " من استطعت " اسم موصول مفعول لفعل الأمر ، ومفعول " **استطعت** "

(١) في ظلال القرآن ٢٢٣٩/٤ .

(٢) الكشاف ٤٥٦/٢ .

محذوف دل عليه المذكور من فعل الأمر ، وعبر بالصوت دون الدعاء تحقيراً لـه حتى كأنه لا معنى له كصوت الحمار .

وقوله : "وأجلب عليهم" أمر ثان مراد منه التهديد والتعجيز ـ كما سبق ـ أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ، و ـ الخيل ـ يطلق على الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه ، وقيل : إن واحده خائل لاختياله في مشيته ويطلق على الفرسان مجازاً عقلياً لعلاقة المكانية لكونهم على ظهورها ، وهو المراد هنا كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم لأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ : **"يا خيل الله اركبى"** و ـ الرجل ـ بكسر الجيم فعل بمعنى فاعل فهو صفة كحذر بمعنى حاذر يقال : فلان يمشى رجلاً أى غير راكب ، وقيل : هو بمعنى الرجال يعنى أنه مفرد أريد به الجمع لأنه المناسب للمقام وما عطف عليه " (١) .

وعليه فالخيل والرجل كناية عن جميع **مكايد** الشيطان ، وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ومجاهد وقتادة قالوا : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والأنس فما كان من راكب يقاتل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وقيل : إنما هما كناية عن الأعوان والأتباع من غير ملاحظة لكون بعضهم راكباً وبعضهم ماشياً .

وقوله : "وشاركهم في الأموال والأولاد" أمر آخر مراد به التهديد والتعجيز ، **والمراد** : اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم ، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصى ، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنا .

---

(١) روح المعاني ١١١/١٥ .

وقوله : وعدهم" أمر آخر ، وقد حذف مفعوله اختصاراً ، والمراد المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة ونفع الأنساب الشريفة من لم يطع الله تعالى أصلاً ، وعدم خلود أحد في النار لمنافاة ذلك عظم الرحمة وطول أمل البقاء في الدنيا ، ومن الوعد الكاذب وعده إياهم أنهم إذا ماتوا لا يبعثون ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة "(١).

قال الخازن : " **فإن قلت** : كيف ذكر الله هذه الأشياء بصيغة الأمر ، والله سبحانه وتعالى يقول :ـ إن الله لا يأمر بالفحشاء (٢) ؟ قلت : هذا على طريق التهديد كقوله تعالى :- اعملوا ما شئتم (٣) -، وقولهم : اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك "(٤) ، وقيل : إنها على طريق الاستخفاف به وبمن تبعه ونهج نهجه واقتضى أثره .

وقوله : "وما يعدهم الشيطان إلا غروراً" اعتراض بين ما خوطب به الشيطان لبيان حال مواعيده ، وفي قوله : " **وما يعدهم** " التفات من الخطاب إلي الغيبة ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وما تعدهم إلا غروراً ، ولكنه عدل عن ذلك تهويناً لأمره واستصغاراً لأمر الغرور الذى يعدهم به من جهة وليتولى الكلام على طريق الغيبة متحدثاً إلي الناس جميعاً ليعلم الجاهل ويخلد المبطل إلي الصواب من جهة أخرى ، وقيل : إنه جاء على طريق الالتفات لتقوية معنى الاعتراض مع

---

(١) البحر المحيط ٥٩/٦ ، روح المعاني ١١٢/١٥ .
(٢) الأعراف /٢٨ .
(٣) فصلت /٤٠ .
(٤) لباب التأويل " تفسير الخازن " ١٦٨/٤ .

ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان حاله للناس ومن الإشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب " (١) .

وفى نسبة الغرور إلي الوعد في قوله : " وما يعدهم الشيطان إلا غروراً " مجاز عقلى لعلاقة الزمانية كما في قولهم : نهاره صائم ، وليله قائم .

وعن كون وعد الشيطان غروراً وأماني . **قال الإمام الفخر** : " والسبب فيه أنه إنما يدعو إلي أحد أمور ثلاثة : قضاء الشهوة ، وإمضاء الغضب ، وطلب الرياسة وعلو الدرجة ، ولا يدعو البتة إلي معرفة الله تعالى ولا إلي خدمته " (٢) . وتلك الأشياء الثلاثة ليست لذائذ في الحقيقة بل دفع آلام .

المشرك لاسماء له ولا أرض :

١٣- قال تعالى : " حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق " (٣) .

تحليل الاية : **قوله تعالى : "حنفاء لله " حال مؤسسة (٤) من ضمير الفعل " اجتنبوا "** **وقوله : " غير مشركين"** حال مؤكدة منه أيضاً ، و " به " جار ومجرور متعلقان **بقوله** : " **مشركين** " ، والمراد **بقوله** : " **حنفاء لله** " أى مائلين عن كل دين زائغ إلي الدين الحق مخلصين له تعالى .

---

(١) تفسير أبى السعود ١٨٤/٥ ، روح المعاني ١١٢/١٥ .

(٢) التفسير الكبير ٩/١١ .

(٣) الحج /٣١ .

(٤) الحال المؤسسة هى التى لا يستفاد معناها بدونها مثل جاء خالد راكباً ، والمؤكدة هي التى يستفاد معناها بدونها وإنما يؤتي بها للتوكيد . شرح ابن عقيل ٥٩٢/١ ت الشيخ محي الدين عبد الحميد .

قال الراغب الأصفهاني : " الحنف هو ميل عن الضلال إلي الاستقامة والحنيف هو المائل إلي ذلك قال عز وجل : - **واجتنبوا قول الزور حنفاء لله** ـ وتحنف فلان " أى تحرى طريق الاستقامة " (١) .

وقوله : "ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء" جملة مستأنفة مسوقة لضرب المثل لمن يشرك بالله مؤكدة لما قبلها من الاجتناب من الإشراك ، وإظهار الاسم الجليل " بالله " لإظهار كمال قبح الإشراك " ومن تصوير الحالات النفسية والمعنوية قوله تعالى في وصف حال المشرك بالله ، وكيف أنه يهدد وجوده إهداراً مطلقاً ، وكيف يهوى من أفق الفطرة الصادقة إلي منحط الضياع والضلال . قال :- ومن يشرك بالله ـ " (٢) الآية .

وقوله : "ومن يشرك بالله" إلخ تشبيه تمثيلي مركب : " وذلك أنه لما انقسمت حال الكافر إلي قسمين لا مزيد عليهما. الأول : منهما هو المتذبذب الشاك المتمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة فهذا القسم من المشركين شبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه ، والثاني : مشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يتراجع عن تصميمه لا سبيل إلي تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه فهو فرح مبتهج لضلالته فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلي واد سحيق سافل فاستقر فيه

---

(١) المفردات /١٣٣ مادة " حنف " .

(٢) التصوير البيانى /٨٩ .

ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادى السحيق الذى هو ابعد ما يكون عن السماء"(١) .

وعلى هذا : فقد شبهت حال هذا الذى أشرك بالله فسقط في مهاوى الضلال وتوزعت افكاره . بحال هذا الذى خر من السماء ولم يسقط على الأرض فيكون له فيها وجود وإنما كان بين أمرين : إما أن تتخطفه الطير " طيور الجو الجارحة " وتمزقه إرباً ، أو يذهب على متن الريح إلي مهاويها السحيقة ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من السقوط والضياع وتوزع الأفكار وضلال الحال ، والصورة صورة غريبة – كما نرى – إنسان يخر من السماء ولم يسقط على الأرض ، وإنما يضيع بين السماء والأرض بين جوارح الطير القاتلة ، وبين الريح المهلكة التى تطوحه في مهاويها .

قال العلامة الزمخشري : " يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة ، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان واشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التى تتوزع افكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوح به في وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة " (١) .

---

(١) الإنصاف على الكشاف ١٣/٣ .

ومن يتأمل كلام ابن المنير يراه يفسر ــ السماء ــ التى خر منها المشبه به بأنــها الإيمان الذى عِرفه ، وعليه تكون الآية في شأن المرتد أو تكون السماء هى قــوى الإنسان وقدراته التى تمكنه من الإيمان والعلو به ، وتكون الآية في شأن الكــافر الذى لم يؤمن من قبل " (١) .

وما ذكره العلامة الزمخشرى من كون التشبيه مفرقاً فيه نظر . لأن التشبيه التمثيلي فـي الآية واضح مركوز في جنباتها لا يخفى على أحد .

يقول ابن المنير : " وفي تقرير تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة ، وفى تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق نظر ، لأن الأمرين ذُكِرَا في سياق تقسيم حال الكافر إلي قسمين ، فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهــواء والأفكار ، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان فقد جعلهما شيئاً واحداً ، لأن توزع الأفكــار واختلاف الأهواء مضاف إلي نزغ الشيطان فلا يتحقق التقسيم المقصود " (٢) .

وقوله : " **خرَّ** " أى سقط وانحدر لأن الخرور سقوط وانحدار ، ومجئ الفعل بــهذه الصورة " خرَّ " أبلغ من ــ سقط ــ لأن استعمال " خرَّ " فيه تنبيه على اجتمــاع أمرين السقوط وحصول الصوت ، فمعنى " خرَّ " سقط سقوطاً يسمع منه خريــر أى لسقوطه من علو " (٣) .

وقوله : "**فتخطفه الطير**" فيه تشبيه الأفكار الموزعة بخطف جوارح الطير ، وأصـل الخطف الاختلاس بسرعة .

---

(١) الإنصاف على الكشاف ٣ /١٣ بتصرف .

(٢) السابق نفسه .

(٣) المفردات /١٥٠ مادة " خرّ " .

والسر في إيثار المضارع ، وكان السياق يقتضى عطفه على مضارع مثله إلا أنه عطف هنا " **فتخطفه** " على الفعل الماضى " **خرَّ** " ، وإنما أوثر ذلك إشعاراً باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهد المخاطب تعجيباً له ولتصوير الواقع ، وجوز أبو البقاء " أن يكون التقدير فهو يخطفه ، فيكون عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى" (١) ، وعلى ذلك فقد آثر المخالفة لاستحضار الصورة الغريبة التى تصوره مزعاً في حواصل الطير .

وقوله : "أو تهوى به الريح" أى تسقطه وتقذفه ، والظاهر أن " **تهوى** " عطف على ـ تخطف ـ و ـ أو ـ للتقسيم على معنى أن مهلكه إما هوى يتفرَّق به في شعب الخسار أو شيطان يطوح به في مَهْمَهِ البوار ، وفرق بين خاطر النفس والشيطان " (٢) .

قال الألوسى: " وفي تفسير القاضى البيضاوى ـ أنها للتخيير على معنى أنت مخيَّر بين أن تُشبِّه المشرك بمن خرَّ من السماء فتخطفه الطير ، وبين من خرَّ من السماء فتهوى به الريح في مكان سحيق أو للتنويع على معنى أن المشبه به نوعان ، والمشبه بالنوع الأول الذى توزَّع لحمه في بطون جوارح الطير المشرك الذى خلاص له من الشرك ولا نجاة أصلاً ، والمشبه بالنوع الثاني الذى رمته الريح في المهاوى المشرك الذى يرجى خلاصه على بعد " (٣).

---

(١) إملاء ما منّ به الرحمن ١٤٣/٢ .

(٢) روح المعاني ١٤٩/١٧ .

(٣) روح المعاني ١٤٩/١٧ ، ١٥٠ ، البيضاوى ٨/٤ت د حمزة النشرتي مطابع الأهرام مصر" المكتبه القيمة "

وقوله : "في مكان سحيق" أي بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة ، والتعبير بحرف الجر " في " دليل على تمكنه في البعد وأنه أصبح مستقرا في هذا المكان البعيد، والوصف بـ " سحيق مبالغة في البعد والضياع حتى كأنه لا يرجع منه أبدا .

ضعف الأوثان أمر لا مراء فيه :

١٤ـ قال تعالى : " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " (١)

تحليل الآية : قوله : "يا أيها الناس" كلام مستأنف مسوق لضرب المثل ، وهو إن يكن أشبه بالقصة إلا أنه في صيرورته واستغرابه سمى مثلا . و " يا " حرف نداء وزعم بعض النحاة أنها اسم فعل معناها أنادى ، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها وهى أعم حروف النداء إذ ينادى بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب ، وأمالها بعضهم وقد تتجرد للتنبيه فيليها المبتدأ والأمر والتمنى والتعليل والأصح أن لا ينوى بعدها منادى ، و " **ها** " حرف تنبيه وأكثر استعمالها مع ضمير رفع منفصل مبتدأ مخبر عنه باسم إشارة غالبا أو مع اسم إشارة لا لبعد ، ويفصل بها بين ـ أى ـ في النداء وبين المرفوع بعده (٢) والظاهر أن الخطاب في " يا أيها الناس " لجميع المكلفين لكن الخطاب في " **تدعون** " للكفار ، واستظهر البعض كون الخطاب في الموضعين للكفار والدليل

---

(١) الحج /٧٣ .

(٢) البحر المحيط ١/٩٢ ، ٩٣ .

غائلة بحال الأصنام التى لا تستطيع خلق ذبابة واحدة ولا ردّ ما سلب منها ، والجامع : الصورة المنتزعة من عدم النفع وردّ الضرر وإرجاع المسلوب . فسميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيَّرة لكونها في نفسها مستحسنة مستغربة عندهم .

قال العلامة الزمخشري : " وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش ، واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أن يقدر على أقل ما خلقه الله وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا ، وأدل من ذلك عجزهم ، وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا " (١) .

الإعراض عن الحق ندامة وحسرة :

١٥- قال تعالى : " قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامراً تهجرون " (٢) .

تحليل الآيتين : قوله تعالى : " قد كانت آياتي تتلى عليكم " تعليل لعدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفيُّ متوهماً من الغير لعلل بعجزه أو بعزة الله تعالى وقوته ، والمراد : ــ **قد كانت آياتى تتلى عليكم** ــ قبل أن يأخذ مترفيكم العذاب " (٣)

(١) السابق نفسه .

(٢) المؤمنون /٦٦، ٦٧ .

(٣) أبو السعود ١٤٢/٦ ، ١٤٣ ، روح المعاني ٤٩/١٨ .

على خصوص الأول الثاني ، **وقيل** : هو في الأول للمؤمنين ناداهم سبحانه ليبين لهم خطأ الكافرين ، وقيل : هو في الموضعين عام" (١) .

وقوله : "ضرب مثل" أى بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلاً وتسير في الأمصار والأعصار ، وقد عبر عن بيان ذلك بلفظ الماضي لتحقق الوقوع ، ومعنى المثل في الأصل. المثل ثم خص بما شبه بمورده من الكلام فصار حقيقة ثم استعير لما ذكر استعارة تبعية في الفعل ، والتعبير بالضرب على الاستعارة أبلغ لشدة التأثير في النفوس فيحدث فيها أثراً لا يفارقها أبداً .

وقوله : " فاستمعوا له " أمر منه سبحانه بالإصغاء والاستماع ، أى استمعوا للمثل المضروب نفسه استماع تدبر وتفكر أو فاستمعوا لأجله ما أقول وأبين لكم .

وقوله : " إن الذين تدعون من دون الله " إلخ بيان للمثل وتفسير له على الأول ــ استماع التدبر ــ وتعليل لبطلان جعلهم الأصنام مثل الله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني . أما على الأول فللمثل نفسه بمعناه المجازى ، وأما على الثاني فلحال المثل بمعناه الحقيقي ، فإن المعنى جعل الكفار لله مثلاً فاستمعوا لحاله وما يقال فيه " (٢) .

وقرئ بياء الغيبة " **يدعون** " مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول والراجع إلي الموصول على الأولين محذوف .

---

(١) روح المعاني ١٧/٢٠٠ .

(٢) أبو السعود ٦/١٢٠ ، روح المعاني ١٧/٢٠٠ .

وقوله : " لن يخلقوا ذباباً أسلوب نفى تأبيدى بيان لعدم مقدرتهم على خلق أصغر الحيوانات ، والمعنى : لن يقدروا على خلقه أبداً مع صغره وحقارته فإن " لن " بما فيها من تأكيد النفى دالة على منافاة ما بين المنفيّ والمنفيّ عنه ، والمنفيُّ هو الخلق ، والمنفيّ عنه هو المعبودات فتفيد عدم قدرتها عليه .

و " **الذباب** " اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أَذِبَّة ، والكثير ذِبَّان مثل غراب وأغربه وغربان ، وسمى به لكثرة حركته .

قال القرطبى : " وخص ــ الذباب ــ لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكون آلهة معبودين وأرباباً مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان " (١) .

وجواب " لو " في قوله : " **ولواجتمعوا له** " محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أى لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له وتعاونوا عليه لن يخلقوا " (٢) .

وقوله : " **وإن يسلبهم الذباب شيئاً** " بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه أى إن يأخذ الذباب منهم شيئاً .

وقوله : " **لا يستنقذوه منه** " نفى لقدرتهم ذلك ، والمراد : أنهم لا يقدرون على استنقاذه منه مع غاية ضعفه .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٩٠ .

(٢) روح المعاني ١٧/٢٠١ .

وقوله : " ضعف الطالب والمطلوب : تذييل لما قبل إخبار أو تعجب ، و " **الطالب** " **عابد غير الله** " **والمطلوب** " الآلهة ، وكون عابد ذلك طالبا لدعائه إياه واعتقاده نفعه ، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه ، وقيل : الطالب الذباب يطلب ما يسلبه عن الآلهة ، والمطلوب الآلهة على معنى المطلوب منه ما يسلب " (١) وفي هذا التذييل إيهام التسوية وتحقيق أن الطالب اضعف لأنه قدم عليه أن هذا الخلق الأقل هو السالب وذلك طالب خاب عن طلبته ولما جعل السلب المسلوب لهم وأجراهم مجرى العقلاء أثبت لهم طلبا ، ولما بين أنهم أضعف من أذل الحيوانات نبه على مكان التهكم بذلك " (٢) .

وجعل جارالله الزمخشري : " الطالب " الأصنام ، و " المطلوب " الذباب .

فيقول : " قوله ـ ضعف الطالب والمطلوب ـ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ولو حققت وجدت الطالب اضعف وأضعف لأن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب " (٣) .

ومن القوم من اختار الأول ـ عابد غير الله والآلهة ـ لأنه أنسب بالسياق إذ هو لتجهيلهم وتحقير آلهتهم فناسب إرادتهم وآلهتهم من هذا التذييل .

وفي الآية : استعارة تمثيلية رائعة حيث شبهت حال الكفار في عبادتهم لغير الله من الحجارة وغيرها وهي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا ترد عن نفسها أي

---

(١) السابق ١٧/٢٠٢ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) الكشاف ٣/٢٣ .

وقوله : " **فكنتم على أعقابكم** " جملة معطوفة على **قوله** : " **قد كانت** " إلـخ ولذلـك وصلت بها ولم تفصل عنها لبيان حالهم من الإعـراض عـن سـماع الآيـات ، والمعنى : فكنتم عند تلاوة الآيات " على أعقابكم تنكصون " أى تعرضـون عـن سماعها أشد الإعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها ، والنكوص هو الرجـوع ، والأعقاب جمع عقب وهو مؤخر الرجل ، ورجوع الشخص على عقبه رجوعـه في طريقه الأولى كما قيل : رجع عودة على بدئه ، وجعل بعض العلماء التقييـد من باب التوكيد كما نقول بصرته بعينى وذلك بناء على أن النكـوص الرجـوع قهقرى وعلى الأعقاب إلي الخلف والوراء .

وفى الآية : استعارة تمثيلية فائقة حيث شبهت حالة إعراضهم عن الحق ونكوصـهم عن الآيات وعدم تصديقها والعمل بها . بحالة الراجع القهقرى إلي الخلف وهـى اقبح مشية لأنه لا يرى ما وراءه ، وجامع الاسـتعارة بيـن الطرفيـن : الهيئـة الحاصلة من النكوص والانقلاب والإعراض والانصراف .

وقوله : " **مستكبرين به** " حال من فاعل " تنكصون " ، والمراد : مسـتكبرين بسـبب القرآن عن الإيمان ، والضمير في " به " مختلف في رجوعه .

قال الشيخ النسفى : " ـ به ـ بالبيت أو بالحرم لأنهم يقولون لا يظهر أحد علينـا لأنا أهل الحرم ، والذي سوغ هذا الإضمار ـ قبل الذكر ـ شهرتهم بالاسـتكبار بالبيت أو بآياتي لأنها في معنى كتابى ومعنى استكبارهم بـالقرآن تكذيبـهم بـه استكبارا ضمن " " مستكبرين . معنى مكذبين فعدى تعديته " (١) .

---

(١) تفسير النسفى " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " /٧٦١ .

وقيل : " إن الضمير لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويحسنه أن في قوله تعالى :- قد كانت آياتي تتلى عليكم ــ دلالة عليه ــ صلى الله عليه وسلم والباء إما للتعدية على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو جعله مجازا عنه ، وإما للسببية لأن استكبارهم ظهر ببعثته ــ عليه الصلاة والسلام ــ وجوز أن يعود على القرآن المفهوم من الآيات أو عليها باعتبار تأويلها به " (٢) .

والذى عليه جمهور المفسرين : أن الضمير راجع إلي البيت الحرام ، والذي أجاز الإضمار ــ هنا ــ مع أنه لم يجر له ذكر اشتهار استكبارهم ، وافتخارهم بأنهم خدام البيت وقوامه .

ينقل كلام ابن الجوزي
هنا ص ٣٦٦

(١) روح المعاني ٤٩/١٨ .

قال ابن الجوزى : " الضمير عائد إلي البيت الحرام وهى كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر ، والمعنى إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم ، تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحدًا ، ونحن أهل بيت الله وولاته . هذا مذهب ابن عباس وغيره (١) " ويجوز أن تتعلق الباء **بقوله تعالى** : " **سامراً** " **والمراد** : تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً .

والسمر في الأصل ظل القمر وسمى بذلك على ما فى المطلع لسمرته .

وقال الرّاغب : " هو سواد الليل ثم أطلق على الحديث بالليل " (٢) .

وقوله : " **تهجرون** " حال من " تنكصون " مأخوذ من الهجر بفتح الهاء وسكون الجيم بمعنى القطع والترك ، والمعنى : تاركين الحق أو القرآن أو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعن حبر الأمة ــ رضى الله عنه ــ تهجرون البيت ولا يعمرونه بما يليق به من العبادة ، أو تهذون في شأن القرآن أو النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ أو أصحابه ــ رضى الله عنهم ــ أو ما يعم جميع ذلك " (٣) .

أعمال الكفرة سراب خادع أو ظلمات مطبقة :

١٦- قال تعالى : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير /٤٨٢ .

(٢) المفردات /٢٤٢ مادة سمر " .

(٣) روح المعاني ٥٠/١٨ ، أبو السعود ١٤٣/٦ .

ص ٣٦٧، ص ٣٦٨
مكرر ٣٦٨

جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور " (١) .

تحليل الآيتين : قوله تعالى : "والذين كفروا" إلى آخره عطف على ما قبله عطف القصة على القصة أو على مقدر ينساق إليه ما قبله . كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالاً وحالاً كما وصف ، " والذين كفروا أعمالهم كسراب : أى أعمالهم التى هى من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة ــ الأسرى ــ وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك على ما قيل .

يقول الإمام الفخر الرازى : " اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن ، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكاً بالعمل الصالح ، ثم بين أنه في الآخرة يكون فائزاً بالنعيم المقيم والثواب العظيم ــ أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران ، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات ، وضرب لكل واحد منهما مثلاً . أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فهو قوله :- والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة (٢) .

فقوله :"والذين كفروا أعمالهم كسراب " إلخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال عمل من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق بعد أن بين حال المؤمنين بضرب مثل لهم وهو " مثل نوره كمشكاة " (٣) .

---

(١) النور /٣٩، ٤٠ .

(٢) التفسير الكبير ٣٣٩/٢٤ .

(٣) النور /٣٥ .

قال ابن الجوزي : " الضمير عائد إلي البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر ، والمعنى : إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم ، تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً ، ونحن أهل بيت الله وولاته . هذا مذهب ابن عباس وغيره (١) " ويجوز أن تتعلق الباء **بقوله تعالى** : " **سامراً** " **والمراد** : تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً .

والسمر في الأصل ظل القمر وسمي بذلك على ما في المطلع لسمرته .

وقال الراغب : " هو سواد الليل ثم أطلق على الحديث بالليل " (٢) .

وقوله : " **تهجرون** " حال من " تنكصون " مأخوذ من الهجر بفتح الهاء وسكون الجيم بمعنى القطع والترك . والمعنى : تاركين الحق أو القرآن أو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن حبر الأمة ـ رضي الله عنه ـ تهجرون البيت ولا يعمرونه بما يليق به من العبادة ، أو تهذون في شأن القرآن أو النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أو ما يعم جميع ذلك " (٣) .

أعمال الكفرة سراب خادع أو ظلمات مطبقة :

١٦- قال تعالى : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا

صرصا
سبدا

(١) زاد المسير في علم التفسير /٤٨٢/٢ .

(٢) المفردات /٤٠٢/٢ مادة سمر " .

(٣) روح المعاني ٥٠/١٠ . ابو السعود ١٤٣/٦ .

وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول " **والذين كفروا أعمالهم** " للإيماء والإشارة إلي معرفة الخبر . **فقوله** " **كفروا** " هذه الجملة صلة الموصول إذ فحوى الخبر الذى لم يأت بعد وهو أن أعمال هؤلاء إلي بوار وضياع .

وقوله : " **كسراب بقيعة** " خبر المبتدأ الثاني " **أعمالهم** " والسراب هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى يخيل للناظر كأنه كذلك .

و- **القيعة** – بمعنى القاع وهو المنبسط من الأرض أو جمع قاع كجيرة جمع جار ، وهي متعلقة بمحذوف صفة – سراب – أى كائن بقيعة وهى الأرض المنبسطة المستوية " (١) .

وقوله : "**يحسبه الظمآن ماءً**" صفة أخرى لقوله "**كسراب** " ويجوز أن يكون هو الصفة و " **بقيعة** " ظرفاً لما يتعلق به الكاف وهو الخبر .

والحسبان هو الظن على المشهور ، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع سموله لكل من يراه كائناً من كان العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذى هو المطلع والمقطع المؤيس .

يقول الرماني : " ولو قيل يحسبه الرائي ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً وابلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به . ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلي عذاب الأبد في النار - نعوذ

---

(١) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٢٢١ ، حاشية الجمل ٣/٢٢٨– ٢٣٠، تفسير المراغي ١٨/١١٢-١١٤ .

بالله من هذه الحال ــ وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ــ فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة " (١) .

وقوله : " حتى إذا جاءه " غاية يصل إليها هذا الظمآن ولكنها غاية مؤلمة أى إذا جاء العطشان ما حسبه ماءً ، وقيل إذا جاء موضعه " لم يجده " أى لم يجد ما حسبه ماءً وعلق رجاءه به " شيئاً" أصلاً لا محققاً ولا مظنوناً كان يراه من قبل فضلاً عن وجدانه ماءً .

يقول الإمام الرازي : " فإن قيل قوله : " حتى إذا جاءه " يدل على كونه شيئاً ، وقوله : " لم يجده شيئاً " مناقض له ؟ قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجده شيئاً نافعاً كما يقال فلان ما عمل شيئاً وإن كان قد اجتهد . والثاني :- حتى إذا جاءه - أى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه . الثالث : الكناية للسراب لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء "(٢) ، وبهذا القول تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله : " ووجد الله عنده فوفاه حسابه " معطوف على ما قبله موصول به لاتفاق الجملتين في الخبرية وتشريكهما في الحكم الإعرابي ، والمراد وجد عقاب الله وجزاءه عند السراب أو العمل وفى التعبير بذلك زيادة تهويل ، وقيل : المعنى وجده محاسباً إياه فالعندية

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " النكت للرماني /٨٢ .

(٢) التفسير الكبير ٢٤/٣٩٩ .

بمعنى الحساب على طريق الكناية لذكر التوفية بعده . قبل هذه الجملة معطوفة على " لم يجده " ولا حاجة إلي عطفه على ما يفيده من نحو ـ لم يجد ما عمله نافعاً – (١) "

ويحتمل أن تكون هذه الجملة بياناً لحال المشبه به الكافر فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه ، ولو قيل على الأول إنه من تتمه وصف السراب : **والمعنى** : وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظمأ عند السراب . فوفاه ما كتب له من لا يؤخر الحساب . كان الكلام متناسباً (٢) .

وقال الشيخ ابو السعود : " هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن ، ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلاً فليست الجملة معطوفة على " **لم يجده شيئاً** " بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل " (٣) أى من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً ، وإفراد الضميرين الراجعين إلي " الذين كفروا – إما لإرادة الجنس كالظمآن

---

(١) محاسن التأويل ٢١٥/١٢ ، التفسير القرآني للقرآن ١٢٩٢/١٨ – ١٢٩٥ للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، تفسير سورة النور /٢٠٤، ٢٠٥ لأبى الأعلى المودوى .

(٢) محاسن التأويل ٢١٥/١٢ .

(٣) أبو السعود ٩٦/٤ .

الواقع في التمثيل ، وإما للحمل على كل واحد منـــــهم ، وكـــذا إفرادهـــا برجـــع إلي أعمالهم .

أما قوله : " **والله سريع الحساب** " فذاك لأنه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشـــق عليه الحساب .

يقول العلامة الزمخشري :- «شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحـــق مـــن الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم يخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماءً فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونـــــه إلـــي جهنم فيسقونه الحميم والغسّاق وهم الذين قال الله فيهم – " **عاملة ناصبة** " (١) . **وهم يحسـبون أنـهم يحسـنون صنعـاً** (٢) - ، - **وقدمنـا إلي مـا عملـوا مـن عمـل فجعلنـاه هبـاءً منثوراً ــ** " (٣) .

يقول الألوسى : " واستطيب ذلك ــ أى كلام الزمخشرى ــ العلامة الطيبـــى حيـث قال :ــ إنما قيد المشبه به برؤية الكافر وجعل أحواله ما يلقاه يوم القيامـــــة ولـــم يطلق لقوله تعالى ــ ووجد الله عنده ــ إلخ لأنه من تتمة أحوال المشبه به ، وهــذا الأسلوب أبلغ لأن خيبة الكافر أدخل ، وحصوله على خلاف ما يؤمله أعرق " (٤).

---

(١) الغاشية /٣

(٢) الكهف /١٠٤

(٣) الفرقان /٢٣ . الكشاف ٣/٢٤٣ .

(٤) روح المعاني ١٨/١٨١ .

وتعقبه أبو حيان : " بأنه يلزم من حمل الظمآن على الكافر تشبيه الشئ بنفسه " (١) ، ورد بأن التشبيه على ما ذكره ـ جارالله ـ تمثيلي أو مقيد لا مفرق كما توهم فلا يلزم عن اتحاد بعض المفردات في الطرفين تشبيه الشئ بنفسه كاتحاد الفاعل في ـ أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ـ وهو أحسن مما في أبى السعود ـ كما لا يخفى ـ " (٢) .

وعلى كل حال: فالتشبيه في الآية على رأى جميع أصحاب مدرسة المتأخرين تشبيه تمثيلي . شبهت هيئة أعمال الكافرين في ضياعها وذهابها بالكلية مع ظن الرجاء والنفع من ورائها وأنها تنجيهم من عذاب جهنم بهيئة الظمآن يجرى وراء سراب خادع حتى إذا وصل موضعه لم يجده شيئاً ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من المطلع المطمع يعقبه المقطع المؤيس .

" والتشبيه يصور الحالة في صورة سراب يركض من ورائه الإنسان الظامئ والسراب هنا هو صالح أعمال الذين كفروا . كالإحسان ، وصلة الأرحام ، ومعونة المحتاج ، وإذا كان هذا سراباً فغيره من أعمال الذين كفروا من باب أولى ، وفى هذا المثل لمح آخر ، هو أن ركض الظامئ وراء السراب في الصحراء الحارقة المتوقدة يصف قصة الحياة المقطوعة عن الله . ترى الإنسان فيها تائقاً ظامئاً لأن الفطرة في داخله تدعو إلي الله . ثم هو مخدوع وراء سراب

---

(١) البحر المحيط ٦/٤٨١ .

(٢) روح المعاني ١٨/١٨١ . أبو السعود ٤/٩٦ .

من الأباطيل والفلسفات وخدع العقول وضلال الحكمة تحرقه رمضاء . هذا كله وهو تائه عن النبع الذى يروى " (١) .

" **ووجه التشبيه** : أن الذى يأتي به الكافر من أعمال البرّ يعتقد أن له ثواباً عند الله وليس كذلك فإذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذى كان يظنه بل وجد العقاب العظيم والعذاب الأليم فعظمت حسرته وتناهي غمه . فشبه حال الكافر بحال الظمآن الذى أشتدت حاجته إلي الماء . فإذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه به فإذا جاءه لم يجده شيئاً فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا احتاج إلي عمله لم يجده أغنى عنه شيئاً ولا نفعه " (٢)

وقوله : " **أو كظلمات في بحر لجي** " معطوف على قوله : " **والذين كفروا أعمالهم كسراب** " وحكمة " أو " قيل هى للتقسيم أو للتخيير أى أن عمل الكافر قسمان : قسم كالسراب وهو العمل الصالح وقسم كالظلمات وهو العمل السيئ أو أن عمل الكافر لاغ لا منفعة له كالسراب ولكونه خالياً من نور الحق كالظلمات المتراكبة ، وقيل : لتقسيم حال أعمالهم الحسنة ، وجوز الإطلاق باعتبار وقتين فإنها كالسراب في الآخرة من حيث عدم نفعها ، وكالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق ، وخص هذا بالدنيا **لقوله تعالى** :- **ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور** – فإنه ظاهر في الهداية والتوفيق المخصوص بها ، والأول بالآخر لقوله تعالي :- ووجد الله عنده – إلخ وقدم أحوال الآخرة التى هي أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه – ليجزيهم – إلخ ثم ذكر أحوال الدنيا تتميماً لها " (٣).

(١) دراسة في البلاغة والشعر /٢٧، ٢٨ د محمد أبو موسى بتصرف .

(٢) تفسير الخازن ٥/٨١،٨٢ .

(٣) روح المعاني ١٨/١٨١

بمعنى الحساب على طريق الكناية لذكر التوفية بعده . قبل هذه الجملة معطوفة على " لم يجده " ولا حاجة إلي عطفه على ما يفيده من نحو ــ لم يجد ما عمله نافعاً – (١) "

ويحتمل أن تكون هذه الجملة بياناً لحال المشبه به الكافر فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه ، ولو قيل على الأول إنه من تتمه وصف السراب ، **والمعنى** : وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظمأ عند السراب . فوفاه ما كتب له من لا يؤخر الحساب . كان الكلام متناسباً (٢) .

وقال الشيخ ابو السعود : " هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن ، ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلاً فليست الجملة معطوفة على " **لم يجده شيئاً** " بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل " (٣) أى من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً ، وإفراد الضميرين الراجعين إلي " الذين كفروا – إما لإرادة الجنس كالظمآن

---

(١) محاسن التأويل ٢١٥/١٢ ، التفسير القرآني للقرآن ١٢٩٢/١٨ – ١٢٩٥ للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، تفسير سورة النور /٢٠٤، ٢٠٥ لأبى الأعلى المودوى .

(٢) محاسن التأويل ٢١٥/١٢ .

(٣) أبو السعود ٩٦/٤ .

قال الزجاج : " أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات فهى أيضاً تشبه الظلمات ، وأنها إن مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى فهى كهذه الظلمات التى وصف " ، ثم يقول أيضاً : " **إن شئت مثل بالسراب وإن شئت مثل بهذه الظلمات فأو للإباحة** " (١) .

وهذا المثل الثاني لضلال الكافر جئ به لإيضاح هذه الصورة ، والمعنى : مثلهم كظلمات متكاثفة في بحر عميق لا يدرك قعره ، و " هو مثل آخر تشبه به أعمال الكافرين بعد أن شبهت بالسراب ، والفرق بين المثلين أن السراب صورة تمثيلية لما يراه الكافرون في أعمالهم وهم في الحياة الدنيا حيث يرونها في صورة حسنة معجبة وهي في حقيقتها سراب يخدعهم ويدفع بهم في طريق الغواية والضلال حتى تخمد أنفاسهم ويسلمهم هذا السراب إلي القبر وما وراء القبر من حساب وعقاب . هنا في هذا المثل : تطلع عليهم أعمالهم هذه في الدار الآخرة حيث يلتمسونها فيجدون أنهم غارقون في ظلام مطبق لا يرى فيه أحدهم يده إذا أخرجها من كمه ، وعرضها لعينيه فكيف يرى هذه الأعمال التى كان يظنها أعمالاً مبرورة محمودة . إنها قد استحالت إلي قطعة من الظلمات في كيان هذه الظلمات فليقتطع لنفسه قطعة من هذا الظلام إن أراد وإن استطاع " (٢) .

وقيل : **إن** " **أو** " للتنويع وذلك أنه إثر ما مثلت أعمالهم التى كانوا يعتمدون عليها

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/٤٧ : ٤٨ ت د عبد الجليل شلبى ط عالم الكتب بيروت ط أولى سنة ١٤٠٨ هـ ، سنة ١٩٨٨م .

(٢) التفسير القرآنى ١٨/١٢٩٤ .

أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كل واد وناد بما ذكر من حـــال الســـراب مثلـت أعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خيريـــة يغــر بـــها المغـــترون بالظلمـات المذكورة ، والظاهر على التنويع أن يراد من الأعمال في قوله " كســـراب " مــا يشمل النوعين .

ويجوز أن تكون " أو " للتخيير في التشبيه لمشابهة أعمالـــهم الحســـنة أو مطلقـاً السراب لكونها لاغية لا منفعة فيها ، والظلمات المذكورة لكونها خالية عن نـــور الحق " (١) .

قال الشيخ أبو حيان : " ـ أو كظلمات ـ هذا التشبيه الثاني لأعمالهم فالأول فيما يؤول إليه أعمالهم في الآخرة وهذا الثاني فيما هم عليه في حال الدنيا ، وبـــدأ بالتشـــبيه الأول لأنه أكد في الإخبار لما فيه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب الدائـــم والعذاب السرمدى ثم أتبعه بهذا التمثيل الذى نبههم على ما هـــى أعمالـــهم عليـــه لعلهم يرجعون إلي الإيمان ويفكرون في نور الله الذى جاء به الرسول ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ والظاهر أنه تشبيه لأعمالهم وضلالهم بالظلمات المتكاثفـــة " (٢) ثم يقول : " **وقال ابو على الفارسى** : التقدير أو كذى ظلمات . قال ودل علـــى هـــذا المضاف قوله ـ إذا أخرج يده ـ فالكناية تعود إلي المضاف المحذوف فالتشـــبيه وقع عند ابى على للكافر لا للأعمال وهو خلاف الظاهر ، ويتخيـــل في تقريـــر

---

(١) روح المعاني ١٨٢/١٨

(٢) البحر المحيط ٤٦١/٦ .

كلامه أن يكون التقدير أوهم كذى ظلمات فيكون التشبيه الأول لأعمالهم والثاني لهم في حال ضلالتهم " (١) .

وقال أبو البقاء : " وفى التقدير وجهان : أحدهما تقديره أو كأعمال ذى ظلمات ، فيقدر – ذى – ليعود الضمير من قوله – إذا أخرج يده – إليه ، وتقدر – أعمال – ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة ، إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمات ، والثاني لا حذف فيه ، والمعنى أنه شبه أعمال الكفار بالظلمة في حيلولتها بين القلب وبين ما يهتدى إليه ، فأما الضمير في قوله :- إذا أخرج يده – فيعود إلي مذكور حذف اعتماداً على المعنى تقديره : إذا أخرج من فيها يده " (٢) .

" **قرأ سفيان بن حسين** : – أو كظلمات – بفتح الواو وجعلها واو عطف تقدمت عليها الهمزة التى لتقرير التشبيه الخالى عن محض الاستفهام " (٣)

وقال أبو حيان أيضاً : " **وقال الجرجاني** : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضاً من أعمالهم ، وقد قال تعالى :- **يخرجهم من الظلمات إلي النور** (٤) من الكفر إلي الإيمان فيكون التمثيل قد وقع لأعمالهم بكفر الكافر وأعمالهم منها كفرهم فيكون قد شبه أعمالهم بالظلمات والعطف بأو هنا لأنه قصد التنويع" (٥) .

(١) السابق نفسه .

(٢) إملاء ما من به الرحمن ١٥٧/٢ .

(٣) البحر المحيط ٤٦١/٦ ، روح المعاني ١٨٢/١٨ .

(٤) البقرة /٢٥٧ .

(٥) البحر المحيط ٤٦١/٦ .

وقوله : " **فى بحر لجى** " جار ومجرور صفة لظلمات ، و" **لجى** " : صفة للبحر واللجى هو العميق الكثير الماء منسوب إلي اللج وهو معظم ماء البحر ، وقيل : اللجة وهى أيضاً معظمة ، وجملة " يغشاه " صفة للبحر أيضاً ، أى يغطى ذلك البحر ويستره بالكلية " موج " وقدمت الأولى لإفرادها ، وقيل الجملة صفة ذى المقدر والضمير راجع إليه " من فوقه موج " جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على أنها صفة ل " **موج** " والمراد يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض ، **وقوله** : " **من فوقه سحاب** " صفة لـ " موج " الثاني على أحد الوجهين المذكورين أى من ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم ، وفيه إيماء إلي غاية تراكم الأمواج ، وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب ، وقيل : معناه أن تجئ موجة تتبعها أخرى فهو متلاطم " لا يسكن وأخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، وفوق هذا الموج سحاب وهو أعظم للخوف لإخفائه النجوم التي يهتدى بها وللريح والمطر الناشئين مع السحاب .

وقوله : " **ظلمات بعضها فوق بعض** " جملة تفسيرية لما قبلها لا محل لها من الإعراب وهى خبر لمبتدأ محذوف أى هذه ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض ، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى : " **نور على نور** " (١) . بيان لغاية قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده .

---

(١) النور /٣٥ .

وقرأ قنبل " ظلمات " بالجر على أنه بدل من " كظلمات " الأولى لا تـأكيد لـها ، وجملة " بعضها فوق بعض " في موضع الصفة له ، وقـرأ الـبزى : " سـحاب ظلمات " بإضافة " سحاب " إلي " ظلمـات " وهـذه الإضافـة كالإضافـة فـي " **لجين الماء** " - أى من إضافة المشبه إلي المشبه به تشبيهاً مؤكـداً - أو ببيـان أن ذلك السحاب ليس سحاب مطر ورحمة " (١) .

وأما تقرير المثل فهو أن البحر اللجى يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء ، فإذا ترادفت عليه الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سـحاب بلغـت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع في قعر هذا البحر اللجى يكون في نهايـة شـدة الظلم ، ولما كانت العادة في اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن أنـه لا يراها فقال تعالى :- لم يكد يراها " (٢) .

وقوله : " **إذا أخرج يده** " جملة في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وفـاعل ـ أخرج ـ ضمير الواقع في البحر المرتطم فيه " يده " مفعول به ، والمـراد : من ابتلى بها ، وإضماره من غير ذكر لدلالة المعنى عليه دلالـة واضحـة ، وكذا تقرير ضمير يرجع إلي " ظلمات " واحتيج إليه لأن جملة " **إذا أخرج** " إلخ في موضع الصفة لـ " ظلمات "،وقيل:ضمير الفاعل عائد على اسم الفاعل

---

(١) البحر المحيط ٤٦٢/٦ ، روح المعاني ١٨٣/١٨ .

(٢) التفسير الكبير ٤٠٠/٢٤ .

المفهوم من الفعل . أى إذا أخرج المخرج فيها " يده " وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر إليها " لم يكد يراها " أى لم يقرب من رؤيتها ، وهي أقرب شئ إليه فضلاً عن أن يراها " (١) . وهذه مبالغة قوية في التشبيه .

وقوله : " لم يكد يراها لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم .

وفيها كما يقول الإمام الرازي : " **قولان : أحدهما :** أن ــ كاد ــ نفيه إثبات وإثباته نفى **فقوله** :- وما كادوا يفعلون (٢) - نفى في اللفظ ، ولكنه إثبات في المعنى لأنهم فعلوا ذلك . فقوله :- لم يكد يراها ــ معناه أنه رآها .

والثاني : أن ــ كاد ــ معناه المقاربة فقوله :- لم يكد يراها _ معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذى لم يقارب الوقوع لم يقع أيضاً " (٣) .

ثم يقارن بين القولين بتفضيل القول الثاني ووصف الأول بالضعف ، **ويبين ذلك بوجهين :** " **الأول :** أن ما يكون أقل من هذه الظلمات فإنه لا يرى فيه شئ فكيف عن هذه الظلمات . الثاني : أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة في جهالة الكفار وذلك إنما يحصل إذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات " (٤) .

وقوله :" **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** " اعتراض تذييلى جئ به لتقرير وإفادة التمثيل من كون أعمال الكفار كما فصل ، وتحقيق أن ذلك لعدم

---

(١) روح المعاني ١٨/١٨٤ ، زاد المسير ٦/٤٤،٤٥.

(٢) البقرة /٧١ .

(٣) التفسير الكبير ٢٤/٤٠٠،٤٠١ .

(٤) السابق نفسه .

هدايته تعالى إياهم لنوره ، وإيراد الموصول للإشارة بما فيه خير الصلة إلي علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أى من لم يشأ الله تعالى أن يهديه سبحانه لنوره في الدنيا فماله هداية ما من أحد أصلاً فيه ، وقيل : معنى الآية من لم يكن له نور في الدنيا فلا نور له في الآخرة .

وفي كيفية هذا التشبيه وجوه آخر : **أحدها** : أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل روى ذلك عن الإمام الحسن . **وثانيها** : شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث روى ذلك عن أبن عباس ـ رضى الله عنهما ـ **وثالثها** : أن الكافر لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ويعتقد أنه يدرى . فهذه المراتب الثلاث تشبيه تلك الظلمات . **ورابعها** : أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكفار لشدة إصرارهم على كفرهم قد تراكمت عليهم الضلالات حتى إن أظهروا الدلائل إذا ذكرت عندهم لا يفهمونها. **وخامسها** : قلب مظلم في صدر مظلم " (١) فذكر تعالى لعمل الكافر **مثالين** : الأول لعمله الصالح ومثل له بالسراب الخادع والثاني لاعتقاده السئ ومثل له بالظلمات المتراكب بعضها فوق بعض . ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع" **ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور" مقابل قوله في المؤمن "نور على نور**"فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال . فالله ما أروع تعبير القرآن ؟

---

(١)التفسير الكبير ٢٤/٤٠٠ .

وهذه الآية كسابقتها في باب التشبيه التمثيلي: بنى فيها التشبيه على التركيب شبهت فيها هيئة أعمال الكافرين في كونها ضلالاً لا يجدى وفساداً لا ينفع بهيئة الظلمات المتراكبة التي هذه صفتها ، والوجه الهيئة الحاصلة من الضلال والضياع والظلام ، فجاءت هذه الآية تتمة للتمثيل الأول وتكملة له ـ كما ذكرنا ذلك تفصيلاً من خلال دراستنا للآية ـ ويعد هذان المثلان " بمثابة تلخيص وتصوير لمعان في القرآن كثيراً . تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات ، والإيمان والوحى بالنور . فالمؤمنون يخرجهم إيمانهم من الظلمات إلي النور ، وأصحاب الجبت والطاغوت يخرجونهم من النور إلي الظلمات ، وليس في القرآن تشبيه حشد كل هذه الظلمات ، وكل هذه الأمواج ، وكل هذه السحب في صورة واحدة . إلا هذا التشبيه " (١) .

أعمال الكافرين هباء متطاير :

١٧ـ قال تعالي : " وقدمنا إلي ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً . (٢)

تحليل الآية: قولة : وقدمنا إلي ما عملوا من عمل معطوف علي الآيات السابقة جاء بياناً لحال ما كانوا يعملونه في الدنيا من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها .

قال القاضى البيضاوى : " أى وعمدنا إلي ما عملوا في كفرهم من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره وهو

(١) دراسة في البلاغة والشعر /٣٤ .

(٢) الفرقان/٢٣

تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا سلطانهم فقدم إلى أسبابهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثراً " (١) .

ففى هذا استعارة تمثيلية فقد شبهت حالهم – التى تقدم ذكرها – بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلي أشيائهم وقصد ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالإفساد والتحريق ومزقها كل ممزق بحيث لم يدع لها عيناً ولا أثراً ، والجامع : الهيئة الحاصلة من الإذهاب ، والإحباط وعدم الإبقاء على شئ ينفع البتة .

وقال أبو الحسن الرماني : " قول الله – عز وجل – " **وقدمنا إلي ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** " حقيقة – قدمنا – هنا عمدنا و – قدمنا – أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال ، والمعنى الذى يجمعهما العدل لأن العمد إلي إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بينا " (٢) .

وقال العلامة السكاكى : " فالقدوم وهو مجئ المسافر بعد مدة مستعار للأخذ في الجزاء بعد الإمهال وهما أمران معقولان والجامع وقوع المدة في البين " (٣) .

وقوله : " **هباء منثوراً** " تشبيه بليغ . فقد شبهت أعمالهم المحبطة في الحقارة وعدم

---

(١) البيضاوى بها مش حاشية الشيخ زادة ٣/٤٤٩ .

(٢) النكت ضمن ثلاث رسائل /٧٩،٨٠ ، سر الفصاحة /١١٠ ، البرهان في علوم القرآن ٣٩١٣: ، تأويل مشكل القرآن /١٣٨، ١٣٩ ، الصناعتين /٢٩٩ .

(٣) المفتاح /١٨٤ .

الجدوى بالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه ، فحذف منه آداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً .

ووصف الهباء بالمنثور للدلالة على انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التى كانوا يتوجهون به نحوها ، ولذلك قال : " منثوراً أى جامعاً لحقارة الهباء والتناثر ، **وقوله** : " **هباءً منثوراً** " من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس ــ أى تشبيه ضياع الأعمال وذهابها وهى معقولة ، بالغبار المتطاير الذى لا يبقى له أثر ما وهو محسوس يرى ويشاهد .

بيت الباطل كبيت العنكبوت :

١٨- قال تعالى : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " (١) .

تحليل الآية : قوله : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء " استئناف متضمن تقبيح حال أولئك المهلكين الظالمين لأنفسهم وإضرابهم ممن تولى غير الله عز وجل ، وفيه إشارة إلي أعظم أنواع ظلمهم . فالمراد بالموصول ــ الذين ــ جميع المشركين الذين عبدوا من دون الله عز وجل الأوثان ، ويجوز أن يكون المراد : جميع من اتخذ غيره تعالي متكلا ومعتمدا آلهة كان ذلك أو غيرها ، ومن هنا عدل إلي " أولياء " دون ــ آلهة ــ أى صفتهم أو شبههم " كمثل العنكبوت " أى كصفتها أو شبهها.

---

(١) العنكبوت /٤١

وقوله : " اتخذت بيتاً " بيان لصفة العنكبوت التى يدور عليها أمر التشبيه ، ومن وقف على ــ العنكبوت ــ جعلها مستأنفة لذلك .

وقوله : " وإن أوهن البيوت " إلخ في موضع الحال من فاعل " اتخذت " المستكن فيه ، وجوز كونه في موضع الحال من مفعوله بناءا على جواز مجئ الحال من النكرة ، وعلى الوجهين وضع المظهر موضع الضمير الراجع إلي ذى الحال ، والجملة من تتمة الوصف ، واللام في " البيوت " جاءت للأستغراق ، والمعنى : مثل المتخذين لهم من دون الله تعالى أولياء في اتخاذهم إياهم كمثل العنكبوت وذلك أنها اتخذت لها بيتا ، والحال أن أوهن كل البيوت وأضعفها بيتها ، وهؤلاء اتخذوا لهم من دون الله تعالى والحال أن أوهن كل الأولياء وأضعفها أولياؤهم " (١) .

قال الإمام القرطبى : "هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا ، ولا يحسن الوقف على العنكبوت لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شئ ، فشبهت الآلهة التى لا تنفع ولا تضر به " (٢) .

قال الشيخ زادة ـ رحمه الله ـ موضحا التمثيل في الاية : " الآية من قبيل تشبيه الهيئة بالهيئة شبه حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها واعتمد عليها راجيا نفعها وشفاعتها بحال العنكبوت التى اتخذت بيتا بحائط يحول عن تطرق الشرور إلي ما فيه وسقف مظل يدفع عنه الحر والبرد والذى لا يكون له ذلك فهو كالبيداء من

(١) روح المعاني ١٦٠/٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٦/١٣ .

حيث إنه لم يحصل للعنكبوت باتخاذه شئ من معاني البيت فكذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان آلهةً شئ من معاني الإله ، وإنما قلنا إنه من تشبيه المركب لأن في كل واحد من الطرفين اتخاذاً ومتخذاً واتكالاً عليه وعدم ترتب شئ من المعاني المطلوبة من المعتمد عليه على اتخاذه فإن العنكبوت وإن انتفع بنسجه لكن تلك المنفعة ليست من المنافع المطلوبة من البيت " (١) .

فالآية تصور المشركين من قوم نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وعاد ، وثمود ــ وقارون وفرعون وهامان ، وعدم اعتمادهم على غير الله ، واعتقادهم في آلهتهم الخير ــ والخير منهم بعيد ــ مثلهم في ذلك كمثل العنكبوت ، ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه في البناء ، وجهده ضايع . إذ لا يبنى إلا أوهن البيوت وأضعفها ، والتي تذهب مع أدنى هبة ريح .

قال العلامة الزمخشري : " الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت ، ألا ترى إلي مقطع التشبيه وهو قوله : إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت " (٢) .

و- العنكبوت ــ جاء مونثاً لأنه المناسب لبيان الخور والضعف فيما يتخذه ، وقيل : الظاهر أن المراد الجمع لا الواحد لقوله " الذين " وأما إفراد البيت فلأن المراد الجنس ، ولذلك أنث " اتخذت " لا لأن المراد المؤنث .

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ١٣/٤ .

(٢) الكشاف ٢٠٦/٣ .

وقوله : " وإن أوهن البيوت " تذييل يقرر الغرض من التشبيه وهو أن مثل المشرك الذي يعبد الأصنام بالقياس إلي المؤمن الذي يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتاً من نسجها بالإضافة إلي رجل بنى بيتاً . بآجر وجصٍ أو نحته من صخر فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت فكذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لأنها لا تضر ولا تنفع " (١)

وقوله : " لو كانوا يعلمون " إيغال (٢) في تجهيلهم لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة " (٣) .

وفي الكشاف : " فإن قلت : ما معنى قوله ــ لو كانوا يعلمون ــ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟ قلت : معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ، ووجه آخر وهو أنه إذا صحَّ تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون " (٤) .

- فلو — شرطية جوابها محذوف إذاً .

---

(١) تفسير الخازن ١٩٣/٥،١٩٤ ، تفسير الكريم الرحمن ٨٧/٦ ، تفسير المراغي ١٤٢/٢٠ــ١٤٤ .

(٢) الإيغال : هو ختم الكلام بكلمات يتم المعنى بدونها ولكن يؤتى بها لنكتة بلاغية وغرض بلاغي .

(٣) محاسن التأويل ١٥١/١٣ ، التسهيل لابن جزى ٢٥٣/٣ ، حاشية الجمل ٣٧٦/٣ .

(٤) الكشاف ٢٠٦/٣

" ومناسبة هذا المثل هنا هو أنه لمّا ذكر سبحانه بعضاً من تلك الأقوام الضالة التي كذبت برسل اللهَ واستمسكت بما كانت عليه من شرك . كان هذا المثل مرآة يرى عليها الناس ، وخاصة أولئك الذين غلظت طباعهم وتبلدت مشاعرهم صورة مجسدة لهؤلاء المشركين وما عبدوا من دون الله ، وفي تشبيه آلهة القوم بنسج العنكبوت إعجاز من إعجاز القرآن إذ إن العنكبوت إنما تتخذ بيتها من خيوط رفيعة إذا لامسها الهواء تماسكت في صورة خيوط رقيقة واهية ، وهؤلاء المشركون أقاموا معتقدهم الفاسد الذي يعتقدونه ، ويلتمسون الطمأنينة والأمن في ظله على بناء متداع يضيع في أقل هبة ريح " (١) .

التفريط في أسباب النجاة مع الإمكان :

١٩- **قال تعالى :** " وقالوا آمنا به وأني لهم التناوش من مكان بعيد . وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد " (٢) .

تحليل الآيتين : قوله : " وقالوا آمنا به " معطوف على قوله : " ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب " (٣) ، **والمراد** : يقولون حينئذ آمنا به ، والضمير في " به " للوعيد أو ليوم البعث أو للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو القرآن . إذا كان الضمير محكياً من كلامهم لأن جميع ما يصح معاداً للضمير مشاهد لهم وللملائكة . فأجملوا فيما

(١) التفسير القرآني ٢٠/٤٣٤ .

(٢) سبأ /٥٢،٥٣ .

(٣) سبأ /٥١ .

يراد الإيمان به لأنهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه منجياً لهم من العذاب ، وإن كان الضمير من الحكاية فهو عائد إلي الحق من **قوله** : " **قل إن ربى يقذف بالحق** " (١) لأن الحق يتضمن ذلك كله .

و " **أني** " في **قوله** : " **وأني لهم التناوش** " استفهام عن المكان ، وهو هنا استفهام إنكارى ، والمعنى من أين لهم تناول ما طلبوه من التوبة بعد الموت بعد فوات وقتها لأنها إنما تقبل في الدنيا وقد ذهبت الدنيا فصارت على بعد من الآخرة فمن أين لهم الرجوع إليها ، وذلك قوله ــ من مكان بعيد ــ " (٢) .

و " **التناوش** " " التناول . قال الراغب : " تناوش القوم كذا تناولوه ، قال تعالي :- وأني لهم التناوش ــ أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد ولم يكونوا يتناولونه عن قريب في حسن الاختيار والانتفاع بالإيمان ، ومن همز فإما أنه أبدل من الواو همزة نحو أقتت في وقتت ، وإما أن يكون من النأش وهو الطلب " . (٣)

قال صاحب الكشاف : " والتناوش والتناول أخوان ، إلا أن التناوش تناول سهل لشئ قريب ، **يقال** : ناشه ينوشه وتناوشه القوم ، **ويقال** : تناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضاً " (٤) .

وقوله :"وأني لهم التناوش " تشبيه تمثيلى مركب يفيد تشبيه حالهم إذ فرطوا في

---

(١) سبأ /٤٨ .

(٢) من الأسماء المضمنة معنى الاستفهام في القرآن /٧٥ .

(٣) المفردات في غريب القرآن /٥٠٩ ، أساس البلاغة /٤٧٦ مادة . ناش.

(٤) الكشاف ٢٩٦/٣ .

أسباب النجاة وقت المكنة فيها حين كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدعوهم ويحرضهم ويحذرهم وقد عمرهم الله ما يتذكر فيه من تذكر ثم جاؤوا يطلبون النجاة بعد فوات وقتها بحال من يريد تناول الشئ من مكان بعيد عن مرادة الذى يجب تناوله بعد أن بعد عنه وفات في الاستحالة " (١) والوجه الهيئة الحاصلة من التناوش والأخذ والزدوطلب النجاة بعد ضياع وقتها .

قال جارُالله : " وهذا تمثيل لطلبهم ما لايكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا ، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشئ من غلوة كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه " (٢) .

وقوله : " من مكان " جار ومجرور متعلقان بـ " التناوش " و" بعيد " صفة لـ " مكان " وهو تأكيد . فإنه في حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد .

قال الشيخ أبو حيان : " والمعنى من أني لهم تناول ما طلبوه من التوبة بعد فوات وقتها لأنها إنما تقبل في الدنيا وقد ذهبت الدنيا فصارت على بعد من الآخرة ، وذلك **قوله تعالى :- " من مكان بعيد "** (٣) .

وقوله تعالى : " وقد كفروا به " حال أو معطوف أو مستأنف لكن الأول أولى وأبلغ ، والمعنى : والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا . فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة ؟ وقيل : إن الضمير المجرور يعود إلي الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإلي العذاب الشديد الذي أنذرهم إياه .

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤٢،٢٤٣ .

(٢) الكشاف ٣/٢٩٦، البحر المحيط ٧/٢٩٣ .

(٣) البحر المحيط ٧/٢٩٤ .

وقوله : " من قبل" متعلق بمحذوف تقديره : أي من قبل ذلك في أوان التكليف ، أو من قبل نزول العذاب .

وقوله : " **ويقذفون بالغيب** " معطوف على قوله : " **وقد كفروا به** " على حكاية الحال الماضية ، والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد ذلك منهم ، وحدوثه شيئاً فشيئاً ودفعة دفعة كأنه باق على مر الزمن يقوله الحاقدون على الإسلام وعلى القرآن وصاحبه وعلى المسلمين .

وقوله :"بالغيب" قال القرطبى : " العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقه : هو يقذف ويرجم بالغيب – من مكان بعيد ـ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب ، أى يرمون بالظن فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجماً منهم بالظن . **قاله قتادة** ، وقيل : " **يقذفون** " أى يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين ، وقيل : في محمد فيقولون : ساحر شاعر كاهن مجنون " (١) .

قال العلامة الزمخشري : " وهذا ـ أى ما ذكرناه ـ تكلم بالغيب والأمر الخفى لأنه لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ، لأن أبعد شئ مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شئ من عادته التى عرفت بينهم وجربت الكذب والزور ، وقرئ :- **ويقذفون بالغيب** ـ على البناء للمفعول . أي يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه " (٢) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/١٤ .

(٢) الكشاف ٢٩٦/٣ .

وقوله : " ويقذفون بالغيب من مكان بعيد " استعارة تمثيلية حيث مثلت حالهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة ، وذلك مطلب مستبعد بحال من يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للنظر في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبا عنه بعيدا ، والغيب الشيء الغائب " (١) .

قال الألوس : " والمراد تعظيم أمر كفرهم ، وجوز أن يراد بالغيب ماخفى من معايبهم أى : وقد كفروا وهم يقذفون الوحي من السماء ويرميهم بما خفي من معايبهم " (٢) . فهؤلاء يقولون مالا يعلمون ويظنون ولا يتحققون وهم بمنزلة الرامي غرضا بينه وبينه مسافة متباعدة فلا يكون سهمه أبدا إلا قاصرا عن الغرض والسداد .

الامتناع عن الإيمان والهدى :

٢- قال تعالى : " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهى إلي الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون " (٣).

تحليل الآيتين : قوله تعالى : إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً " إلخ كلام " مستأنف مسوق لتمثيل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، عن غيهم ، وفي تعريف المسند إليه بضمير العظيمة والتكلم بيان لقدرته سبحانه وتعالى وإحلال قوته وسلطانه ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول - أغلالاً - لكون الغل في العنق دليلاً على شدة المهانة والحقارة - أى في أعناقهم ــ هم ما يقبح صورتهم فيجعلها كالبهائم وأرذل الحيوانات وأقلها شأناً .

(١) الكشاف ٢٩٦/٣ ، ٢٩٧ ، البحر المحيط ٢٩٤/٧ ، أبو السعود ١٤٠/٧ .

(٢) روح المعاني ١٥٩/٢٢ .

(٣) يس / ٩،٨

وفى الآية استعارة تمثيلية حيث شبهت حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بحال من غلت يده إلي عنقه بالسلاسل ، والأغلال فأصبح رأسه مرفوعا لا يستطيع له خفضا ولا التفاتا .

والتصوير في الآية تصوير دقيق لتصميم هؤلاء الكفرة على الكفر وإصرارهم على العناد بأن جعلهم كالمغلولين المقموحين في أنهم لا يلتفتون إلي الحق ولا يثنون أعناقهم نحوه ، وذلك لأن الأغلال ــ القيود ــ واصلة إلي الأذقان ملزوزة إليها فلا تخليهم يطأطئون فهم دائما مقمحون رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم ، **والمراد** : شبهت حالتهم وهيئتهم في عدم إتاحة الإيمان لهم بهيئة من غلت يده وعنقه فلم يستطع أن يتعاطى ما يريدون ، والجامع الهيئة الحاصلة من مطلق المانع من القدرة والاستطاعة إلخ .

إلام يرجع الضمير في قوله : فهى إلي الأذقان " ؟

هل يرجع الضمير في قوله : **فهى إلي الأذقان** " إلي الأغلال أو إلي الأيدى ؟

الذى صرح به العلامة الزمخشري : أن مرجع الضمير إلي الأغلال حيث يقول : " فإن قلت : **ما معنى قوله - فهى إلي الأذقان** - ؟ **قلت** : معناه فالأغلال واصلة إلي الأذقان ملزوزة إليها ، وذلك أن طوق الغل الذى في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها راس العمود نادرا من الحلقة إلي الذقن فلا تخليه يطاطئ رأسه ويوطئ قذاله فلا يزال مقمحا "(١) . ثم يرد ــ رحمه الله ــ على من جعل الضمير راجعا على ــ الأيدى ــ بأن هذا رأى مردود فقال " فإن قلت : فما قولك

---

(١) الكشاف ٣/٣١٥ ، الإنصاف على هامشه

فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة . كان ذكر ـ الأعناق ـ دالا على ذكر الأيدى ؟ قلت : الوجه ما ذكرت لك والدليل عليه قوله ـ فهم مقمحون ـ ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله ـ فهى إلي الأذقان ـ ولو كان الضمير للأيدى لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرا ، على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذى يدعوه المعنى إلي نفسه إلي الباطن الذى يجفو عنه ترك للحق الأبلج إلي الباطل اللجلج " (١) .

توجيهه.رحمه الله ـ لقراءاتى ابن عباس وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ يقول :

" فإن قلت : فقد قرأ ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ " في ايديهم " وابن مسعود ـ في إيمانهم ـ فهل يجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدى أو للأيمان ؟ قلت : يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت " (٢) .

ولعل العلامة الزمخشري : قد بلغ الذروة في هذا التقرير الفريد ودل على اطلاعه وتمكنه من علم البيان ، على أن الوجه الثاني وهو عودة الضمير على الأيدى لا يخلوا من وجاهة وسمو بيان وفيها مبالغة في تصوير الهول تتلاءم مع سياق الكلام فإن اليد وإن لم يجر لها ذكر في العبارة فإن الغل يدل عليها بل ويستلزمها ، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في العنق يوجب الإقماح ، أضف إلي ذلك أن اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرح بإطلاقها ،

(١) الكشاف ٣/٣١٦ .

(٢) السابق نفسه .

ولعله يتحيل بها ، ويستعين على فكاك الغل ، وليس الأمر كذلك إذا كانت مغلولة فيضاف إلي ما تقدم من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبهاً بغل الأيدى لأن اليد ـ كما قلنا ـ آلة الحيلة والوسيلة إلي الخلاص (١).

وقال ابن كثير -رحمه الله- : " اكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين لما دل السياق عليه . فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق " (٢) والتنوين في " أغلالاً " للتعظيم والتهويل أى أغلالاً عظيمة هائلة ، وإسناد الفعل إلي ضمير العظمة مما يؤيد ذلك ومجيئها نكرة للتعظيم والتهويل من أمرها .

والفاء في قوله : " **فهى** " للعطف والتعقيب أو للعطف والتعليل .

فقوله : " فهى إلي الإذقان " تتمة وتكميل للزوم الإقماح لهم ، والأغلال جمع غل بالضم ما يشد به اليد إلي العنق للتعذيب والتشديد ، والأعناق جمع عنق بالضم وهو الجيد ، ومرجع الضمير في ـ هى ـ إلي الأغلال — كما ذكرنا ـ و " الأذقان " جمع ذقن بالتحريك مجتمع اللحيين من أسفلها ، وأل فيها للعهد أو هى عوض عن المضاف إليه ، والظرف متعلق بكون خاص خبر ـ هي ـ أى بـ فهى واصلة أو منتهية إلي أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلي الحق ولا يعطفون

---

(١) الإنصاف على الكشاف ٣/٣١٥ ، إعرابه القرآن وبيانه ٨/١٧٧،١٧٨ ، محاسن التأويل ١٤/٦٠ تفسير المراغي ٢٢/١٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٥

أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رءوسهم له " (١) وقوله : " **فهم مقمحون** " الفاء فيه فاء النتيجة لأنه حينئذ يرفع الرأس إلي فوق ، وإما لكون طرف الذى يجمع اليدين إلي العنق يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجا من الحلقة إلي الذقن فلا يخليه يطاطئ رأسه فلا يزال مقمحا " (٢) .

والمقمح هو الذى يرفع رأسه ويغض بصره وكأنه أراد المجهول بحيث يرفع إلخ .. " والأغلال التى جعلها الله في أعناق هؤلاء المشركين هي أغلال معنوية. فإن الذى ينظر إليهم وهم ماضون على طريق الشرك لا يلتفتون إلي هذا النور الذى عن يمينهم وعن شمالهم ومن أمامهم ومن خلفهم يخيل إليه أن في أعناق القوم أطواقا من حديد ، وقد شلت حركة رءوسهم فلم يقدروا على إلقائها يمينا أو شمالا " (٣) .

وقوله : "وجعلنا من بين أيديهم سدا" جملة معطوفة على الجملة السابقة موصولة بها منزلة منها منزلتها لاتفاقهما في الخبرية والحكم .

قال الشيخ أبو السعود عن قوله : "وجعلنا من بين أيديهم سدا" إنه " أما تتمة للتمثيل وتكميل له أى تكميل أى وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سدا عظيما ، ومن ورائهم سدا كذلك فغطينا بها أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شئ ما أصلا ، وأما تمثيل مستقل فإن ما ذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئا قطعا كاف في الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات محرومين عن النظر في الأدلة والآيات (٤)

(١) روح المعاني ٢١٤/٢٢ ، أبو السعود ١٦٠/٧ .

(٢) حاشية الجمل ٥٠٣/٣ .

(٣) التفسير القرآني ٩٠٩/٢٢

(٤) أبو السعود ١٦٠/٧

ـ للاستفهام الإنكاري للتهديد أى أيستعجلون بعذاب الله ؟ **قيل** : لما نزلت هذه الآية " أفبعذابنا " استهزءوا وقالوا متى هذا يكون ؟ فنزل قوله:" **فإذا نزل بساحتهم** " والمراد لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم .

وـ الساحة ـ هى الفرصة الواسعة عند الدور والمكان الواسع مطلقاً ، وتجمع على سوح ، والعرب تقول : نزل بساحتهم ويريدون نزل بهم .

و- ساء — فعل مراد به الذم بمعنى ـ بئس ـ وبها قرأ عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ والمخصوص بالذم محذوف ، وقرأ أيضاً ـ نزل ـ بالبناء للمجهول مع التخفيف وهو لازم فالجار والمجرور نائب الفاعل كما يقال : ذهب بزيد ، ونزل على ، و " صباح " مستعار لوقت نزول العذاب أى وقت كان من صباح الجيش المبيت للعدو وهو السائر إليه ليلاً ليهجم عليه وهو في غفلته صباحاً ، وسميت الغارة صباحاً لأنها في الأعم الأغلب تقع فيه ، وقيل : هو مجاز مرسل لعلاقة الزمانية أطلق فيه الزمان وأريد وأوقع فيه كما يقال : أيام العرب لوقائعهم التى تكون فيها .

واللام في " **المنذرين** " لام الجنس لا العهد ، وذلك لاشتراط النحاة والبلاغيين الشيوع فيما بعد فعلى الذم والمدح ليكون التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، ولو كان ـ ساء ـ بمعنى قبح على أصله جاز اعتبار العهد من غير تقدير " (١) .

---

(١) روح المعاني ١٥٧/٢٣ ، أبو السعود ٢١١/٧ .

وفي الآية : استعارة تمثيلية فقد شبهت هيئة العذاب النازل بهم بعد ما أنذورا به فلم يبالوا الإنذار بهيئة جيش أنذر بهجومه قومه بعض نصحائهم فلم يكترثوا لإنـــذاره ولم يتخذوا الأهبة والاحتياط ، وما عسى أن ينجيهم من هول الكارثة ويمكنهم مـــن تفادى ويلاتها الطارئة وكانت عادة مغاويرهم وكماتهم الإغارة صباحـــاً فسـميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر ، والجامع الهيئة الحاصلة مـــن الإحاطـــة والنزول .

قال العلامة الزمخشري : " وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحـــس بـــها ويروقـــك موردهـــا علـــى نفســك وطبعــك إلا لمجيئـــها علـــى طريقـــة التمثيل " (١) .

وهذه الآية عدها علماء البلاغة من الفرائد وذلك تحت عنوان " الفرائد " (٢) .

قال السيوطي :"وهو مختص بالفصاحة دون البلاغة لأنه الإتيان بلفظة تتنزل منزلـة الفريدة من العقد وهى الجوهرة التى لا نظير لها تدل على عظـــم فصاحـــة هـــذا الكلام وقوة عارضته وجزالة منطقه وأصالة عربيته بحيث لو أسقطت من الكـــلام عزت على الفصحاء ، ومنه قولـــه : ــ فـــإذا نـــزل بســـاحتهم فســـاء صبـــاح المنذرين ــ" (٣)

---

(١) الكشاف ٣٥٧/٣ .

(٢) الفرائد جمع فريدة وهى الجوهرة التى لا نظير لها .

(٣) الإتقان ١١٩/٢، تحرير التحبير/٩٧، البلاغة القرآنية المختـــارة مـــن الإتقـــان ومعـــترك الأقران /١٦٢د السيد الجميلى .

وخلاصة القول : **أن قوله تعالى : "وجعلنا من بين أيديهم سدا** " الخ استعارة تمثيلية : فقد شبهت حالهم وقد سدت عليهم طرق الإيمان ، وكان عدم الفكر في القرون الخالية قد ملك عليهم تفكيرهم . بحال من أحاط بهم سدان " هائلان من خلفهم وعدم النظر في العواقب المستقبلة بسدا آخر من قدامهم فغطيا هذان السدان أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم وورائهم في أنهم محبوسون في وهدة الجهالة ومنعوا من النظر في الآيات والدلائل ، والجامع الهيئة الحاصلة من عدم الاهتداء وانسداد الفكر .

وقوله : " **وجعلنا** " الخ هو من تمام الصورة التي جعل الله المشركين عليها حتى لا يهتدوا حين جاءهم الهدى لما سبق من قضاء الله عليهم ، وهذه الصورة من إعجاز القرآن في تجسيد المعاني ، وفى بعث الحياة والحركة في الجمادات والساكنات حيث نرى الكافر هنا وقد أدخل في سجن محكم مطبق عليه لا يرى منه النور أبدا " (١) .

إنا إذا نزلنا بساحة قوم :

٢١ — قال تعالى : " فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين " (٢)

تحليل الآية : قوله :فإذا نزل بساحتهم " معطوف على ما سبق . فالفاء عاطفة و ــ إذا ــ ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره ــ هو ــ يعود على العذاب في قوله : " **افبعذابنا يستعجلون** " (٣) والهمزة في ــ أفبعذابنا

(١) التفسير القرآني ٩٠٩/٢٢، ٩١٠ .

(٢) الصافات /١٧٧ .

(٣) الصافات /١٧٦

وقال ابن ابى الإصبع : " والمتأمل لهذه الألفاظ يجدها كلها في الطبقة العليا من الفصاحة " (١).

" وتخصيص العذاب بوقت الصبح لم يفت المفسرين إدراك ما فيه من دلالة على المفاجأة فالقرآن استعمل الصباح والإصباح والصبح في موقف المباغتة والإنذار " (٢).

ولله در ابن الجوزى حين يصور لنا حالتهم بقوله : "فهم يجدون أنفسهم في حالة يرثى لها وقد بدأوا حياتهم بغم وحزن ، ولام الجنس مع إفادتها الجنسية فهى تفيد الموصولية والتقدير : بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب " (٣).

العرض على النار غدوة وعشية خاص بآل فرعون ومن تبعهم :

٢٢- **قال تعالى** : " **وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** "(٤).

تحليل الآيتين : **قوله** : " **وحاق بآل فرعون** " معطوف على قوله تعالى : " **فوقاه الله سيئات ما مكروا** " لاتفاقهما في الخبرية واتصالها بها لذلك وفى الفعل "حاق " استعارة تبعية بمعنى نزل واصاب فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه الفعل ـ حاق ـ والقرينة قوله : " **سوء العذاب** " ، والتعبير بـ " **آل فرعون** " لأنهم الألف الذين بعثهم إلي قتله فنزل بهم واصابهم العذاب والهلاك،

---

(١) بديع القرآن /٢٨٨ ت د حفنى شرف .

(٢) التفسير البيانى ١/١٠٧ د بنت الشاطئ .

(٣) زاد المسير ٦/١١٥ .

(٤) غافر/ ٤٥،٤٦

وقيل بفرعون وقومه فاستغنى بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلـــك ، ويجوز أن يكون " آل فرعون " شاملاً له ــ عليه اللعنة ــ بأن يراد بـــهم مطلـــق كفرة القبط .

والمراد بـــ " سوء العذاب " الغرق على الأول ، وأكل السباع والمـــوت عطشـــاً والقتل والصلب على ما روى عن ابن عباس ــ رضى الله عنـــهما ــ ، والنـــار عليهما ولعله الأولى .

والإضافة في قوله : " سوء العذاب " فاضيف " سوء " إلي " العذاب " إضافة لاميـــة ، أو من إضافة الصفة إلي الموصوف .

وقوله : " النار يعرضون عليها غدواً وعشياً " جملة مستأنفة مسوقة لبيـــان كيفيـــة ســـوء العذاب ، أو " **النار** " خبر مبتدأ محذوف كأن قائلاً قال : ما سوء العذاب ؟ فقيـــل : هو ــ النار ــ ، و " يعرضون" استئناف للبيان أو بدل مـــن " **سوء العذاب** " ولـــهذا فصلت عن سابقتها ، وقيل : إن " النار " مبتدأ ، وجملة قولـــه تعـــالى : "**يعرضون عليها**" خبره ، والجملة تفسير لقوله تعالى : " **وحاق** " إلخ ، وعلى هذا الوجه جـــاء تعظيم أمر النار وتهويل عذابها ، ومنشأ التعظيم الإجمال والتفســـير فـــي كيفيـــة تعذيبهم ، وإفادة كل من الجملتين نوعاً من التهويل . الأولـــى الإحاطـــة بعـــذاب يستحق أن يسمى ــ سوء العذاب ــ ، والثانية النار المعروض هم عليـــها غـــدواً وعشياً " (١) .

---

(١) الكشاف ٣/٤٣٠ ، ابو السعود ٧/٢٧٨ ، روح المعاني ٢٤/٧٢ ، ٧٣.

وقال المفسرون إن : " السر في إفادة تعظيم النار في هذا الوجه دون ما تضمن تفسير ـ سوء العذاب ـ وبيان كيفية التعذيب أنك إذا فسرت ـ سوء العذاب ـ بالنار فقد بالغت في تعظيم سوء العذاب ثم استأنفت بـ ـ يعرضون عليها ـ تتميماً **لقوله تعالى :ـ وحاق بآل فرعون** ـ من غير مدخل للنار فيما سيق له الكلام ، وإذا جئت بالجملتين من غير نظر إلي المفردين وأن أحدهما تفسير للآخر فقد قصدت بـ ـ النار ـ قصد الاستقلال حيث جعلتها معتمد الكلام ، وجئت بالجملة بياناً وإيضاحاً للأولى كأنك قد آذنت بأنها أوضح لاشتمالها على مالا أسوأ منه أعني النار " (١)

ومن موجبات تقديم المسند إليه إنباؤه عن التعظيم مع اقتضاء المقام له ، والتركيب أيضاً يفيد تقوية الحكم ـ كما يقول البلاغيون ـ وهو أوكد في الدلالة من قولنا ـ يعرضون على النار ـ ولذلك تجرى هذه الصياغة في المقامات التى تدعو إلي التوكيد والتقرير " (٢) .

وقوله : "يعرضون" حال من "سوء العذاب" أو من " آل فرعون" ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى يرد أن " آل فرعون " لم يهموا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ما هموا به عليهم بل يكفى في ذلك أن يكون مما يطلق عليه اسم السوء " (٣) .

وقرئ " **النار** " بالنصب على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره " **يعرضون** "

(١) روح المعاني ٧٣/٢٤ .

(٢) خصائص التراكيب /١٧٠ ، نظرات في علم المعاني /٩٠ د صباح دراز .

(٣) أبو السعود ٢٧٨/٧ .

مثل ــ يصلون ــ فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم : عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به .

وعلى هذه القراءة تكون الآية من باب الاستعارة التمثيلية : حيث شبهت حالتهم في عرضهم على النار وإحراقهم بها بحال المتاع الذي يبرزه صاحبه لمن يريد أخذه فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من العرض والإبراز والتعذيب فجعلت النار كالطالب الراغب فيهم لشدة استحقاقهم الهلاك ، وهذا العرض لأرواحهم ، ولذا روى عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار فذلك عرضها . وذكر هذان الوقتان ــ الغدوة والعشى ــ إما للتخصيص بمعنى أنهم يعرضون على النار صباحا مرة ومساء مرة أى فيما هو صباح ومساء بالنسبة إلينا ، وأما فيما بينهما فالله أعلم بحالهم إما بترك العذاب أو بتعذيبهم بنوع آخر غير النار ، ويجوز أن يراد التأبيد ما دامت الدنيا " (١) .

قوله : "ويوم تقوم الساعة " معمول لمحذوف على إضمار القول أى ويوم القيامة يقال لهم أدخلوا ، وقيل : " **ويوم** " معطوف على " **وعشيا** " **فالعامل فيه** " يعرضون " و " **أدخلوا** " على إضمار الفعل ، وقيل : العامل في " يوم " **أدخلوا** " (٢) .

و " **أدخلوا** " فعل أمر أى يقال لخزنة جهنم أدخلوهم ، وقرئ : ادخلوا ــ أمرا لآل فرعون بالدخول . وقوله : " **أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** " أى عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه ، ووصف العذاب بالشدة لأنه أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض ، وعن بعض المفسرين : أشد العذاب هو عذاب الهاوية .

---

(١) الكشاف ٤٣٠/٣ ، ابو السعود ٢٧٩/٧ ، روح المعاني ٧٣/٢٤ ، ٧٤ .

(٢) البحر المحيط ٤٦٨/٧ .

هنا آية مذكورة

وقيل : في الكلام حذف تقديره ـــ في أكنة ـــ تمنعنا من فهم ما تدعونـــا فحـذف المضاف .

وقوله :"وفى آذاننا وقر" معطوف على قوله : " **قلوبنا في أكنة** " وهو جار ومجـرور قدم على المبتدأ من تقديم المسند على المسند إليه للتنبيه على أنه خبر لا نعـت ، وهو تقديم حسن رائع ، والوقر الصمم وأصله الثقل ، والتعبير بـ " وقر " دليـل على شدة تصامهم وعدم الرغبة في الاستماع إلي القرآن ، وقـد نزلـت سـورة فصلت " تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعـون به " (١) . فكانت حالتهم كما ذكروا .

وقوله : " ومن بيننا وبينك حجاب " جملـة ابتدائيـة لأن ـ مـن ـ هنـا **وفى قوله : " مما "** لابتداء الغاية ، والمعنى : أن الحجاب ابتدأ منـا وابتـدأ منـك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها ، ولو لم يـأت بـ " من " لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين والمقصود المبالغة بالتباين المفرط فلذلك جئ بـ ـ من ـ " (٢) .

وفى الآية ثلاث استعارات تمثيلية : الأولى في قوله :ـ قلوبنا في أكنة حيث شـبهت حـال قلوبهم في نبوها وبعدها عن إدراك ما يدعوهم إليه الرسول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ بحال الأغطية المتكاثفة المانعة من وصول الأشياء إليها فاستعيرت الهيئة الدالة علـى المركب استعارة تمثيلية ، والجامع المنع والحجب والقرينة استعمال حرف الجر " **فى** " الدالة على التمكن .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٩٦/١ .

(٢) البحـر المحيـط ٤٨٤/٧ ، الكشـاف والانتصـاف بهامشـه ٤٤٢/٣ ، ابـو السـعود ٢/٨ ، روح المعاني ٩٦/٢٤ .

والثانية في قوله : " **وفى آذاننا وقر**" شبهت حالة آذانهم في صممها وعدم دخول الدعوة فيها ووصول النصح والإرشاد إليها بحال الأصم الذى لا يسمع شيئاً فثقل سمعه بحيث لا يدرك سماع شئ فضرب عليها بسد لا يسمح بدخول صوت أو غيره فمجت أسماعهم الدعوة ولم تقبلها .

والثالثة في قوله : " **ومن بيننا وبينك حجاب** " شبهت حال أنفسهم مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحال شيئين بينهما حجاب عظيم يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها .

قال العلامة الزمخشري : " وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم ــ وما هو عليه حجاباً ساتراً ، وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه فلا تلاقى ولا ترائى " (١) .

سر التعبير بقوله " قلوبنا في أكنة " دون — على قلوبنا أكنة — :

يقول جارُالله الزمخشري : " فإن قلت : هلا قيل ــ على قلوبنا أكنة ــ كما قيل ــ وفى آذاننا وقر ــ ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك ــ قلوبنا في أكنة ، وعلى قلوبنا أكنة ــ والدليل عليه قوله تعالى :ــ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة (٢)- ولو قيل :-إنا جعلنا قلوبهم

---

(١) الكشاف ٤٤٢/٣

(٢) الكهف /٥٧

في أكنة – لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع (١) منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني"(٢) واستعمال " في " في هذا الموضع أبلغ من- على " لأنهم قصدوا إفراط عدم القبول لحصول قلوبهم في أكنة أحتوت عليها احتواء على المظروف فلا يمكن أن يصل إليها كما يقال المال في الكيس بخلاف أن نقول على المال كيس فإنه لا يدل على الحصر وعدم الحصول دلالة الوعاء ، أما في قوله – إنا جعلنا – الآية . فهو من أخبار الله تعالي لا يحتاج إلي مبالغة بخلاف قولهم " (٣) .

وقال الشيخ ابن المنير : " وفي هذه الآية وأختها (٤) من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في درر الكتاب العزيز ، فأنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية كل واحد منها كاف في فنه : فأولها الحجاب الحائل الخارج ، ويليه حجاب الصمم ، واقصاها الحجاب الذى أكن القلب – والعياذ بالله – فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلا أسبلته ، ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعاً ولا صريخاً إلا استلبته ، فنسأل الله كفايته "(٥) . والفاء في قوله : " **فاعمل** : فاء الفصيحة والمعنى : إن عرفت ما قلناه لك ووعيته فاعمل . فأفصحت الفاء عن مقدر ، و" إن " واسمها و " عاملون " خبرها تفيد معنى فاستمر على دعوتك فإننا مستمرون على ديننا وهو الإشراك والكفر ، ولهذا جاء التعبير بالجملة الأسمية الدالة على الاستمرار والثبوت والدوام .

(١) يقصد بهم أهل الطبع والسليقة من العرب وشعرائهم .
(٢) الكشاف ٣/٤٤٢،٤٤٣ .
(٣) البحر المحيط ٧/٤٨٤ .
(٤) يقصد آية سورة الكهف /٥٧ .
(٥) الإنصاف على الكشاف ٣/٤٤٢ .

وقال المفسرون : " - فاعمل - على دينك، وقيل : في إبطال أمرنا — إننا عاملون — على ديننا وقيل : في إبطال أمرك ، والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه — عليه الصلاة والسلام — ومقصودهم — إننا عاملون — والأول توطئة له ، المعنى إنا لا نترك ديننا بل نثبت عليه كما نثبت على دينك ، وعلى الثاني هو مبارزة بالخلاف والجدال ، والقائل أبو جهل ومعه جماعة من قريش" (١) .

وقال أبو حيان : " ولما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينين على تحصيل المعارف في ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن ان يصل إليها مما يلقيه الرسول شئ ، واحتمل قولهم — فاعمل إننا عاملون — أى تكون متاركة محضة وأن يكون استخفافاً " (٢) .

قرآن عربى شفاء للمؤمنين وعمي الكافرين :

٢٤- قال تعالى : " ولوجعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك يناودون من مكان بعيد " (٣) .

تحليل الآية : قوله : " ولو جعلناه قرآناً أعجمياً " كلام مستأنف مسوق للرد على تساؤلهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم ، والضمير في " جعلناه " عائد على الذكر **في قوله** : " **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم** " (٤) ، و " لو" شرطية ، واللام في قوله : " **لقالوا** " واقعة في جواب الشرط ، وجملة " قالوا " لا محل لها من الإعراب ، و " لولا " حرف تحضيض بمعنى هلا .

(١) الكشاف ٤٤٢/٣ ، ابو السعود ٣/٨ ، روح المعاني ٩٦/٢٤ ، ٩٧ .

(٢) البحر المحيط ٤٨٤/٧ .

(٣) فصلت /٤٤

(٤) فصلت /٤١

والمراد بالتفصيل هنا البيان والتوضيح والمعنى : هلا بينت هذه الآيات بلسان نفهمه ونفقهه ونعرف أسراره وخفاياه .

وقوله : " **أأعجمى وعربى** " استفهام إنكارى مقرر للتحضيض ، والهمزة الأولى في " **أأعجمي** " للاستفهام الإنكارى ، والمراد أكلام أعجمي ، ورسول أو مرسل إليه عربي ، والإفراد مع كون المرسل إليهم أمة كثيرة لأن المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحداً أو جمعاً ، والأعجمي يقال لكلام لا يفهم ، ويقال أيضاً للمتكلم به ، والباء فيه للمبالغة في الوصف ، وأطلقت العجمة على كلامه مجازاً لكنه اشتهر حتى التحق بالحقيقة ، ولو نزل القرآن كما يريدون لأنكروه أيضاً وقالوا له مالك وللعجمة أو مالنا نحن وللعجمة وقرأ عمرو بن ميمون " أعجمى " بهمزة استفهام بفتح العين أى أكلام منسوب إلي العجم وهم من عدا العرب ، وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً فبين الأعجمى والعجمى عموم وخصوص من وجه " (١) وقرئ " أعجمى " على الإخبار بأن القرآن أعجمى والمتكلم والمخاطب عربى فلا يكون استفهام في الكلام ، ويجوز أن يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب ، وأياماً كان فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً يتعللون به " (٢) .

---

(١) روح المعاني ١٢٩/٢٤ .

(٢) أبو السعود ١٦/٨ .

والمقصود من الجملة الشرطية " ولو جعلناه قرآناً أعجمياً " إبطال مقترحهم وهو كونه بلغة العجم باستلزامه المحذور وهو فوات الغرض منه إذ لا معنى لإنزاله أعجمياً على من لا يفهمه أو للدلالة على أنهم لا ينفكون عن التعنت فإذا وجدت الأعجمية طلبوا أمراً آخر وهكذا .

وبين قوله : " **أأعجمى وعربى** " طباق لفظى حقيقى رائع في طية معنيان : أحدهما : أن الإنكار واقع على كون القرآن أعجمياً والرسول عربياً ، والآخر : أن القرآن أعجمى ، والمرسل إليهم أو إليه عربي ، وإنما جاء مفرداً والمرسل إليهم هم أمة العرب لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتى الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرد لما سبق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر فحسن الطباق هنا .

قال الإمام الفخر : " نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت ، قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية ــ بمعنى أنهم لو أجيبوا إلي هذا كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض الذي هو ديدنهم وعادتهم ــ ثم يقول : بل الحق عندى أن هذه السورة من أولها إلي آخرها كلام واحد وأنتم أهل اللغة فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها ، وفى آذانكم وقر منها ، فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أولها إلي آخرها على أحسن وجوه النظم " (١) .

---

(١) التفسير الكبير ١٣٤/٢٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٢٠/١٥ .

وقوله : ـــ قل هو للذين آمنوا هدى وشــــفاء رد عليـــهم ، والمعنـــى : قــل لـــهم يا محمد : إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة ، وشفاء لـــهم مـــن الجـــهل والشك والريب ، ووصف القرآن بكونه " هدى " لهدايته المؤمن به والمنفذ أحكامه إلي الحق الواضح فيهديه من حيرة ويرده من ضلالــــة الـــى نـــور وبصـــيره ، والوصف بالهدى لكون القرآن جامعاً لخصالها لا يند عنه شئ منها البتة .

ووصفه بكونه " **شفاء** " لأنه جاء شافياً لما في الصدور من الشك والشبهة وشــافياً لأمراض النفوس ونازعاً منها الداء العضال لتقويمة النفوس ، وتهذيبه إياها .

وقوله : " **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء**" تشبيه بليغ دقيق . فقد جعـــل القـــرآن نفـــس الهدي ، ونفس الشفاء يهديهم إلي سبل الرشاد ويشفيهم من أوصاب الجنون واللوثة والهوس . فهو هاد لهم وشاف لما في صدورهم ، وكاف في درء الشبهة .

وقوله : "**والذين لا يؤمنون** " معطوف علي ما سبق من باب ذكر الشئ وضده ، وهـو متعلق بقولهم ـــ سابقاً ـــ " وقالوا قلوبنا في أكنة " (١) الخ ٠٠٠ .

كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبيـــة عنكـــم ، فـــلا يمكنكم أن تقولوا : ـــ إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغـــة ، فبقـــى أن يقال : إن كل من آتاه الله طبعاً مائلاً إلي الحق ، وقلباً مائلاً إلي الصدق ، وهمـــة تدعوه إلي بذل الجهد في طلب الدين ، فإن هذا القرآن يكون في حقه هدى وشــفاء أما كونه "هدى" فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلي كل السعادات،وأما كونه شفاء لـــه

---

(١) فصلت / ٥ .

فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى ، فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من كان غارقاً في بحر الخذلان ، وتائهاً في مفاوز الحرمان ، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان ، كان هذا القرآن في آذانه وقراً ، كما قال : " **وفي آذاننا وقر** " وكان القرآن عليهم " **عمى** " كما قال : " **ومن بيننا وبينك حجاب ، أولئك ينادون من مكان بعيد** " .

بسبب ذلك الحجاب الذى حال بين الانتفاع ببيان القرآن ، وقد صارت هذه السورة من أولها إلي آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو عرض واحد (١) .

قال العلامة الزمخشري : " فإن قلت :– "**والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر** " منقطع عن ذكر القرآن فما وجه اتصاله به ؟ قلت : لا يخلو إما أن يكون - الذين لا يؤمنون - في موضع الجر معطوفاً على قوله :– للذين آمنوا - على معنى قولك - هو للذين آمنوا هدى وشفاء - وهو - للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر - إلا أن فيه عطفاً على عاملين ، وإن كان الأخفش يجيزه ، وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير : والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر - على حذف المبتدأ ، أو فى آذانهم منه وقر " (٢) .

وجئ بـ " على " في قوله :" عليهم عمى " للدلالة على استيلاء العمى عليهم ، **ولم يقل** : – هم في عمى - ليدل على أن العمى ركبهم واستولى عليهم استيلاء

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٥

(٢) الكشاف ٣/ ٤٥٦

كاملاً على طريق الاستعارة التبعية في الحروف ، فاستعير حرف " على " الدال على الاستعلاء والسيطرة لبيان ذلك ، ولم يذكر حال القلب لما علم من التعريض في قوله تعالى : " **للذين آمنوا هدى وشفاء** " بأن القرآن كان لغيرهم مرضاً فظيعاً وزادتهم الآيات رجساً إلي رجسهم وماتوا وهم كافرون .

وقوله : " **أولئك** " إشارة إلي الموصول في قوله : " **والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر** " باعتبار اتصافه بما في حيز صلته ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء " من مكان بعيد " والمعنى : أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه والتعامي عن الآيات التى يشاهدونها " (١) .

وقوله : " **ينادون من مكان بعيد** " استعارة تمثيلية : حيث شبهت حالهم في البعد والنبو والنفور عن قبول مواعظ القرآن ودلائله بحال الذي ينادى من مكان بعيد فكما أنه لا يفهم ولا يقبل قول المنادى ودعوته . فكذلك حال هؤلاء لا يقبلون دعوة من دعاهم إلي الرشد والصلاح لاستيلاء الضلالة عليهم .

والجامع الهيئة الحاصلة من النداء والدعوة ثم الانصراف والنفور وعدم الفهم والإجابة أو القبول : " قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً" (٢) .

---

(١) أبو السعود ١٧/٨ ، روح المعاني ١٣٠/٢٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٣٥/٢٧ .

ووصف المكان بالبعد دليل على عدم السماع للمنادى ، ولو فرض سماع لم يقع فهم فهكذا حال هؤلاء الموصوفين .

وأيضاً يلمح التعبير هنا إلي شئ وهو " أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء . فقلوب المؤمنين هى التى تدرك طبيعته وحقيقته . فتهتدى به وتشتفى . فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب ، فهو وقر في آذانهم ، وعمى في قلوبهم ، وهم لا يتبينون شيئاً لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه " (١) وروى عن الضحاك : أن الكلام على حقيقته وأنهم يوم القيامة ينادون بكفرهم ، وقبيح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السمعة عليهم وتحل المصائب بهم فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم ، وحاصل الرد أنه هاد للمؤمنين شاف لما في صدورهم كاف في دفع الشبه ، فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيناً في نفسه مبيناً لغيره ، والذين لا يؤمنون بمعزل عن الانتفاع به على أى حال جاءهم " (٢) .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادى من بعيد . أى كأنه ينادى من موضع بعيد فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

---

(١) في ظلال القرآن ٢٤/٢٨/٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥ /٣٢١ ، روح المعاني ٢٤/١٣١ .

إصرار الكفرة على القضاء على الدين وأنى لهم ذلك ؟

٢٥ - قال تعالى : " يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون " (١) .

تحليل الآية : قوله : " يريدون " كلام مستانف جاء جواباً عن سؤال مثار في قوله : " والله لا يهدى القوم الظالمين " . (٢) كأن قائلاً قال ماذا فعل هؤلاء الظالمون أو ماذا أرادوا ؟ فأجيب بقوله : " يريدون " إلخ ، ومن هنا فصل هذا القول عن سابقه . فكان بين الجملتين شبه كمال الاتصال .

وقوله : " **ليطفئوا** " باللام ، وفى التوبة بدونها ، والمراد : - أن يطفئوا وزيدت اللام هنا مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك . جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في ــ لا أبالك . تأكيداً لمعنى الإضافة في ــ أباك ــ ، وإطفاء نور الله تعالى بأفواههم . تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن بأنه سحر وأساطير الأولين وغير ذلك " (٣) .

فاللام إذاً مؤكدة دخلت على المفعول لأن التقدير يريدون أن يطفئوا .

وقوله : " **بأفواههم** " تورية (٤) : فالمراد بالأفواه هنا : أقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند إليه حسبما حكى

---

(١) الصف /٨ ، التوبة /٣٢ - أن يطفئوا "

(٢) الصف /٧ .

(٣) التفسير الكبير ٣١٥/٢٩ ، الكشاف ٩٩/٤

(٤) التورية : أن يطلق لفظ له معنيان حقيقيان أو مجازيان أو مختلفا الطرفين قريب لكثرة استعماله وبعيد لقلة استعماله ويراد البعيد منهما . الإيضاح ٣٨/٦ ت د خفاجي ، البديع في ضوء أساليب القرآن /١٠٨ د لاشين .

عنهم ، وقيل : المراد به نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم — وعلى كل فهذان هما المعنى البعيد المراد من التورية ، والمعنى القريب هو الألسنة التى يكون بها الكلام والقول ، وهى تورية مرشحة بحرف الجر الباء فإن الكلام يكون بها .

وعن ابن عباس وابن زيد : يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول ، وقال ابن بحر : يريدون إبطال حجج الله تعالى بتكذيبهم ، وقال الضحاك : يريدون هلاك الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالأراجيف " (١) .

وفى قوله : " يريدون ليطفئوا نور الله " استعارة تمثيلية : شبهت حالتهم في اجتهادهم في إبطال الحق وتكذيب نبوة النبى — صلي الله عليه وسلم - بحال من ينفخ في نور الشمس بغيه ليطفئها تهكماً وسخرية بهم ، والجامع الاجتهاد في الإذهاب مع ضياع هذا الجهد والكد .

وقيل : هو استعارة تصريحية أصلية فاستعير — نور الله — لدينه القويم وشرعه المنير ، والإطفاء ترشيح للاستعارة .

وللّه در العلامة ابى السعود في تحليله لمراد المعنى في قوله : " ليطفئوا " حيث **يقول** " إطفاء النار عبارة عن إزالة لهبها الموجبة لزوال نورها لا عن إزالة نورها كما قيل . لكن لما كان الغرض من طفاء نار لا يراد بها إلا النور كالمصباح إزالة نورها جعل إطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق إزالة النور وإن كان لغير النار ، والسر في ذلك انحصار إمكان الإزالة في نورها ،

---

(١) روح المعاني ٨٨/٢٨

والمراد بنور الله سبحانه إما حجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والأولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي من جملتها ما خلفوه من أمر الحل والحرمة " (١) .

وقوله : " **والله متم نوره** " معطوف على قوله : " **يريدون** " للرد على هؤلاء الكافرين في محاولتهم ، ولتسفيه معتقدهم وإذهاب مطمعهم في ذلك ، **والمراد** : والله مظهر دينه بنشره في الآفاق ، وإعلانه على الأديان ، وقوله : " متم " تجريد للاستعارة ، والتجريد في الاستعارة : أن تقرن بما يلائم المستعار له " المشبه " إبطال الحق وتكذيب نبوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودين الله وشرعه .

وقيل : هو ترشيح للاستعارة وذلك لأن إتمام النور زيادة في استنارته وفشو ضوئه فهو تفريع على المشبه به ، ونسبة النور إلي الله تعالى العظيم الشأن ، ومن شأن النور المضاف إليه سبحانه أن يكون عظيماً فكيف يطفئ بنفخ الفم ؟

والمراد بالنور في قوله : " والله متم نوره " هو النور في قوله : " يريدون ليطفئوا نور الله " فاقيم الظاهر مقام الضمير ، وأضيف إلي ضميره سبحانه لمزيد الاعتناء بشأنه وللإشعار بعلة الحكم ، وتشريف له على تشريف .

---

(١) أبو السعود ٦١/٤ .

فالله تعالى متم الحق ومبلغه غايته ، وقرئ بالتنوين ونصب " نوره " على المفعولية أى : متم نوره .

و " لو " في قوله : " **ولوكره** " شرطية جوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة ، وهما في موضع الحال ، والمراد : والله متم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أى على كل حال مفروض، وقد حذفت الأولى في الباب حذفاً مطرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لأن الشئ إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى " (١) .

و " الكافرون " هم اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين ، ولفظ الكافر أعم من لفظ المشرك ، ولما كان المراد بـ " الكافرون " اليهود والنصارى والمشركين ، وذكر هنا النور وإطفاؤه ، واللائق به الكفر لأنه الستر والتغطية ، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال " (٢) .

وتعريف " الكافرون " بالألف واللام للأستغراق والمراد الكاملون في الكفر البالغون فيه أقصى الدرجات .

وقدروت التفاسير : أن كفار مكة كانوا يكرهون هذا الدين الحق ، من اجل توغلهم في الشرك والضلال ، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق ، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا

---

(١) ابو السعود ٤/٦١

(٢) التفسير الكبير ٢٩/٣١٦

الدين بل المراد أن يكون أهله عالين غالبين على سائر أهـــل الأديــان بالحجــة والبرهان ، والسيف واللسان إلى آخر الزمان " (١) .

الكافرون في إعراضهم حمر نافرة :

٠٢٦ **قال تعالى :** فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت مـــن قسورة " (٢) .

تحليل الآيات : قوله : "فما لهم عن التذكرة " استئناف لبيان حال هؤلاء المجرمين لمـا ذكر تعالي قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليـــهم بأسـلوب الاسـتفهام الإنكارى التوبيخى فقال " فمالهم " والمراد : ما لـــهؤلاء المشـركين المجرميـن معرضين عن القرآن وآياته ، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإرشـادات ؟ والفاء هنا لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على مـا قبلـها مـن موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين ، وتقديم " عن التذكـرة " للعناية بذلك لأن مصب الإنكار عليها وعلى موجباتـها مـع رعايـة الفاصلـة ، والمعنى : إذا كان حال المكذبين به على ما ذكر فأي شئ حصل لهم معرضيـــن عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه وتآخذ الدواعى إلـي الإيمـان بـه ، وجوز أن يراد بـ - التذكرة - ما يعم القرآن وما بعد يرجح الأول ، وهو مصـدر بمعنى التذكير أطلق على ما ذكر مبالغة " (٣) .

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٤/٤٩٠ .

(٢) المدثر /٤٩- ٥١ .

(٣) أبو السعود ٦٢/٩ ، روح المعاني ١٣٣/٢٩ .

وقوله : " **كأنهم حمر مستنفرة** " جملة حالية من الضمير المستكن في قوله : " **معرضين** " فهى حال متداخلة والمراد مشبهين بحمر نافرة .

قال الإمام الرازي : " قال ابن عباس : يريد الحمر الوحشية ، ومستنفرة أى نافرة ، وقرئ بالفتح ، وهي المنفرة المحمولة على النفار ، قال أبو على الفارسي : الكسر في ــ مستنفرة ــ أولى ألا ترى أنه قال ــ فرت من قسورة ــ وهذا يدل على أنها هي استنفرت ، ويدل على صحة ما قال أبو على : إن محمد بن سلام قال : سألت ابا سوار الغنوى ، وكان أعرابياً فصيحاً . فقلت ــ كأنهم حمر ــ ماذا ؟ فقال : مستنفرة طردها قسورة . قلت إنما هو فرت من قسورة ، قال أفرت ؟ قلت : نعم قال : فمستنفرة إذا " (١) و " قسورة " هو الأسد . فعولة من القسر وهو القهر والغلبة ، وقيل : هى جماعة الرماة الذين يتصيدونها ، والأحسن أن استفعل للمبالغة كأن الحمر لشدة العدو تطلب النفار من نفسها ، والمعنى مشبهون بحمر نافرة جداً .

وقوله : " **كأنهم** " إلخ . تشبيه تمثيلي : شبهت حالهم في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه ، وإعراضهم عن الدعوة إلي إرشاداته وفرارهم منها وسيرهم على غير هدى . بحال الحمر الوحشية النافرة التى يتعقبها أسد مصور فتجد في نفارها مبعثرة مذعورة هنا وهناك تبغى الإفلات من براثنه المطبقة عليها . فهؤلاء القوم يفرون من سماع القرآن كما تفر الحمر

---

(١) التفسير الكبير ٢١٣/٣٠

من الأسد . فيالها من صورة تمثل الهزء بهم والسخرية منهم " (١) ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الإعراض والنفار والخوف والهلع والذعر .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت . كذلك هؤلاء المشركون إذا إذا رأوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هربوا منه كما يهرب الحمار عن الأسد " (٢) .

قال العلامة الزمخشري : " وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم ، وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر وعدوها إذا وردت ماءً فأحست عليه بقانص " (٣) .

" فانظر إلي تلك الصورة لهؤلاء وهم يفرون من الداعي ، ويعرضون عن الحق ، ولكن هذا الإعراض لا يزيدهم إلا حيرة وخوفاً فما أشبههم بهذه الحمر الوحشية النافرة الشاردة وهى تفر من أسد خشية أن يفترسها ، إن التشبيه هنا مع ما فيه من إبداع التصوير وروعته ، نجد فيه كذلك من دقة التعبير وموضوعيته ، ذلك أنهم شبهوا بالحمر ، والحمر مثال في البلادة ، ثم هم قد فروا من قسورة ، وفي هذا إيحاء أن الداعي إلي الحق حري به أن يكون أسدا فتكون الشجاعة من أبرز

---

(١) محاسن التأويل ٣٤٥/١٦ .
(٢) التفسير الكبير ٢١٣/٣٠ .
(٣) الكشاف ١٨٨/٤ .

صفاته ، وشتان بين ما فر من أجله هؤلاء وبين ما تفر من أجله صفاته ، وشتان بين ما فر من أجله هؤلاء وبين ما تفر من أجله الحمر المستنفرة ، أليسوا أضل من الحمر سبيلاً ؟ " (١) .

ففى التشبيه دقة في اختيار الألفاظ وانتقائها تؤدى كل لفظة المراد المطلوب منها ، ثم اتساق الغرض الذى من أجله جاءت مع البعد عن ترف الخيال ورعونة العاطفة وسرف القول وفضوله .

حجب الكفرة عن رؤية الله تعالي :

٢٧- قال تعالي : " كلاً إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " (٢)

تحليل الاية :قوله " **كلاً** " ردع وزجر عن الكسب الرائن على قلوب هؤلاء المجرمين المكذبين ، والجملة مؤكدة بأكثر من مؤكد حتى لا يكون هناك منزع لإنكار كونهم يرون ربهم . فهم لا يرونه سبحانه وهو عز وجل حاضر ناظر لهم بخلاف المؤمنين .

وتقديم الجار والمجرور " عن ربهم " للأهتمام لأن الحجب عنه طاقة كبرى ــ إذ إنهم لا يستحقون هذه الرؤية . فليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة حسنى بل هم " عن ربهم يومئذ لمحجوبون " وهو تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار ، وما يكون وعيدا وتهديدا للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن . فهؤلاء المكذبون ممنوعون من رؤية الله تعالى لأنهم ليسوا أهلا

---

(١) البلاغة فنونها وافنانها علم البيان /٩٦ د فضل عباس .

(٢) المطففين /١٥

لذلك ، ولذا ذكرهم بالتخصيص فحجبوا عن النظر إلي رؤية ربهم لأنـــها منزلـــة كبيرة لا يســـتحقها إلا المؤمنـــون الموحـــدون . أمـــا هـــؤلاء فغـــير مقبوليـــن عند الله تعالي.

وفي الآية تشبيه تمثيلي : شبهت حالتهم في إهانتهم والاستخفاف بهم وأنهم لا يؤذون لهم في رؤية الله تعالي ويمنعون عن القرب من جلاله وذاته . بحال أناس حجبـــوا عن الدخول على الملوك وذوى العلية والمراتب السامية في مقام لا يؤذن فيـــه إلا للمقربين المكرمين لديهم ولا يحجب عنـــهم إلا الأدنيـــاء الموســـومون بالمهانـــة والعماءة والصغار ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من المنع والإهانة وعدم القبول والاستخفاف ونزول القدر .

والمراد الأسمى من الآية : ليرتدع هؤلاء المكذبون عن غيهم وضلالاهم ، فـــهم فـــي الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يرونه .

والكلام ــ على ما قيل ــ مبنى على حذف مضاف أى عن رؤية ربهم للمنوعـــون فلا يرونه سبحانه ، ولا يسمح لهم بنيل القرب من رب الورى .

قال الإمام القرطبى : " قال الزجاج : في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يـــرى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، ولا خست منزلة الكفار بأنـــهم يحجبون ، وقال مالك بن أنس في هذه الاية : لمـــا حجـــب أعـــداده فلـــم يـــروه تجلي لأوليائه حتى رأوه ، وقال الشـــافعي : لمـــا حجـــب قومـــاً بالســـخط . دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، وقال الحسين بن الفضل : لما حجبهم فـــي الدنيـــا

عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته " (١).

وقدر ابن عباس وقتادة ومجاهد مضافا محذوفا أى عن رحمة ربهم وقدر ابن كيسان عن كرامته لكنهم أرادوا عموم المقدر للرؤية وغيرها من ألطافه تعالى ، والتنوين في ـ يومئذ ـ تنوين عوض ، والمعوض عنه هنا ـ يقوم الناس (٢) ـ السابق كأنه قيل : إنهم لمحجوبون عن ربهم يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين " (٣) .

لا مهرب للكافرين من عذابه تعالى :

٢٨- قال تعالى : " فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد (٤)

تحليل الآيتين : قوله : " **فصب عليهم** " جملة معطوفة علي ما سبق لبيان جزاء هؤلاء " الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد " (٥) موصولة بها بالفاء لترتيب العذاب والجزاء علي أفعالهم وتعقيبها إياها بمصيرهم ومآلهم ، والمراد : أنزل سبحانه إنزالا شديدا علي كل طائفة من تلك الطوائف عقيب ما فعلت من الطغيان والفساد ، والتعبير عن الإنزال بالصب للأيذان بكثرته وتتابعه واستمرار فأنه عبارة عن إراقة شيئ مائع أو جار مجراه في السيلان كالحبوب والرمل ، وإفراغه بشدة وكثرة وتقديم الجار والمجرور "عليهم " لكونه عليهم لا يتعداهم إلي غيرهم إلا لمن نهج نهجهم ، وهو جزاء لمن يفعل فعلهم إلي يوم القيامة . فجعل هذا العذاب حالا بتلك الطوائف كما فصلته آية العنكبوت : " **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** " (٦) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٢٢٨ ، ٢٢٩ بتصرف

(٢) المطففين /٦ .

(٣) روح المعاني ٣٠/٧٣ .

(٤) الفجر ١٣، ١٤ .

(٥) الفجر /١١، ١٢

(٦) العنكبوت /٤٠

وتسمية ما حل بهم من ألوان العذاب سوطاً للإشارة إلي أن ذلك بالنسبة إلـي مـا أعد لهم في الآخرة بمنزلة السوط عند السيف ، ونسبة السوط وإضافته إلي العذاب مع أنه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه في نزلـه المتتـابع المتـدارك علـى المضروب بقطرات الشئ المصبوب ، وقيل : إن إضافة السوط إلي العذاب تقليـل لما أصابهم منه ولا يأبى ذلك التعبير بالصب المؤذن بالكثرة لأن القلة والكثرة مـن الأمور النسبية ، وإضافة السوط إلي العذاب من باب التشبيه المؤكد كما في لجيـن الماء " (١).

وقوله : " **فصب عليهم ربك سوط عذاب** " استعارةمكنية حيث اسـتعمل الصـب وهـو خاص بالماء لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب . فشبه ما حل بهم مـن فنون العذاب وأصنافه بسياط لاذعة تكوى جسـد المعـذب ، واسـتعمل الصـب للإنزال ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو كونه سوط عذاب ، واستعار السوط للعذاب لأنه يقتضى من التكرار والترداد ما لا يقتضيـه السـيف ولا غيره .

قال العلامة الزمخشري : " يقال صب عليه السوط وغشاه وقنعـه ، وذكـر السـوط إشارة إلي أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلي ما أعد لهم فـي الآخرة إذا قيس إلي سائر ما يعذب به " (٢).

---

(١) أبو السعود ١٥٥/٩ ، روح المعاني ١٢٥/٣٠ .

(٢) الكشاف ٢٥٠/٤، ٢٥١ .

وقوله : "إن ربك لبالمرصاد" تعليل لما قبله وإيذان بأن كفار قومه ــ عليه الصلاة والسلام ــ سيصيبهم مثل ما أصاب إضرابهم المذكورين من العذاب كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلي ضميره - صلى الله عليه ــ وقيل : هو جواب القسم وما بينهما اعتراض " (١) .

و ــ المرصاد ــ اسم مكان لما يترقب فيه الرصد على زنة مفعال من رصده كميقات من وقته .

وقوله : " إن ربك لبالمرصاد " استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى : حافظاً لأعمال العباد مراقباً عليها ومجازياً على ما دق وخفى منها ، ومجازياً على النقير والقطمير ولا محيد للعباد عن موقف حسابه بحيث لا ينجو منه إلا إليه . بحال من قعد على الطريق والسابلة مترصداً لمن يسلكها والجائى أو لأخذ المكس فيأخذه فيوقع به ما يريد ولا مخلص لهم عن المرور عليه فأطلق على الحالة المشبهة ما يعبر به عن الحالة المشبه بها " (٢) والجامع الهيئة الحاصلة من الحفظ والمراقبة والمجازاة والأخذ والرصد .

والآية على هذا كما قال الألوسى : " وعيد للعصاة مطلقاً ، وقيل هى وعيد للكفرة ، **وقيل** : وعيد للعصاة ووعد لغيرهم وهو ظاهر قول الحسن. أى يرصد سبحانه أعمال بنى آدم ، وجوز ابن عطية كون المرصاد صيغة مبالغة كالمطعام والمطعان كأنه قال لبالراصد فعبر ببناء المبالغة ، وتعقبه أبو حيان بأنه لو كان كما زعم لم تدخل الباء لأنها ليست فى مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة ، وأجيب بأنها

---

(١) أبو السعود ١٥٦/٩ ، روح المعاني ١٢٥/٣٠ .

(٣) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٦٥٧/٤ ، البحث البياني في الحاشية /٢٥٥ للمؤلف

على ذلك تجريدية (١) . نعم يلزمه إطلاق المرصاد على الله عز وجل وفيه شئ " (٢) .

وقال ابن جزى : " والمراد أنه تعالى رقيب على كل إنسان ، وإنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار وفى ذلك تهديد لكفار قريش " (٣) .

إهلاك الله قوم صالح أمر هين عليه سبحانه :

٢٩- **قال تعالى : "ولا يخاف عقباها "** (٤)

تحليل الآية : قوله : " ولا يخاف " معطوف على ما سبق موصول به لتوضيح نتيجة الكذب والافتراء والعقر بأنه الإطباق بالعذاب بسبب ما ارتكبوه من فعلتهم المشئومة ، وأنه لم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير ، ولا أنس ولا جان .

والتعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدد ذلك واستمراره وأن العقاب متجدد مستمر لم يفعل فعلهم ويتقبل مذهبهم .

والفاعل مقدر يعود عليه سبحانه ، والواو في " ولا " للحال أو للاستئناف ، ويد عقباها " أى عاقبتها وتبعتها .

وفي الآية استعارة تمثيلية على اعتبار أن الضمير في قوله : " يخاف " عائد على الله عز وجل وهو ظاهر كلام المفسرين . حيث شبهت حاله تعالي في إهلاك

---

(١) وهى الداخلة على المنتزع منه في باب التجريد .

(٢) روح المعاني ١٢٥/٣٠ ، البحر المحيط ٤٧٠/٨ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٧/٤ .

(٤) الشمس /١٥ .

هؤلاء وإطباق العذاب عليهم ، وتسويتهم بالأرض . بحال خوف الملـــوك عاقبـة أفعالها أى كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الإبقاء ، وذلك أنـــه تعالي لا يفعل فعلاً إلا بحق ، وكل من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعلـــه ، وإن كان من شأنه الخوف ، فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، والغـرض من الاستعارة إهانتهم وإذلالهم عند الله جل جلالـــه ، ويجــوز أن يكــون الأمــير " **لا يخاف** " للرسول ، والواو للاستئناف فقط ، والمراد : ولا يخاف الرسول عقبى هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذرهم " (١) .

فلا يخاف الرسول عاقبة إنذاره لهم والاستعارة باقية على حالها ، وقرأ نافع وابـن عامر وأبى والأعرج " **فلا** " بالفاء وهو الأجود ، لأنه يرجع إلي المعنـى الأول أى فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم ، وقرأ الباقون بالواو ، وهي أشبه بالمعنى الثـاني ، أى ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع " (٢) .

---

(١) الكشاف ٢٦٠/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ٧٢/٢٠ ، البحر المحيط ٤٨٢/٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٢/٢٠ ، روح المعاني ١٤٦/٣٠ .

" الفصل الثالث "

وتحته ثلاثة مباحث

الأول : الحديث عن القيامة .

الثاني : كتمان الآيات وعدم الاهتداء بها .

الثالث : الموازنة بين طرفى الإيمان والكفر

" المبحـــث الأول "

" الحديـــث عـــن القيامـــة "

الكل راجع إلي الله :

١- **قال تعالى : " وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون "** (١) .

٢- **تحليل الآية : قوله تعالى : " وتقطعوا أمرهم " معطوف على ما سبق وهو التفات من الخطاب فيما سبق في قوله : " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون "** (٢) إلي الغيبة هنا في " **وتقطعوا** " لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين وجعل أمره قطعاً موزعة وينهى قبائح أفعالهم إلي الآخرين كأنه قيل : ألا ترون إلي عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ والأصل ــ تقطعتم ــ وفى هذا الالتفات ذم للاختلاف في الأصول " (٣) .

وفى الفعل " **تقطعوا** " استعارة تبعية حيث استعير التقطيع للتفرق والتمزق فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ثم اشتق منه ــ تقطعوا ــ بمعنى تفرقوا وتمزقوا والجامع بين الطرفين الضياع وعدم البقاء في كل والقرينة عقلية لاستحالة تقطيع الأمور حقيقة .

ولفظ " **كل** " نكرة للعموم والشمول والمراد كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد عن آحاد كل واحدة من تلك الفرق .

وقوله : " وتقطعوا أمرهم " أي جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً على أن ــ تقطع ــ مضمن معنى الجعل فلذا تعدى إلي " أمرهم " بنفسه .

---

(١) الأنبياء /٩٣ .

(٢) الأنبياء /٩٢ .

(٣) أبو السعود ٨٤/٦ ، روح المعاني ٩٠/١٧ .

قال أبو البقاء : " ــ **تقطعوا أمرهم** ــ أى في أمرهم أى تفرقوا ، وقيل : عدى بنفسه لأنه بمعنى قطعوا أى فرقوا ، وقيل : هو تمييز محول عن الفاعل أى تقطع أمرهم " (١) ، والرأى الأول أولى وأظهر من الثاني أعنى ــ التمييز ــ .

وقوله : " **وتقطعوا أمرهم بينهم** " استعارة تمثيلية حيث شبه حال الأمم المتفرقة في الدين وتفرقهم فيه إلي شيع وأحزاب بحال الجماعة التي تتوزع الشيء لهذا نصيب ولذاك نصيب لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى . والجامع الهيئة الحاصلة من التفرق والاختلاف مع عدم الالتزام بمبدأ واحد ، وهذه الاستعارة من ألطف وأدق الاستعارات الآخذة بالألباب .

وقوله : " **إلينا راجعون** " تذييل لبيان مصير جميع الأمم وإظهار النهاية الواحدة للجميع ، وتقديم الجار والمجرور " **إلينا** " أسلوب قصر بتقديم ماحقه التأخير من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً ، والمراد : المرجع والمصير إلينا لا إلي غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم ، وإيراد اسم الفاعل " **راجعون** " دون الفعل ــ يرجعون ــ للدلالة على الثبوت والتحقق .

والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله ، **وقيل** : المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وتقسموه بينهم ، فهذا موحد ، وذاك يهودى ، وهذا مجوس وذاك نصراني ، وهذا عابد وثن . ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال : ــ كل إلينا راجعون ــ أى : كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث . لا إلي غيرنا " (٢) .

(١) إملاء ما من به الرحمن ١٣٦/٢ ، ١٣٧ .

(٢) فتح القدير ٥٣٢/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٩٧/١١ .

فهذه الآية التى معنا تبين : " أن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التى تقوم عليها الرسالات فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها ، وثار بينهم الجدل ، وكثر بينهم الخلاف ــ وهاجت بينهم العداوة والبغضاء . وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً باسم العقيدة ، والعقيدة واحدة وأمة الرسل كلها واحدة ، لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا ، ولكنهم جميعاً سيرجعون إلي الله في الآخرة : – **كل إلينا راجعون** - فالمرجع إليه وحده ، وهو الذي يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال " (١) .

زلزلة الساعة وموقف القيامة :

٢- قال تعالى :" يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " (٢) .

تحليل الآيتين : قوله تعالى : " يا أيها الناس " أسلوب إنشائي طريقه النداء مراد به الحث والإرشاد ، وهو خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك إلي يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فإن خطاب المشافهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف إلا عند الحنابلة بل إما بطريق تغليب الفريق الأول على الأخيرين وإما

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٩٧/٤ .

(٢) الحج / ٢،١ .

بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجي فإن الإجماع منعقد على أن آخر الأمة مكلف بما كلف به أولها ، وأما الأمم الدارجة قبل النزول فلاحظ لهم في الخطاب لاختصاص الأوامر والنواهي بمن يتصور منه الامتثال ، وأما اندراجهم في خطاب ما عداهما مما له دخل في تأكيد التكليف وتقوية الإيجاب فستعرف حاله ، ولفظ ـ الناس ـ ينتظم الذكور والإناث حقيقة ، وأما صيغة جمع المذكر في قوله تعالى ـ اتقوا ربكم ـ فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للإناث عند غير الحنابلة ، وأما إدخالهن في الأمر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجي وإن كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعى تخصيص لفظ ـ الناس ـ ببعض أفراده والمأمور به إما مطلق التقوى التي هي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ، وإما التقوى فيما يتعلق بحقوق أبناء الجنس أى اتقوه في مخالفة أوامره ونواهيه على الإطلاق ، أو فى مخالفة تكاليفه الواردة ههنا ، وأيا ما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب " (١) .

وقوله : " **إن زلزلة الساعة** " إلخ تعليل لموجب الأمر بذكر أمر هائل فإن ملاحظة عظم ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة .

---

(١) أبو السعود ١٣٧/٢ ، ٩١/٦ ، الكشاف ٤٩٢/١ ، ٤٩٣ ، روح المعاني ١١٠/١٧ .

وقوله : "إن زلزلة الساعة شئ عظيم" أسلوب توكيدي خرج فيه الكلام عن مقتضى الظاهر لتنزيل غير السائل منزلة السائل . فهم قد أمروا بالتقوى ، ومن حقهم أن يتساءلوا : ما الباعث لهذا الأمر ؟ وما الغاية منه ؟ فقيل لهم : " إن زلزلة الساعة شئ عظيم " **وذكر** " إن " هنا من أدوات ربط الجملة بما قبلها بحيث لو أسقطت لذهب رونق النظم واصبح الكلام مفككا لا ميزة له ، ولا روح فيه . فيقال مثلا " **يا أيها الناس اتقوا ربكم زلزلة الساعة شئ عظيم** " ـ فيذهب حسن الكلام ورونقه ويكون نابيا . وقد يظن أن الفاء تصلح للربط بين الجملتين . فنقول مثلا فزلزلة الساعة شئ عظيم . فإن الفاء لا تسد مسد ـ إن ـ لا من حيث جمال الإيقاع حيث الإيقاع فحسب ، وإنما لا تسد مسدها من حيث ، وما يتطلبه من جمال النظم كذلك لأن الفاء ليس لها مزية إلا الربط بين الجملتين ، أما ـ إن فمع أنها تسد مسد الفاء فتربط بين الجملتين . فإنها تدل على التوكيد كذلك " (١) .

و ـ **الزلزلة** ـ هي التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها ، وإضافة الزلزلة إلي ـ الساعة ـ إما من إضافة المصدر إلي فاعله على سبيل المجاز الحكمى ـ العقلي ـ لعلاقة الفاعلية وهو مجاز في النسبة ـ لأن المحرك حقيقة هو الله تعالى والمفعول الأرض أو الناس ، أو من إضافة المصدر إلي مفعوله على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به لعلاقة المفعولية ، وجوز أن تكون الإضافة على معنى ـ فى ـ ، وقد اختلف في وقتها : فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة ،

---

(١) البلاغة فنونها وافنانها علم المعاني /١٣٣،١٣٧ بتصرف .

وعن علقمة والشعبى عند طلوع الشمس من مغربها " (١) .

ووصف هذه الزلزلة بقوله " شئ عظيم " لهول ذلك اليوم لينظر هؤلاء المخاطبون إلي تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الإفزاع إلا أن يترددوا به " (٢) .

وقوله : " **يوم ترونها تذهل كل مرضعة** " منصوب بـ " **تذهل** " وهو مقدم عليه للاهتمام ، **وقيل** : إنه منصوب بالوصف " **عظيم** " **وقيل** : بإضمار فعل ـ اذكر ـ والضمير في " ترونها " للزلزلة أى وقت رؤيتكم إياها ومشاهدتكم لهول مطلعها ، وقرئ : " **تذهل كل مرضعة** " على البناء للمفعول ، وتذهل كل مرضعة أى تذهلها الزلزلة ، والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة .

وقوله :"**مرضعة** " هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها وهى بخلاف المرضع بلا هاء فإنها التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به .

<u>قال العلامة الزمخشري</u> : "فإن قلت :لم قيل ـ مرضعة ـ دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي والمرضع التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقيل ـ مرضعة ـ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة "(٣).

(١) الكشاف ٣/٣ ، روح المعاني ١١٠/١٧ ، فتح القدير ٥٤٤/٣ .

(٢) الكشاف ٣/٣ .

(٣) الكشاف ٤/٣ .

والتعبير بـ " مرضعة عما أرضعت " ليدل على شدة الأمر وتفاقم الهول والظاهر أن – ما – في قوله " عما " موصولة والعائد محذوف أي عن الذى أرضعتـه ، والتعبير بـ – ما – لتأكيد الذهول وكون الطفل الرضيع بحيث لا يخطر ببالـها أنه ماذا ؟ لأنها تعرف شيئيته لكن لا تدرى من هو بخصوصه ، وقيل : مصدرية أى تذهل عن إرضاعها ، والأول دل على شدة الهول وكمال الانزعاج " (١) .

وقوله : " **وتضع كل ذات حمل حملها** " معطوف على ما قبله وقد وصلت هذه الجملة بما قبلها من باب عطف الجمل التي لها محل إعرابي على بعضها ، ومن هنا كان عطفها على الجملة الأولى ملزماً لها بالاشتراك معها . في حكمها الإعرابي وفي الحكم بها على المسند إليه " (٢) ، والجملتان خبريتان ومن هنا عطفت إحداهما على الأخرى .

والمراد : وتلقى ذات جنين جنينها لغير تمام ، " وإنما لم يقل : وتضع كل حاملة ما حملت على وزان ما تقدم لما أن ذلك ليس نصاً في المراد وهو وضع الجنين بخلاف ما فى النظم الجليل فإنه نص فيه لأن الحمل بالفتح ما يحمل في البطن من الولد ، وإطلاقه على نحو الثمرة في الشجرة للتشبيه بحمل المرأة ، وللتنصيص على ذلك من أول الأمر لم يقل وتضع كل حاملة حملها " (٣) .

---

(١) روح المعاني ١٧١١٢ .

(٢) دراسات في علم المعاني /٢٢٢د.حسن مخيمر .

(٣) روح المعاني ١١٢/١٧ .

وقوله : " **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى** " معطوف على ما سبق وهي جملة خبرية موصولة غير مفصولة لتشريكها مع ما تقدم في الحكم . و " ترى " بفتح التاء والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين برؤية الزلزلة ، والاختلاف بالجمعية والإفراد لما أن المرئى في الأول هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع وفي الثاني حال من عدا المخاطب منهم فلابد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئي لا في الرائي باختلاف مشاعره لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها . **كأنه قيل :** ويصير الناس سكارى إلخ ، وإنما أوثر عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء إلي حد لا يكاد يخفى على أحد أي يراهم كل أحد " (١).

وفي قوله : " **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى** " تشبيه بليغ فقد شبه الناس في ذلك اليوم العصيب بحالة السكارى الذين فقدوا التمييز وأضاعوا الرشد ، والوجه الارتباك وعدم الاتزان ، وحذف هذا الوجه والأداة .

قال العلامة جار الله : " فإن قلت : لم قيل أولاً - ترون - ؟ ثم قيل - ترى - على الإفراد ؟ **قلت :** لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها ، وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم " (٢) .

وقوله : " **سكارى** " حال من " ترى " أي يراهم كل واحد مشابهين للسكارى ، وقوله : "

---

(١) أبو السعود ٦/٩٢ .

(٢) الكشاف ٣/٥ .

وما هم بسكارى " استمرار النفى ، واكد بزيادة الباء للتنبيه على أن ماهم فيه ليس من المعهود في شئ وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله ، واشير إلي سببه بقوله تعالى :ـ **ولكن عذاب الله شديد** ـ أى أن شدة عذابه تعالى تجعلهم كما ترى " (١)

قال ابن المنير : " بعد أن اثبت السكر المجازى نفى الحقيقى ابلغ نفى مؤكد بالباء ، والسر في تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شئ وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله ، والإستدراك بقوله :ـ ولكن عذاب الله شديد ـ راجع إلي قوله : ـ وما هم بسكارى ـ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى كأنه **قيل** : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : سببه شدة عذاب الله تعالي " (٢) .

وذكر ابو حيان أن : " الاستدراك جاء بالإخبار عن أن ـ عذاب الله شديد ـ لما تقدم ما هو بالنسبة إلي العذاب ـ أى مقدر ـ كالحالة اللينة الهينة وهو الذهول والوضع ورؤية الناس أشباه السكارى وكأنه قيل : وهذه أحوال هينة ـ ولكن عذاب الله شديد - وليس بهين ولا لين لأن ـ لكن ـ لابد أن تقع بين متنافيين بوجه ما "(٣) .

ولكن ما ذكره أبو حيان حلاف الظاهر جداً وما ذكرناه أولاً أولى واظهر .

وفى الآية : استعارة تمثيلية فقد شبهت أحوال الآخرة وما فيها من أهوال وشدة

---

(١) روح المعاني ١١٣/١٧ .

(٢) الانتصاف ٥/٣ .

(٣) البحر المحيط ٣٥١/٦ .

تنسى المرء أعز ما عنده . بهيئة المرضعة التي تذهــل عــن رضيعــها ، وذات الحمل التى تنسى حملها ، واختلاط الناس واضطرابهم كالسكري . ثم اســتعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، والجامع بين الطرفين الحالة الحاصلــة مــن الفزع والهلع والاضطراب والاختلاط وشدة الهول .

وفائدة التمثيل في الآية : بيان أن الأمر إذ ذاك أشد وأعظم وأهول مما وصــف وأطم لشيوع ما ذكر في التهويل .

فالآية تصف : " يوم القيامة بأن هوله إذا فاجأ المرضعة وقد ألقمت ثديها للصبــى نزعته ، لما يلحقها من الدهشة والفزع ، ولو قال تعالى : تذهل كل امــرأة عــن ولدها لكان بياناً حسناً وبلاغة كاملة ، وإنما أراد أن يزيد في الفزع ، ويضــاعف في الشدة ، فخص المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتــها بحاجته إليها ، وأشغف به لقربها منها ، ولزومها له لا يفارقها في آيــة لحظــة . فهذه الأوصاف ليوم القيامة تجعل كل عاقل يفكر في عاقبة الأمر ، ويستعد للنجـاء من هذا الهول والفزع الأكبر " (١) .

السماوات مطويات بيمين الرحمن :

٣- قال تعالى : " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون " (٢).

تحليل الآية : قوله " وما قدروا الله حق قدره " كلام مستأنف مسوق لتصويــر قدرتــه تعالي ، و" ما " نافية و " قدروا الله " فعل وفاعل ومفعول به أى ما علموا كنهــه

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن /٦٠ د عبد الفتاح لاشين .

(٢) الزمر /٦٧

وما عرفوه حق معرفته ، و " حق قدره " منصوب على المفعولية المطلقة .

قال الشيخ ابو حيان : " أى ماعرفوه حق معرفته وما قدروه في أنفسهم حق تقديره إذ أشركوا معه غيره وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة " (١) .

مرجع الضمير في الفعل " قدروا " :

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما - : " إن الضمير في ـ قدروا ـ يعود على كفار قريش كانت هذه الآية كلها محاورة لهم وردا عليهم وقيل : نزلت في قوم من اليهود تكلموا في صفات الله وجلاله فألحدوا وجسموا وجاؤا بكل تخليط " (٢).

وقوله : " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة " جملة حالية جاءت تنبيها على عظمته وجلالة شانه على طريق التصوير والتخييل فقال : " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة " إلخ فهى جملة حالية من الأسم الجليل ، و" جميعا " حال من المبتدأ عند من يجوز ذلك ، أو من مقدر نحو أثبتها جميعا ، وهو جار مجرى الحال المؤكدة في أن العامل منتزع من مضمون الجملة ، وقيل : هو حال من الضمير في ـ قبضته ـ لأنه بمعنى مقبوضة ، وكان الظاهر أن يؤخر عنه وإنما قدم عليه ليعلم أول الأمر أن الخبر الذى يرد لا يقع عن أرض واحدة أو بعض دون بعض ولكن عن الأرضين كلها أو عن جميع أبعاضها " (٣) .

و " **الأرض** " في الآية مراد بها الأرضون السبع ومن هنا أكد بقوله " جميعا " وعطف عليه " والسماوات " وهو جمع إذ الموضع موضع تفخيم فهو مقتضن

(١) البحر المحيط ٤٣٩/٧ .

(٢) السابق نفسه ، روح المعاني ٢٥/٢٤ .

(٣) روح المعاني ٢٥/٢٤ .

المبالغة ، و " قبضته " وهى المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهى المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر فهو مجاز مرسل للتعلق الاشتقاقي بإطلاق المصدر على المفعول .

وتخصيص " يوم القيامة " بالذكر ، وإن كانت قدرته سبحانه وتعالى شاملة لكل شئ أيضاً . لأن الدعاوى تنقطع في ذلك اليوم كما قال سبحانه : " والأمر يومئذ لله " (١).

وقوله : " والسماوات مطويات بيمينه " معطوف على قوله : " والأرض جميعاً " فهى مشاركة لها في الحكم والمعنى والسماوات قبضته .

وقرأ عيسى الجحدرى : " مطويات " بالنصب على أن ـ السماوات ـ عطف على ـ الأرض ـ كما ذكرنا ، و ـ مطويات ـ حال من ـ السماوات عند من يجوز مجئ الحال من مثل ذلك أو من ضميرها المستتر في ـ قبضته ـ على أنها بمعنى مقبوضة " (٢) .

وـ الطى ـ هنا لا يراد به طى بعلاج وانتصاب ، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب . فالطى هنا ضد النشر .

وفي الكشاف :" وقيل :ـ مطويات بيمينه ـ مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها " (٣) .

---

(١) الانفطار /١٩

(٣) البحر المحيط ٧/٤٤٠ ، روح المعاني ٢٤/٢٦ .

(٤) الكشاف ٣/٤٠٩ .

قال الشريف الرضى : " وقيل معنى ذلك أن الأرض في مقدوره كالذى يقبض عليه القابض ويستولى عليه كفه ، ويجوزه ملكه ولا يشاركه فيه غيره ، ومعنى قوله :- **والسماوات مطويات بيمينه . أى مجموعات في ملكه ومضمونات بقدرته** " (١) .

وفى قوله :" والأرض جميعاً " إلخ استعارة تمثيلية شبهت حال عظمته وكمال قدرته سبحانه وتعالى ، وحقارة الأجرام العظام التى تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالي بحال من قبض شيئاً عظيماً بكفه ، وطوى السماوات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية ، والجامع الهيئة الحاصلة من القدرة والتمكن وقوة الاستطاعة في كل .

والمراد من الاستعارة في الآية تصوير عظمته وبيان كمال وجلاله والدلالة على قدرته الباهرة فهو مالك الملك والمدبر لشئونه وليس غيره قادراً .

والتعبير باليمين للدلالة على القدرة والملك والقوة وهى كذلك في لغة العرب ، وهى أقوى من الشمال . " وقدم الأرض لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها ، ولما كان في دار الدنيا من يدعى الملك والقهر والعظمة والقدرة دون دار الآخرة فالأمر فيها لله وحده ظاهراً وباطناً قال ــ يوم القيامة ــ " (٢) .

وفي القبضة واليمين مذهبان معروفان : مذهب السلف وهو إثبات ذلك من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل يجرون على الظاهر ويكلون علمه إليه تعالي ويقرون بأن تأويله ــ أى ما يؤول إليه من حقيقته ــ لا يعلمه إلا الله ، المذهب

(١) تلخيص البيان /٢٦٥ .

(٢) حاشية الجمل ٦٠٨/٣ .

الثاني : القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره في كلام العرب وأن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة .

ثم من ذاهب إلي أن المجاز في المفردات استعيرت القبضة للملك أو التصرف واليمين للقدرة ، وذاهب إلي أنه في المركب ــ كما سبق ــ بتمثيل حال عظمته إلخ ، وإلي هذا المذهب مال الزمخشرى ومن تقيل منهجه وسلك سبيله " (١) .

قال العلامة الزمخشري : " والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعة تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلي جهة حقيقة أو جهة مجاز لأن الغرض والخلاصة هي الدلالة على القدرة الباهرة ، ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب " (٢) .

وقوله : " سبحانه وتعالى عما يشركون " تذييل لبيان قدرته وتنزيهه عما يصفه به المشركون من صفات العجز والنقص ، و ــ سبحان ــ جئ به للتعجب من وصف المشركين له بما ذكرنا و ــ ما ــ تحتمل المصدرية والموصولية ، والمعنى أبعد من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء .

مقاولة جهنم وطلبها المزيد :

٤- قال تعالى : " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد " (٣)

---

(١) محاسن التأويل ١٤/٢١٧، ٢١٨ ، جامع البيان ٢٤/١٧ ــ ١٩ ، التسهيل ٣/٤٣١ ، تفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٨-٤٧٩ ، ٤٨٠ ، تيسير الكريم الرحمن ٦/٤٩٢ ، ٩٣ للسعدى

(٢) الكشاف ٣/٤٠٨ ، ٤٠٩ بتصرف .

(٣) ق/٣٠ .

تحليل الآية : **قوله** : " **يوم نقول** " منصوب لفعل محذوف أى اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالي لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل من زيادة ؟

أو منصوب لفعل أنذر ، أو هو متعلق **بقوله** :" **وما أنا بظلام للعبيد** " (١)

لأنه إذا لم يظلم في هذا اليوم فنفى الظلم عنه في غيره أولى .

والظاهر أن السؤال والجواب في الآية على حقيقتهما ، لأن الله قادر على كل شئ فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً ، وحاصل شرعاً وفى القرآن دلائل كثيرة وآيات بينات توضح ذلك .

وقيل : ما فى الآية سؤال وجواب جئ بهما على منهج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها .

قال العلامة الزمخشري : " وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته ، وفيه معنيان : أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شئ ولا يزاد على امتلائها لقوله تعالى : - لأملأن جهنم ـــ (٢) والثاني : أنها مع السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد ، ويجوز أن يكون ـــ هل من مزيد ـــ استكثاراً للداخلين فيها واستبداعاً للزيادة عليهم لفرط كثرتهم ، أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة " (٣) .

وحين يذكر الزمخشري التمثيل والتخييل لا يفرق بينهما ، كذلك يلاحظ أن هناك

---

(١) ق/٢٩ .

(٢) الأعراف /١٨ ، هود /١١٩ ، السجدة /٦٣ ، ص /٨٥ .

(٣) الكشاف ١٠٠٩/٤ .

فرقاً بين تحليل الأسلوب على طريقة التمثيل وبين تحليله على طريقة التخييل ، فطريقة التمثيل هي طريقة الاستعارة التمثيلية في مفهوم المتأخرين ، أما طريقة التخييل فهى أقرب إلي فرض الأشياء وتخيلها كالمحاورة بين الجدار والوتد ، ونداء الأرض وإجابتها ، ومقاولة جهنم " (١) .

يقول الشهاب الخفاجي في تعليقه على كلام الزمخشري : " ومنه ظهر أن التخييل تمثيل خاص والتصوير لا ينافى كونه تمثيلاً " (٢) ثم يقول في موضع آخر : " والتخييل نوع من التمثيل إلا أنه تمثيل خاص يكون المشبه به فيه أمراً مفروضاً ، ثم إن كان الممثل بجميع أجزائه مفروضاً كما نحن فيه وكقولهم : لو قيل للشحم أين تذهب ؟ لقال : أسوى العوج ، فهو التمثيل التخييلي ، وإلا فهو الاستعارة التمثيلية أو التابعة للاستعارة بالكناية ، واسم التمثيل يقع عليها " (٣) .

فالزمخشري ينبه على أن التمثيل كما يكون بالأمور المحققة يكون كذلك بالأمور المتخيلة المفروضة " (٤) .

وفائدة التمثيل في الآية تصوير سعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقي فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم .

والاستعارة التمثيلية في الآية شبهت حال جهنم في توقدها وزفيرها وتهافت الكفرة

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري /٥٢١ ، ٥٢٢ دأبو موسى .

(٢) حاشية الشهاب ١٨٧/٧ .

(٣) السابق ٣٣٥/٢ .

(٤) البلاغة القرآنية /٥٢٢ .

والعصاة وقذفهم فيها كأنها طالبة للزيادة ، بحال من يسأل فينطق بالجواب لسائله ويشبعه بهذا الجواب حتى يستقر معلومه ، والجامع الهيئة الحاصلة من السؤال والطلب والجواب والزيادة وشدة التلهف .

قال الشيخ أبو حيان : " و ـ هل امتلأت ـ تقرير وتوقيف لا سؤال استفهام حقيقة لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم ، قيل : وهذا السؤال والجواب منها حقيقة ، وقيل : السؤال والجواب من باب التصوير الذى يثبت المعنى أي حالها حال من لو نطق بالجواب لسائله لقال كذا ، وهذا القول يظهر أنها إذ ذاك لم تكن ملأى . فقولها ـ من مزيد ـ سؤال ورغبة في الزيادة والاستكثار من الداخلين فيها ، وقال الحسن وعمرو وواصل كانت ملأى وقت السؤال فلا تزداد على امتلائها " (١) .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ ومجاهد والحسن أن معناها ـ كما ذكرنا ـ أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجاً بعد فوج حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة فالاستفهام للإنكار أى لا مزيد على امتلائها ، وجوز في نفى الزيادة أن يكون على ظاهره ، وأن يكون كناية أو مجازاً عن الاستكثار ، وقيل : المعنى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغ وخلو ، فالاستفهام للتقرير أى فيها موضع للمزيد لسعتها ، وجوز أن يكون ذلك كناية عن شدة غيظها على العصاة كأنها طالبة لزيادتهم " (٢) .

---

(١) البحر المحيط ١٢٧/٨ .

(٢) روح المعاني ١٨٧/٢٦ .

وفائدة هذه الإستعارة : ما فيها من جمال التخييل الحسى والتجسيم لجهنم المتغيظة والنهمة التى لا تشبع وقد تهافت عليها أولئك الذين كانوا يصمون في دنياهم آذانهم عن الدعوى إلي الهدى ، ويصرون على غيهم ولجاجهم وهاهم الآن يستجيبون لدعوتها مرغمين .

التجرد للحساب والجزاء :

٥- قال تعالي : " سنفرغ لكم أيه الثقلان " (١) .

تحليل الآية : **قوله** : " سنفرغ لكم " كلام مستأنف مسوق للتهديد والوعيد ، والسين حرف استقبال ، والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد الفعل وحدوثه دفعة دفعة وشيئا فشيئا .

" والمراد سنتجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة عند انتهاء شؤون الخلق المشار إليها بقوله تعالى : ــ كل يوم هو في شأن (٢) ــ فلا يبقى حينئذ إلا شأن واحد هو الجزاء فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل " (٣) .

فقوله تعالي : "سنفرغ لكم" استعارة تمثيلية . شبهت هيئة تدبيره تعالي أمر الآخرة من الأخذ في الجزاء وإيصال الثواب والعقاب إلي المكلفين بعد تدبيره تعالى لأمور الدنيا بالأمر والنهى والإمانه والإحياء والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن . بهيئة من إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر إذا فرغ من ذلك الشغل شرع في آخر .

---

(١) الرحمن /٣١ .

(٢) الرحمن /٢٩ .

(٣) ابو السعود ١٨١/٨

والجامع الهيئة الحاصلة من الفراغ والمجازاة والمثوبة والمعاقبة .

قال العلامة الزمخشري : " ـ سنفرغ لكم ـ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده سأفرغ لك يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنك حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ، ويجوز أن يراد ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التى أرادها بقوله ـ كل يوم هو في شأن ـ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل " (١) .

فهذا القول وعيد لهم وتهديد كقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أتفرغ لك ، والمراد أقصدك .

وفي هذه الآية " خاطب الله تعالي النوعين بالخطاب المتضمن لإستدعاء الإيمان منهم ، وإنكار تكذيبهم بالآية وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده وتهديدهم **بقوله تعالى** : ـ سنفرغ لكم أيه الثقلان ـ وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام " (٢) .

وقال صاحب المفتاح : " فالفراغ وهو الخلاص عن المهام والله عز سلطانه لا يشغله شأن عن شأن وقع مستعارا للأخذ في الجزاء وحده وذلك لا يشغله شأن عن شأن وقع مستعارا للأخذ في الجزاء وحده وذلك أمر عقلي والطرفان عقليان " (٣) .

---

(١) الكشاف ٤٧/٤ .

(٢) بدائع التفسير ٣٢٢/٤ .

(٣) المفتاح /١٨٤ .

وقرئ ـــ سيفرغ لكم ـــ بالبناء للفاعل والمفعول أى الله تعالي ، وسأفرغ لكم ، و ـــ سنفرغ لكم ـــ أى سنقصد إليكم .

والخطاب في " لكم " قيل : للمجرمين ولكن يأباه قوله " **أيه الثقلان** " نعم المقصود بالتهديد هم ولا مانع من تهديد الجميع .

لماذا حذف ألف هاء التنبيه من قوله " أيه " ؟

حذفت ألف هاء التنبيه لأن خطاب الله سبحانه وتعالي للجن والإنس وأنه قد فرغ لهم وأقبل على حسابهم ومساءلتهم يشير إلي أنهم في مقام حضور من الله سبحانه ، وأنه تعالي قريب من كل فرد منهم قربا لا يدع لأحد فرصة للغفلة عن مراقبة الله تعالي له . فهو في حال حضور دائم وإن كان غافلا ومن ثم فلا يحتاج إلي تنبيه " (١) .

و" الثقلان " هما الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أو لرزانة آرائهما أو لأنهما مثقلان بالتكليف .

انشقاق السماء علامة من علامات القيامة :

٦- قال تعالي : "فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان " (٢) .

تحليل الآية : قوله : " فإذا انشقت السماء " كلام مستأنف لبيان أحوال القيامة والعرض وما يكون في هذا اليوم . " فجاء هذا القول إشارة إلي ما هو أعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن ، فكأنه تعالي ذكر أولا ما يخاف منه الإنسان ، ثم

---

(١) التفسير القرآني ٢٧/٦٨٠ .

(٢) الرحمن /٣٧ .

ذكر ما يخاف منه كل واحد ممن له إدراك من الجن والإنس والملك حيث تخلو أماكنهم بالشق ومساكن الجن والإنس بالخراب ، ويحتمل أن يقال إنه تعالي لما قال : **ـ " كل من عليها فان** (١) إشارة إلي سكان الأرض . قال بعد ذلك : **ـ فإذا انشقت السماء ـ** بياناً لحال سكان السماء " (٢) .

والفاء في قوله : " **فإذا** " للتعقيب وهو كما قال ابن هشام : " في كل شئ بحسبه ألا ترى أنه يقال تزوج فلان فولد له إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل وإن كانت متطاولة " (٣) .

والتعقيب إما زماني ، وإما ذهني ، وإما قولي ، وعلى الأول يكون المعنى أن إرسال الشواظ عليهم يكون قبل انشقاق السماوات ، ويكون ذلك الإرسال إشارة إلي عذاب القبر ، وإلي ما يكون عند سوق المجرمين إلي المحشر ـ فإذا انشقت السماء ـ يكون العذاب الأليم والحساب الشديد ، وعلى الثاني : أن قوله : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس (٤) فيكون ذلك سبباً لكون السماء تكون حمراء إشارة إلي أن لهيبها يصل إلي السماء ويجعلها كالحديد المذاب الأحمر ،

---

(١) الرحمن /٢٦ .

(٢) التفسير الكبير ١١٦/٢٩ .

(٣) مغنى اللبيب ١٣٩/١ .

(٤) الرحمن /٣٥

وعلى الثالث : أن يقال : لما قال :ـ فلا تنتصران ـ أى في وقت إرسال الشواظ عليكما قال : ـ فإذا انشقت السماء ـ وصارت كالمهل ، وهو الطين الذائب كيف تنتصران ؟ إشارة إلي أن الشواظ المرسل لهب واحد ، أو ـ فإذا انشقت السماء ـ وذابت وصارت الأرض والجو والسماء كلها ناراً فكيف تنتصران ؟ "(١) .

وقوله : "فإذا انشقت السماء " إلخ تشبيه تمثيلي : حيث أراد بالوردة الفرس ـ النبات ـ والوردة تكون في الربيع أميل إلي الصفرة فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة أميل إلي الغبراء فشبه تلون السماء حال انشقاقها بالوردة التى ذكرت أحوالها ، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن ، واختلاف ألوانه . فالتشبيه تمثيلي ـ كما نرى ـ مركب من قسمين أو صورتين متعاقبتين : صورة السماء منشقة ، وصورة الوردة وهو أحوال تلونها فهى في الربيع صفراء وفى الشتاء حمراء ثم غبراء داكنة عند الذبول ، وهذا التلون التدريجى من اللون الناصع إلي اللون الداكن يشبه أيضاً لون الدهن وقد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدت ألسنته محمرة إذا آذن بالانطفاء ثم يتحول إلي رماد داكن " (٢) .

وقيل : إن قوله : "فإذا انشقت السماء فكانت وردة " تشبيه بليغ والمراد : كالوردة في الحمرة حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً ، أو فكانت مثل الورد

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/١١٦، ١١٧ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٤١١/٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١٥٠/١٧ .

الأحمر من جرارة النار ، ومثل الأديم الأحمر أى الجلد الأحمر – قاله ابن عباس – رضى الله عنهما – وذلك من شدة الهول ، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ، وحقيقة الانشقاق الذوبان والخراب ، والمراد : انصدعت يوم القيامة ، وجواب " إذا " محذوف ، وتقديره : يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال ، أو وجدت أمرا هائلا ، أو رأيت ما يذهل الناظرين وهو من باب إيجاز الحذف بحذف جملة جواب الشرط ، وهو حذف محمود .

و " الدهان " جمع دهن ، أو اسم لما يدهن به كالحزام والإدام ، وهو الدهن أيضا إلا أنه أخص لأنه الدهن باعتبار إشرابه الشيء ، ووجه الشبه الذوبان وهو في السماء على ما قبل من حرارة جهنم وكذا الحمرة ، وقيل : اللمعان ، وقال الحسن : أى كالدهان المختلفة لأنها تتلون ألوانا " (١) وجمع " الدهان " لعظمة السماء وكثرة ما يحصل من ذوبانها لاختلاف أجزائها ، فإن الكواكب تخالف غيرها وقرأ عمرو بن عبيد " وردة " بالرفع على أن – كان – تامة ، والمراد : فحصلت سماء وردة ، والكلام إذن من باب التجريد : وهو أن ينتزع من متصف بصفة آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه " (٢) .

فكنى بالوردة عن السماء فجاء التجريد على طريق الكناية كما قال قتادة بن مسلمة الحنفي : (٣) فلئن بقيت لأرحلن بغزوة : تحوى الغنائم أو يموت كريم.

فقد جرد قتادة من نفسه صفة الكريم فكنى عنها بالكرم .

---

(١) روح المعاني ١١٤/٢٧ .

(٢) التبيان في علم البيان للطيبى /٢٨٨ ، البديع في ضوء أساليب القرآن /١١٩ د لاشين .

(٣) ديوان الحماسة لأبى تمام ٢١٧/١ من التبريزى ، معاهد التنصيص ١٤/٣ .

ثم يقول تعالي بعد ذلك : " **فبأي آلاء ربكما تكذبان** " (١) لأن الإخبار بنحو ما ذكر سبحانه مما يزجر عن الشر فهو لطف أى لطف ونعمة أى نعمة فكان قوله :ـ فإذا انشقت السماء ـ إنعاما على الخلق حيث أعلمهم بما كانوا يجهلونه وحذرهم بما يصيرون إليه ، وقد جعل سبحانه التحذير رأفة بقوله : " ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد " (٢) فسبحانه من قادر مقتدر يغير ولا يتغير .

يوم التغابن تقع فيه العجائب :

٧- قال تعالى : " يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير " (٣) .

تحليل الآيتين : قوله : يوم يجمعكم " ظرف لقوله " لتنبؤن " (٤) ، وقيل : لقوله : " بما تعملون خبير " (٥) لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل : والله مجازيكم ومعاقبكم " يوم يجمعكم " أو هو مفعول لفعل محذوف تقديره : اذكر ، وقرئ " نجمعكم " بنون العظمة .

وسمى " يوم الحساب والجزاء . يسمعهم الداعى وينفذهم البصر .

وقوله : " ذلك يوم التغابن " إشارة إلي هذا اليوم الذى تجمع فيه الخلائق في صعيد واحد ، وتعريف المسند إليه باسم الإشارة لتعظيم ذلك اليوم وشدة أثره في

(١) الرحمن /٣٨ .
(٢) آل عمران /٣٠ .
(٣) التغابن /٩، ١٠ .
(٤) التغابن /٧ .
(٥) التغابن /٨ .

النفوس ، والمراد يوم غبن بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، وتخصيص " التغابن " بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن في الحقيقة هو الذى يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا . فهذا اليوم الذى يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان ، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا ، واشترى الكفار النار بترك الآخرة فظهر غبن الكافرين " (١) .

وقوله : ذلك يوم التغابن " استعارة تمثيلية . شبهت حال الفريقين المتمكنين من اختيار ما يؤدى إلي سعادة الآخرة فاختار كل فريق ما يشتهيه مما كان قادرا عليه بدل ما اختاره الآخر . بحال المتبادلين بالتجارة ، وشبه ما يتفرع عليه من نزول كل منهما منزلة الآخر بالتغابن لأن التغابن تفاعل من الغبن وهو أخذ الشيء من صاحبه بأقل من قيمته وهو لا يكون إلا في عقد المعاوضة ولا معاوضة في الآخرة .

فإطلاق التغابن على ما يكون فيها بطريق الاستعارة التمثيلية ، والجامع الهيئة الحاصلة من التبادل والاختيار والمعاوضة ، والقرينة عقلية .

كما اشتملت الآية على أسلوب التهكم بالأشقياء من هؤلاء المتغابنين لأن نزولهم ليس بغبن " (٢) .

---

(١) صفوة التفاسير ٣٩٣/٢٨ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ١١٢/١٠، ١١٣ .

قال العلامة الزمخشري : " التغابن مستعار من تغابن القوم في التجـــارة ، وهــو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لــو كـــانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كـــانوا أشـــقياء ، وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن ، ومعنى ــ ذلك يوم التغـــابن ــ وقــد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظام (١) له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقـة لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت " (٢) فالتعريف فيه للجنس ، وقيــل : سمى تغابناً للمشاكلة ؟

وقوله : " **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً** " جملـــة مســتأنفة مســوقة لبيــان التغــابن وتفصيله ، والتعبير بالفعل المضارع في سائر الأفعال الواردة في الآيـــة للتجــدد والاستمرار وإيقاعه متتابعاً وتترا .

وقوله : " **صالحاً** " نعت لمصدر محذوف تقديره : عملاً صالحاً ، والمراد بالإيمــان هنا التصديق بالله تعالى وبما أنزل وأرسل يمحو الله ذنوبه ويغفر له وقيل : يؤمــن بالله على ما جاءت به الرســل مــن الحشــر والنشــر والجنــة والنــار وغــير ذلك ، ــ ويعمل صالحاً ــ أى يعمل في إيمانـــه صالحـــاً إلـــي أن يمــوت (٣) . وقرئت الأفعال الواردة في الآية بنون العظمة أيضاً للتشريف .

---

(١) خبر قوله ــ ومعنى ــ إلخ .

(٢) الكشاف ٤/١١٥ .

(٣) التفسير الكبير ٣٠/٢٦ .

وقوله : "خالدين فيها أبدا" جملة حالية دالة على إقامتهم في تلك الجنات أبد الحياة الأخروية لا يموتون ولا يخرجون منها .

وجمع " خالدين " لإعادته على معنى " من يؤمن بالله ويعمل صالحاً "

وقوله : "وذلك الفوز العظيم " إشارة إلي ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات ، وتعريف المسند إليه باسم الإشارة البعيد للتعظيم وفخامة شان هذا الفوز ورفعة قدره ، وتعريفه بأل دليل على كماله وتمامه . أى الفوز الكامل الذى لا نقصان فيه ، ووصف الفوز بـ " العظيم " دلالة على تناهيه في العظم وبلوغه درجة عالية في ذلك ، والمعنى : الفوز الذى لا فوز وراءه لأنطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات .

وقوله : "والذين كفروا وكذبوا" معطوف على ما سبق لبيان المقابل للفريق المؤمن الموحد ، والجملتان متفقتان في الخبرية ومشتركتان في حكم إعرابى واحد ، فالفريق الأول باع الدنيا ليشترى الآخرة ، أما الفريق الآخر فكان بالضد فباع الآخرة واشترى الدنيا .

والمراد : الذين كفروا بوحدانية الله تعالي وبقدرته ـــ وكذبوا بآياتنا ـــ أي بآيات الله الدالة على البعث والجزاء ، وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول للإيماء إلي علة الخبر لأن الصلة هي المشير إلي ذلك ، وعبر عن هؤلاء المكذبين الكافرين بالفعل الماضي لوقوع ذلك منهم وتحققه .

قال الإمام الفخر " وتقدير الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا

وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار " (١) .

وقوله : "أولئك أصحاب النار" إشارة إلي هؤلاء الكفرة المكذبين وتعريف المسند إليه باسم الإشارة لإحضارهم أمام المخاطبين للحكم عليهم حضوريا بهذا الحكم المهين حكما مبنيا على المشاهدة والحس كما هو شان اسم الإشارة ، وفى ذلك تمييزهم أكمل تمييز وأنهم جديرون بما ذكر بعد اسم الإشارة من كونهم أصحاب النار وأنهم خالدون فيها ، واختير اسم الإشارة الذى هو للبعيد للإشعار بعلو درجتهم وبعد مرتبتهم في الخزى والهوان والذل والعار والشنار .

وجملة " أولئك أصحاب النار " استئناف بياني ، جاءت جوابا لسؤال مقدرا قتضته الجملة الأولى ، ومن هنا فصلت عنها لأن بينهما شبه كمال الاتصال ، **وقوله** : " **خالدين فيها** " جملة حالية دالة على استقرارهم وخلودهم في هذه النار لا يتركونها ولا تتركهم فأقامتهم فيها دائمة لا تزول .

وقوله : " **وبئس المصير** " أسلوب ذم لحال هؤلاء إذ مصيرهم ومرجعهم موصوف بكونه سيئا لأنهم لا يستحقون إلا هذا المصير .

و"**المصير**"هو النار . فإن قيل : ما الحكمة في قوله : " **وبئس المصير** " بعد قوله: " **خالدين فيها وبئس المصير** " ؟ ذلك وإن كان في معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده ، والمراد : وبئست النار مرجعا ومستقرا لأهل الكفر والضلال . .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٣٠ .

وبين قوله : "**ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا**" الآية وقوله : "**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا**" الآية مقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين فكانت هاتان الآيتان بيانا لكيفية التغابن المقصود هنا .

يوم القيامة يوم اشتداد الكرب :

٨- **قال تعالى : "يوم يكشف عن ساق ويدعون إلي السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلي السجود وهم سالمون "** (١).

تحليل الآيتين : قوله : "يوم" ظرف مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكر أو متعلق **بقوله : " أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم "** (٢) .

قال العلامة الزمخشري : "وناصب الظرف ــ فليأتوا ــ أو إضمار اذكر ، أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ وأن ثم من الأكوان وإلا ما لا يوصف لعظمه "(٣).

وقوله : "يوم يكشف عن ساق" استعارة تمثيلية : شبهت حالهم يوم يشتد الأمر ويتفاقم الكرب ويكون الفزع الأكبر ، ويشمر هؤلاء عن سواعدهم ويجتهدون محاولين التقرب فلا يستطيعون . التقرب فلا يستطيعون . بحال من شمر عن ساقه عند العمل الشاق لأن من وقع في شئ يحتاج إلي الجد يشمر عن ساقه . فاستعيرت الساق والكشف عنها لشدة الأمر ، والجامع الهيئة الحاصلة : من اشتداد الأمر وتفاقم الكرب وتشمير السوق وشدة الاجتهاد .

---

(١) القلم /٤٢ ، ٤٣ .

(٢) القلم /٤١ .

(٣) الكشاف ٤/١٤٧ .

ومعنى الآية : اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذى يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة . قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة .

والساق ما فوق القدم وكشفها والتشمير عنها مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب حتى إنه يستعمل بحيث لا يتصور ساق بوجه كما في قول حاتم الطائى : (١)

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ٠٠ وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الحرب فإنهن لا يفعلن ذلك إلا إذا عظم الخطب واشتد الأمر فيذهلن عن الستر بذيل الصيانة " (٢) .

والتشمير عن الساق كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته ، وأصله أن يسند للإنسان لأن تشمير الثوب عن الساق لخوض لجة أو جرى أو نحوه فأسند للحرب لتشبيهها بالإنسان على طريق الاستعارة .

قال العلامة الزمخشري : الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام – الخلخال – مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب وإبداء خدامهن عند ذلك . فمعنى – يوم يكشف عن ساق – في معنى يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل " (٣) .

---

(١) ديوانه /٨٢ ت د فوزى عطوى ط دار صعب بيروت سنة ١٩٨٠م .

(٢) روح المعاني ٣٤/٢٩ .

(٣) الكشاف ١٤٦/٤ ، ١٤٧ .

ومجئ قوله : "ساق" نكرة إبهام للمبالغة في الدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف المعتاد .

وقرئ ــ يوم نكشف ــ بالنون و ــ تكشف ــ بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال : أي يوم تشتد الحال أو الساعة كما تقول : كشفت الحرب عن ساقها على المجاز " (١) .

وقوله : "ويدعون إلي السجود" جملة معطوفة على سابقتها لبيان حالهم يومئذ ، وجاء ذلك توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إياه في الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك .

وفي الكشاف : "**فإن قلت :** لم يدعون إلي السجود ولا تكليف ؟ قلت : لا يدعون إليه تعبداً وتكليفاً ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيراً لهم وتنديماً على ما فرطوا فيه حين دعوا إلي السجود وهم سالمو الأصلاب والمفاصل يمكنون مزاحوا العلل فيما تعبدوا به " (٢) .

وقوله : "فلا يستطيعون " نفي لقدرتهم على السجود ، وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم ، وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ تعقم أصلابهم أى ترد عظاماً بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض ، والظاهر أن الداعي هو الله تعالى أو الملك ، وقيل : هو ما يرونه من سجود المؤمنين " (٣) .

---

(١) السابق ١٤٧/٤ .

(٢) الكشاف ١٤٧/٤ .

(٣) روح المعاني ٣٦/٢٩ .

والتعبير بالفعل المضارع " **يدعون فلا يستطيعون** " دلالة على التجدد والحدوث والاستمرار أى يطلب منهم ذلك كثيراً ولا يستطيعون كثيراً مرات فمرات ، **وقيل** : يدعى الكفار للسجود لرب العالمين ــ فلا يستطيعون ــ لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً .

وقوله : "خاشعة أبصارهم " حال من ضمير" يدعون " والخشوع هو الذل ، وقوله : " **أبصارهم** " فاعل لقوله : " خاشعة " ونسبة الخشوع إلي الأبصار مجاز عقلى لأن ما فى القلب يعرف في العين والمراد ظهور أثره فيها لعلاقة المكانية ، وقوله : " ترهقهم ذلة " جملة حالية أيضاً لبيان حالتهم التى يكونون عليها من دعوتهم إلي السجود ، والرهق هو الغشيان بقهر أى يغشاهم الذل والهوان . ففى الكلام استعارة تبعية في الفعل " ترهقهم " أى تغشاهم بشدة . فاستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه واشتق من ذلك ــ ترهق ــ بمعنى تغشى ، والجامع الغشيان والإحاطة بشدة ، والقرينة حالية يدل عليها سياق الكلام .

وقوله : "وقد كانوا يدعون إلي السجود" جملة حالية : أى والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلي السجود وهم أصحاء الجسم معافون فيأبون يسلبهم الله تعالي القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه ، حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل " (١) .

ومجئ الفعل " **يدعون** " مضارعاً دليل على تجدد الدعوى وحدوثها لهم دفعة دفعة وشيئاً فشيئاً . والمراد : " كانوا يدعون إلي السجود في الدنيا ، والإظهار في

---

(١) التفسير الكبير ٩٧/٣٠ .

قوله : "والسجود " في موضع الإضمار أى ــ إليه ــ لتقدمه في الآية السابقة لزيادة التقرير ، أو لأن المراد به الصلوات المكتوبة أو جميع الطاعات كما قيل ، والدعوة دعوة التكليف ، وقال ابن عباس وابن جبير كانوا يسمعون الآذان والنداء للصلاة فلا يجيبون " (١) .

وقوله : "وهم سالمون" جملة من مبتدأ وخبر مبينة ما كانوا يتمتعون به من صحة بدن وقوة بنيان ، والمراد متمكنون منه اقوى تمكن أى فلا يجيبون إليه ويأبونه وحذف عدم الإجابة والنفرة ثقة بظهور معناه لدى السامع ، وتعريف المسند إليه بالضمير حيث تقدم المرجع المفسر للضمير وهو ذكر هؤلاء تلميحا ، والمقام لوصف أحوالهم . فجاء معرفا بضمير الغائب " هم " لأن مرجع الضمير في حكم الموجود . لأنه مفهوم من الكلام والتعبير بالجملة الأسمية هنا " وهم سالمون " دليل " على ثبوت سلامتهم في الدنيا ، وقوة بنيانهم وصحة ابدانهم وأن ذلك ــ الوصف بالسلامة ــ كان ملازما لهم في الدنيا وثابتا لهم لا ينفك عنهم ومع ذلك ما أجابوا ولا قبلوا الدعوة ولا لبوا النداء .

لا حراك في الموت والمساق إلي الله :

٩- قال تعالى : "والتفت الساق بالساق . إلي ربك يومئذ المساق " (٢) .

تحليل الآيتين : قوله : "والتفت الساق بالساق" جملة معطوفة على ما سبق موصولة به لتكملة الحديث عن حالة الفراق والانتقال إلي عالم الآخرة ، والمعنى : التوت ساقه

---

(١) أبو السعود ١٨/٩، روح المعاني ٣٦/٢٩ .

(٢) القيامة /٢٩، ٣٠ .

على الأخرى عند هلع الموت وقلبه ، وقيل : هما ساقا الميت عندما لفا في الكفن ، وقيل : المراد بالتفافهما انتهاء أمرهما وما يراد فيهما يعني موتهما ، وقيل : يبسهما بالموت وعدم تحرك إحداهما عن الأخرى حتى كأنهما ملتفتان فهما أول ما يخرج الروح منه فتبردان قبل سائر الأعضاء وتيبسان فالساق بمعناهما الحقيقي ، وأل فيها عهدية ، أو عوض عن المضاف إليه " (١).

وفي قوله : "والتفت الساق بالساق" استعارة تمثيلية : شبه حال شدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها لأنهما يومان قد التفا ببعضهما واختلطا بالكرب . بحال التفاف الساق على الساق فلا يفترقان ولا ينزعان . كما يقال شمرت الحرب عن ساق استعارة لشدتها ، وقيل : التفا فيهما لشدة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذه على هذه .

قال عطاء ـ رحمه الله ـ : اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق وشدة القدوم على ربه جل شأنه لا يدرى بماذا يقدم عليه ، فالساق عبارة عن الشدة وهو مثل في ذلك والتعريف للعهد " (٢) . ولام العهد هى الداخلة على أمر يشعر بمعرفة السامع له . لتقدمه في الذكر صراحة ، أو كناية .

وقال الشوكانى : " **وقال الضحاك** : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه ، وبه قال ابن زيد ، والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد الكبار والمحن العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق ،

---

(١) روح المعاني ١٤٧/٢٩ .

(٢) روح المعاني ١٤٧/٢٩ .

وقيل : الساق الأول تعذيب روحه عند خروج نفسه ، والساق الآخر شدة البعث وما بعده " (١) .

وقوله : "**إلي ربك يومئذ المساق**" أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور أى تقديم ما حقه التأخير . والمعنى : أن المساق مقصور على كونه إلي الله تعالى لا إلي غيره من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً .

والمراد : المساق إلي الله تعالى وحكمه سوقه لا إلي غيره ، والكلام على تقدير مضاف هو حكم ، وقيل : هو موعد والمراد به الجنة والنار .

والتنوين في قوله : " **يومئذ** " عوض عن أربع جمل : وهى بلغت الروح التراقى ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق " (٢) .

وروى الخازن عن ابن عباس قوله : " إن المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا ، مع شدة الموت وكربه ، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم ، حيث يلتقى عليه شدة كرب الدنيا ، مع شدة كرب الآخرة .

كما يقال : شمرت الحرب عن ساق استعارة لشدتها " (٣) .

وبين قوله : " **الساق بالساق ـ المساق** " جناس ناقص : (٤) وهو ما اختلف فيه اللفظان في عدد الحروف بالزيادة إما في الأول كما في " المساق " أو في الوسط

---

(١) فتح القدير ٤١٩/٥ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٣٠٦/١٠ .

(٣) تفسير الخازن ١٨٧/٤ .

(٤) الإيضاح ٩٤/٦ ، البديع في ضوء أساليب القرآن /١٦١ د لا شين .

كقولهم : " **جدى جهدى** " أو فى الآخر كقول أبى تمام : (١) .

يمدون من أيد عواص عواصم ·· تصول بأسياف قواضٍ قواضب

ففي الآية إعلام وبيان برجوع العباد والبلاد والأمور إلـــي رب العبــاد ومسـبب الأسباب سبحانه .

قال الإمام الفخر الرازى : " والمراد بقوله : ــ **التفت الساق بالساق** ــ أى التفــت شــدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب ، أو التفت شدة ترك الأهل وترك الولد ، وترك المال ، وترك الجاه ، وشدة شماته الأعداء ، وغم الأولياء ، وبالجملـــة فالشــدائد هناك كثيرة ، كشدة الذهاب إلي الآخرة ، والقدوم على الله ، أو التفت شدة تـــرك الأحباب والأولياء ، وشدة الذهاب إلي دار الغربة . ثم قال تعالى :ــ إلـــي ربـك يومئذ المساق ــ فيه وجهان أحدهما : أن يكون المراد أن المسوق إليه هو الرب ، **والثاني :** أن يكون المراد أن السائق في ذلك اليوم هو الرب ، أى ســوق هــؤلاء مفوض إليه " (٢) .

---

(١) ديوانه /٨٦ ش إيليا الحاوى ط دار الكتاب اللبناني ط أولى لسنة ١٩٨١ م .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٣/٣٠ بتصرف .

" المبحث الثاني "

" كتمان الآيات وعدم الاهتداء بها "

الآيات نافعة ولكن أنكرها اليهود وكتموها :

قال تعالى : " إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم " (١) .

تحليل الآية : جاء قوله : " **إن الذين** " إلخ ليعود إلي محاجة أهل الكتاب ويلحق **بقوله تعالي : " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى "** (٢) .

بمناسبة قوله : " إنما حرم عليكم الميتة والدم " (٣) تحذيراً للمسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم ، وتحليل بعض ما حرم الله عليهم . لأنهم كانوا إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرءوا من كتابهم ما غيروا العمل بأحكامه ، ولجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات جاء قوله هنا : " أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار " لقصد المشاكلة ، وفي هذا تهيئة للتخلص إلي ابتداء شرائع الإسلام . فإن هذا الكلام فيه إبطال لما شرعه أهل الكتاب في دينهم فيكون التخلص ملوناً بلوني الغرض السابق والغرض اللاحق ، وعدل عن تعريفهم بغير الموصول إلي الموصول لما في الصلة من الإيماء إلي سبب الخبر وعلته . **فقوله : " إن الذين يكتمون** " إلخ كلام مستأنف يعرف منه السامع تفضيل ما تقدم له إجماله ، والتوكيد بـ " إن " لمجرد الإهتمام بهذا الخبر ، والكتم والكتمان عدم الإخبار بما من شأنه أن يخبر به من حادث مسموع أو مرئى ، ومنه كتم السر هو الخبر الذى تخبر به غيرك وتأمره بأن يكتمه فلا يخبره غيره .

(١) البقرة /١٧٤ .
(٢) البقرة /١٥٩ .
(٣) البقرة /١٧٣ .

وعبر في " **يكتمون** " بالفعل المضارع للدلالة على أنهم في الحال كاتمون للبينات والهدى ولو وقع بلفظ الماضى لتوهم السامع أن المعنى به قوم مضوا مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين ، ويعلم حكم الماضين والآيتين بدلالة لحن الخطاب لمساواتهم في ذلك .

و " **الكتاب** " المذكور هنا الكتاب المعهود من السياق وهو كتاب " **الذين يكتمون** " فيشبه أن تكون " أل " عوضاً عن المضاف إليه ، والذين يكتمونه هم اليهود والنصارى أى يكتمون البشارة بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويكتمون بعض الأحكام التى بدلوها .

وقوله : "يشترون به ثمناً قليلاً" هو المال الذى يأخذونه من الناس جزاء على إفتائهم بما يلائم هواهم مخالفاً لشرعهم أو على الحكم بذلك .

فالثمن يطلق على الرشوة لأنها ثمن يدفع عوضاً عن جور الحاكم وتحريف المفتى.

وقوله : "أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار" جئ باسم الإشارة البعيد لإشعارهم بجرم فعلتهم لئلا يخفى أمرهم على الناس وللتنبيه على أن ما يخبر به عن اسم الإشارة استحقوه بسبب ما ذكر قبل اسم الإشارة ، وهو تأكيد للسببية المدلول عليها بالموصول .

وفعل ــ يأكلون مستعار لأخذ الرشا المعبر عنها بالثمن ، والظاهر أن الأكل مستعمل في زمان الحال أى ما يأكلون وقت كتمانهم ، واشترائهم إلا النار لأنه الأصل في المضارع ، والأكل مستعار للانتفاع مع الإخفاء لأن الأكل انتفاع

بالطعام ، وتغييب له فهو خفى لا يظهر كحال الرشوة ، ولما لم يكن لأكل الرشوة على كتمان الأحكام أكل نار تعين أن في الكلام مجازاً . فقيل : هو مجاز عقلى في تعلق الكل بالنار وليست هى له وإنما له سببها أعنى الرشوة .

قال العلامة سعد الدين التفتازانى (١): "وهو الذى يوهمه ظاهر كلام الكشاف . لكنه صرح أخيراً بغيره ، وقيل : هو مجاز في الظرف بأن أطلق لفظ النار على الرشوة إطلاقاً للأسم على سببه مجازاً مرسلاً " .

وقال الشيخ الطاهر بن عاشور:"وأختار العلامة عبد الحكيم أنه استعارة تمثيلية : شبهت الهيئة الحاصلة من أكلهم الرشا بالهيئة المنتزعة من أكلهم النار ، وأطلق المركب الدال على الهيئة المشبه بها على الهيئة المشبهة ــ ثم يقول ابن عاشور: ولا يضر كون الهيئة المشبه بها غير محسوسة لأنها هيئة متخيلة كقول ابى بكر الصنوبرى:(٢)

أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد .

فالمركب الذى من شأنه أن يدل على الهيئة المشبهة أن يقال : أولئك ما يأخذون إلا أخذاً فظيعاً مهلكاً فإن تناولها كتناول النار للأكل فإنه كله هلاك من وقت تناولها باليد إلي حصولها في البطن ، ووجه كون الرشوة مهلكة أن فيها اضمحلال أمر الأمة وذهاب حرمة العلماء والدين فتكون هذه الاستعارة بمنزلة **قولة تعالى :.وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها**" (٣) . أى على وشك الهلاك والاضمحلال "(٤) .

(١) المطول /٣٩٦ وما بعدها .
(٢) معاهد التنصيص ٢/٤١ .
(٣) آل عمران /١٠٣ .
(٤) التحرير والتنوير ٢/١١٩ .

والذى يرجح كون الاستعارة تمثيلية هو **قوله تعالي : " في بطونهم "** فإن الرشوة لا تؤكل في البطن فيتعين أن يكون المركب كله استعارة ، ولو جعلت الاستعارة في خصوص لفظ النار لكان قوله : " **يأكلون في بطونهم** " مستعملاً في المركب الحقيقى وهو لا يصح ، ولولا قوله " في بطونهم " لأمكن أن يقال : إن " يأكلون " هنا مستعمل حقيقة عرفية في غضب الحق ونحو ذلك .

وجوزوا أن يكون **قوله** : " **يأكلون** " مستقبلاً أى ما سيأكلون إلا النار على أنه تهديد ووعيد بعذاب الآخرة ، وهو وجيه ، ونكتة استعارة الأكل هنا إلي اصطلائهم بنار جهنم هى مشاكلة تقديرية لقوله :

" **يشترون به ثمناً قليلاً** " فإن المراد بالثمن هنا الرشوة ، وقد شاع تسمية أخذ الرشوة أكلاً " (١) .

وقوله : "ولا يكلمهم الله يوم القيامة" نفى للكلام ، والمراد به لازم معناه ، وهو الكناية عن الغضب ، فالمراد نفى كلام التكريم فلا ينافى **قوله تعالي : "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون"** (٢) .

وقوله : "ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم" أى لا يثنى عليهم في ذلك المجمع ، وذلك إشعار لهم بأنهم صائرون إلي العذاب ، لأنه إذا نفيت عنهم التزكية أعقبها الذم والتوبيخ ، فهو كناية عن ذمهم في ذلك الجمع وفي هذا الموقف إذ ليس يومئذ سكوت .

وتقديم الجار والمجرور لهم " من باب تقديم المسند على المسند إليه ، للتنبيه على أنه خبر لا نعت ـ ولكون العذاب خاصاً بهم مقصوراً عليهم ، ووصف العذاب

(١) التحرير والتنوير ٢/١٢٠ ، محاسن التأويل ٣/٤٤ .

(٢) الحجر /٩٢ ، ٩٣ .

بالأليم للمبالغة في شدته من إسناد الفعل إلي مصدره لأن الأليم هو المعذب ، لكونه مؤلماً كما في جدّ جدّه .

أخذ الميثاق بإظهار شواهد النبوات وعدم كتمانها :

٢- قال تعالى : " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون " (١) .

تحليل الآية : قوله : " وإذ أخذ الله " كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم ما فى كتابهم من شواهد نبوته – عليه الصلاة والسلام – وغيرها ، و" **إذ** " منصوب على المفعولية بمضمر أمر به النبى – صلى الله عليه وسلم – خاصة بطريق تجريد الخطاب إثر الخطاب الشامل له – عليه الصلاة والسلام – وللمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة به – صلى الله عليه وسلم – وتوجيه الأمر بالذكر إلي الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها أى اذكر وقت أخذ الله تعالي "**ميثاق الذين أوتوا الكتاب** " والمراد بالأسم الموصول – الذين أوتوا الكتاب – إما أحبار اليهود خاصة – وإليه ذهب ابن جبير – وهو المروى عن ابن عباس من طريق عكرمة ، وإما ما يشملهم واحبار النصارى – وهو المروى عنه من طريق علقمة – ووصفهم بعنوان إيتاء الكتاب للمبالغة في تقبيح حالهم ، وقيل : وصفوا بذلك رمزاً إلي أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذى اوتوه .

وقوله : " لتبيننه " حكاية لما خوطبوا به ، والضمير لـ " الكتاب " وهو جواب

---

(١) آل عمران /١٨٧ .

لقسم ينبئ عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم : بالله لتبيننه للناس وتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو المقصود بالحكاية ، وقرئ بالياء ـ ليبيننه ـ لأنهم غيب .

وقوله :"ولا تكتمونه" عطف على الجواب ، وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفياً ، **وقيل** : اكتفى بالتأكيد في الفعل الأول لأنه تأكيد له ، والنهى عن المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته ـ عليه الصلاة والسلام-وبالكتمان المنهى عنه إلقاء التأويلات الزائفة والشبهات الباطلة ، وقرئ هذا الفعل بالياء لأنهم غيب " (١) .

وقوله : " فنبذوه " اى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق ، النبذ الرمى والإبعاد أى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكيد وألقوه " وراء ظهورهم " ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً ، وقوله : " فنبذوه وراء ظهورهم " تمثيل واستعارة لترك الاعتداد وعدم الالتفات فهو مثل في الاستهانة به والإعراض عنه بالكلية . كما أن جعله نصب العين علم في كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين وإظهار ما منحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتمانه لغرض من الأغراض الفاسدة ، أو لطمع في عرض من الأعراض الفانية الكاسدة ما لا يخفى .

فهذا القول : استعارة تمثيلية شبهت هيئة هؤلاء الذين أوتوا الكتاب فكتموه ولم

---

(١) أبو السعود ١٢٥/٢ ، روح المعاني ١٤٩/٤ .

يظهروا أحكامه وتعاليمه استهانة به وعدم اعتداد وإعراضاً عنه بالكلية بهيئة شئ يرمى به وراء الظهر استهانة به وإعراضاً عنه فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من وجود شئ غال عالي القيمة لا يلقى إليه بال لعدم الاعتداد والإعراض عنه والقرينة عقلية لاستحالة إلقاء الكتاب حقيقة

وقوله : "واشتروا به" أى بالكتاب الذي أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه . فإن ذكر نبذ الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة ، وإيقاع الفعل على الكل مع أن المراد به كتم بعضه من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الكلية ، وما كتموه كدلائل نبوته – عليه الصلاة والسلام – ونحوها لما أن ذلك كتم للكل إذ به يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لكلها ، أو بمنزلة كتم للكل من حيث إنهما سيان في الشناعة واستجرار العقاب .

وقوله : "اشتروا" استعارة تبعية في الفعل وهو مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أى تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله . فاستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، والجامع الترك والاستبدال في كل .

وقوله : ثمناً قليلاً" أي شيئاً تافهاً حقيراً من حطام الدنيا وأعراضها ، وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ والإعراض عن المعطى ، والتعبير عن المشترى الذي هو العمدة في العقد والمقصود بالمعاملة الثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة إليه ، وجعل الكتاب الذي حقه أن يتنافس فيه المتنافسون مصحوباً بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنيء

على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً مالا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه "(١) .

وقوله : " فبئس ما يشترون " أسلوب ذم لبيان سوء صنيعهم وشنيع فعلتهم . أى بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن و " ما " نكرة منصوبة مفسرة لفاعل ـ بئس ـ و " يشترون " صفته والمخصوص بالذم محذوف : أى بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن .

وقيل : " ما " مصدرية فاعل ـ بئس ـ والمخصوص محذوف أى بئس شراؤهم هذا الشراء لاستحقاقهم به العذاب الأليم " (٢) .

قال القاسمي -رحمه الله- : "قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانه فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره "(٣) .

فاستدل بالآية على وجوب إظهار العلم وحرمة كتمان شئ من أمور الدين لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب نفوسهم واستجلاب لمسارهم واستجذاب لمبارهم ونحو ذلك " (٤) .

عابد الأصنام متبع للشيطان لا يعرف هدى الله :

(٣) قال تعالى : " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلي الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين " (٥) .

---

(١) أبو السعود ٢/٢٥ . حاشية الجمل ١/٤٤ .

(٢) روح المعاني ٤/١٥٠ .

(٣) محاسن التأويل ٤/٣١٧ .

(٤) روح المعاني ٤/١٥٠ .

(٥) الأنعام /٧١ .

تحليل الآية : قوله : قل أندعوا من دون الله " إلخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال الــــذي يدعوا إلي عبادة الأصنام ، وهو مثل ضربه الله تعالي لمن كفر بعد إيمانه ، واتبـع الشياطين من أهل الشرك بالله ، وأصحابه الذين كانوا في حال إسلامه المقيميـــن على الدين الحق يدعونه إلي الهدى الذي هم عليه يقولون له : ائتنا وهو يابى ذلـك ويتبع داعى الشطان ويعبد الآلهة والأوثان .

والهمزة في : " **أندعوا** " للاستفهام الإنكاري ، و ــ ندعو ــ فعل مضارع ، والجملـة مقول القول ، والمراد بالدعوة في قوله : " أندعوا " العبادة أى : أنعبد من دون الله ما لا يقدر على نفعنا إن دعوناه ، ولا ضرنا إن تركناه . فقد صورت الآية العـــائد إلي ظلمة الكفر وقلق الإلحاد بعد معرفة القرار والاطمئنان فـــي دائـــرة الإيمـــان الصحيح المتلائم مع دلالة الوجود بالذى أستهوته الشياطين وسحرته ، وذهبت بـــه إلي مسالكها في الكهوف والخرائب ، ثم هو يسمع صوت اصحابه علـــى شـــاطئ الامان البعيد عن دائرة استهواء الشياطين يدعونه ــ ائتنا ــ هـــو يســمع صـــوت الغوث ولكنه لا يستطيع الإجابة لأنه مسحور ، والآية ذكرت استهواء الشـــياطين وقد صورت الحالة تصويراً بالغاً في الدقة والشفافية فالذى تســـتهويه الشـــياطين وتضله عن المحجة كائن في قمة الحيرة والتيه ، ثم إن كلمة " استهوته " تشير إلي أن الردة لم تكن مبنية على أصل قوى ناضج ، وإنما هي حالة استهواء ثم إن ذكر استهواء الشياطين وهى حقيقة غريبة في سباق المرتد عن الحـــق إلـــي انبـــاطل يتناسب جداً لأنه لا يرجـــع هـــذه الرجعـــة إلا إذا كـــان فـــي حالـــة إختـــلاب نفسى وعقلي .

تحليل الآية : الاستهواء يصف الحالة العقلية للمرتد وصفاً بالغاً في الدقة " (١) .

وجملة " مـــن دون الله " جـــار ومجـــرور متعلقـــان بـــالفعل " تدعـــون ، وجملـــة " ما لا ينفعنا ولا يضرنا " صلة الموصول . قيل : نزلت في أبى بكر ــ رضى الله عنــه ــ حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلي عبادة الأصنام فتوجيه الأمر إلي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حينئذ للإيذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويهاً لشأن الصديق ــ رضى الله عنه ــ أى أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التى من جملتها القدرة على النفع والضر ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه ولا علـــى ضرنـــا إذا تركناه وأدنى مراتب العبودية القدرة على ذلك (٢) .

وقوله : "ونرد على أعقابنا" معطوف على " **ندعوا** " داخل في حكـــم الإنكـــار والنفـــى ، والمعنى : ونرد إلي الشرك ، والتعبير عنه بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويـــره بصورة ما هو علم في القبح مع ما فيه من الإشارة إلي كون الشرك حالة قـــد تركـــت ونبذت وراء الظهر ، وإيثار الفعل ــ نرد ــ على ــ نرتد ــ لتوجيـــه الإنكـــار إلـــي الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لأطماعهم الفارغـــة وإيذانـــاً بـــأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلي نفيه وإنكاره "(٣)

فقوله : على أعقابنا" جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أى : راجعين إلي الشرك بعـد إذ أنقذنـــا الله منـــــه ، وقولـــه : " بعـــد إذ هدانـــا الله " ظـــرف متعلـــق بالفعل " نرد " و " إذ " ظرف لما مضى من الزمن في محل جر بالإضافة .

---

(١) التصوير البيانى /٩٢ ، ٩٣ د ابو موسى بتصرف .

(٢) ابو السعود ١٤٩/٣ ، روح المعاني ١٨٨/٧ .

(٣) ابو السعود ١٤٩/٣ بتصرف .

والمراد : هدانا إلي التوحيد والإسلام أو إلي سائر ما يترتب عليه الفوز في الآخرة ، والجملة مسوقة لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط ، وإلا لكفى أن يقال : بعد إذ اهتدينا كأنه قيل : أنرد إلي ذلك بإضلال المضل بعد إذ هدانا الله الذى لا هادى سواه .

وقوله : "كالذى استهوته الشياطين" نعت لمصدر محذوف أى أنرد رداً مثل رد الذى استهوته إلخ .

قال الشيخ الجمل في الحاشية : " والكاف في قوله :ـ كالذى ـ فيها وجهان :

أحدهما : أنه نعت مصدر محذوف أى نرد رداً مثل رد الذى استهوته .

والثاني : أنها في محل نصب على الحال من مرفوع ـ نرد ـ أى نرد مشبهين الذى استهوته الشياطين فمن جوز تعدد الحال جعلها حالاً ثانية إن جعل ـ على أعقابنا ـ حالاً ، ومن لم يجوز ذلك جعل هذه الحال بدلاً من الحال الأولى ، أو لم يجعل ـ على أعقابنا ـ حالاً بل متعلقاً بـ ـ نرد ـ " (١) .

وقوله : "كالذى استهوته الشياطين في الأرض" تشبيه تمثيلى حيث سبه حال الصائر إلي الضلال بكفره بعد الدعاء إلي الهدى بإيمانه كحال الصائر إلي الضلال بسلوكه غير المحجة في طريقه بعد الدعاء إلي الهدى بلزومه المحجة التى تؤدى إلي نجاحه . فالمشبه حال هذا الصائر إلي الضلال ، والمشبه به حال الحيران الذى صيرته هذه الشياطين إلي ما هو فيه تيه وضلال . فهو تشبيه جملة بجملة .

و" الاستهواء استفعال من هوى في الأرض يهوى إذا ذهب .

---

(١) حاشية الجمل ٢/٤٦ .

كأنها طلبت هوية وحرصت عليه أى كالذى ذهبت به مردة الجن في المهامه والقفاز ، والكلام من المركب العقلى أو التمثيل حيث شبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمة وأضلته بعد ما كان على الجادة المستقيمة " (١) .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " هذا مثل ضربه الله تعالى للألهة ومن يدعو إليها والدعاة الذين يدعون إلي الله كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً إذ ناده مناد : يا فلان ابن فلان هلم إلي الطريق وله أصحاب يدعونه إلي اتباعهم . فإن اتبع الداعى الأول انطلق به حتى يلقيه في هلكة ، وإن أجاب اصحابه اهتدى إلي الطريق ، وإنما يدعوه الشيطان باسمه واسم أبيه ليخدعه فيضله " (٢) .

وقوله : " له أصحاب " فيه إشارة هامة إلي أن هذا الصوت الذى يدعوه إلي الإيمان صوت رفيق به ، يدعوه إلي الخير والرشاد لأنه صوت الأصحاب " (٣) .

وقوله : " في الأرض " جار ومجرور متعلقان بالفعل ـ استهوته " ، والتعريف في " الأرض " تعريف الجنس أى جنس الأرض ، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من مفعوله أى كائناً في الأرض ، و " حيران " حال من مفعول " استهوته " وجملة " له أصحاب يدعونه إلي الهدى " جملة مستأنفة ، وجملة " يدعونه " صفة

---

(١) روح المعاني ١٨٩/٧ .

(٢) الجمان في تشبيهات القرآن /٧٧ .

(٣) التصوير البياني /٩٣ .

لأصحاب ، و " الهدى " الطريق المستقيم أطلق عليه مبالغة على حد قولنا : زيد عدل . والمعنى : لذلك المستهوى رفقة يهدونه إلي الطريق المستقيم تسمية له بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى .

وقوله : " ائتنا " جاء على إرادة القول . أى يقولون ائتنا والمعنى : وهو قد اعتسف المهمه تابعاً للشياطين لا يجيبهم ولا يأتيهم . فشبه حال من خلص من الشرك ثم عاد إليه . بحال من ذهبت به المردة في مهمه بعد ما كان على الجادة ، ولا يدرى مقصده الذى هو سائر إليه مع وجود رفقة تناديه لتهديه وهو لا يسمع لهم ، وفى قولهم : " **ائتنا** " إشارة إلي أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى إلي إتيانه وإنما يدرك سمت الداعي ومورد النعيق فقط " (١).

وقوله : " قل إن هدى الله هو الهدى " جملة مستأنفة كأنه قيل : ما الهدى الذي يدعى إليه هذا ؟ فقيل : قل : إلخ ومن هنا فصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال ، وهذه الجملة مؤكدة لتوضيح المراد من الآية وبيان أن منهج الله حق وطريقه واضح ، وأن ما وراءه ضلال وغي ، وأن الطريق السوي والمنهج الحق هو الذي أرسل الله به رسله ــ عليهم السلام ــ وتكرير الأمر " قل " للاعتناء بشأن المأمور به ، ولأن ما سبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الإسلام وهو توطئة لما بعده فإن اختصاص الهدى بهداه تعالي مما يوجب امتثال الأوامر بعده "(٢)

---

(١) ابو السعود ١٤٩/٣ ، ١٥٠

(٢) روح المعاني ١٨٩/٧ .

وقوله : " وأمرنا لنسلم لرب العالمين " تذييل متمم لما سبق معطوف على قولـــه : " إن هدى الله هو الهدى " داخل تحت القول ، وهو أن الإيمان والتوحيـــد والإخـــلاص إنما هو لرب الأرباب ومكون الأكوان ، واللام في قوله : " لنسلم " للتعليـــل . أى تعليل الأمر المحكى وتعيين ما أريد به من الأوامر الثلاثـــة : " قـــل أندعـــوا " ، " **ائتنا** " ، " قل إن " وقيل : لنا أسلموا لأجل أن نسلم ، وقيل : هى بمعنى البـــاء أى أمرنا بأن نسلم ، وقيل . زائدة أى أمرنا أن نســـلم علـــى حـــذف البـــاء " (١) والتعبير بـــ " العالمين " لعمومية الإيمان من جميع الخلائق والأكوان ، فـــالتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به .

المنسلخ من الآيات قرين الكلب لا يهتدى إلي بصيرة :

٤- **قال تعالى :** " واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكـــان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلي الأرض واتبع هواه فمثله كمثـــل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذيـــن كذبـــوا بآياتنـــا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " (٢) .

تحليل الآيتين : قوله : واتل عليهم " معطوف على المضمر العامل فـــي " وإذ أخـــذ"وارد على نمطه في الأنباء عن الحور بعد الكور ــ أى من التردد في الأمر بعد المضى فيـــه أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها ــ والضلالة بعد الهدى أى واتل علـــى اليهود ، وأعقب هذا القول ما يفيد أن التوحيد جعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعـــض الناس إلي نبذ الشرك في مبدأ أمره ثم تعرض وساوس الشيطان له بتحسين الشرك .

---

(١) أبو السعود ١٥٠/٣ ، روح المعاني ١٨٩/٧ .

(٢) الأعراف/ ١٧٥ ، ١٧٦ .

ومناسبة الآية لما قبلها إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله ، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدر الله له الهدى المستمر .

وشأن القصص المفتتحة بقوله : " واتل عليهم " أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله : " ذلك مثل القوم " إلخ ، ويحصل من ذلك أيضاً مثل قوله : **"واتل عليهم نبأ نوح"** (١) إلخ . فضمير " عليهم " راجع إلي المشركين الذين وجهت إليهم العبر والمواعظ من أول هذه السورة ، وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم . على أن توجيه ضمائر الغيبة إليهم أسلوب متبع في مواقع كثيرة من القرآن فهو من قبيل رد العجز على الصدر وهو أن يؤتى بلفظين مكررين أو متجانسين فيجعل أحدهما في أول الجملة والآخر في آخرها ، وهو يأتى في الشعر والنثر .

ومناسبة فعل التلاوة لهم أنهم كانوا قوماً تغلب عليهم الأمية فأراد الله أن يبلغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة فالضمير المجرور بـ " على " عائد إلي معلوم من السياق وهم المشركون ، وكثيراً ما يجئ ضمير جمع الغائب في القرآن مراداً به المشركون كقوله : " عم يتساءلون " (٢) ، و ـ النبأ هو الخبر المروى الذى له شأن وخطر . وظاهر اسم الموصول المفرد أن صاحب الصلة واحد معين ، وأن مضمون الصلة حال من أحواله التى عرف

---

(١) يونس /٧١

(٣) النبأ /١ .

بها ، والأقرب أن يكون صاحب هذا النبأ ممن للعرب إلمام بمجمل خبره . فقيل : المعنى به أمية بن أبى الصلت الثقفي .

وقال سعيد بن المسيب : نزلت في أبى عامر بن صيفى الراهب واسمه النعمان الخزرجى وكان يلقب بالراهب في الجاهلية لأنه قد تنصر في الجاهلية ولبس المسوح وزعم أنه على الحنيفية ولكنه كاذب كفار " (١) .

وذهب كثير من المفسرين : إلى أنها نزلت فى رجل من الكنعانيين وكان في زمن موسى ـ عليه السلام ـ يقال له : بلعام بن باعور " (٢) .

والإيتاء هنا مستعار للاطلاع وتيسير العلم و " الآيات " دلائل الوحدانية التي كرهت إليه الشرك وبعثته على تطلب الحنيفية بالنسبة لأمية بن أبى الصلت ، أو دلائل الإنجيل على صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة للراهب أبى عامر بن صيفي .

وقوله : " فانسلخ منها " معطوف على قوله : " أتيناه " وحقيقة الانسلاخ خروج جسد الحيوان من جلده حين سلخه عنه ، والسلخ إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده ، واستعير في الآية للانفصال المعنوي ، وهو ترك التلبس بالشيء أو عدم العمل به وهو استعارة تبعية من كشط الجلد عن الشاة ، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه ، وذلك أن الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية .

---

(١) البحر المحيط ٤/٤٢٢ .

(٢) أسباب النزول /١٦٩، ١٧٠

قال الشيخ أبو السعود : " فانسلخ منها " ــ أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلاً أو خرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره وأيا ما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبئ عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبداً للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال " (١) .

وقوله : " فأتبعه الشيطان " بهمزة قطع وسكون المثناة الفوقية بمعنى لحقه وأدركه غير مفلت حتى صار قريناً له ، وهذا أخص من ــ اتبعه-بتشديد المثناة ووصل الهمزة ، وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية أو أتبعه خطواته على أن مفعول ــ أتبعه ــ الثاني محذوف .

وقوله : " فكان من الغاوين " معطوف على قوله : " فأتبعه " ، والمراد : فصار من زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين ، والتعبير **بقوله : " فكان من الغاوين "** أشد مبالغة في الاتصاف بالغواية من أن يقال : وغوى أو كان غاوياً " (٢) .

وقد رتبت أفعال الانسلاخ والاتباع والكون من الغاوين بفاء العطف على حسب ترتيبها في الحصول . فإنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه حصلت في نفسه ظلمة شيطانية مكنت الشيطان من استخدامه وإدامة إضلاله ، فالانسلاخ عن

---

(١) أبو السعود ٣/٢٩٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٩/١٧٦ ، محاسن التأويل ٧/٣٠٠ ، تفسير الخازن ٢/٣١٦ ، مجمع التفاسير ٢/٦٧٠ ، ٦٧١ .

الآيات أثر من وسوسة الشيطان ، وإذا أطاع المرء الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده . فسخره وأدام إضلاله ، وهو المعبر عنه بـ " اتبعه " فصار بذلك من زمرة الغواة المتمكنين من الغواية .

وقوله : "**ولوشئنا**" كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ما ذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه في مهاوى الغواية ، ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطاً ، وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أى ولو شئنا رفعه فقوله : " ولو شئنا لرفعناه بها " بيان لإفادة أن تلك الآيات شأنها أن تكون سبباً للهداية والتزكية لو شاء الله له التوفيق وعصمه من كيد الشيطان وفتنته فلم ينسلخ عنها ، وهذه عبرة للموفقين ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم .

والمعنى : ولو شئنا لزاد في العمل بما آتيناه من الآيات فلرفعه الله بعلمه ، والرفعة مستعارة لكمال النفس وذكائها لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعاً على من دونه . أى لو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلاً وذكاء وتميزاً بالفضل . فمعنى " لرفعناه " ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به .

وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله : " ولو شئنا لرفعناه بها " بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة ، وهو الاستدراك بأنه انعكست حاله فأخلد إلي الأرض . أى ركن ومال إلى الأرض .

والضمير في " لرفعناه " عائد على الذى أوتى الآيات ، والضمير في " بها " مختلف فيه فقيل : عائد على الآيات والمعنى : ولو شئنا لرفعنا الكفر بالايات وهذا المعنى مروى عن مجاهد " (١) .

---

(١) البحر المحيط ٤٢٣/٤ .

والباء في " بها " السببية أى بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجبها فإن اختيـاره وإن لم يكن مؤثراً في حصوله ولا فى ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلـق الله تعـالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك البتة حسب جريان العادة الإلهية ، وقد أشير إلي ذلـك في الاستدراك بأن اسند ما يؤدى إلي نقيض التالى إليه حيث قيل : " ولكنه أخلـد إلي الأرض " مع أن الإخلاء إليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره إليه إلا بخلقه تعالى كأنه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلـك الآيـات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأه لمباشرته لسبب نقيضه فترك فـي كـل من المقامين ما ذكر في الآخر تعويلاً على إشعار المذكور بالمطوى " (١) .

قال العلامة الزمخشري : " فإن قلت : كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالي ولـم يعلـق بفعله الذى يستحق به الرفع ؟ قلت : المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولـم ينسـلخ منها لرفعناه بها ، وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات ، فذكـرت المشيئة والمراد ما هى تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل : ولو لزمها لرفعناه بـها ، ألا ترى إلي قوله :ـ ولكنه أخلد إلي الأرض ـ فاستدرك المشيئة بإخلاده الـذى هو فعله موجب أن يكون لو شئنا في معنى ما هو فعله ، ولو كان الكـلام علـى ظاهره لوجب أن يقال : ولو شئنا لرفعناه ولكن لم نشأ " (٢) .

وقوله تعالى : "ولو شئنا لرفعناه بها" إلخ من باب المذهب الكلامي الذى هو : احتجـاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند ، وتفل سلاح المكـابر المتعنـت . على طريقة علماء الكلام ، أو هو إثبات الدين بالبراهين العقليـــة ، وترتيـب

(١) أبو السعود ٢٩٢/٣ .

(٢) الكشاف ١٣٠/٢، ١٣١ .

المقدمتين في هذه الكلمات والنتيجة أنا نقول : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولو شاء الله رفع بلعام بن باعوراء المقصود بهذه الآية فقد بعثه الله إلي ملك مدين ليدعوه إلي الإيمان فأعطاه وأقطعه ، فاتبع دينه وترك دين موسى ، ففيه نزلت الآية وما بعدها .

وجاء الكلام هنا تمثيلاً لحال المتلبس بالنقائض والكفر بعد الإيمان والتقوى بحال من كان مرتفعاً عن الأرض فنزل من اعتلاء إلي أسفل فبذكر ــ الأرض -- علم أن الإخلاد هنا ركون إلي السفل أى تلبس بالنقائض والمفاسد ، واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائض المحبوبة على ما يدعو إليه الحق والرشد فالاتباع مستعار للأختيار والميل ، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها " (١) وقد تفرع على هذه الحالة تمثيله بالكلب اللاهث . لأن اتصافه بالحالة التى صيرته شبيهاً بحال الكلب اللاهث تفرع على إخلاده إلي الأرض واتباع هواه ، فالكلام في قوة أن يقال : ولكنه أخلد إلي الأرض فصار في شقاء وعناء ــ كمثل الكلب ــ إلخ .

واستعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه مألوف بأنه يراد به تشبيه الحالة بالحالة . فلذلك تعين إن التشبيه هذا لا يخرج عن المتعارف في التشبيه المركب . فهذا الضال تحمل كلفة اتباع الدين الصالح وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك فى زمن الفترة فلقى من ذلك نصباً وعناءً ، فلما حان وقت اتباع الحق ببعثة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٧/٩ ، حاشية الجمل ٢١٠/٢-٢١٢ .

جديراً فيه بأن يستريح من عنائه لحصول طلبته فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب ، والمشقة وهى حالة الحمل عليه ، وفى حالة الخلو عن ذلك السبب ، وهى حالة تركه في دعة ومسالمة ، والذي ينبه على هذا المعنى هو قوله : " أو تتركه " وليس لشيء من الحيوان حالة تصلح للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث لأنه يلهث إذا أتعب ، وإذا كان في دعه فاللهث في أصل خلقته .

والإخلاد إلي الشئ الميل إليه مع الاطمئنان به والمراد بالأرض الدنيا وقيل : السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة ، والسفالة على الرفعة والجلالة ــ واتبع هواه ــ معرضاً عن تلك الآيات الجليلة فانحط أبلغ انخطاط وارتد أسفل سافلين " (١) .

وقوله : " فمثله كمثل الكلب " يضرب به المثل في الخساسة لأنه يأكل العذرة ويرجع في قيئه والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض ــ الطرى ــ .

قال العلامة الزمخشري : " فصفته التى هى مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها ، وهى حال دوام اللهث به واتصاله ، سواء حمل عليه : أى شد عليه وهيج فطرد ، أو ترك غير متعرض له بالجمل عليه " (٢) و ــ اللهث ــ هو اندلاع اللسان بالنفس الشديد وذلك طبع في الكلب لا يقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف

---

(١) أبو السعود ٢٩٣/٣ .

(٢) الكشاف ١٣١/٢ .

سائر الحيوانات فإنها لا تحتاج إلي التنفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء .

" وإيثار الجملة الأسمية على الفعلية بأن يقال : فصار مثله كمثل الكلب إلخ للإيذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استقراره واستمراره عليها ، والخطاب في فعل الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فإنه أدخل في إشاعة فظاعة حاله " (١) .

وقوله : " إن تحمل عليه أو تتركه يلهث " جملتان شرطيتان قيل : لا محل لهما من الإعراب لأنهما تفصيل لما أجمل في المثل وتفسير لما أبهم فيه ببيان وجه الشبه كقوله تعالى : " خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون " بعد قوله : " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم " (٢) ، وقيل : إنهما في محل النصب على الحالية من الكلب بناء على تحولهما إلي معنى التسوية . كأنه قيل : لاهثاً في الحالين " (٣) .

فالآية من قبيل التشبيه التمثيلى : حيث شبه حال من أعطى شيئاً فلم يقبله بالكلب الذى إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً ، وإن تركته شد عليك ونبح ، فإن الكلب يعطى الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها ورده لها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له ، وواجب أن يكون رفض الأشياء الخطيرة النفيسة في خدن طلبها والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً عليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش .

(١) أبو السعود ٢٩٣/٣ . روح المعاني ١١٥/٩ .
(٢) آل عمران /٥٩ .
(٣) روح المعاني ١١٥/٩ .

فهو إذاً تشبيه تمثيلى مركب انتزعت فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من متعدد ، ولما ذكر : " تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " في جانب الحالة المشبه بها ، تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة ، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب ويشبه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة تشبيه المعقول بالمحسوس ، ويشبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس .

هل سبق القرآن بتشبيه التارك للآيات بالكلب ؟

التمثيل المذكور في الآية من مبتكرات القرآن الكريم ولم يسبق إليه فهو تمثيل لم يسمع به العرب إلا من خلال القرآن ، وذلك أن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه ، وإن لم يكن لاضطراب باطنه سبب آت من غيره .

فمعنى : " إن تحمل عليه " إن تطارده وتهاجمه مشتق من الحمل الذى هو الهجوم على أحد لقتاله . يقال : حمل فلان على القوم حملة شعواء أو حملة منكرة ، وقد أغفل المفسرون توضيحه .

تعقيب على رأى المفسرين حول الآية :

أغفل كثير من المفسرين ما ذكرناه سابقاً في تحليل التمثيل في الآية :

حيث قرروا التمثيل فيها بتشبيه حالة بسيطة وهى حالة بلعام وهى المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة في مجرد التشويه أو الخسة .

بحالة بسيطة وهى الهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب ، فيؤول إلي أن الغرض من تشبيهه بالكلب إظهار خسة المشبه ـ كما درج عليه العلامة الزمخشري في كشافه (١) ـ وغيره (٢) ، ولو كان هذا هو المراد لما كان لذكر ـ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ـ كبير جدوى بل يقتصر على أنه لتشويه الحالة المشبه بها لتكتسب الحالة المشبهة تشويهاً ، وذلك تقصير في حق التمثيل " (٣) .

وجملة " إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " كما ذكرنا شرطية في موضع الحال من " الكلب " والخطاب في فعلى الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فإنه أدخل في إشاعة فظاعة حاله ، والمراد : إن يحمل عليه حامل أو يتركه تارك.

---

(١) الكشاف ١٣١/٢ .

(٢) البحر المحيط ٤٢٤/٤ ، أبو السعود ٢٩٣/٣ ، روح المعاني ١١٥/٩ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧٨/٩ بتصرف .

وقوله : " ذلك مثلُ القوم " الآية . جملة مبينة لجملة : واتل عليهم نبأ الذى " الآيتين ، والمثل الحال أى ذلك التمثيل مثل لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن تشبيه بليغ . لأن حالة الكلب المشتبه شبيهة بحال المكذبين وليست عينها .

والإشارة بـ " ذلك " إلي وصف الكلب أو المنسلخ من الآيات وهو صاحب القصة هو مثل المشركين لأنهم شابهوه في أنهم أوتوا القرآن فكذبوا به فكانت حالهم كحال ذلك المكذب ، وما فيه من الإيذان بالبعد ببعد المنزلة في الخسّة والدناءة أى ذلك المثل السئ .

" والأظهر أن تكون الإشارة إلي المثل في قوله :- كمثل الكلب - أى حال الكلب المذكورة كحال المشركين المكذبين في أنهم كانوا يودون معرفة دين إبراهيم - عليه السلام - ويتمنون مساواة أهل الكتاب في العلم والفضل . فكانوا بذلك في عناء وحيرة في الجاهلية . فلما جاءهم رسول منهم بكتاب مبين انتقلوا إلي عناء معاندته " (١) .

وقوله : " فاقصص القصص " الفاء فصيحة أفصحت عن مقدر أي : إذا تحققت أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم (٢).

وهو أسلوب أمر مفرع على ما سبق أى اقصص هذه القصة وغيرها ، وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التى في القرآن فإن في القصص

---

(١) السابق ١٧٩/٩ .

(٢) السابق نفسه

تفكراً وموعظة فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم لأن للأمثال واستحضار النظائر شأناً عظيماً في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلي النفوس الذاهلة لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس . بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس " (١) .

فالفاء في قوله : فاقصص " لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى إذا تحققت . إلخ فاقصصه عليهم حسبما أوحي إليك ليعلموا أنك علمته من جهة الوحي ، وجملة الترجى : " **لعلهم يتفكرون** " في محل نصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو على أنها مفعول له أى . فاقصص القصص - راجياً لتفكرهم ورجاء لتفكرهم " (٢) والتعريف في - القصص - للعهد .

ومعنى التشبيه في الآية : أن الكافر التارك لآيات الله العادل عنها الذى لا يصلحه شئ كالكلب في لهثه ، ولو دبرته بكل شئ لم يتركه ، ولم ينزع عنه ، ولذلك ذكر الشئ وضده . فالتقدير : كمثل الكلب لاهثاً على كل حال " (٣) .

هيمان الشعراء في كل واد :

٥- قال تعالي : " والشعراء يتبعهم الغاوون - ألم تر أنهم في كل واد يهمون " (٤)

تحليل الآيتين : قوله : والشعراء يتبعهم " استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في

---

(١) السابق نفسه .

(٢) حاشية الجمل ٢/٢١٢ .

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن /٩٥ .

(٤) الشعراء /٢٢٤ ، ٢٢٥

حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الشعراء ببيان حال الشعراء والمنافية لحاله - صلى الله عليه وسلم - بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل بما مرّ من بيان أحوالهم المضادة لأحواله - صلى الله عليه وسلم - والمعنى أن الشعراء يتبعهم - أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم - الغاوون - الضالون عن السّنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلي طريق الحق الثابتين عليه " (١) .

ومجيء الفعل " **يتبعهم** " مضارعاً للدلالة على تجدد الاتباع وحدوثه شيئاً فشيئاً ودفعة دفعة فاتباع هؤلاء لهؤلاء متجدد مستمر .

والتعريف في " الغاوون للعهد أى المعهودون بالغواية " .

وقوله " **ألم تر أنهم** " جملة مفسرة لما قبلها ، والهمزة للاستفهام التقريري وهو تقرير المخاطب بشيء ثبت عنده ، ولكنه يخرج بصورة الاستفهام لأنه أوقع في النفس ، وأدل على الإلزام ، وهو استشهاد على أن الشعراء إنما - يتبعهم الغاوون - وتقرير له ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية . للإشارة إلي أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء ، وضمير

---

(١) أبو السعود ٢٦٩/٦ ، ٢٧٠ روح المعاني ١٤٣/١٩ ، ١٤٤ .

الجمع للشعراء ، أي : ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال ، وفي كل مسلك من مسالك الغى والضلال - يهيمون - على وجوههم لا يهتدون إلي سبيل معين من السبل بل يتحيرون في سباسب الغواية والسفاهة ويتيهون في تيه الصلف والوقاحة " (١)

وفى قوله : " **في كل واد يهيمون** " استعارة تمثيلية بديعة فقد شبهت حالة ذهاب الشعراء عن سنن الهدى وإفراطهم في المديح والهجاء ، وذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حد القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على أشجعهم وأبخلهم على سخيهم . بحالة التائه في الصحراء هام على وجهه فهو لا يدرى أين يسير ؟ والجامع الهيئة الحاصلة من الذهاب ، والإبعاد وقلة المبالاة والحيرة وعدم الأهتداء .

" وليس ثمة واد ولا شعاب ولا هيام ، وإنما هو تغلغل إلي مناحى القول ، واعتساف في الأوصاف والتغزل والتشبيب ، والنسيب وقلة مبالاة بما يهتكون من أعراض ، ويرجفون به من أقوال (٢) وهذه الاستعارة من ألطف الاستعارة وأرشقها .

" **وقوله** :- يهيمون - أبلغ في هذا المعنى من قول :- يسعون أو يسيرون - ومع ذلك فالهيمان صفة من لا مسكة له ولا رجاحة معه وهي مخالفة لصفات ذى الحلم

---

(١) أبو السعود ٢٦٩/٦ ، ٢٧٠ ، روح المعاني ١٤٣/١٩ ، ١٤٤ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ١٤٨/٧ .

الرزين والعقل الرصين ، ووصف - الشعراء - بالهيمان فيها فرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في اقطارها ، والإبعاد في غاياتها " (١) وهذه الأستعارة من استعارة المحسوس وهو الوادى المعروف - المستعار - للمعقول وهى المعاني التى يسلكها الشعراء والأغراض التى يعالجونها عادة - المستعار له .

وقد كان ديدن هؤلاء الشعراء وهجيراهم تمزيق الأعراض المحمية والقدح في الأنساب الطاهرة السنية والنسيب بالحرام والغزل والابتهار والتردد بين طرفى الإفراط والتفريط في المدح والهجاء ، ومعلوم لنا جميعاً أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن هنا استثنى سبحانه وتعالى من هؤلاء الشعراء الشعراء الإسلاميين فقال : " **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** (٢) " إلخ . الذين ينافحون عن الدين ويردون عن حياض الإسلام ، وعليه فقد إستدل بهذه الآية على ذم الشعر والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق ، وجواز الهجو لمن ظلم انتصاراً هكذا قيل ، ولهذا قالوا إن الشعر باب من الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وقد سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشعر وأجاز عليه . قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن من الشعر لحكمة " (٣) ، وقال - صلى الله عليه وسلم - لحسان بن ثابت :

---

(١) تلخيص البيان /٢١٧

(٢) الشعراء /٢٢٢ .

(٣) سنن ابن ماجة ٤/٢٢٧ ح ٣٧٥٥ ك الأدب ب الشعر من حديث أبي بن كعب .

" أهج المشركين فإن روح القدس معك " (١) .

حملة التوراة من اليهود كالحمار يحمل أسفاراً :

٦- قال تعالى : " مثلُ الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين " (٢) .

تحليل الآية : قوله : " مثل الذين حملوا التوراة " كلام مستأنف مسوق لضرب المثل لليهود عندما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ، ومناسبة هذه الآية لسابقتها : هو أن الله تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة ، وبين في النبوة أنه – عليه الصلاة والسلام – بعث إلي الأميين ، واليهود لما أوردوا تلك الشبهة ، وهي أنه – عليه السلام – بعث إلي العرب خاصة ، ولم يبعث إليهم بمفهوم الآية " هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم " (٣) الآية . أتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي – عليه الصلاة والسلام – والمقصود منه أنهم لما يعملوا بما فى التوراة شبهوا بالحمار ، لأنهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها ، ولم يوردوا تلك الشبهة ، وذلك لأن فيها نعت الرسول – عليه السلام – والبشارة بمقدمه والدخول في دينه " (٤) .

---

(١) مسنداً الإمام أحمد ٥/٣٨٣ح ١٨١٦٨ رقم ٤/٢٩٨ ، ٤/٢٨٦ ص ٣٦٣ ج ١٨٠٥٥ ، دلائل الإعجاز /٧٣ وما بعدها ت د/ ياسين الأيوبي وتحليل الشيخ عبد القاهر ذلك تفصيلاً .

(٢) الجمعة /٥

(٣) الجمعة /٢

(٤) التفسير الكبير ٦/٣٠ .

وقولة : " **حملوا** " ليس من الحمل على الظهر وإنما هو من الحمالة ، والحميل هـو الكفيل والضامن ، والمراد : حملوا العمل بما فيها وكلفوا القيـام بـها ، وقيـل : ضمنوا أحكام التوراة ثم لم يضمنوها ولم يعملوا بما فيها .

و " الذين حملوا التوراة " المراد بهم اليـهود ، وقيـل : علمـاؤهم وأحبـارهم ، **وقوله** : " **ثم لم يحملوها** " معطوف على قوله : " **حملوا** " والعطف هنا للترتيب مـع التراخي ، والمراد : لم يعملوا بما في تضاعيفها التى من جملتها الآيات الناطقـة بنبوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

وقولـه : " **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** " خـبر لقولـه : " **مثل الذين** " ، وجملـة " يحمل أسفاراً " في محل نصب على الحال من الجار ، ويجوز أن يكون في محل جر نعتاً لـ " الحمار " لجريانه مجرى النكرة لأن المراد به الجنس . كما في قول الشاعر (١) .

ولقد أمر على اللئيم يسبنى ·· فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

فقد وقعت الجملة " يحمل أسفاراً " نعتاً للمعرفة وهو المقرون بأل ، وإنمـا سـاغ ذلك لأن أل فيه جنسية،فهو قريب من النكرة"(٢) بمعنى أن تعريفه وتنكيره سواء .

و " أسفاراً " جمع سفر ، والأسفار هي الكتب الكبار ، وجاءت نكـرة للتفخيـم ، وإيثار لفظ السّفر ، وما فيه مـن معنـى الكشـف مـن العلـم يتعـب بحملـها ولا ينتفع بها .

(١) تنسبه في الأحمعيات لشمر بن عمرو الحنفى الأحمعيـات /٦٤ ط ليبسـك سـنة ١٩٠٢م . الأجمعية /٣٨ ط مصر .

(٢) شرح ابن عقيل ١٨٢/٢ ، ١٨٣ ت الشيخ محيي الدين .

قال الإمام القرطبي : " هي جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ . قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبيل ، فهكذا اليهود ، وفى هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء " (١) .

وقوله تعالي : " **مثل الذين حملوا التوراة** " إلخ تشبية تمثيلي : حيث شبهت حال اليهود وهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها إلا أنهم لم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتها . بحال الحمار يحمل أسفاراً وهى كتب العلم النافعة إلا أنه لا يدرى ما فيها فلا يناله منها إلا الكد والتعب " (٢) ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من شقاء كل بحمل واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والفوائد الشريفة من غير أن يحصل على شئ من تلك المنافع أو يعود عليه بعض تلك الفوائد .

" وقد روعى في صفة اليهود حمل معنوى وكون المحمول أوعية العلم وكونهم لا ينتفعون بها ، وأخذ حرمان الانتفاع من الجهل المعتبر في الطرفين ، وأخذ كون المنتفع به أبلغ نافع من أن المحمول في الطرفين أوعية العلم التى هي أولى ما ينتفع به وأخذ تحمل التعب من أن كلاً منهما يحمل أمراً غير خفيف ، وقد انتزع الوجه من عدة أمور (٣) فالتشبيه مركب من أحوال الحمار ، وذلك هو حمل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨٤/١٨ .

(٢) الكشاف ١٠٣/٤ .

(٣) نظرات في البيان /٨٧،٨٨ د عبد الرحمن الكردى المطول /٣٢٥ .

الأسفار التى هي أوعية العلم وخزائن ثمرة العقول ثم لا يحسن ما فيها ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم في شئ فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويتعبه " (١) .

وتخصيص - الحمار - من بين سائر الحيوانات بالذكر :- كما قال الإمام الرازى - : " لوجوه منها . أنه تعالى خلق - الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة (٢) والزينة في الخيل أكثر وأظهر بالنسبة إلي الركوب وحمل الشئ عليه ، وفى البغال - دون ، وفى الحمار - دون - البغال - فالبغال كالمتوسط في المعاني الثلاثة ، وحينئذ يلزم أن يكون - الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلي - الخيل والبغال - وغيرهما من الحيوانات ، ومنها : أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة ، وذلك في - الحمار - أظهر ، ومنها : أن في الحمار من الذل والحقارة ما لا يكون في الغير ، والغرض من الكلام في هذا المقام تعبير القوم بذلك وتحقيرهم ، فيكون تعيين - الحمار - أليق وأولى " ومنها : أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل وأسلم لكونه ذلولاً ، سلس القياد ، لين الانقياد ، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة ، وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلي غيره ، ومنها : أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام ، وبين لفظى الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى " (٣)

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٤٢٢/٣

(٢) النحل /٨ .

(٣) التفسير الكبير ٧،٦/٣٠ .

وقوله : بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله " أسلوب ذم لبيان حال هؤلاء المضروب لهم المثل ، والمراد : بئس هذا المثل الذى ضربناه لليهود مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على نبوة محمد – عليه الصلاة والسلام – وهى جملة مفصولة عن سابقتها لتنزيلها منها منزلة التوكيد المعنوي ، وقد ذم الله تعالى المثل –- والمراد منه ذم هؤلاء اليهود الأغبياء الجهل ، ولما بلغ كذبهم مبلغاً وهو أنهم كذبوا على الله تعالى كان في غاية الشر والفساد فلهذا قال سبحانه :- بئس مثل القوم – ، وقيل : الآيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد – صلى الله عليه وسلم-، وفى قوله :- **بئس مثلُ القوم** – تعريض لمعشر المسلمين إن لم يطبقوا أحكام القرآن ويعملوا بمقتضاه وهو على حد قولهم : إياك أعنى واسمعي ياجارة .

– ولذا قال أهل المعاني : هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ، ولهذا قال ميمون بن مهران : يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية " (١) .

وقوله : " **والله لا يهدى القوم الظالمين** " تذييل لنفى هداية هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فلا يوفقهم إلي الخير ولا يرشدهم إلي الإيمان لتكذيبهم الأنبياء والرسل ، الواضعين للتكذيب في موضع التصديق أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بسبب التكذيب .

---

(١) التفسير الكبير ٧/٣٠

قال شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر :– فإن قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال وذلك أن الحافظ للشيء يقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره ، وعلى ذلك يقال حملة الحديث وحملة العلم . فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا وإنما قصد ما يوجبه تعدى الحمل إلي الأسفار مع اقتران الجهل بها به وهو العناء بلا منفعة " (١) ثم يقول – رحمه الله – :" يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل في كمه أبداً دفاتر علم وهو بليد لا يفهم أو كسلان لا يتعلم : إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضاً قد يحمل تريد أن تبطل دعواه أن له في حمله فائدة وأن تسوى بينه وبين الحمار في فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود في المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لا ينصرف إليه من حيث هو حمل وإنما ينصرف إلي ما ذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعاً إلي الحمل من حيث يوصف الرجل مثلاً بكثرة الحفظ للوظائف أو جهد النفس في الأشغال المتراكمة وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه " (٢) .

---

(١) أسرار البلاغة /٧٧ ت رشيد رضا .

(٢) السابق نفسه

المبحث الثالث

" الآيات الخاصة بالموازنة بين طرفي الإيمان والكفر "

البلد الطيب مبارك نباته :

١- قال تعالي : " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكـــداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون " (١) .

تحليل الآية : قوله : " **والبلد الطيب**" إلخ كلام مستأنف مسوق " لتتميم التشبيه فـــي قوله : " **كذلك نخرج الموتي** " (٢) .

و " **البلد** " مبتدأ من " الطيب " صفة له ، وجملة " يخرج نباته " خـــبر المبتـــدأ ، و " **بإذن ربه** " جار ومجرور متعلقـــان بمحـــذوف حـــال ، والتقديـــر : يخـــرج نباته حسناً وافياً لمقابلته قولـــه : " نكـــداً " فيمـــا بعـــد . ففـــى الكـــلام حـــذف لفهم المعنى ، ولدلالة " البلد الطيب " ولمقابلتها قوله : " نكداً " وقوله : " والـــذى خبث لا يخرج إلا نكداً " معطوف على سابقه ، وهو وصف لمحذوف ، أى : البلد الذى خبث ، وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول بذكر ما دلـــت عليـــه الصلـــة لاستهجان التصريـــح بالاســـم المنســـوب إليـــه هـــذا الفعـــل ، وفـــى قولـــه : " **والذى خبث لا يخرج إلا نكداً** " أسلوب قصر من قصر الموصـــوف علـــى الصفـــة قصراً إضافياً طريقه النفى والاستثناء . والوصف بـــ : نكدا " دليل على العســـر الممتنع مـــن إعطـــاء الخـــير علـــى جهـــة البخـــل ، أو دليـــل علـــى الشـــؤم واللؤم وقلة العطاء .

---

(١) الأعراف /٥٨.

(٢) الأعراف /٥٧ .

" الذى خبث – صفة للبلد ومعناه البلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكـــدا ، فحـذف المضاف الذى هو النبات ، وأقيم المضاف إليه الذى هو الراجع إلي ذلـــك البلـد مقامه ، إلا أنه كان مجروراً بارزاً فانقلب مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفـاعل ، أو يقدر : ونبات الذى خبث ، وقرئ : " يخرج نباته " أى يخرجه البلد وينبتـــه ، وقرئ : " نكداً " بفتح الكاف على المصدر أى ذا نكد " (١) .

وفى قوله : " **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه** " استعارة تمثيلية حيث شبهت حـــال المؤمن الذى قبل دعوة الله وصدق رسوله وآمن بكتاب الله فأثمر الخير ، وأنبـت الصلاح والتقوى بحال الأرض الكريمة التربة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشـــب الكثير فانتفع بها العباد وعمرت بها البلاد ، وشبهت حـــال الكـافر فـي نفـوره وإعراضه ، ولم يقبل الإرشاد والمواعظ فنتج عنه الفساد والضلال بحـال الأرض السبخة قبلت الماء ولكنها لم تنتج الخير ولا الثمر لملوحتها وفساد معدنها ،وشـبه نزول القرآن بنزول المطر فإن الأرض الكريمة التربة إذا انـزل عليـها المطـر يحصل فيها أنواع الأزهار والثمار ، والأرض السبخة وإن نزل عليها المطر لـم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل فكذلك الروح الطاهر النقي عـن شـوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنـــواع الطاعـات والمعارف والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيث الكدر وإن اتصل به نور القرآن لم تظهر فيه المعارف والأخلاق الحميدة " (٢) .

---

(١) التفسير الكبير ١٥١/١٤ ، ١٥٢ .

(٢) حاشية الشيخ زادة ٢٤٨/٢ ، التفسير الكبير ١٥٠/١٤ .

والتعبير أولاً بـ " الطيب " ، وثانياً بـ " الذى خبث " دون - الخبيث للإيذان بأن أصل الأرض أن تكون طيبة منبتة ، وخلافه طارئ عارض وإيثار خصوص التمثيل بالأرض الطيبة والخبيثة استطراد عقيب ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد وموازنة بين الرحمتين ، ولقربه من الأعتراض جئ بالواو في قوله تعالى : - والبلد الطيب - ، وفيه إشارة إلي معنى ما ورد في صحيح مسلم عن عياض المجاشعى - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ذات يوم في خطبته : " وإني خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " (١) .

وقوله : " كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون " تشبيه آخر ، والمراد : كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين وجوه الحجج ونكررها آية بعد آية ، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه - فقوله : " كذلك " نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك التصريف البديع - وهو تشبيه مرسل ذكرت فيه أداة التشبيه الكاف ، وهو كلام مستأنف مسوق بأسلوب بلاغى على طريق التشبيه ومعناه أن من خلق الأرض فجعل منها صالحاً ينتفع به ومالحاً سبخاً لا نفع فيه قادر على تصريف الآيات ، وخص سبحانه الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن .

---

(١) صحيح مسلم ٢١٩٧/٤ ك الجنة وصفتها ح ٢٨٦٥ ، روح المعاني ١٤٨/٨ .

قال الألوسي : والمراد : نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها وأصل التصريف تبديل حال بحال ومنه - تصريف الرياح - . - لقوم يشكرون - نعم الله تعالى ومنها تصريف الآيات ، وشكر ذلك بالتفكر فيها والاعتبار بها وقال الطيبى : ذكر - لقوم يشكرون - بعد - لعلكم تذكرون (١) - من باب الترقي لأن من تذكر آلاء الله تعالي عرف حق النعمة فشكر - وهذا كما قال غير واحد - مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شئ من ذلك " (٢) .

المؤمن بصير والكافر أعمي :

٢- قال تعالي : "مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون (٣) .

تحليل الآية : قوله : "مثل الفريقين " المذكورين من المؤمنين والكفار أى حالهما العجيب ، وأصل المثل كالمثل النظير ، ثم استعير لقول شبه مضربه بمورده ، ولا يكون إلا لما فيه غرابة وصار في ذلك حقيقة عرفية ، ومن هنا يستعار للقصة والحال والصفة العجيبة .

وقوله : كالأعمى والأصم " إلخ خبر المبتدأ ، والمعنى : كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين البصر والسمع . فهناك تشبيهان : الأول : تشبيه حال الكفرة الموصوفين بالتعامي والتصام عن آيات الله تعالي .

---

(١) الأعراف /٥٧ .

(٢) روح المعاني ١٤٨/٨ .

(٣) هود /٢٤ .

بحال من خلق أعمى أصم لا تنفعه عبارة ولا إشارة ، والثاني تشبيه حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات فانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم اهتداءً إلي الجنة وانكفاءاً عما كانوا خابطين فيه من ضلال الكفر والدّ جنة بحال من هو بصير سميع يستضئ بالأنوار في الظلام ويستفيء بمغانم الإنذار والإبشار فوزاً بالمرام والعطف لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات كما في قول الشاعر (١) :

يالهف زيابة للحارث الصا بح فالغانم فالآيب

وقال الألوسى : " وقد يعتبر التشبيه تمثيلياً بأن ينتزع من حال الفريق الأول في تصاقهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك في العذاب المضاعف والخسران الذى لا خسران فوقه هيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط في مسلكه فوقع في مهاوى الردى ولم يجد إلي مقصده سبيلاً ، وينتزع من حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالي حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة تشبيه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملها في مهماته فيهتدى وينال مرامه " (٢) ، وقيل : إن ما ذكر أولاً من كونه تشبيهاً مفرقا ، ونعنى بالمفرق تشبيه كل حالة بما يقابلها على حدة .

وما فى الآية من قبيل اللف والنشر (٣) ، وهذا اللف إما تقديرى إن اعتبر في

(١) هو من أبيات الحماسة وهو لابن زيابة في جواب الحرث من همام . تنزيل الآيات على الشواهد بآخر الكشاف ٣٢٥/٤ لمحب الدين أفندي . وأنظر روح المعاني ٣٤/١٢

(٢) روح المعاني ٣٤/١٢، ٣٥ أبو السعود ٩٨/٤

(٣) اللف والنشر هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكرها ، لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه " دراسات منهجية في علم البديع/٢٢٢ د الشحات أبو ستيت

الفريقين لأنه في قوة الكافرين أو المؤمنين ، أو تحقيقى ان إعتبر فيمـــادل عليـه **قوله تعالى :** " ومـن أظلـم ممـــن افـــترى (١) " إلـــخ ، وقولـــه (٢) : " **إن الذين آمنوا** " الآية وأمر النشر ظاهر " (٣) .

ولو جاءت الآية على وجه الطباق خلاف نظمها بأن يقال : كـــالأعمى والبصـير والأصم والسميع لفسد المعنى وإن حصل الطباق في اللفظ لأنه سبحانه قسم المشبه به إلي قسمين كالمشبه لأنه قسمان مبتلي ومعافى وضاد بينهما ليصـــح السـؤال بينهما على قصد التوبيخ . وقدم ما للكافرين قيل : مراعاة لما تقدم ، ولأن السـياق لبيان حالهم ، وقدم - الأعمى - على - الأصم - لكونه أظهر وأشهر فـــي ســوء الحال منه .

قال صاحب البحر المحيط : " إنما لم يجئ التركيب كـــالأعمى والبصـير ، والأصـم والسميع ليكون كل من المتقابلين على إثر مقابلة لأنه تعالي لما ذكر انسداد العيـن أتبعه بانسداد السمع ، ولما ذكر انفتاح البصير أتبعه بانفتاح الســـمع وذلـك هـو الأسلوب في المقابلة والأثم في الإعجاز " (٢) والظـــاهر ممـــا تقـدم أن الكـلام على حذف مضاف وهو مجرور بالكاف ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً عن - مثل - وجوز أن تكون الكاف نفسها خبر المبتدأ ، ويكون معناها معنى

---

(١) هود/١٨

(٢) هود/٢٣

(٣) روح المعاني ٣٥/١٢ .

(٤) البحر المحيط ٢١٣/٥ .

المثل ، ولا حاجة إلي تقدير مضاف أى : مثل الفريقين مثل الأعمى والأصم والبصير والسميع .

قيل : " ويحتمل أن يكون هناك أربع تشبيهات بأن يعتبر تشبيه حال كل من الفريقين . الفريق الكافر والفريق المؤمن بحال اثنين أى مثل الفريق الكافر كالأعمى ومثله أيضاً كالأصم ، ومثل الفريق المؤمن كالبصير ومثله أيضاً كالسميع ، وقد يعتبر تنويع كل من الفريقين إلي نوعين فيشبه نوع من الكفار بالأعمى . ونوع منهم بالأصم ويشبه نوع من المؤمنين بالبصير ، ونوع منهم بالسميع . كما في قول امرئ القيس : (١) :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ·· لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقد استبعد ذلك إذ تقسيم الكفار إلي مشبه بالأول ومشبه بالثاني ، وكذلك المؤمنون غير مقصود البتة " (٢) .

وقوله : " **هل يستويان** " استفهام إنكاري مذكر لما سبق من إنكار المماثلة في قوله **عزوجل** :- أفمن كان على بينة من ربه (٣) . والمراد بهما هنا الفريقان المذكوران ، **وقوله :** " **مثلا** " أي حالا وصفة ونصبه على التمييز المحول عن الفاعل والتقدير : هل يستوي مثلهما ؟ (٤) .

---

(١) ديوانه /٢٨ ش الشيخ عبد المتعال الصعيدى .

(٢) الكشاف ٢/٢٦٤، روح المعاني ١٢/٣٤ ، أبو السعود ٤/١٩٨ .

(٣) هود /١٧ .

(٤) أبو السعود ٤/١٩٨

وقوله : " أفلا تذكرون " أى أتشكون في عدم الاستواء وما بينهما من التبـاين ؟ أو تغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ذكر لكم من المثـل ، فالـهمزة للاستفهام الإنكاري وهو وارد على المعطوفين معا – أو أتسمعون هـذا فـلا تتذكـرون ؟ فيكون الإنكار واردا على عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجـوده وهـو المثـل المضروب أى أفـلا تعقلون التذكر ؟ أو افلا تعقلون ؟ ومعنى إنكار عدم التذكـر استبعاده من المخاطبين وأنه مما لا يصح أن يقع ، وليس من قبيل الإنكار فـي – أفمن كان على بينة من ربه – و– هل يستويان – فإن ذلك لنفى المماثلـة ونفـى الاستواء " (١)

الحق باق والباطل زاهق :

٣– **قال تعالى : " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثلـه كذلك يضرب الله الحق والبـاطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأماما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال " (٢)** .

تحليل الآية : هذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، لمـا ضـرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما – فمثل الحق وأهله بالمـاء الـذى ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالمعدن الذى ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأوانـى والآلات المختلفـة ، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا . يثبت الماء في مناقعه ويسلك بعضه في

---

(١) ابو السعود ١٩٨/٤ ، ١٩٩ ، روح المعاني ٣٥/١٢ .

(٢) الرعد /١٧ .

عروق الأرض إلي العيون والقنى والآبار ، وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولـة ، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل وخبث المعدن فإنه – وإن علا وارتفع وانتفخ – إلا أنه أخيراً يضمحل ، وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شئ من الشبهات لأنه لا بقاء إلا للنافع ، وما تصارع الحق والباطل إلا وفاز الحق بقرنه .

وقوله : " **أنزل من السماء ماء** " جملة مستأنفة مسوقة لضرب مثل لتقدير ما تقدم وهى جملة مفصولة عن سابقتها ، وقوله : " فسالت " معطوف على قوله :

" **أنزل من السماء ماءا** " وأفادت الفاء التعقيب لأن الإسالة جاءت بعد النزول .

وقوله : " **سالت** " استعارة تبعية في الفعل بمعنى – سارت – فاستعير اللفظ الدال على المشبه به – السيلان – للمشبه – السير – ثم اشتق من السيلان – سالت – بمعنى سارت ، والقرينة قوله : " أنزل ماء " والأودية جمع واد ، وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام ، الإسناد إليه مجاز عقلي لعلاقة المكانية نحو جرى النهر فالأودية لا تسيل ، وإنما يسيل الماء .

وقوله : " **بقدرها** " جار ومجرور متعلقان بالفعل " سالت " أو بمحذوف صفة لـ " **أودية** " أى بمقدار ما يملؤها ، أو بالفعل " أنزل " ، والتعبير " بقدرها " بيان أنها لا تسير عفويا أو بزيادة عن حدها إذ لا يقع في الكون إلا ما أراد الله ولكل شئ قدر .

وفى قوله : " **بقدرها** " احتراس ، والمراد : بمقدارها الذى عـــرف الله أنـــه نـــافع للممطور عليهم غير ضار وإلا فلو طما واستحال سيلاً لاجتاح الأخضر واليـــابس ولأهلك الحرث والنسل .

وقوله : " **احتمل** " بمعنى حمل ، وأوثر استخدام الفعل المزيد هنـــا علـــى الفعـــل المجرد لزيادة في معناه ، وقوة في مبناه .

تعريف السيل وتنكير الأودية :

عرف سبحانه – السيل – ونكر – أودية – أما التعريف . لأنه قد فهم من الفعـــل قبله وهو قوله " فسالت " وهو لو ذكر لكان نكرة فلما أعيد أعيد معرفة نحو رأيـــت رجلا فأكرمت الرجل . وأما التنكير . فلأن المطر لا يأتى إلا على طريق التناوب بين البقاع .

قال القاسمى – رحمه الله – : " قال السمين الحلبى : وإنما نكر الأوديـــة وعـــرف السيل . لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فيسيل في بعض أوديـــة الأرض دون بعض ، وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو "فسالت " وهو لـــو ذكر لكان نكرة فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو رأيت رجلا فأكرمت الرجـــل (١) وما ذكره السمين أصله لأبى حيان حيث قال : " عرف السيل لأنه عنى به ما فـــهم من الفعل ، والذى يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة إلا أنه إذا عاد علـــى ما دل عليه الفعل من المصدر نحو – من كذب كان شـــراً لـــه –أى الكـــذب – و لوجـــاء هنـــا مضمراً لكان جائزاً عائـــداً على المصدر المفهوم من :" فسالت "

---

(١) محاسن التأويل ٣٥١/٩ .

وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكـــور المعرف عين . فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب بأنه بطريق الاستخدام " (١)

قال الشهاب الخفاجي : " وهو غير صحيح " لا تكلف - كما قيل - لأن الاستخدام أن يذكر لفظ " بمعنى ويعاد عليـه ضمـير بمعنـى آخـر . سـواء كـان حقيقيـا أو مجازيا ، وهذا ليس كذلك . لآن الأول مصدر أى حدث فى ضمـن الفعـل ، وهذا أسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث فكيف يتصور فيـه الاسـتخدام ؟ نعـم ما ذكروه اغلـي لا مختص بما ذكر . فإن مثل الضمير اسـم الإشـارة ، وكـذا الاسم الظاهر فالحق أنه إنما عرف لكونه معهودا مذكورا بقوله - أودية - وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل " (٢) .

وقوله تعالي : " **ومما يوقدون عليه في النار** " جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولـى لضرب مثل آخـر ، ومجـئ صلـة الموصـول - مـا - فعـلا مضارعـا ، **ولم يقل** : ومما أوقدوا ، وذلك لأن الفعل المضارع يشعر بالتجدد والحدوث مع مـا فى ذلك من الاستمرار التجددى والمداومة على هذا الإيقاد ، ولـم يـأت التعبـير **بقوله** : والموقدون عليه ، لأن دلالة الجملة الفعلية التي هي صلة الموصول علـى

---

(١) البحر المحيط ٣٨١/٥ .

(٢) حاشية الشهاب ٥٣٣/٥ ط دار صادر بيروت .

التجدد والاستمرار أدل على المراد من الجملة الاسمية الدالة على الثبوت فقط ، ففي التجديد نشاط وقوة .

وهذه الواو في قوله : " **ومما يوقدون** " التي تقتضى المغايرة توحى بأن للحق مع الباطل موقفاً آخر ، أو توحى بأن هناك باطلاً آخر يماثل الباطل الأول في صراعه مع الحق ، ولنتأمل قوله : " **يوقدون** " كيف أضمر فاعله مع عدم السبق لظهوره إيحاءً بأن الذين يوقدون قوم مندسّون في هذه الأمم ، يسعون لإيقاد الفتن والمحن ، ابتغاء متاع قليل ، وحلية بالية فانية ، والإيقاد على الشئ على قسمين : **أحدهما** : ألا يكون ذلك في النار كقوله تعالي :- فأوقد لي ياهامان (١) - والثاني : أن . يوقد على الشئ ويكون في النار رغبة في إذابته كالمعادن " (٢) .

وقوله : " **في النار** " صفة مؤسسة . لأن الموقد عليه يكون في النار وملاصقاً لها ، **وقيل** : إنها مؤكدة فالتوكيد حاصل من أنه يوقد عليها ، وأنها في النار وأن الإيقاد يتجدد ، ويتكرر حدوثه ، وهذا ما يفيده الفعل " يوقدون " .

" ثم انظر إلي موضع العناية والاهتمام ، والاعتبار في الآية الكريمة ، تجده في هذه الجملة المجعولة صلة ، إذ الغرض كامن فيها لذلك قدمت هنا ، وما وراء تقديمها من تشويق للسامع لترقب المسند إليه " (٣) .

---

(١) القصص /٣٨ .

(٢) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم /١٤٥ ، التفسير الكبير ٤٣/١٩ .

(٣) أسرار التنوع /١٤٥ .

فالغرض إذا كامن في هذه الجملة وهى قوله تعالى : " ومما يوقدون عليه في النار " لأنه تمثيل وتصوير حالة الافتنان والاختبار والابتلاء ، ومعالجة الأشياء بالشدة لتتبين معادنها ، وتصفية جواهرها ، فينتفع بالخالص المصفى ، وابتغاء حلية أو متاع ، ولأن ذكر الإيقاد عليها بسبب حصول الزبد وطرده . , " من " في " مما " للابتداء أى : نشأ منه ، وجود كونها للتبعيض أى : هو بعضه ، ورده العلامة أبو السعود " بأنه يخل بالتمثيل لأن المقصود من التمثيل بيان عدم استواء الحق والباطل وأنهما أمران مختلفان اختلاف الأعمى والبصير والظلمات والنور ، فكيف يكون الباطل بعض ؟ وإنما يخالطه من غير مداخلة فيه تفسد جوهره وإنما تحجب صفاءه وجلاله " (١) .

" ولما كان الإيقاد على هذه المعادن فيه إشارة إلي التهاون بها ، بوضعها في النار ، وإذلالها بالإيقاد عليها إيقادا مستعليا " (٢) يتناسب مع مقام الكبرياء والقهر ، ولأن الواحد القهار هو القادر على تسخير هذه النار لإذابة هذه المعادن ، أتبع ذلك ببيان منفعتها ، وأن الغاية من الإيقاد عليها شدة رغبة الناس في الانتفاع بها من حلية أو متاع أى أن هذا تكريم لها ، وتشريف بإعدادها للنفع والبقاء – ابتغاء حلية أو متاع " (٣) .

قال العلامة أبو السعود : " في زيادة – النار – إشعار بالمبالغة في الأعتمال للإذابة

---

(١) أبو السعود ١٤/٥٨ ، روح المعاني ١٣٠/١٣ .

(٢) نظم الدرر ٣١٥/١٠ .

(٣) حاشية الشهاب ٢٣٣/٥ .

وحصول الزبد وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلاً فيه حسبما فصل فيما سلف بل له إخلال بذلك ، وسر التعبير بالموصول في قوله :- مما يوقدون - إلخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها ، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى إذا عبر عن سبكه بإيقاد النار به المشعر بأنه كالحطب الخسيس وصوره بحاله هي أحط حالاته ، وهذا لا ينافى كونه ضرب مثلاً للحق لأن مقام الكبرياء يقتضي التهاون به مع الإشارة إلي كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله : ابتغاء حلية أو متاع - فوفى كلاً من المقامين حقه (١) .

يقول أهل العلم : " وفي ذكر متعلق ـ ابتغاء ـ تنبيه على منفعة ـ ما يوقدون -،ولعل وراء حرصهم على صوغ الحلى التى يتزين بها الناس تعبيراً عن رغبتهم في التمتع بمن يتحلى بهذه الحلية ، أو بمتاع الحياة الدنيا ، فإن الزينة والحلية والبهاء والجمال ، كان ولا يزال عند الناس من مباهج الحياة ومقاصدها (٢) .

وفى تنكير " حلية " و " متاع " ما يشير إلي مدى حرص الناس وشدة رغبتهم في التمتع بهما ، ولو كانت حلية فانية ، ولو كان متاعاً إلي حين كما يوحى التنكير بأنها حلية بالغة رائعة ، ومتاع عظيم . يمتد بهم ويرتفع ، وأن هذا حاصل ما دام الإيقاد على هذه المعادن مستمراً متجدداً ، فالنفع من ورائها يعظم ويكبر . حتى يصل إلي أوج فتنته وبهائه ، وهذا ما آل إليه حال البشرية اليوم من شدة الافتتان بهذه المعادن وتسخيرها لمتعة الإنسان وراحته .

(١) أبو السعود ٥/١٤ .

(٢) نظم الدرر ١٠/٣١٦، البحر المحيط ٥/٣٨٢ ، اسرار التنوع /١٤٦ .

وقوله تعالى : " **زبد مثله** " لاشتراكهما في الزبدية ، وفي تنكير " **زبد** " مـــا يوحـــى بضآلته وحقارته ، والازدراء به وإن أعجب الناس كثرته وظهوره ، وعلوه فـــي بادئ الأمر إلا أنه مضمحل وشيك الزوال . منسلخ عن المنفعة والبقاء ، ووجـــه المماثلة بين هذين الزبدين في كونهما يتوالدان من الأوساخ والأكدار . تأمّل هـــذا وقارنه بما يقابله من الممثل له ، فهل تجد أوساخاً وأقذارا تـكـــر صفـــو الحـــق كهذه الشبه والشـــكوك والتكذيـــب والإنكـــار الـــذى يخـــالط النفـــوس وتطمـــس بصيرة القلوب .

وقوله : " **كذلك يضرب الله الحق والباطل** " جملة معترضة جاءت لتفصيل مآلهما بعـــد أن تحدثت عن حالهما ، وفيه حذف مضاف أى مثلهما ، وسر الحذف الإنباء عـــن إكمال التماثل بين الممثل والممثل به . كأن المثل المضروب عن الحق والبـــاطل ، وفيه أيضاً إشارة إلي أن ما ذكر في الآيات السابقة قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيمـــاً بحيث صار نموذجاً كاملاً ومثالاً للحق والباطل " (١) .

وكأنه لكمال التماثل بينه وبين ما مثل به عين الحق والباطل .

وقولنا : إن هذا المثل يشبه الحق والباطل فيه إغفـــال لـــهذا المعنـــى الدقيـــق ، فجاءت هذه الكاف لتفيد بلوغ المعنى تمامه ، وتحقيق التمثيل وتثبيتـــه وتوكيـــده ، والضرب في الآية استعارة تبعية في الفعل استعير للبيان والتوضيح ثـــم اســـتعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الضرب للمشبه البيان ثم اشتق من الضرب –

---

(١) من بلاغة القرآن /٢١٥

يضرب - بجامع التأثير في كل ، والتعبير بالفعل المضارع - يضرب - لتجدد الضرب وحدوثه شيئاً فشيئاً ودفعة دفعة ، وهذا الوجه الذى صرح به في - التمثل - إنما صرح به لما فيه من البشارة والنذارة لأهل الحق والباطل ، وأما أهل الباطل فهم الزائلون البائدون ، وأما أهل الحق فهم الباقون الدائمون " (١) .

وبدأ بـ " الزبد " في البيان في قوله : " فأما الزبد " وهو متأخر في الكلام السابق لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله تعالى :- يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم _(٢) ، وقد راعى الترتيب فيه ، ولك أن تقول : النكتة فيه أن - الزبد - هو الظاهر المنظور أولاً ، وغيره باق متأخر في الوجود لأستمراره ، والآية من باب الجمع والتقسيم (٣) .

وعطفت جملة . فأما الزبد " على قوله : " فاحتمل السيل زبداً رابياً بعد أن تفرعت على التمثيل ، وجئ بـ " أما " للتوكيد . لأن النفوس لا ترى إلا الظاهر العالى الرابى فتظن أنه لن يزول فجاء التوكيد لهذا الخبر ليصرف أذهانهم إلي هذا الكلام الذى فيه ما فيه من خفى البشارة والنذارة " (٤) .

" وأفرد - الزبد - ولم يثن وإن تقدم - زبدان - لأشتراكهما في مطلق الزبدية ، فهما واحد باعتبار القدر المشترك " (٥)

(١)التحرير والتنوير ١٢١/١٣ .

(٢) آل عمران /١٠٦ .

(٣) محاسن التأويل ٣٥٤/٩ ، تفسير السعدى ١٠٠/٤ ، والجمع مع التقسيم هو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر تحت حكم واحد ثم يقسم ما جمع أو يقسم أولاً ثم يجمع . جواهر البلاغة /٣١٢ .

(٤) التحرير والتنوير ١٢١/١٣ .

(٥) البحر المحيط ٣٨٢/٥ .

وفي هذا إشارة إلي أن الباطل وحزبه ملة واحدة ، وإن كثرت أحزابهم ، واختلفت أساليبهم وطرقهم في الكيد والطعن ، وإثارة الشبه والفتن ، وسواء أكانوا ظاهرين مجاهرين بالكفر ، أو متلبسين مندسين عاملين في الجفاء فكلهم تجمعهم صفة الزبدية والغثائية التى لا خير فيها ولا منفعة ، ومن ثم فهى غير باقية ، وفيه وعيد للمشركين بأنهم سيبادون بالقتل ويبقى المؤمنون ، ووراء استعمال الفعل "يذهب " بدلا من – يمضى – أن عين الباطل ومعناه ذاهبان . أى : أهله وما خلفوه من مناهج ، وعقائد ودعوات وشبه ومنكرات ، لأن الباطل قد يهلك أتباعه ، ويبقى منهجه ، وفى الذهاب تعبير قوى لأنه يفيد عدم العودة البتة ، أما المضى ففيه شوب الرجوع فيذهب الباطل – " جفاء " ويذهب معه كل باطل يتجدد حدوثه وقيامه إلي أن يورث الله الأرض عباده الصالحين .

وجاء التعبير عن – الماء – الذي يمثل الحق بالاسم الموصول وصلته في قوله :" **ما ينفع الناس** " إيماء إلي وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض ، وفيه من التعريض بالمشركين ما فيه لأنهم لا نفع فيهم للناس .

والنفع – كما يقول ابن فارس – : " كلمة تدل على خلاف الضر " (١) .

ويرى الألوسى – أن قوله تعالي :- " وأما ما ينفع الناس – يعنى من الماء الصافى الخالص من الغثاء والجوهر المعدنى الخالص من الخبث " (٢) .

وفي بناء الجملة على هذه الصورة " ما ينفع الناس " إشارة إلي تعدد وجوه النفع ، واستمراره استمرارا تجدديا تظهر به وجوه أخرى كبيرة وعظيمة من المنافع ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤٦٣/٥ .

(٢) روح المعانى ١٣٢/١٣ .

والعالم اليوم كله يشهد بعظم نفع الماء والمعدن في إقامة هذه الحضارة العلمية الباهرة التي بهرت الألباب واختلبت النفوس ، وفى ضرب هذا المثل توكيد للإيمان باليوم الآخر ، وبالبعث والجزاء الذي جاء الحق لتثبيته وتقريره في النفوس .

وفي الآية مراعاة النظير (١) في ألفاظ الماء والسيل والزبد والرَّبو وفي ألفاظ النار والجوهر والفلزات المعدنية والإيقاد والحلية والمتاع . كذلك يوجد فيها اللف والنشر في **قوله تعالى** : " فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " .

" ووجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذى يعلو الأجسام المنطرقة أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه ، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها " (٢) .

وقوله : " كذلك يضرب الله الأمثال " تفخيم بشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله : " **كذلك يضرب الله الحق والباطل** " إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول ، وأو يجعل ذلك إشارة إليهما ، ومعنى التشبيه في تذييل الآية : أى مثل ذلك الضرب العجيب — يضرب الله الأمثال في كل باب إظهاراً لكمال اللطف والعناية في

---

(١) مراعاة النظير هى : الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد ، وذلك إما بين اثنين أو أكثر

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٥/١١٣ ، ١١٤ .

الإرشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل " (١) .

كلمة طيبة كريمة الأصل وكلمة خبيثة لا أصل لها :

٤- قال تعالي : " **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار** " (٢) .

تحليل الآيات : قوله : " ألم " استفهام تقريري لتحقيق ذلك المثل وتثبيته ، والخطاب في " تر" لكل من تصح منه الرؤية فعليه أن يرى ، لأنه مثل تناهي قدره ، وعظم شأنه . فعلى كل راء تتأتي منه الرؤية أن يراه ، ولا يغفل عنه ، وفي ذلك أيضا إيحاء بالرغبة في تعميق صورة هذا المثل في وجدان كل راء ، لتكون له حافزاً على السعي لتحصيله والفوز به .

يقول الإمام الفخر : إن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل " (٣) .

وفي إيثار التعبير بـ " كيف " دلالة على أن حالة ضرب المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه " (٤)

---

(١) حاشية الجمل ٥٠١/٢ ، منار السبيل في الأضواء على التنزيل ١٦٩/٢ محاسن التأويل ٣٥٤/٩ . وتفسير القرآن الحكيم /٤١ د خفاجي

(٢) إبراهيم /٢٥، ٢٦

(٣) التفسير الكبير ١٢٣/١٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٢٣/١٣ .

والمتأمل في هذه الصيغة " ألم تر كيف " في القرآن الكريم لم نجدها ترد إلا مع هذا المثل من الأمثال القرآنية ، وفى ذلك ما يؤكد تفرد هذا المثل بهذه الكيفية العجيبة ، وذلك حفاوة بالمعنى وإيقاظا للذهن لترقب ما يرد بعد هذا الكلام " (١)

وفي ضرب الأمثال – كما يقال – زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ، ومجئ الفعل الماضى " ضرب " بهذه الصيغة ما يثير زيادة تشويق لمعرفة هذا المثل ، وما مثل به ، وهذا الاسم الجليل من قوله : " **ضرب الله مثلا** " يوحى ببادئ ذى بدء بما تنطوى عليه الكلمة الطيبة من معاني الألوهية الخالصة لله ، ومجئ " كلمة " نكرة يوحى بأنها كلمة لا يكتنه قدر جلالها فهى كلمة عظيمة القدر . كاملة في الصفة الموصوفة لها " **طيبة** " ، وفى ذكر آداة التشبيه في قوله :" **كشجرة طيبة** " ما يشير إلي أن هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بها الكلمة الطيبة ليست هي عينها ، بل دونها منزلة ورتبة فالأمثال التي يضربها الحق جل جلاله لتقريب هذه المعاني ، مستقاه من أنفسنا ومن هذا الكون المحيط بنا فالكلمة كلمته والشجرة مخلوقته ، فلا عجب أن يضرب بها مثلا لكلمة تناهي قدرها وفضلها ليكون في ذلك من العظة والعبرة ما فيه .

يقول الإمام الرازى : " وحسبك ما يوجبه تجردها من التعريف لتكون بصفتها هذه وحدها لا تضاهيها أشجار الدنيا وقد اجتمع لها طيب النظر والرائحة والثمرة وعظم الانتفاع بها فحصل لها بذلك كمال الطيب " (٢)

---

(١) أسرار التنوع /١٥٤ بتصرف .

(٢) التفسير الكبير ١١٩/١٩ .

وقوله : " أصلها ثابت وفرعها في السماء " بيان لهذه الشجرة ، وهو صفة ثانية لها بعد وصفها بالطيب ، وتقديم كلمة " أصلها ثابت " دإل على كمال العناية والاهتمام وهو تقديم رتبة .

يقول الألوسى : " تقديم الأصل للعناية به وبيان أنه ضارب بعروقه في الأرض (٢) وهو متمكن فيها آمن مما يعترى الأصول من الاقتلاع والانقطاع ، وفى مجئ الصفة على صيغة اسم الفاعل ما يؤكد ثبات هذه الصفة ودوامها وهذا هو الأساس الذى يهدف إليه التشبيه كما أن فيه إيحاء بما يداخل النفس من البشاشة والأنس حين تعلم أن هذا الشئ الطيب باق دائم لا يزول ولا ينقضى فيكمل فرحها ويتم سرورها .

وقوله : " **وفرعها في السماء** " أى أعلاها في جهة العلو والصعود ، وفى هذا تأكيد لصفة ثباتها وكمال طيبها " إذ إن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق كما يدل ارتفاعها على نقاء ثمرتها وسيبها وطهارتها ... الخ نقاء ثمرتها ويكبها وطهارتها عما يشوبها من شوائب الأرض فيما لو كانت قريبة دانية " (٢).

وقوله : " **تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها** " صفة ثالثة لـ " شجرة " أى تعطى ثمرها كل وقت وقته الله تعالى لإثمارها " (٣) .

فثمرة هذه الشجرة حاضرة في كل الأوقات والانتفاع بها غيرُ منقطع ثم يزيد هذه الثمرة تشريفاً وتكريماً وفضل عناية ، وفي قوله : " تؤتى أكلها " مجازٌ عقلي .

---

(١) روح المعاني ٢١٣/١٣ .

(٢) السابق نفسه بتصرف .

(٣) الكشاف ٣٧٦/٢ .

لأن فعل الإيتاء مسند إلي غير فاعله الحقيقي إذ إن النخلة لا تؤتي الأكل . فالمجاز وقع في إثبات الأكل للشجرة وهو في الحقيقة فعل الله تعالي ، والعلاقة السببية .

وقوله : " بإذن ربها " جار ومجرور متعلقان بالفعل " تؤتي " أو بمحذوف حال أى ملتبسة بأذن ربها ، وهو قيد في هذا الإعطاء ، وهذا ما يعلى قدر هذه الشجرة ويرفع شأنها ومعنى ذلك أنه ما دامت هذه الشجرة تؤتى أكلها بإذن ربها فيا طيب ثمرها وبركته ، ويا دوام عطائها ، والأمن من زواله أو انقطاعه ، لأنه المربي الذى تربو الأشياء بين يديه وتنمو إلي ما لاحد له ، ثم في هذا إشارة إلي أن ثمرة الكلمة الطيبة أعنى ثمرة الإيمان هي أيضاً مرهونة بإذن الله فالطاعة والذكر والاستمساك بشرع الله كل ذلك بفضل هدايته وتوفيقه وتثبيته لعبده لأنه المربى الذي يربى خلقه ويتعهد نفوسهم بالتزكية والتنقية . ثم في هذا العطاء المضمون كل حين دليل من أعظم الأدلة وأوكدها على أن جذور هذه الشجرة وأصولها ضاربة في أعماق الأرض متمكنة منها تمدها بالحياة والرواء والعطاء ، وفيه إشارة إلي أن ثمرة الإيمان إنما تكون أيضاً حين يتغلغل في أعماق النفس وتخالط بشاشته القلوب " (١) .

وقوله : " ويضرب الله الأمثال للناس " تذييل ختمت به الآية كما بدأت وهو من رد الأعجاز على الصدور ، وضرب الأمثال لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير

---

(١) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن /١٥٧ .

للمعاني المعقولة بالصور المجسوسة ، والضرب استعارة تبعية للبيان والإيضاح لأن في الضرب تأثيراً وشدة بيان في المضروب له المثل .

وفي الآية تشبيه تمثيلي في تشبيه الكلمة الطيبة الموصوفة بصفات ثلاثة وهى إيتاء الأكل كل حين أى من وقت أن تؤكل إلي حين ذهابها ولذا قيل عنها : إنها النخلة وذلك أن ثمرها يؤكل في جميع الأحيان في الليل والنهار والصيف والشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والرطب ثم يؤكل بعد ذلك التمر اليابس إلي حين الرطب الطري فأكلها دائم في كل وقت ، ووجه الشبه في تمثيل الإيمان بالشجرة أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ واصل قائم وفرع عال كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان . فوجود الصفات الثلاثة في جانب المشبه به حسية وفي جانب المشبة معنوية .

يقول القاسمى – رحمه الله – : " ولحظ في الممثل به – أعنى الشجرة – أوصاف جليلة لتلحظ في جانب الممثل له . فمنها : كونها طيبة أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح ، وطيب الثمرة ، وطيب المنفعة ، وكون **أصلها ثابتاً أى** : راسخاً باقياً في أمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرج به والسرور ، وكون فرعها في السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها في التصاعد مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب ، وكون ثمرتها تجتنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها " (١) .

محاسن التأويل ٢٧/١٠ .

ثم يقول : " ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله ، ولا تخفى مطابقة هذا الممثل به للمثل له - أعنى الحق - وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام.(١) .

ويقول الشيخ الجمل في حاشيته : " كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن وعمله يصعد إلي السماء ويناله بركته وثوابه كل وقت ، وهذا بيان لتقرير وجود الصفات الثلاثة التى في جانب المشبه به في جانب المشبه فوجه الشبه الاشتراك في مطلق هذه الثلاثة وإن كانت هي في النخلة حسية وفى الكلمة معنوية " (٢) .

روى الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثونى ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادى - أى ذهبت أفكارهم إلي أشجار البوادى . قال عبد الله : ووقع في نفسى أنها النخلة . فاستحييت . **ثم قالوا** : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال فقال : " هي النخلة " قال فذكرت ذلك لعمر : **قال** : لأن تكون قلت : هي النخلة ، أحب إلي من كذا وكذا " (٣) .

قال الشارح : " قال العلماء : شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها

---

(١) السابق نفسه .

(٢) حاشية الجمل ٥٢٣/٢ .

(٣) صحيح مسلم ٢١٦٥/٤ باب ١٥ مثل المؤمن النخلة ح رقم ٢٨١١ .

وطيب ثمرها ووجوده على الدوام . فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة ، ومن خشبها وورقها وأغصانها ، فيستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومخاصر وحصراً وحبالاً وأواني وغير ذلك ، ثم آخر شئ منها نواها ، وينتفع به علفاً للإبل . ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهى منافع كلها وخير وجمال . كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه " (١) .

وقوله : " **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة** " تشبيه آخر معطوف على سابقه من باب عطف الجمل على الجمل جئ به في مقابلة الصورة الخصبة هناك الموغلة في الثبات والبقاء المغدقة بالحياة والعطاء على صورة مناقضة تماماً لسابقتها . لم يضرب الله مثلاً تنبيهاً إلي وجوب رؤيتها لأن تناهي خبثها وعدم نفعها بلغ مبلغاً لا يخفى على أحد ، وإنما وضعها في هذه الصورة المرئية المشاهدة المحسوسة " ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة " ليكون أدعى لنفرة النفوس منها والوقوف على ضلالها وبطلانها واضمحلالها "

وقوله : " **ومثل كلمة خبيثة** " إلخ فيه تغيير للأسلوب حيث لم يقل : **وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة**" إلخ للإيذان بأن ذلك مقصود بالضرب والبيان ، والمعنى على التشبيه أى كأنها اجتثت ، وكأنها غير ثابتة بالكلية ، وكأنها ملقاة على وجه الأرض ، ومجئ " كلمة " نكرة إشارة إلي أنها كلمة قدتنا هى خبثها وعظم قبحها .

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١٦٥ هامش .

وقوله : " **كشجرة خبيثة** " أى شبيهة بشجرة منكرة خبيثة تتميز عن الشجر في كونها لا نفع فيها ولا يرجى من ورائها خير فهى بالغة درجة عظيمة من الخبث ، وقد تحقق هذا الخبث في طرفي التشبيه ، وأداة التشبيه " الكاف " توحي بأن – الكلمة الخبيثة – أكثر خسة وأعظم خبثاً من هذه الشجرة فبينهما فضل بين ، وفى ذاك من الإزراء بها والإهانة والتحقير لشأنها ما فيه .

والمتأمل للفعل " اجتثت " يرى كيف عبر بصورته وجرسه وخصائصه الصوتية عن معنى الاجتثاث أبلغ تصوير وأعظمه .

وقوله : " من فوق الأرض صفة ثانية لـ " **شجرة** " لأن عروقها قريبة منه ، **وقوله :** " ما لها من قرار " صفة ثالثة لـ " شجرة " جاءت بمنزلة التعليل ، وذلك لأنها لا تغوص في الأرض بل عروقها في وجه الأرض ولا غصون لها تصعد إلى جهة السماء بل ورقها يمتد على الأرض كشجر البطيخ وثمرها ردئ ، وفى الحقيقة تسميتها – شجرة -مجاز مرسل لعلاقة السببية لأن الشجر ما له ساق ، والنجم ما لا ساق له وهى من النجم فتسميتها – شجرة – للمشاكلة " (١) .

فجاء قوله : " **ما لها من قرار** " تتميماً للصفة الثانية لهذه الشجرة وهو قوله : " اجتثت من فوق الأرض : لأن هذه فيها إيحاءً بأنها قد تستقر في موضع آخر فأكد عدم استقرارها بقوله : " **ما لها من قرار** " ، وفى مجئ حرف " **من** " ما يؤكد نفي القرار مطلقاً فليس لها قرار ولا أقله .

---

(١) حاشية الجمل ٥٢٣/٢، جامع البيان للطبرى ١٤٢/١٣

وتشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة تشبيه تمثيلى فشبهت هذه الكلمة في كونها ضارة غير نافعة تؤدى بصاحبها إلي الهلاك بالشجرة الخبيثة التى أجتثت من فوق الأرض أو كأنها ملقاة على وجه الأرض فلا تغوص إلي الأرض بل عروقها في وجه الأرض ولا غصون لها تمتد إلي السماء صاعدة ، ووجه الشبه عدم الفائدة والضرر المترتب على ذلك كله .

عبد مملوك وآخر حر ورجل أبكم وآخر مستوى الخلقة :

٥- قال تعالى : " فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم "(١) .

تحليل الآيات : قوله : " فلا تضربوا لله الأمثال " الفاء فيه استئنافية ولا ناهية ، وهو التفات إلي الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهى ، وإلفاء للدلالة علي ترتيب النهى على ما عدد من النعم الفائضة عليهم منه تعالي ، وكون آلهتهم بمعزل من أن يملكوا لهم رزقاً فضلاً عما فضل ، و ــ الأمثال ــ جمع مثل كعلم ، والمراد من ــ الضرب ــ هنا الجعل فكأنه قيل : فلا تجعلوا لله تعالي الأمثال والأكفاء ، فالله سبحانه يقول : **لا تجعلوا معى إلهاً غيرى فإنه لا إله غيرى** (٢) .

---

(١) النحل /٧٤ـ٧٦ .

(٢) روح المعاني ١٤/١٩٣ ، ١٩٤ .

والمراد من ضرب المثل لله سبحانه الإشراك والتشبيه به جلّ وعلا من باب الاستعارة التمثيلية ، وذلك أنّ الله تعالى جعل المشرك به الذي يشبهه تعالى بخلقه بمنزلة ضارب المثل فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة وذاتاً بذات كما أنّ ضارب المثل كذلك فكأنه قيل : ولا تشركوا بالله سبحانه ، وعدل عنه إلي المنزل دلالة على التعميم في النهى عن التشبيه وصفاً وذاتاً ــ وفى لفظ ــ الأمثال ــ لمن لا مثال له أصلاً نعى عظيم عليهم بسوء فعلهم ، وفيه إدماج أنّ الأسماء توقيفية وهذا هو الظاهر لدلالة الفاء وعدم ذكر ضرب مثل منهم سابقاً " (١) .

وقوله " إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون " تعليل للنهى أى أنه تعالى يعلم كنة ما تفعلون وعظمه وهو سبحانه معاقبكم عليه أعظم العقاب ، وأنتم لا تعلمون وكنه عقابه فلذت صدر منكم وتجاسرتم عليه .

قال العلامة الزمخشرى : - **فلا تضربوا لله الأمثال** ــ تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به ، لأن من يضرب الأمثال مسبه حالاً بحال وقصة بقصة ، - إن الله يعلم ــ كنة ما تفعلون وعظمه ، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم لأن العقاب على مقدار الإثم - وأنتم لا تعلمون ــ كنهه وكنه عقابه فذاك هو الذى جركم إليه وجرأكم عليه فهو تعليل للنهى عن الشرك ، ويجوز أن يراد بـ - لا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم - كيف يضرب الأمثال - وأنتم لا تعلمون - " (٢)

---

(١) أبو السعود ٥ /١٢٨ ، روح المعاني ١٤/١٩٤ .

(٢) روح المعاني ١٤/١٩٤ .

وقال الألوسي :" وجوز أن يكون المراد النهي عن قياس الله تعالى على غيره بجعل ضرب المثل استعارة للقياس ، فإنّ القياس إلحاق شئ بشيء وهو عند التحقيق تشبيه مركب بمركب ، والفرق بينه وبين الوجه السابق قليل ، وأمرُ التعليل على حاله " (١) **ثم يقول** : " وجوز الزمخشري وغيره أن يكون المراد النهي عن ضرب الأمثال لله سبحانه حقيقة والمعنى فلا تضربوا لله تعالى الأمثال التي يضربها بعضكم لبعض أن الله تعالى يعلم كيف تضرب الأمثال – وأنتم لا تعلمون – ، ووجه التعليل ظاهر ، واللام على سائر الأوجه متعلقة بـ – تضربوا – وزعم ابن المنير تعلقها بـ – الأمثال فيما إذا كان المراد التمثيل للإشراك **والتشبيه ثم قال** : كأنه قيل فلا تمثلوا الله تعالى ولا تشبهوه ، وتعلقها بـ – تضربوا – على هذا الوجه ثم قال كأنه قيل فلا تمثلوا لله تعالى الأمثال فإن ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ليبين له ما خفى عنه والله تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون " (٢) .

وقد وصف الألوسى كلام ابن المنير السابق بالزعم ثم يقول : " فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة ، وليس بشئ ، والمعنى الذى ذكره على تقدير تعلقه بالفعل خلاف ما يقتضيه السياق وإن كان التعليل عليه أظهر " (٣)

وقوله : " **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء** " جملة مستأنفة لتعليمهم كيف يضرب الله المثل – فهي جملة مفصولة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال .

(١) روح المعاني ١٤/١٩٤ .

(٢) روح المعاني ١٤/١٩٤ ، الإنصاف على الكشاف ٢/٤٢٠

(٣) روح المعاني ١٤/١٩٤ .

فقوله : " **ضرب** " إلخ استعارة تمثيلية ، شبهت حاله تعالى والأصنام التى أشـــركها المشركون مع الله جلّ وعلا بحال من سوى بيــــن عبـــد مملـــوك عـــاجز عـــن التصرف ، وبين حر مالك يتصرف في أمره كيف يشاء ، مع أنهما ســـيان فـــي البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى ، فما الظن برب العالمين حيث يشركون بـــه أعجز المخلوقات ؟ والجامع الهيئة الحاصلة من التسوية والإشـــراك بيـــن النـــافع والضار وبين من يقدر ومن لا يقدر . فبعد أن نهاهم الله تعالى عن ضرب الأمثال له سبحانه ضرب مثلاً دل به على أنهم ليسوا أهلاً لذلك ، وأنهم إذا كانوا على هذا الحدّ من المعرفة والتقليد أو المكابرة فليس لهم إلي ضـــــرب الأمثـــال المطابقـــة المستدعى ذكاء وهداية سبيل . فعرفهم سبحانه وعلمهم كيفية ضرب الأمثـــال ، " ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فـــي كونـــهما عبديـــن لله سبحانه ، وقد أدمج فيه أن الكل عبيدُ له تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكـــاتب والمأذون اللذين لهما تصرف في الجملة ، وفى إبهام المثل أولاً ثم بيانه بما ذكـــر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة ــ ومن رزقناه ــ من موصوفة معطوفة على ــ عبداً ــ أى رزقناه بطريق الملك ، والالتفات إلي التكلم للإشعار باختلاف حـــالى ضرب المثل والرزق ــ منا ــ من جنابنا الكبير المتعالى ــ رزقاً حسناً ــ حـلالاً طيباً أو مستحسناً عند الناس مرضياً " (١) .

وقوله : " فهو ينفق منه سراً وجهراً " معطوف على ما سبق وهو " رزقناه رزقـــاً حسناً " ، " سراً وجهراً مصدران منصوبان على المفعولية المطلقة أي إنفاق ســـر

---

(١)أبو السعود ١٢٩/٥ .

وجهر ، أو منصوبان على الحال أى مسراً ومجاهراً ، وتقديم السر على الجـــهر مشعر بفضيلته عليه وأن الثواب فيه أكثر .

فقوله : " فهو ينفق منه " بتعريف المسند إليه بضمير الغائب إشعار بعظمــة هــذا الرزق ورفعة قدره مع وصفه بالحسن ، والمراد : ينفق منه تفضــــلاً وإحســاناً ، ومجئ الفاء لترتيب الإنفاق على الرزق كأنه قيل : ومن رزقناه منا رزقاً حســــناً فأنفق ، وإيثار ما عليه النظم الكريم من الجملة الأسمية الفعلية الخبر للدلالة علـــى ثبات الإنفاق واستمراره المتجدد .

والمراد بالسر والجهر في قوله : " **سراً وجهراً** " بيان عموم إنفاقه للأوقات وشمول إنعامــه لمن يجتنب عن قبوله جهراً والإشارة إلـــي أصنــاف نعــم الله تعــالى الباطنــة والظاهرة ، وتقديم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه . والعدول عن أن يقال : وحراً مالكاً للأموال مع كونه أدلَ على تباين الحال بينه وبيـــن قسـيمه ــ عبـداً مملوكاً – لتوخي تحقيق الحقَ بأن الأحــرار أيضــاً تحـت ربقــة العبوديــة لله تعالى ، وأن ما يملكون هو من رزق الله تعالي إياه لهم من غير أن يكـــون لــهم دخل في ذلك ، وللمبالغة في المقصود بالمثل من تباين الحال بين الممثلين ، وذلــك لأن العبد المملوك إذا لم يكن مثل العبد المالك فما ظننا بالجماد ومالك الملك هـــو الله رب العالمين ؟ .

وقوله : " **هل يستوون** " استفهام يراد به النفى ، وجوابه : لا يستوون .

وجاء الضمير في " **يستوون** " جمعاً مع أن المتقدم اثنان لأن المراد جنس الأحـــرار والعبيد المدلول عليهما والمعنى لا يستوى الأحرار والعبيد .

وقوله " الحمد لله " جملة من مبتدأ وخبر ، و" بل " حرف إضراب وهو إضراب انتقالي لنفى العلم عنهم ، " وذكر الحمد معناه الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد – قاله ابن عباس – أو المعنى أن كل الحمد لله ، وليس شئ من الحمد للأصنام لأنها لا نعمة لها على أحد " (١) .

وجئ بالجملة الإخبارية إرشاداً للعبد إلي وجوب شكر المنعم على ما أسبغ من العوارف والآلاء ، ونفى العلم عن أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون بعضهم يعلمون ذلك وإنما لا يعلمون بموجبه عناداً منهم يسوون بين الخالق والمخلوق والمالك والمملوك .

وقوله : " **وضرب الله مثلاً رجلين** " معطوف على المثل السابق موصول به ، **والمراد** : مثلاً آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر وبعدما أبهم ذلك في **قوله** : " **وضرب الله مثلاً** " بين لتنتظر النفس إلي وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين ذلك فقال : " رجلين " والأبكم – هو الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم ، فهو خرس مقارن للخلقة ويلزمه الصمم فصاحبه لا يفهم لعدم السمع ولا يفهم غيره لعدم النطق ، والإشارة لا يعتد بها لعدم تفهيمها حق التفهيم لكل أحد " (٢)

فهذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة ، وقيل : هذا مثل مضروب للوثن والحق تعالى ، فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شئ بالكلية لأنه إما حجراً أو شجر .

---

(١) التفسير الكبير ٨٨/٢٠ .

(٢) الكشاف ٤٢١/٢ ، ابو السعود ١٣٠/٥ ، روح المعاني ١٩٦/١٤ .

وقوله : " وهو كل على مولاه " بتعريف المسند إليه بضمـــير الغـــائب أو الشـــأن للدلالة على الغرابة إذ تتشوق النفس إلي معرفة حال هذا الرجل أو معرفة ما بعـد الضمير " هون . و – الكل – هو الثقيل العالة على غيره ممن يعوله ويلى أمره ، وهذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته مطلقاً .

وقوله : " أينما يوجهه لا يأت بخير " صفة رابعة لـــهذا الرجـل الموصـــوف ، و – اينما – اسم شرط جازم في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلـــق بفعل الشرط أو بجوابه ، والمعنى : إذا وجهه إلي أى جهة لا يأت بخيرقط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول ، وقرأ يحيي بن وثاب- أينما يوجه – بالبنـــاء للمجـــهول ، وقـــرأ ابـــن مســـعود – اينمـــا توجـــه – علـــى صيغـــة الماضي (١) .

وقوله : " هل يستوى هو " استفهام معناه النفى ومجئ الفعل بعـــده – يســـتوى – تأكيد للفاعل المستتر وهو مخلص للاستقبال ، والمراد هل يستوى مع ما فيه مـــن الأوصاف المذكورة ، وذكر الضمير – هو – زيادة في توضيح حالـــه ، وبيانـــاً للمقارنة بما سيأتى بعد .

وقوله : " ومن يأمر بالعدل " معطوف على الضمير السابق في – هل يستوى هـــو " والمراد بمن يأمر من هو منطيق فهو ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس ويحثـــهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل .

قال الإمام الرازى : " واعلم أن الآمر بالعدل يجـــب أن يكـــون موصوفـــاً بـــالنطق

---

(١) فتح القدير ٢٢٩/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٣٣/١٠ ، ١٣٤

وإلا لم يكن آمراً ، ويجب أن يكون قادراً لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة ، وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادراً ، ويجب أن يكون عالماً حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور ، فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادراً عالماً ، وكونه آمراً يناقض كون الأول أبكم ، وكونه قادراً يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شئ وبأنه كل على مولاه ، وكونه عالماً يناقض وصف الأول بأنه لا يأت بخير " (١) .

وقوله : " **وهو على صراط مستقيم** " التعريف لزيادة بيان قدر هذا الآمر بالعدل واستخدام الضمير في موضع الإظهار لإبراز كمال العناية بشأن هذا المقابل ، أى : هو في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام و – على صراط مستقيم – ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لأنه في حاق ما يقابلها فإن محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها " (٢) وتغيير الأسلوب حيث لم يقل : والآخر يأمر بالعدل – إلخ لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين الفريقين " (٣) .

والفعلان – ضرب – في الآيتين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل

---

(١) التفسير الكبير ٨٩/٢٠ .

(٢) ابو السعوده / ١٣٠ .

(٣) السابق نفسه ، روح المعاني ١٩٦/١٤

المراد إنشاؤه بما ذكر عقيبه ، ولا يبعد أن يقال : إن الله تعالى ضرب مثلاً بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضي ، وخلاصة المثل : هل يتساوى هذا الأخرس ، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان ، وهو على طريق الحق والاستقامة مستنير بنور القرآن ؟ وإذا كان الرجل العاقل لا يسوى بين هذين الرجلين ، فكيف يمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادى إلي الصراط المستقيم ؟

وفي الآية : استعارة تمثيلية .حيث مثلت حالة الوثن الأبكم الذى لا ينتفع منه بشئ أصلا ، بحالة القادر السميع البصير الذى يميز بين النافع والضار فشتان بين الرب والصنم ، فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به لهيئة المشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من الخرس وعدم الانتفاع والقدرة والسمع والبصر والانتفاع والتمييز ، وليس المراد بالرجلين رجلان معينان بل هما رجلان متصفان بما ذكر من الصفات مطلقاً .

خصمان اختصموا في ربهم أحدهما مؤمن والآخر كافر :

٦- **قال تعالي : " هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم " (١) .**

---

(١) الحج /١٩

تحليل الآية : **قوله** : " هذان خصمان " جملة مستأنفة مسوقة لسرد قصة المتبارزين يوم بدر وهم حمزة وعلى وعبيدة بـــن الحـــارث وعتبـــة وشـــيبة ابنـــا ربيعـــة والوليد بن عتبة ، وقيل : هم المختصمون من أهل الكتاب والمسلمين في دين الله ، **وقوله** : " هذان " تعيين لطرفى الخصام وإزاحة لما عسى يتبادر إلي الوهـــم مـــن كونه بين كل واحدة من الفرق الست (١) . وبين البواقى ، وتحرير لمحله أى فريـــق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم إلي الفـــرق الخمـــس " خصمـــان " أى فريقـــان مختصمان ، وإنما قيل : " اختصموا في ربهم " بـــالجمع حمـــلاً علـــى المعنـــى أى اختصموا في شأنه عز وجـــل ، وقيـــل : فـــي دينـــه ، وقيـــل : فـــي ذاتـــه وصفاته ، والكل من شئونه تعالي فإن اعتقاد كل من الفريقيـــن بحقيـــة مـــا هـــو عليه وبطلان مـــا عليـــه صاحبـــه ، وبنـــاء أقوالـــه وأفعالـــه عليـــه خصومـــة للفريق الآخر وإن لم يجر بينهما التحـــاور والخصـــام " (٢) ، ومـــن هنـــا تعيـــن الفصل السابق بين المؤمنين ومجموع من عطف عليهم ، ولما كان كـــل خصـــم فريقاً يجمع طائفة جاء الفعل " اختصموا " بصيغة الجمع ، وقـــرئ " اختصمـــا " مراعاة للفظ التثنية .

---

(١) إشارة إلي قولـــه تعـــالى : " إن الذيـــن آمنـــوا والذيـــن هـــادوا والصـــابئين والنصـــارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة " الحج /٣٧ .

(٢) أبو السعود ١٠١/٦ ، روح المعاني ١٣٣/١٧ .

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : تخاصمت المؤمنون واليهود . **فقالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله تعالى آمنا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً فنزلت** " (١) .

وقيل : إن في الآية ما يسمى بالجمع والتقسيم والتفريق (٢) . فالتقسيم " **إن الذين آمنوا** " إلي قوله تعالى : " **والذين أشركوا** " والجمع " إن الله يفصل بينهم " إلي **قوله تعالى** : " **هذان خصمان اختصموا في ربهم** " والتفريق في قوله سبحانه : " **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار** " إلخ أى أعدَّ لهم ذلك " (٣) .

وقوله : " **فالذين كفروا** " تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : " **يفصل بينهم يوم القيامة** " ، **وقوله** : " **قطعت لهم ثياب من نار** " **أى قدرت على مقادير جثثهم** " **ثياب من نار** " أى نيران هائلة تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها . وفى هذا استعارة تمثيلية تهكمية حيث شبه حال أعداد النار المحيطة بهم بحال تقطيع الثياب وتفصيلها على قدود الكفار بمثابة الإحاطة بهم مع التهكم الذى ينطوى عليه أى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢ /٢٦ .

(٢) الجمع أن يجمع بين شيئين أو اشياء متعددة في حكم ، والتقسيم : أن تذكر متعدداً وتضيف ، مالكل إليه على التعيين ، والتفريق : هو إيقاع تباين بين أمرين أو أكثر من نوع واحد لبعيد زيادة في المدح أو نحوه . شرح عقود الجمان /١١٨ ، ١١٩ ، الطراز ٣/١٤١ وما بعدها ، الإيضاح ٦/٤٥ وما بعدها ت د خفاجي .

(٣) روح المعاني ١٧/١٣٤ .

أنها تشتملهم وتحتويهم كما تشتمل الثياب لابسها وتحتويه ، وليس هناك تقطيعُ ولا ثياب حقيقة ، وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض ، ويجوز أن يكون ذلك لمقابلة الجمع بالجمع والأول أبلغ ، وجامع الاستعارة الهيئة الحاصلة من التقطيع والإحاطة والتفصيل واللباس .

والتعبير بالفعل الماضي " قطعت " لأن الإعداد قد وقع فعلاً فليس من التعبير بالماضى لتحقق وقوعه .

" وأخرج جماعة عن سعيد بن جبير أن هذه الثياب من نحاس مذاب وليس شئ حمى في النار أشد حرارة منه فليست الثياب من نفس النار بل من شئ يشبهها وتكون هذه الثياب كسوة لهم وما أقبحها كسوة ، ولذا قال وهب بن منبه : يكسى أهل النار والعرى خير لهم ، وقرأ الزعفرانى في اختياره - قطعت - بالتخفيف ، والتشديد أبلغ لأن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى " (١) .

وقوله : " يصب من فوق رؤسهم الحميم " جملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو في موضع الحال المقدرة من ضمير " لهم " ، وفي هذا القول إرداف رائع ، والمراد بالإرداف : وأن تراد الإشارة إلي معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك رادفاً للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ولازماً له " (٢) .

والمراد منه هنا في الاية : أن الثياب تشمل جميع الجسد غير الرأس . أفرد الرؤوس بالذكر بقوله : " يصب " على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، والقرينة

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٦٠ ، روح المعاني ١٧/١٣٤ ، التفسير الكبير ١٢/٢٣ .

(٢) نقد الشعر /١٥٧ ، المثل السائر ٢/١٨٧ ، مقدمة تفسير ابن النقيب /٢٦٦ .

قوله : " **من فوق** " فأطلق الجزء وهو الرؤوس . لأنه أشهر شئ في الجسد وأراد الكل وهى الأجساد لأن في التعبير بالرؤوس شدة الإهانة والذل فيقال ضربته على أم رأسه وبها يكون القتل السريع ، والتعبير بحرف الجر " من " للإيذان بشدة الوقوع .

" **والحميم** " هو الماء الحار الذى انتهت حرارته ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما - لو سقط من هذا الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها .

وقوله : " يصهر به ما فى بطونهم " جملة مفصولة عن سابقتها لكونهما خبريتين ، وهما مشتركتان في حكم إعرابى واحد ، وهى جملة حالية من قوله : " الحميم " ومرجع الضمير في قوله : " به " إلي " الحميم " والمراد : يذاب به ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود .

و " **ما** " **في قوله :** " **ما فى بطونهم** " نكرة عامة شاملة جميع ما تحتويه البطون ، ومجئ " في " دلالة على الظرفية المتمكنة وصهر ما هو مستقر في البطون .

قال الإمام الفخر الرازي : " والغرض أن - الحميم - إذا صب على - رءوسهم - كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم ، وهو أبلغ من قوله : " وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم (١)، وفى حديث أبى هريرة-رضى الله عنه - **عن النبى صلى الله عليه وسلم** - **قال :** " إن الحميم ليصب على رؤسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلي جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان " (٢)

---

(١) محمد /١٥ ، التفسير الكبير ٢٣/١٢ .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى ٥٠/١٠ ، ٥١ .

يسبح لله من في السماوات والأرض :

٧- **قال تعالى :" ألم تـر أن الله يسبح لـه من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون " (١) .**

تحليل الآية : بعد أن ذكر الله تعالى حال الذين كفروا وأن أعمالهم ضائعة لا قيمة لها ، وبين أن من حرمه الله نور هدايته فقد حرم الخير كله . ذكر ما يقابل ذلك كله من تسبيحه تعالي وتنزيهه من الإنسان والحيوان والجماد والنبات . فقال سبحانه : " **ألم** " إلخ وهو استئناف خوطب به النبى – صلى الله عليه وسلم – للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه – **صلى الله عليه وسلم** – أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها ، والهمزة للتقريو .أى قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة في القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح (٢) والرؤية هنا بمعنى العلم ، والظاهر أن إطلاقها عليه حقيقة ، وقيل : هي حقيقة في الإبصار وإطلاقها على العلم استعارة أو مجاز لعلاقة اللزوم ، وقد نبه الله سبحانه وتعالى على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال ، وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له سبحانه

---

(١) النور/٤١ .

(٢) أبو السعود ١٨٢/٦ ، روح المعاني ١٨٦/١٨ ، ١٨٧ .

في الألوهية ، وإطلاق – من – على العقلاء وغيرهم بطريق التغليب ، وحمل البعض التسبيح على معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم ويسمى عموم المجاز " (١).

وقوله : " والطير " مرفوع عطفاً على الأسم الموصول الفاعل" من " ، وتخصيصها أعنى – الطير – بالذكر مع كونها مندرجة في جملة ما فى الأرض لعدم استقرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وإنشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى : " صافات " والمراد : تسبحه – الطير – حال كونها صافات أجنحتها فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما تتمكن من الوقوف في الجو والحركة كيف شاء من الأجنحة والأذناب الخفيفة وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يميناً وشمالاً حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون " (٢) ، وحذف مفعول – صافات – أى : باسطة أجنحتها :-

وقوله : كل قد علم صلاته وتسبيحه " استئناف جئ به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم " من في السماوات والأرض " في التنزيه ورسوخ قدمه فيه ، والتنوين في " كل " عوض عن المضاف إليه المحذوف أى كل واحد ، وأفاد التنوين كل ما يشمل المذكور المصرح به والمندرج تحت العموم حتى الجماد ، **وقوله** : " **كل قد علم صلاته وتسبيحه** "

---

(١) روح المعاني ١٨/١٨٧ ، أبو السعود ٦/١٨٢

(٢) السابقان نفسهما

استعارة تمثيلية حيث مثلت حاله سبحانه وتعالى في علمه الصلاة والتسبيح الحاصلة من جميع الكائنات بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية . فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به لهيئة المشبه ، والجامع الهيئة الحاصلة من الصلاة والذكر والتسبيح والعلم والإحاطة .

وفي الآية إدماج (١) حيث أدمج سبحانه في تضاعيفه أى فى قوله : " كل قد علم صلاته وتسبيحه " الإشارة إلي أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى واستفاضة منه عز وجل لما يهمه بلسان استعداده ، وقد عبر سبحانه عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التى هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل ، وتقديمها على التسبيح في الذكر لتقدمها عليه في الرتبة وقوله : " **والله عليم بما يفعلون** " اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله و " ما " إما عبارة عن الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم ، والتعبير عنها بالفعل مسنداً إلي ضمير العقلاء للتغليب ، وإما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معاً أو عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته وإسناده إلي ضمير العقلاء على المجاز ، والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى القولين الأولين لتسبيح الكل ، وإما عبارة عن الأعم من الصلاة والتسبيح وغيرهما من الأفعال الصادرة عمن في السماوات والأرض والأحوال العارضة له ، والاعتراض حينئذ مقرر لمضمون " **كل قد علم** " أى الله تعالى صلاته وتسبيحه وأمر التعبير بالفعل والإسناد إلي ضمير العقلاء لا يخفى " (٢) .

---

(١) الإدماج هو : أن يضمن كلام سبق لمعنى معنى آخر لم يصرح به .

(٢) روح المعاني ١٨/١٨٩ .

وإيثار الاسم الظاهر وهو أسم الجلالة وإعادته مظهرا دون إضمارهِ في قوله : " **والله عليم** " لبيان كمال علمه واستدعاء المقام إظهاره وهو شمول علمه وإحاطة قدرته بجميع هذه الكائنات بحيث لا يند عنه أحد من هذه المخلوقات المسبحة الذاكرة الموحدة ، والتعبير بالفعل المضارع " يفعلون " دلالة على التجدد والحدوث وهو ما يناسبه قوله : " عليم " مبالغة في كمال العلم وشمول المعرفة .

البحر العذب وبحر الملح الأجاج :

٨- **قال تعالى : " وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تاكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون "** (١)

تحليل الآية : قوله : " وما يستوى البحران " إلخ كلام مستأنف " مسوق لضرب المثل للمؤمن والكافر .

قال العلامة أبو السعود : " هذا مثل ضرب للمؤمن والكافر ، والفرات الذي يكسر العطش ، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته ، والأجاج الذي يحرق بملوحته " (٢) .

فقوله تعالى : " وما يستوى البحران " إلخ تشبيه تمثيلي حيث شبهت حال المؤمن المطيع المقيم لحدود الله تعالى النافع لعباده سبحانه .

---

(١) فاطر /١٢ .

(٢) أبو السعود ١٤٧/٧ .

بحال البحر العذب الفرات الذي ساغ شرابه فانتفع به الخلائق وأفاد منه العباد والبلاد ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الإيمان والطاعة والنفع والطهارة والنقاء والفائدة ، كذلك شبهت حال الكافر في فساد معتقده وبطلان مذهبه وسوء خلقه بحال البحر الملح الأجاج الذي تحرق ملوحته ولا يستساغ ماؤه ولا يقبل ، والوجه الهيئة الحاصلة من الإضرار وعدم الفائدة المرجوة وعدم القبول والإساغة وبين **قوله** : " عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج " مقابلة معنوية . وفي الآية ما يسمى بالاستطراد وهو : " التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره " (١).

قال العلامة الزمخشري في بيان الاستطراد في الآية : ثم قال – سبحانه – على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه – ومن كل – أى ومن كل واحد منهما – تأكلون لحماً طرياً – وهو السمك وتستخرجون حلية – وهى اللؤلؤ والمرجان – وترى الفلك فيه – في كل – مواخر – شواق للماء يجريها – من فضله – من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيهما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه " (٢) .

ثم يقول – رحمه الله – : "ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣٠٠/٣ ، تحرير التحبير/٩٣٠، الصناعتين / ٤٤٨

(٢) الكشاف ٣٠٤/٣ .

السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة
قوله تعالى: (١) **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة** – ثم قال – وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله " (٢) .

وقوله : " **سائغ شرابه** " أى سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس .

وقوله : " **وهذا ملح أجاج** " أى متغير طعمه التغير المعروف ، " أجاج " شديد الملوحة والحرارة من قولهم أجيج النار وأجتها ، ومن هنا قيل : هو الذى يحرق بملوحته .

وتعريف المسند إليه في الآية باسم الإشارة القريب " هذا " لقصد تمييزه أكمل تمييز لإحضاره في ذهن السامع حتى يكون أكثر تصوراً . فلا يغيب عنه شئ من أوصافه .

قال الإمام الرازى : " قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن . فالإيمان لا يشتبه بالكفر في الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج . ثم على هذا فقوله – ومن كل تأكلون لحماً طرياً – لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان ومن حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات في خير ونفع إذ اللحم الطرى يوجد فيهما

---

(١) البقرة /٧٤
(٢) الكشاف ٣/٣٠٤

والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ، ولا نفع في الكفر والكافر " (١) .

وقوله : " **ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها** " الواو فيه إما عاطفة ، والجملة بمثابة التتمة والتكميل للتمثيل ، وإما استئنافية فتكون الجملة مستأنفة استطرادية – وقد بينا معنى الاستطراد سابقاً – .

و " **من كل** " جار ومجرور متعلقان بالفعل " تأكلون " والتقدير ومن كل واحد منهما ، والتعبير عن السمك باللحم مع كونه حيواناً قيل للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل ، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته ، والتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع إليه الفساد كما ينبئ عنه جعل كل من البحرين مبدأ أكله " (٢) .

وقوله : " **وتستخرجون حلية تلبسونها** " جملة معطوفة على سابقتها موصولةٌ بها والمراد : "**ومن كل تستخرجون** ، " **حلية** " مفعول به للفعل " **تلبسونها** " صفة لـ " **حلية** " والحلية التي تستخرج من البحر الملح اللؤلؤ والمرجان ، ويلبس ذلك الرجال والنساء وإن اختلفت كيفية اللبس ، أو يقال ، عبر عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم ، ولا يعلم حلية تستخرج من البحر العذاب .

وقوله : " **وترى الفلك فيه مواخر** " الرؤية هنا بصرية ، والخطاب لكل من يصلح له ، أو لكل أحد يرى ، و" فيه " أى في كل منهما ، والتعبير بالجار والمجرور " فيه " دون " عليه " دلالة على تمكن الفلك من البحرين ، وأن سيرها إنما يكون فيهما " والوصف بـ " مواخر " دليل على شق الفلك لماء البحرين شقاً عظيماً ،

---

(١) التفسير الكبير ١١/٢٦

(٢) روح المعاني ١٧٩/٢٢ .

وإفراد الضمير أعني ضمير الخطاب في " وترى " مع جمعه فيما سبق وما يلحق لأن الخطاب لكل أحد تتأتي منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط .

واللام في قوله :" لتبتغوا " للتعليل أى من فضل الله تعالى بالنقلة فيها والتعبير بـ " من فضله " بيان لكرم الله تعالى وأنه هو المتفضل فما يمنحه سبحانه وتعالى لعباده فهو بمحض فضله وسعة كرمه وجزيل عطائه .

وقوله : " ولعلكم تشكرون " أسلوب رجاء وهو من الله تعالى تحقيق و- لعل - استعارة تبعية لمعنى الإرادة ، ومن هنا سلك به مسلك لام التعليل كأنه قيل : لتبتغوا ولتشكروا " (١) .

ومجئ الفعل " تشكرون مضارعاً دلالة على تجدد الشكر وحدوثه تكراراً .

هل يستوى الأعمى والبصير والحى والميت ؟

٩ - **قال تعالى : " وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير** " (٢) .

تحليل الآيات : قوله : " وما يستوى الأعمى والبصير " إلخ كلام مستأنف مسوق لضرب المثل للمؤمن والكافر ، والتنافي بينهما في الذات والوصف والمستقر في الآخر .

ففي الآيات تشبية تمثيلى رائع حيث شبه سبحانه وتعالى حال الكافر الذى لا يبصر الآيات ولا يهتدى إليها ويتعامى عن حقائقها بحال الأعمى الذى لا يبصر طريقه ولا يهتدى إلى ملامح تبصره حقائق هذا الطريق وإن كان الأعمى يبصر ويهتدى

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٤ .

(٢) فاطر /١٩-٢٣

ببصيرته ، وشبه حال المؤمن المهتدى الذى عرف الحق واهتدى إليه بحـــال البصير الذى يعرف أين يضع قدميه ، ويهتدى طريقه ويتبصر حقائقه ، والمـــراد كما لا يتساوى الأعمى مع البصير ، فكذلك لا يتساوى المؤمن المســـتنير بنـــور القرآن ، والكافر الذى يتخبط في الظلام ، وقيل : إن الأعمي والبصـــير مثـــلان للصنم ولله عز وجل فهو من تتمة قوله تعالي : " ذلكم الله ربكم له الملـــك " (١) ، **والمعنى** : لا يستوى الله تعالى مع ما عبدتم .

وقوله : " ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور " مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب ، وهو تشبيه تمثيلى (٢) أيضاً . شبهت حال الحق في كونه مفتاحاً للخير هادياً إلي سبيل الرشاد بحال النور في كونه هادياً للطريـــق موصلاً إلي الأهداف المرجوة منه ، كذلك شبهت حال الباطل في ضياع صاحبـــه وفساد معتقده بحال الظلمات التى يتيه فيها الإنسان ولا يهتدى إلـــي نـــهج ســـوى ولا غاية مرجوة ، وكذلك الظل والحرور وجمعـــت ــ الظلمـــات ــ وأفـــرد ــ النور ــ لتشعب طـــرق البـــاطل وكـــثرة ضـــروب الفســـاد وســـوء المعتقـــد ، وأُفرد - النور - لتوحد طريق الإيمان .

والمراد بـــ " الظل " و " الحرور " الثواب والعقاب ، وقيل : الجنة والنار .

---

(١) فاطر /١٣ .

(٢) التصوير البياني /١٩٦.

قال الشوكاني : " قال الأخفش : و ـ لا ـ في قولـه : ـ ولا النـور ـ ، ـ ولا الحرور زائدة ، والتقدير : وما يستوى الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور ، والحرور شدة حر الشمس . قال الأخفش : والحرور لا يكـون إلا مـع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل ، وسمى الحر حرورا مبالغة في شـدة الحر لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى " (١)

وقال المفسرون : " ضرب الله الظل مثـلا للجنـة وظلـها الظليـل ، وأشـجارها اليانعة تجرى من تحتها الأنهار ـ كما جعل الحرور مثلا للنار وسـعيرها وشـدة أوارها وحرها ، وجعل الجنة مستقرا للأبرار ، والنار مستقرا للفجار " (٢).

وقوله : " وما يستوى الأحياء ولا الأموات " جملة معطوفة على مـا سبق من المنفيات ، وهو أيضا تشبيه تمثيلي لحال الذين دخلوا في الإسلام واعتنقوه وجعلوه ديدنـهم وهجيراهم فأحياهم من موات وأوجدهم من عدم بحال الأحياء الذيـن ينتفع بوجودهم ويسعد بحالهم ، وحال الذيـن لم يدخلوا الإسلام وأصروا على الكفـر وأتخذوه منـهاجا وسـبيلا بحـال الأمـوات في عـدم نفعهم وغنائهم .

والتعريف في قوله : " **الأحياء والأموات** " للعهد أى المعهودون بحياتهم ومماتهم . قال **الشيخ أبو السعود** : " – **وما يستوى الأحياء ولا الأموات** " .

---

(١) فتح القدير ٤/٤٣٢، ٤٣٣ بتصـرف ، معـاني القـرآن للأخفـش ٢/٤٨٦ ت د هـدى قراعـة ط مطبعـة المدنـي ط أولـي سـنة ١٤١١ هـ ، سنة ١٩٩٠ م القاهرة .

(٢) صفوة التفاسير ٢٢/٥٧٢ .

تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ، ولذلك كرر الفعل ، وأوثرصيغة الجمع في الطرفين تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين ، وقيل تمثيل للعلماء ، والجهلة للعلماء والجهلة " (١)

السر البلاغي في تكرار الواو ولا :

قال العلامة الزمخشري : فإن قلت : لا المقرونة بواو العطف ما هي ؟ قلت : هل من فرق بين هذه الواوات ؟ قلت : بعضها ضمت شفعاً إلي شفع وبعضها وتراً إلي وتر " (٢) .

وقال شيخنا أبو حيان : "وقال ابن عطية دخول - لا - إنما هو على هيئة التكرار **كأنه قال** : ولا الظلمات والنور ولا النور والظلمات فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ودل مذكور الكلام على متروكه " (٣) .

هل ترتيب المذكورات السابقة في عدم الاستواء وقع فصيحاً ؟

جاء ترتيب هذه المنفيات في كونها لا تستوى في غاية الفصاحة ودقتها .

يقول الشيخ أبو حيان في جوابه عن هذا السؤال : " وترتيب هذه الأشياء المنفى عنها الاستواء في غاية الفصاحة . فذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر ثم البصير ولو كان حديد النظر لا يبصر إلا في ضوء فذكر ما هو فيه الكافر من ظلمة الكفر وما هو فيه المؤمن من نور الإيمان ثم ذكر مآلهما وهو الظل والحرور وهو أن المؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر بكفره في حر وتعب ، ثم ذكر مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر فوق حال الأعمي والبصير إذ الأعمى

(١) أبو السعود ١٥٠/٧ .

(٢) الكشاف ٣٠٦/٣ .

(٣) البحر المحيط ٣٠٨/٧

قد يشارك البصير في إدراك ما والكافر غير مدرك إدراكاً نافعاً فهو كالميت ، ولذلك أعاد الفعل فقال :- وما يستوى الأحياء ولا الأموات - كأنه جعل مقام سؤال وكرر - لا - فيما ذكر لتأكيد المنافاة " (١) .

ثم يقول - رحمه الله - : " وقدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحر وآخر في مثلين وهما البصير والنور ولا يقال لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ بل فيه وفى المعنى ، وجمعت - الظلمات - لأن طرق الكفر متعددة ، وأفرد - النور - لأن التوحيد والحق واحد ، والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد " (٢) .

وقوله : " **إن الله يسمع من يشاء** " جملة مؤكدة لمضمون ما سبق الحديث عنه .

والمراد : إن الله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق . فيحببه في الإيمان ، ويشرح صدره للإسلام ، فمفعول " يشاء " محذوف للتعميم ، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار . لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون دعوتك عناداً وجحوداً.

وقوله : " **وما أنت بمسمع من في القبور** " ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات فأراد بمن في القبور الكفار ، وشبههم بالموتى ، أى فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله وينتفع بمواعظه ، فكذلك من كان ميت القلب لا ينتفع بما يسمع ، وهذا إشباع في إقناطه - عليه الصلاة والسلام - من إيمانهم ،

---

(١) السابق ٧/٣٠٨ / ٣٠٩ .

(٢) السابق نفسه .

والباء في ـ بمسمع ـ مزيدة للتأكيد أى وما أنت مسمع ، والمراد بالسماع هنا ما أريده في سابقه ، ولا يأبى إرادة السماع المعروف لأن المراد نفى الإسماع بطريق العادة (١) " .

قال الألوسى :" وما ألطف نظم هذه التمثيلات فقد شبه المؤمن والكافر أولاً بالبحرين وفضل البحر الأجاج على الكافر لخلوه من النفع ثم بالأعمى والبصير مستتبعاً بالظلمات والنور والظل والحرور فلم يكتف بفقدان نور البصر حتى ضم إليه فقدان ما يمده من النور الخارجي ، وقرن إليه نتيجة ذلك العمى والفقدان فكأن فيه ترق من التشبيه الأول إليه ثم بالأحياء والأموات ترقياً ثانياً وأردف قوله سبحانه ـ وما أنت بمسمع من في القبور ـ"(٢) .

وقد اشتملت الآيات ـ كما ذكرنا ـ على التمثيل والطباق بين الأسماء .

وقوله : " **إن أنت إلا نذير** " أسلوب قصر طريقة النفى والاستثناء من قصر الموصوف على الضفة قصراً إضافياً قصر ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صفة النذارة فالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يجهل ذلك ، ولكن لما كان ـ عليه الصلاة والسلام حريصاً على هدايتهم ، وتذهب نفسه حسرات عليهم . كأنما يظن أن باستطاعته هدايتهم ، قيل له : ليس باستطاعتك أن تسمع من في القبور ، فلا تظن أنك ـ لكونك رسولاً ـ تستطيع هدايتهم فما أنت إلا نذير .

مقارنة بين أسلوبين : " **إن أنت إلا نذير** "(٣) ، " **إنما أنت نذير** " (٤) .

(١) جامع البيان للطبرى ٨٥/٢٢ .

(٢) روح المعاني ١٨٦/٢٢ .

(٣) فاطر /٢٣ .

(٤) هود/١٢ جزء آية .

قوله : " إن أنت إلا نذير " ذكرنا أنه قصر له - عليه الصلاة والسلام - على صفة النذارة ، وما هو إلا مبلغ ومنذر . أما قوله : " إنما أنت نذير " فالمراد به مع القصر التعريض بهؤلاء الذين لا يستجيبون ولا يستفيدون من الإنذار ، فليس المطلوب أن يعلم السامعون ظاهر معناه ، ولكن أن يذم الكفار ، و _ إنما - يتضمن الكلام فيها معنى النفى من بعد الإثبات والمعنى : لبس عليك إلا الإنذار بما أوحى غير مبال بما يصدر عنهم والمراد من قوله تعالي : " إن أنت إلا نذير " تذييل ختم الله به تعالى الأمثال المضروبة . و أن وظيفته صلى الله عليه وسلم - الإبلاغ والإنذار . أى ما عليك يا محمد إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن أراد الله هدايته سمع وأهتدى ، وأن كان ممن أراد الله ضلاله فما عليك لأنه تعالى هو الذى يهدى ويضل . فما أنت يا محمد إلا رسول منذر ، تخوف هؤلاء الكفار من عذاب النار ، فليس من وظائفك الإسماع البتة ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم فما عليك إلا الإنذار .

رجل مقيد بربقة الأشتراك وآخر سالم منها :

١٠- قال تعالى : " ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون " (١) .

تحليل الآية : **قوله** : " **ضرب الله مثلاً** " الخ كلام مستأنف ، مسوق لتمثيل من يعبد آلهه متعددة ومن يعبد إلهاً واحداً . فقوله " ضرب " الخ إيراد لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة في ضربها هو التذكر والاتعاظ بها ، وتحصيل التقوى ، والمراد بضرب المثل هـهنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها ، و " مثلاً " مفعول ثان لـ " ضرب " و" رجلاً "

---

(١) الزمر /٢٩

مفعوله الأول أخر عن الثاني للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التى هي العمدة في التمثيل " (١) .

و " **متشاكسون** " أى متنازعون مختلفون أو متشاجرون لشكاسة خلقهم " (٢) و " سلما " مصدر سلم ونعيت بالمصدر على سبيل المبالغة ، وقرئ - سالما - أى خالصا له من الشركة على أنه أسم فاعل ، وقرئ - سلما - بكسر السين وسكون اللام ، وقرئ - سلما - بفتح فسكون وهما مصدران وصف بهما مبالغة في الخلوص من الشركة ، وجعله - رجلا - ليكون أفطن لما شقى به أو سعد .

وقوله : " **هل يستويان مثلا** " استفهام إنكارى مراده إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وأكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتعلثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في لوم وعناء والآخر في راحة بال ورضاء نفس ، والسر في إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلي كمال الظهور عند من له أدنى شعور وجاء " مثلا " منصوبا على التمييز المحول عن الفاعل والتقدير : هل يستوى مثلهما وحالهما ، واقتصر في هذا التمييز على الواحد لبيان الجنس ، والاقتصار عليه أولا **في قوله تعالى** : " **ضرب الله مثلا** " ، وقرئ " مثلين " بالتثنية أى هل يستوى مثلاهما وحالاهما ، وثنى مع أن المقصود من التمييز حاصل بالإفراد من غير لبس لقصد الإشعار بمعنى زائد وهو اختلاف النوع ، وجوز أن يكون ضمير الفعل " يستويان " للمثلين لأن التقدير فيما سبق مثل رجل ومثل رجل أى هل يستوى المثلان مثلين ،ويرجع ذلك إلي هل يستويان ، - رجلين - فيما ضرب من المثال ، ولما كان المثل بمعنى الصفة العجيبة التى هي كالمثل كان المعنى هل يستويان فيما يرجع إلي الوصفية ؟ (٣) .

(١) أبو السعود ٢٥٣/٧ ، روح المعاني ٢٦٢/٢٣ .

(٢) المفردات /٢٦٦ مادة شكس

(٣) الكشاف ٣٩٧/٣ ، روح المعاني ٢٦٣/٢٣ ، أبو السعود ٢٥٣/٧ .

وفي الآية : تشبيه تمثيلي رائع : فقد شبه حال من يعبد ألهة شتى فأفكاره موزعة وأهواؤه متنوعة بحال مملوك اشترك فيه شركاء شجر بينهم خلاف شديد وخصام مبين وهم يتجاذبونه ويتعاورونه في شتى منازعهم ومتباين أهوائهم فهو يقف متحيراً لا يدرى لأيهم ينحاز ولأيهم ينصاع وأيهم أجدر بأن يطيعه ، والوجه الهيئة الحاصلة من توزع الأفكار واضطراب الأهواء واختلاف المنازع والشركاء والحيرة وشبه حال من يعبد إلهاً واحداً فهو يطيعه ويرضيه وينفذ أوامره ويجتنب نواهيه بحال عبد متوفر على خدمة سيده يلبى كل حاجاته ويصيخ سمعاً لكل ما ينتدبه إليه ويطلبه منه ، والوجه الطاعة والخدمة والسمع والإرضاء .

قال العلامة الزمخشري :" والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ، ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدرى أيهم يعبد وعلى ربوبيته أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه ، فهمه شعاع وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب في آجله " (١) .

وعدم صحة وقوع المشبه موقع المشبه به في قوله : " **ضرب الله مثلاً رجلاً** " مرجعه إلى دقيقة بيانية وهى أن نفى الاستواء الذى جاء تعقيباً على المثل في قوله - هل يستويان - منصب على هذه الصورة الحقيقية أعنى الرجل الذى تتوزع طاعته بين جهات متصارعة لا يستطيع وإن أجهد نفسه أن يلائم بينها لأنه وجبت عليه طاعتهم لكونه مملوكاً لهم ، فهم فيه شركاء ثم هم متشاكسون ، لا تتلاءم مطالبهم،

---

(١) الكشاف ٣٩٧/٣

ولا يستطيع التوفيق بين حاجاتهم ، فهو في صراع وهمٍّ وتنازع ، لا يستوى هـذا مع ذلك الرجل الذي سلم ملكه لرجل واحد يوجه ولاءه وطاعته نحوه فهو مجموع النفس ماض على طريق آمن ، وإذا وضعنا المشبه مكان المشبه بـه كـان نفى الاستواء متجهاً نحو المشرك والموحد أى يؤول الكلام إلي مثل قولنا من يعبد آلهة شتى ومن يعبد إلهاً واحداً هل يستويان ، وبهذا نفقد نفى الاستواء المتضمـن فـي أسلوب الاستفهام قوته لأنه في الآية متجه نحو صورة محسوسة واضحة ، أبرزت الصراع والتناقض والتوزع وجسدته في صورة المملوك لشركاء متنازعين ، كمـا أبرزت القرار والأمان في الصورة المقابلة ، وهذا هو المغزى من التعبير ، فـإذا ذهب لم يبق في العبارة شئ " (١) .

وقوله : " الحمد لله " تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض ، وتنبيـه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى ، وأنها نعمة جليلة موجبـة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ، أو على أن بيانه تعالي بضرب المثـل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عـز وجـل مستوجب لحمده وعبادته " (٢)

فقوله : " الحمد لله " جملة معترضة بين الاستفهام الإنكارى والإضراب الانتقـالي والغرض منها أنها تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام فوجب أن يختص بالشكر

---

(١) التصوير البيانى /١٩٧، ١٩٨ ، حاشية السيد على المطول /٣٦٠ .

(٢) أبو السعود ٧/٢٥٣ .

وأن أصنامهم لا تستحق أن تشكر ، و - الحمد - هنا كناية عن الشكر لأن الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء على الله " (١) وجملة " الحمد لله " مفيدة انحصار الحمد في ملكه تعالى ، ويجوز أن يكون قصراً ادعائياً لأن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، وغير الله إذا أنعم فإنما إنعامه مظهر لنعمة الله التى جرت على يديه ، ويجوز أن يكون قصراً إضافياً قصر إفراد للرد على المشركين إذ قسموا حمدهم بين الله وآلهتهم "(٢) .

وقوله : " **بل أكثرهم لا يعلمون** " إضراب وانتقال " من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلي بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون في ورطة الشرك والضلال .

فجاء قوله تعالى : " **بل أكثرهم لا يعلمون** " إضراباً انتقالياً من الاستدلال عليهم إلي تجهيلهم في عقيدتهم ونفى العلم عن أكثرهم لأن منهم من يعلم الحق ويكابر استيفاء للسيادة واستجلاباً لطاعة دهمائهم فالجملة ذم لأكثرهم بالصراحة وهو ذم لأقلهم بالمكابرة والعناد بطريق التعريض " (٣) .

متبعو الحق ومتبعو الباطل :

١١ - قال تعالى : " ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم " (٤) .

تحليل الآية : قوله تعالى : " ذلك بأن الذين كفروا " إشارة إلي ما مر من إضلال الأعمال وتكفير السيئات وإصلاح البال (٥) ، وهو مبتدأ خبره ما بعده والمراد : ذلك كائن أن الأولين اتبعوا

(١) آيات مادة رزق القرآنية /٢٥٢ د رفعت السوداني .

(٢) آيات مادة رزق /٢٥٢ ، ٢٥٣ ، التحرير والتنوير ٢٢٦/١٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢٦/١٤ .

(٤) محمد /٣ .

(٥) إشارة إلي الآيتين /٢،١ من سورة محمد — صلى الله عليه وسلم .

الشيطان — كما قال مجاهد — ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد فبيان سببية اتباعه للإضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه أصلا مستتبعا لهما قطعا ، وبسبب أن الآخرين اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائنا من ربهم ففعلوا ما فعلوا من الإيمان به وبكتابه ومن الأعمال الصالحة فبيان سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببه الإيمان والعمل الصالح له متضمن البيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تدافع بين الإشعار والتصريح في شئ من الموضعين ويجوز أن يحمل — الباطل — ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذى لا أصل له أصلا فالتصريح بسببية اتباعه لإضلال أعمالهم ، وإبطالها لبيان أن إبطالها البطلان مبناها وزواله ، وأما حمله على ما لا ينتفع به فليس كما ينبغى لما أن الكفر والصد أفحش منه فى وجه للتصريح بسببيته لما ذكر من إضلال أعمالهم بطريق القصر بعد الإشعار بسببيتهما له ، ويجوز أن يراد بالباطل نفس الكفر والصد ، وبالحق نفس الإيمان والأعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الإضلال والتكفير والإصلاح تصريحا بالسببية المشعر بها في الموقعين " (١) .

وقوله : "**من ربهم**" في موضع الحال ، والكلام من قوله تعالى : " **ذلك بأن** " إلي **قوله تعالى** : " **من ربهم** " تصريح بما أشعر به الكلام السابق من السببيه لما فيه

---

(١) أبو السعود ٩٢/٨ .

من البناء على الموصول ، ويسميه علماء البيان بالتفسير (١) ففي الآية تفسير – كما ذكرنا – على طريق اللف والنشر ، وهو من محاسن الكلام ، وفي الآية ايضاً طباق بين الفعلين " **آمنوا–وكفروا** – " وبين الأسمين " الباطل – و – الحق – " وهو طباق حقيقى بين لفظين متضادين .

وقوله : " كذلك يضرب الله للناس أمثالهم " صفة لمصدر محذوف تقديره : مثل ذلك الضرب البديع — يضرب الله للناس أمثالهم — أو مثل ذلك البيان الواضح ، بين الله أمر كل من الفريقين — المؤمنين والكافرين — بأوضح بيان وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا .

واللام في قوله تعالى : " للناس " لام الأجل . أى لأجلهم ، والضرب هو البيان ، وفيه استعارة تبعية حيث شبه البيان الجلى في كونه يؤثر في القلوب تأثيراً شديداً بالضرب على الشئ فيحدث فيه تاثيراً بالغاً .

قاستعير اللفظ الدال على المشبه به — الضرب — للمشبه — البيان المؤثر ثم اشتق من الضرب بمعنى البيان " يضرب " استعارة تبعية ، والجامع البيان والتأثير بشدة ، والقرينة حالية يدل عليها السياق .

وقوله : " أمثالهم " مفعول به لقوله " **يضرب** " والمراد به أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال ، وهى اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم ، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم .

فقوله : " أمثالهم " إستعارة تمثيلية شبهت حالة عمل الكفار في كونهم تابعين للباطل والضلال بحالة من يعمل عملاً لا ثمرة له ولا نفع يجدى من ورائه

(١) التفسير هو : أن يقع في مفردات الكلام لفظ مبهم أو عدد مجمل أو غير ذلك مما يفتقر إلى بيان ، فيؤتى بما يقرر ذلك ويكون شرحاً له من بيان وكشف " الطراز للعلوى ٣/١١٤ ، المثل السائر ٢/٢٤ وما بعدها

فاستعيرت الهيئة الدالة على المشبه به للمشبه ، وكذلك شبهت حالة عمل المؤمنين في كونهم تابعين للحق والهدى بحالة الإنسان الذى يعمل العمل المثمر الذى تترتب عليه الثمرة النافعة المرجوة . والجامع في الاستعارة الأولى الهيئة الحاصلة من الضياع والهلاك وعدم النفع ، وفى الثانية . النفع والنتيجة الناجحة وحصول الخير

قال العلامة الزمخشرى : " فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت في أن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو في أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين " (١) .

والضمير في " أمثالهم : راجع إلي الناس أو إلي المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم " (٢)

أمرأتا نوح ولوط ، وأمرأة فرعوزن ومريم ابنة عمران :

١٢- قال تعالى : " ضرب الله مثلا للذين كفروا أمرأة نوح وأمرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شينا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا أمرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا في الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين " (٣)

---

(١) الكشاف ٥٣٠/٣

(٢) أبو السعود ٩٢/٨ ، روح المعاني ٣٨/٢٦ .

(٣) التحريم ١٠-١٢

تحليل الآيات : قوله تعالى : " ضرب الله مثلاً للذين كفروا " كلام مستأنف مسوق لإيراد حالة غريبة ليعرف على ضوئها حالة غريبة أخرى مشاكلة لها في الغرابة ، واستعمال لفظ الضرب بمعنى البيان والتوضيح استعارة تبعية إذ الضرب فيه قوة تأثير فيمن بين ووضح له المثل حتى يستقر في ذهنه فلا يفارقه لحظة .

قال الإمام الفخر الرازى : " أى بين حالهم بطريق التمثيل أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير اتقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كانوا فيه من القرابة بينهم وبين نبيهم وإنكارهم للرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به من عند الله وإصرارهم عليه ، وقطع العلائق ، وجعل الأقارب من جملة الأجانب بل أبعد منهم ، وان كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبياً كحال امرأة نوح ولوط ، لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان ، وقيل لهما في اليوم الآخر – ادخلا النار" (١) .

وتقديم المفعول الثاني " مثلاً " على المفعول الأول " امرأة نوح وامرأة لوط " ليتصل به ما هو شرح وتفصيل وتفسير لحالهما ، ويتضح بذاك حال الكفرة ،

والمراد : ضرب الله تعالى مثلاً لحال أولئك حال - امرأة نوح – الخ .

وقوله : " كانتا تحت عبدين من عبادنا " بيان لحالهما الداعية لهما إلي الخير والصلاح فالجملة مستأنفة مسوقة لتفسير ضرب المثل ، ولذا فصلت عنها لأن بينهما شبه كمال الاتصال فوجب الفصل .

---

(١) التفسير الكبير ٥٠/٣٠ .

وقوله : " **كانتا تحت عبدين** " ، ولم يقل : تحتهما للتعظيم ، والمراد كانتا في عصمة نبيين عظيمى الشأن متمكنتين من تحصيل خير الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتهما " (١) .

وقوله : " **فخانتاهما** " بيان لما صدر عنهما من الخيانة العظيمة مع تحقق ما ينافيها من مرافقة النبى - عليه الصلاة والسلام - أى خانتاهما بالكفر والنفاق ، وهذا تصوير لحالهما المحاكية لحال هؤلاء الكفرة وفي خيانتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة .

وقوله : " **فلم يغنيا** " إلخ . بيان لما أدى إليه خيانتهما أى فلم يغن النبيان - عنهما - بحق الزواج - من الله شيئاً - أى من عذابه تعالي شيئاً من الإغناء - وقيل - لهما عند موتهما أو يوم القيامة - أدخلا النار مع الداخلين - أى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء - عليهم السلام - " (٢) .

أمّا خيانة امرأة نوح فكانت تصفه للناس بالجنون ، وأمّا خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف .

وفي الآية تشبيه تمثيلي : شبهت حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعدواتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير اتقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر . لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبتّ الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب

---

(١) ابو السعود ٨/٢٦٩ ، روح المعاني ٢٨/١٦٢ .

(٢) أبو السعود ٨/٢٧٠ ، روح المعاني ٢٨/١٦٢ ، ١٦٣ .

وابعد . بحال امرأة نوح وأمرأة لوط لما نافقتا ، وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب ،ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الكفر والعصيان والخيانة والهلاك وسوء العاقبة ونكال المصير .

والتعبير بالماضي الذي هو بمعنى المضارع المبنى لما لم تسم فاعله " **قيل** " لتحقق الوقوع ، والقائل إما أن يكون الله تعالى ، أو هي الملائكة الموكلة بجهنم تقول لهما ذلك . أي : يقال لهما عند إدخالهما ، تقول لهما خزنة النار – أدخلا النار .

ومن المفسرين من يرى أن في الآية تعريضا لأمهات المؤمنين وتخويفا لهن بأنه لا يفيدهن إن أتين بما حظر عليهن كونهن تحت نكاح النبي – صلى الله عليه وسلم – " (١)

قال الإمام الفخر :"وفى ضمن هذا التمثيل تعريض باقى المؤمنين ، وهما حفصة وعائشة لما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه واشده لما فى التمثيل من ذكر الكفر " (٢) .

وقلنا : إن هذا تعريض بحفصة وعائشة وهما اللتان ذكرتا في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما كرهه ،

---

(١) روح المعاني ١٦٣/٢٨ .

(٢) التفسير الكبير ٥٠١٣٠.

وكان من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكتمان كما كانت امرأة فرعون ومريم ابنت عمران ، والتعريض بحفصة ـ رضى الله عنها ـ أرجح لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . والسر في قوله : " عبادنا " إما للتعظيم لهذين النبيين ، أو إظهار للعبد بأنه لا يترجح على الآخر عند الله تعالى إلا بالصلاح والتقوى والإيمان .

وقوله : " **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون** " مثل آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان مؤمناً ، والمراد : أنه تعالى جعل حالها مثلاً لحال المؤمن في أن وصلة الكفر لا تضرهم حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله ، وهي في أعلى غرف الجنان ، واسمها آسية بنت مزاحم " (١) .

وهذا تشبيه تمثيلي آخر : حيث شبه الله تعالى حال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين ، والصبر في الشدة ، وأن صولة الكفر لا تضرهم ، بحال امرأة فرعون آمنت بموسى وربه فلم يضرها أمر فرعون وهو أكفر الكافرين وثبتت على عقيدتها وصبرت على عذابه وهوانه ، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ، والوجه : الهيئة الحاصلة من الأيمان والتمسك والصبر والفوز بالجنات والنعيم المقيم في الفردوس الأعلى .

وقوله :" **إذ قالت** " ظرف لمحذوف أشير إليه بقوله : " **ضرب الله مثلاً للذين آمنو**" أى حالها – إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة " أى قريباً من رحمتك أو في أعلى درجات المقربين .

---

(١) أبو السعود ٨/٢٧٠

فإن قيل : ما معنى الجمع بين قولها " **عندك** " وبين قولها " في الجنة : ؟

فالجواب : أنها طلبت القرب من رحمة الله ثم بينت مكان القرب بقولها : " وفى الجنة " وأرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى التى هي أقرب إلي العرش " (١) والناظر في الآية يرى أنها قدمت الظرف وهو " عندك بيتاً " لأنه أهم عندها حيث طلبت من ربها القرب من رحمته ، ولفظ " عندك " يفيد المجاورة ، ولفظ " بيتاً في الجنة " هو الدار ، ولذا قيل : تخير الجار قبل الدار ، أو الجار قبل الدار ، وفى الآية دليل على إيمانها ، وتصديقها بالبعث والجزاء .

وقوله : " **ونجنى من فرعون** " فيه حذف مضاف أى من نفسه الخبيثة وعمله السيئ وسلطانه الغشوم ، وقولها : " **وعمله** " من عطف الخاص على العام ، **أى** : وخصوصاً من - عمله - وهو الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم ، والقتل بدون ذنب أو معصية .

وطلبها النجاة من عمله ثانياً تنبيهاً على أنه الطامة الكبري ، وخص بعض العلماء " عمله " بالتعذيب .

وقوله :" **ونجنى من القوم الظالمين** " معطوف على طلب النجاة الأول ، والقوم الظالمون هم القبط التابعون له في الظلم ، أو أهل مصر وهم القبط منهم أيضاً هم القبط منهم أيضاً ، وفي هذا دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ــ وسنن الأنبياء والمرسلين

والتعريف في " **القوم** " للعهد أي القوم المعهودون بالظلم والتعذيب ، ووصفهم

---

(١) التفسير الكبير ٥١/٣٠ .

باسم الفاعل والجمع " الظالمين " دليل على تناهيهم في هذه الصفة وأنهم قد بلغوا فيها مبلغا عظيما فأصبحت صفة لازمة لهم خاصة بهم .

وقوله : " **ومريم ابنت عمران** " معطوف على قوله : " **امرأة فرعون** " تسلية للأرامل ، **والمراد** : وضرب الله مثلا للذين آمنوا حالها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفارا " (١) فمثل حال المؤمنين بحال مريم أيضا . فكرامة المؤمنين واصطفاؤهم كذلك

وقوله : " **التى أحصنت فرجها** " جملة في محل نصب صلة الموصول ، **والمراد** : حفظته وصانته من الرجال ، ومعنى " أحصنت فرجها " منعته جبريل ــ عليه السلام ــ ، وقيل : منعته عن ونس المعصية ، و ــ الفرج ــ ما بين الرجلين وكنى به عن السوءة ، وكثر حتى صار كالصريح ، ومنه مت هنا عند الأكثر من المفسرين .

وقوله : " **فنفخنا فيه** " معطوف على ما سبق من إحصان الفرج ، والنافخ هو جبريل ــ عليه السلام ــ على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية لأن الله تعالي هو الآمر والفاعل الحقيقي ، وجبريل سبب في ذلك ، وقيل : في الكلام حذف مضاف ، والتقدير : فنفخ رسولنا فيه .

والضمير في " فيه " للفرج ، والمشهور أن جبريل ــ عليه السلام ــ نفخ في جيبها فوصل أثر ذلك إلي الفرج .

---

(١) الكشاف ٤/١٣١ ، ابو السعود ٨/٢٧٠ ، روح المعاني ٢٨/١٦٤ .

وذكر المفسرون : أن الفرج جيب درعها . قال ابن عباس : نفخ جبريل في جيب الدرع ومده بأصبعيه ونفخ فيه ، وكل ما فى الدرع من خرق ونحوه فإنه يقع عليه اسم الفرج ، وهو محتمل لأن الفرج معناه في اللغة كل فرجة بين الشيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج – وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها فهى للنفس أمنع " (١) .

فجاء هذا كناية عن نسبة العفة لها ـ عليها السلام ـ كما قالت العرب : فلان نقي الثوب وهو طاهر الذيل ، وكما قال الشنفرى الأزدى : (٢)

يحل بمنجاة من اللوم بيتها ٠٠ إذا ما بيوت بالمذمة حلت

والضمير في " **فيه** " راجع إلي الحمل ، وهو عيسى ـ عليه السلام ـ المشعر به الكلام ، وقرأ عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : " فيها " فالضمير لمريم ـ عليها السلام – .

وقد وصف الزمخشرى كون الفرج جيب الدرع بأنه من بدع التفاسير . (٣) إلا أنه في سورة **الأنبياء** قال ما نصه : " ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلي جوفها " (٤)

وقال الزمخشرى عن النفخ في الآية : " فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن

---

(١) التفسير الكبير ٥١/٣٠ ، روح المعاني ١٦٤/٢٨ .

(٢) المفضليات /١٠٩ ت الشيخ أحمد شاكر ، الأستاذ عبد السلام هارون .

(٣) الكشاف ١٣٢/٤ .

(٤) الكشاف ٥٨٢/٢، ٥٨٣.

إحيائه **قال الله تعالى** : -" **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى** " (١) أى أحييتـه ، وإذا ثبت ذلك كان قوله :- فنفخنا فيها من روحنا ــ ظاهر الإشكال لأنه يـدل علـى إحياء مريم . قلت : معناه ــ نفخنا الروح في عيسـى فيـها : أى أحييناه فـي جوفها " (٢) .

والإضافة في قوله : " **من روحنا** " للتشريف ، والمراد من روح خلقناه بلا توسط أصلاً

وقوله : " **وصدقت بكلمات ربها** " معطوف على محذوف مقدر مناسب للسياق الـذى وردت فيه **والمراد** : فحملت بعيسى وصدقت ، والتصديق هو الإيمان ــ أى آمنـت بشرائع الله القدسية وكتبه السماوية .

قال القرطبي : " وقال مقاتل : يعنى بالكلمات عيسى وأنه نبى ، وعيسى كلمة الله ، وقرأ الحسن وابو العالية ــ بكلمة ربها وكتابه - ، وقرأ أبو عمرو وحفص عـن عاصم - كتبه - جمعاً ، والباقون - بكتابه - على التوحيد ، والكتـاب يـراد بـه الجنس ، فيكون في معنى كل كتاب أنزل الله تعالى " (٣) .

وقيل : الكلمات الشرائع التى شرع لها دون القـول . فكـأن المعنـى : صدقـت الشرائع وأخذت بها ، وصدقت الكتب فلم تكذب ، وقرئ : " وصدقـت " تخفيفـاً بمعنى أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة أى وصفتها بـالصدق ، وهـو معنـى التصديق بعينه أو بصحفه عز وجل المنزلة على إدريـس ــ عليـه السـلام ــ وغيره ، وسماها سبحانه " كلمات " ليقصرها .

---

(١) الحجر /٢٩ ، ص /٧٢ .

(٢) الكشاف ٥٨٢/٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧٩/١٨ .

وقوله : " **وكانت من القانتين** " معطوف على ما سبق لبيان حالها ونعتها بما كانت أهلاً له ، والمراد : كانت من القوم المطيعين العابدين لله عز وجل ، وهو ثناء عليها بكثرة العبادة والطاعة والخشوع والخضوع لله تعالى .

و " من " في قوله : " **من القانتين** " فيها وجهان : أحدهما أنها لابتداء الغاية والثاني أنها للتبعيض فعلى الأول لا يلزم التغليب في الكلام لأنها مبتدأة ومنشأة من القوم أى الرجال الصالحين إذ لفظ القوم خاص بالذكور على ما قيل ، وعلى الثاني يحتاج للتغليب فيستعمل لفظ – القانتين في مجموع الذكور والإناث حتى يصح كونها بعض ذلك المجموع ، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم أو من نسلهم فتكون – من – ابتدائية " (١) .

قال العلامة الزمخشري : " **فإن قلت** " : لم قيل – من القانتين – على التذكير ؟ قلت : لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على إناثه ، و – من – للتبعيض ، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من – القانتين – لأنها من أعقاب هارون أخي موسى – صلوات الله عليهما – " (٢) .

فجاء هذا – أى التذكير – ابلغ من قوله : – من القانتات – على التأنيث ، أو هي قانتة فمدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع تابع لأصله " (٣) .

---

(١) حاشية الجمل ٣٧٢/٤ .

(٢) الكشاف ١٣٢/٤ .

(٣) روح المعاني ١٦٥/٢٨ .

وبين قوله : " **ضرب الله مثلاً للذين كفروا** " إلخ وبين قوله : **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا** " إلخ مقابلة بين مصير أهل الإيمان وجزائهم ، ومصير أهل الطغيان والكفر وجزائهم .

قال ابن القيم – رحمة الله – : " اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين . فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعدواته لله ورسوله وأوليائه ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال فإن الأسباب كلها تتقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله – فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما فلما يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ولا إبراهيم عن ابيه ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً " (١) .

ثم يقول.رحمه الله – :" وأما المثلان اللذان للمؤمنين فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله – فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة ، وإن تضرر بها في

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١٨٨/١ ت طه عبد الرؤف سعد ط دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٣م

في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أكفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا الله " (١)

ثم يبين المثل الثاني من هذين المثلين فيقول : " المثل الثاني للمؤمنين مريم التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر . فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التى لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التى لا وصلة بينها وبين أحد فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة .

فأنها سيقت في ذكر أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما لم ينفع امرأتي نوح ولوط اتصالهما بهما ، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة " (٢) .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : " وبقى من هذا التفصيل ـ الأصناف — وجه رابع لم يذكره القرآن وهو المرأة الفاسدة طبيعة تنشأ في البيئة الفاسدة ، والسبب

---

(١) أعلام الموقعين ١/١٨٩

(٢) السابق ١/١٩٠

في عدم ذكر هذا الوجه ظاهر لأن النتيجة اللازمة له لا تخرج عن حكم واحد هو ازدياد الفساد فساداً حين يجتمع الفساد إلي الفساد تماماً كما يزداد الصلاح صلاحاً باجتماع الصلاح إلي الصلاح • (١)

الناكص على عقبيه والمهتدى هل يستويان ؟

١٢- قال تعالى : " أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم " (٢) .

تحليل الآية : قوله : " أفمن " استفهام إنكاري توبيخي لبيان حال من نكص على عقبيه فلم يتبصر موقع قدميه ، والذي وضح طريقة فهو يسير فيه ، وهذا تمثيل للضالين والمهتدين .

قال الشيخ ابو السعود : " قوله تعالي — أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى — إلخ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحاً لحالهما وتحقيقاً لشأن مذهبهما ، والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم ، وخرورهم في مهاوي الغرور وركوبهم من عشواء العتو والنفور وعدم اهتدائهم في مسلك المحاجة إلي جهة يتوهم فيها رشد في الجملة فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضائها الصدارة وأما بحسب المعنى فالأمر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل . لقيل : فهل من يمشى مكباً إلخ " (٣) .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢٨/١٠٣٨ .

(٢) الملك /٢٢ .

(٣) أبو السعود ٩/٩ .

و- **والمكـب** — هو المتعثر الذي يخر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً ، والذي يمشي سوياً هو القائم السالم من العثار لاستواء طريقـه واستقامة سطحه " (١) .

ومعنى الآية : افمن يمشي وهو يعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطـوة لتوعر طريقة واختلال قواه أهدى إلي المقصد الذي يؤمه أم الذي يمشـى معتـدل الطريق سوى الجادة ؟

والآية من قبيل الاستعارة التمثيلية : شبهت حال الكافر فى ركوبه من الضلال ومشيه على الدين الباطل فلا يهتدى إلي نور يخرجه من هذا المسلك الوعر بـل يمشـى متعسفاً فلا يزال يتعثر وينكب . بحال من يمشى في الطريـق الـذي فيـه حفـر وارتفاع وانخفاض فيتعثر ويسقط على وجهه كلما تخلص من عـثرة وقـع فـي أخرى ، وشبهت حال المؤمن في تمسكه بالدين الحق ومشيه على منهاجه فيتبصـر مواقع أقدامه ويهتدى طريقه . بحال من يمشى في الطريق المعتدل الذى ليس فيـه ما يتعثر به ، والجامع الهيئة الحاصلة من العمى والتعـثر والـهلاك ، والبصـر والهداية والنجاة ، والمؤمن — كما قيل — صحيح البصـر يمشـى فـي طريـق واضحة مستقيمة سالماً من العثور والخرور على وجهه ، وهكذا تتجلـى طريقـة القرآن في التجسيد . **وأشاربقوله** :- **أهدى** — أى أيهما على هدى إلـي أن أفعـل التفصيل ليس على بابه بل المراد أصل الفعل ، وخبر — من — الثانية محذوف

---

(١) محاسن التأويل ٢٤٨/١٦ ، تفسير الخازن ١٢٧/٧ ، التسهيل لابن جزى ٢٥٤/٤ .

دل عليه خبر الأولى أى ــ أهدى ــ فوحد الخبر لأن ــ أم ــ لأحد الشيئين (١) .

وقيل : ولا حاجة إلي ذلك فإن الثانية معطوفة على الأولى عطف المفرد على المفرد ، وفائدة عطف المفرد ــ **كما قال الإمام الزركشي** - : " تحصيل مشاركة الثاني للأول في الإعراب ، ليعلم أنه مثل الأول في فاعليته أو مفعوليته ، ليتصل الكلام بعضه ببعض ، أو حكم خاص دون غيره " (٢) .

وقد سمى العلامة الزركشي مافي الآية بالحذف المقابلي (٣) إذ يقول : فإن فيه جملتين ، حذف نصف كل واحدة منهما اكتفاء بنصف الأخرى ، واصل الكلام : أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى ممن يمشي سوياً على صراط مستقيم . أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم أهدى ممن يمشي مكباً ؟ وإنما قلنا : إن اصله هكذا ، لأن أفعل التفضيل لابد في معناه من المفضل عليه ، وها هنا وقع السؤال عمن في نفس الأمر : هل هذا أهدى من ذلك أم ذاك أهدى من هذا ؟ فلابد من ملاحظة أربعة أمور " (٤) ثم يبين الأمر ويوضحه فيقول : " وليس في الآية إلا نصف إحدى الجملتين ونصف الأخرى ، والذي حذف من هذه مذكور في تلك والذي حذف من تلك مذكور في هذه ، فحصل المقصود مع الإيجاز والفصاحة .

---

(١) حاشية الجمل ٣٨٠/٤ ــ تفسير المراغي ٢١/٢٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١٠٢/٤

(٣) هو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه البرهان ١٢٩/٣ .

(٤) السابق ١٣٢/٣ .

ثم ترك أمر آخر لم يتعرض له ، وهو الجواب الصحيح لـــهذين الاســتفهامين ، وأيهما هو الأهدى ؟لم يذكره في الآية أصلاً اعتماداً على أن العقل يقــول :الــذي يمشي على صراط مستقيم أهدي ممن يمشي مكباً على وجهه "(١)

وقد سمي السيوطي ما في الآية بالاحتباك : وهو أن يحذف من الأول ما ثبت نظـــيره في الثاني ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول (٢) ،والتقدير :أفمن يمشي مكباً علــي وجهه أهدى ممن يمشي سوياً علي صراط مستقيم . أم من يمشى ســـوياً علـــى صراط مستقيم أهدى ممن يمشى مكباً ؟ ، وقد وصفه بأنه أبلغ ما يكون من الكــلام مع ما اكتسب من الحسن والرونق " (٣)

وقوله : " **على صراط مستقيم** " أى على طريق مستوى الأجزاء لا اعوجاج فيــه ولا انحراف ، ولم يصرح بطريق الكافر بل أشير إليه بما دل علـــى توعــره وعــدم استقامته أعنى " مكباً" للإشعار بـــأن مـــا عليـــه لا يليـــق أن يســـمى طريقـــاً .

قيل : نزلت في أبـــى جـــهل – لعنـــه الله – وحمـــزة – رضـــى الله عنـــه –

والمراد : العموم أى عموم من تكون حالتـــه إمـــا الاســـتقامة وإمـــا الاعوجـــاج . نعوذ بالله من العمى بعد الإبصار ومن الضلال بعد الهدى .

---

(١) السابق نفسه .

(٢) شرح عقود الجمان /١٣٣ ، ١٣٤ ، الإتقان ٧٩/٢ ،٨٠

(٣) السابقان نفسهما .

"الخاتمة"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين .

بعد هذه الرحلة الطويلة في دراسة الصور البيانية المركبة في القرآن الكريم ، ونعنى بها التشبيه التمثيلي والاستعارة التمثيلية ، وآراء العلماء فيهما ، ومناقشة هذه الآراء مع موازنة بينهما ثم دراسة تحليلية لشواهد التشبيه والاستعارة التمثيليين . وجاءت هذه الدراسة في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وتحته أربعة مباحث .

المبحث الأول : الحديث عن المؤمنين ووصف أخلاقهم ، وتناول هذا المبحث دراسة إحدى عشرة آية . ثلاث آيات منها من قبيل التشبيه التمثيلي ، وثمان منها من قبيل الاستعارة التمثيلية .

المبحث الثاني : الحديث عن الإنفاق والمنفقين ، واحتوى هذا المبحث تحليل سبع آيات ، وإدماج **قوله تعالي :** " **مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله** " مع **قوله تعالى :** " **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** " وتحليل الآيتين سوياً ، وذكرت آية الربا وهى قوله تعالي : " **الذين يأكلون الربا** " في هذا المبحث نظراً لتشاكلها مع آيات الإنفاق لأن المعاملة جلها خاصة بالأموال ، وهذه الآيات خمس منها من التشبيه التمثيلي ، وثلاث آيات من الاستعارة التمثيلية .

المبحث الثالث : التشبيهات الخاصة بالحديث عن الحياة الدنيا ، وتضمن هـذا المبحث تحليل الآيات الثلاث وهى آية سورة يونس - عليه السلام - وسورة الكهف ، وسورة الحديد وكلها من قبيل التشبيه التمثيلي.

المبحث الرابع : الحديث عن رب العزة وسعة قدرته ، وتناول هذا المبحث دراسة عشر آيات منها آيتان من التشبيه التمثيلى ، وثمان من قبيل الاستعارة التمثيلية .

الفصل الثاني : وتحته مبحثان :

المبحث الأول : الآيات الخاصة بالمنافقين ــ وتضمن هذا المبحث تحليل سبع آيات مع إدماج **قوله تعالي** : " **أوكصيب من السماء** " الآية التاسعة عشر من سورة البقرة في تحليل **قوله تعالي** : " **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً** " الآية السابعة عشر من السورة نفسها ، **وقوله تعالي** : " **كمثل الشيطان** " من سورة الحشر مع تحليل **قوله تعالي** : " **كمثل الذين من قبلهم قريباً** " فيكون العدد في الدراسة تسع آيات منها ست آيات من قبيل التشبيه التمثيلي ، وثلاث من الاستعارة التمثيلية .

المبحث الثاني : الآيات الخاصة بالحديث عن الكافرين . وتناول هذا المبحث تحليل تسع وعشرين آية . وذلك لتناثر الحديث عن هذه الطائفة في القرآن كثيراً . مع إدماج **قوله تعالي** : " **أو كظلمات في بحر لجي** " من سورة النور مع تحليل **قوله تعالي** : " **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** " من السورة نفسها ، **وقوله تعالي** : " **ويقذفون بالغيب** " من سورة سبأ مع **قوله تعالى** : " **وقالوا آمنا به** " من السورة نفسها ، وقوله تعالي : " وجعلنا من بين أيديهم سداً " في تحليل **قوله تعالى** : " **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً** " والآيتان من سورة يس . فصار عدد الآيات اثنتين وثلاثين آية منها اثنتا عشرة صورة من التشبيه التمثيلي ، وعشرون آية من الاستعارة التمثيلية .

الفصل الثالث : ويشمل ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : الحديث عن القيامة ، واحتوى هذا المبحث دراسة تسع آيات منها آية واحدة من قبيل التشبيه التمثيلي وهـــى **قوله تعالي** : " **فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** " من سورة الرحمن ، وثماني آيات من باب الاستعارة التمثيلية .

المبحث الثاني : كتمان الآيات وعدم الاهتداء بها . واشتمل هذا المبحث تحليل ســت آيات منها ثلاث آيات من التشبيه التمثيلي ، وثلاث آيات مـــن قبيـــل الاســتعارة التمثيلية .

المبحث الثالث : الآيات الخاصة بالموازنة بين طرفى الإيمان والكفر .

وتناول هذا المبحث دراسة ثلاث عشرة آية مع إدماج قوله تعـــالى : " **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة** " من سورة إبراهيم في تحليل **قوله تعالى** : " **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة** " من السورة نفسها ،وقوله تعالى : " وضرب الله مثلاً رجلين " مــن سورة النحل في تحليل **قوله تعالى** : " **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً** " من السورة نفســها ، **وقوله تعالى** : " **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون** " من سورة التحريم فـــي تحليـــل **قوله تعالى** : " **ضرب الله مثلاً للذين كفروا** " من السورة نفسها . فكان عدد الآيات التـــي تم تحليلها ست عشرة آية منها تسع آيات من باب التشبيه التمثيلي ، وسبع آيـــات من قبيل الاستعارة التمثيلية ويعد : فهذا هو جهد المقل ومبلغ علم البشر قاصر مع علمه تعالى . اللهم تقبل عملي هذا ، واجعله فى ميزان حسناتي وانفع به طـــلاب العلم وألهم كل من يقرأه أن يصلح ما به من خلل في ستر وحب في الله تعـــالى .

فإن كنت قد أصبت فهذا فضل من الله ونعمة وإن كانت الأخرى فحسبي أني قـــد أجتهدت .

فإن تجـد عيبـاً فسد الخـللا ٠٠ فجل من لاعيـب فيه وعــلا

الجمعه غرَّة رجب مضر سنة ١٤٢٤ هـ .

التاسع والعشرون من شهر أغسطس سنة ٢٠٠٣ م .

ثبت المراجع

القرآن الكريم .

{١} الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ط دار المعرفة بيروت .

{٢} أساس البلاغة للزمخشري ت عبد الرحيم ط دار المعرفة بيروت سنة ١٤٠٢ هـ ، سنة ١٩٨٢م .

{٣} أسباب النزول للواحدى النيسابورى مطبعة هندية سنة ١٣١٦ هـ .

{٤} أسرار البلاغة ت الشيخ رشيد رضا ط صبيح القاهرة ط سادسة سنة ١٣٧٩هـ ، سنة ١٩٥٩م ، ت محمد الفاضلي نشر المكتبة العصرية بيروت ط أولى سنة ١٤١٩هـ ، سنة ١٩٩٨م .

{٥} أسرار البلاغة في التشبيه والتمثيل د محمد السعدى فرهود ط دار الطباعة المحمدية القاهرة ط أولى سنة ١٣٩٩هـ ، سنة ١٩٧٩ م .

{٦} أسرار التكرار في القرآن للكرمانى ت عبد القادر أحمد عطا ط دار الاعتصام القاهرة ط ثالثة سنة ١٣٩٨هـ ، سنة ١٩٧٨ م .

{٧} الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة للجرجانى ت د عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر سنة ١٩٨٢م .

{٨} الأصمعيات ط عيسى البابي الحلبى مصر ، ط ليبسك سنة ١٩٠٢م .

{٩} إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ت طه عبد الرؤوف سعد ط دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٣ م .

{١٠} إعراب القرآن الكريم وبيانه محيى الدين الدرويش ط دار الإرشاد سوريا ط خامسة سنة ١٤١٧ هـ ، سنة ١٩٩٦ م .

{١١} الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

{١٢} إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن لأبى البقاء العكبري ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٣٩٩هـ ، سنة ١٩٧٩م .

{١٣} الإنصاف مما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير ط دار المعرفة بيروت .

{١٤} آيات مادة رزق القرآنية نظرات بلاغية د رفعت السودانى مطبعة التركى ط أولى سنة ١٩٩٥م . ط

{١٥} الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزوينى ت د خفاجى دار الجيل بيروت ط ثالثة سنة ١٤١٤ هـ ، سنة ١٩٩٣م ، ط صبيح القاهرة .

{١٦} البحر المحيط لأبي حيان الأندلسى ط دار الفكر بيروت ط ثانية سنة ١٣٩٨هـ ، سنة ١٩٧٨م .

{١٧} البحث البياني في حاشية الشيخ زادة على البيضاوى رسالة دكتوراه للمؤلف القاهرة سنة ١٩٩١م .

{١٨} البديع في ضوء أساليب القرآن د عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف القاهرة ط أولى سنة ١٣٩٨هـ ، سنة ١٩٧٩ م .

{١٩} بدائع التفسير لابن القيم . جمع يسرى السيد ط دار ابن الجوزى السعودية ط أولى سنة ١٤١٤ هـ ، سنة ١٩٩٣م .

{٢٠} بديع القرآن لابن أبى الإصبع ت د حفنى شرف ط دار نهضة مصر ط ثانية .

{٢١} البرهان في علوم القرآن للزركشى ت الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم ط دار الفكر بيروت ط ثالثة سنة ١٤٠٠ هـ ، سنة ١٩٨٠م .

{٢٢} بغية الإيضاح شرح تلخيص المفتاح الشيخ عبد المتعال الصعيدى مطبعة الآداب القاهرة .

{٢٣} البلاغة التطبيقية د أحمد موسى مطبعة المعرفة القاهرة ط أولى سنة ١٩٦٣م .

{٢٤} البلاغة فنونها وأفنانها علوم المعاني والبيان والبديع د فضل عباس ط دار الفرقان الأردن سنة ١٩٩٨م ، سنة ٢٠٠٠ م .

{٢٥} البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د محمد أبو موسى ط دار التضامن القاهرة ط ثانية سنة ١٤٠٨ هـ ، سنة ١٩٩٨م . نشر مكتبة وهبه.

{٢٦} البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران ت د السيد الجميلى ط دار المعرفة القاهرة سنة ١٤١٣هـ ، سنة ١٩٩٣م .

{٢٧} البيان في ضوء أساليب القرآن د عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف مصر ط أولى سنة ١٩٧٧م .

{٢٨} البيان في غريب إعراب القرآن لابن الإنباري ت د طه عبد الحميد طه الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٤٤هـ ، سنة ١٩٨٠.

{٢٩} تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ت السيد صقر ط دار التراث العربي القاهرة ط ثانية سنة ١٣٩٣هـ ، سنة ١٩٧٣م .

{٣٠} التبيان في علم البيان للطيبى ت د هادى عطية مطر ط عالم الكتب بيروت ط أولى سنة ١٤٠٧ هـ ، سنة ١٩٨٧ م .

{٣١} التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر تونس سنة ١٩٨٤م ، ط عيسى البابي الحلبى مصر ط أولى سنة ١٩٩٤م .

{٣٢} تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى ت د حفنى شرف نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة سنة ١٣٨٣هـ .

{٣٣} التسهيل في علوم التنزيل لابن جزى الكلبى ت إبراهيم عطوة ط دار الكتب الحديثة القاهرة .

{٣٤} التصوير البيانى دراسة تحليلية لمسائل علم البيان د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة القاهرة ط ثانية سنة ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

{٣٥} تفسير ابن كثير ط دار التراث العربى القاهرة بدون تاريخ .

{٣٦} تفسير أبى السعود المسمى " إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم " ط دار الفكر بيروت .

{٣٧} تفسير البيضاوى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل" ت د حمزة النشرتى نشر المكتبة القيمة القاهرة سنة ١٤١٨ هـ ، ط دار الجيل بيروت .

{٣٨} تفسير الخازن " لباب التأويل في معالم التنزيل " ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٥هـ ، سنة ١٩٩٤م ، ط مصطفى البابى الحلبى القاهرة ط ثانية سنة ١٣٧٥هـ ، سنة ١٩٥٥م .

{٣٩} تفسير السعدى " تيسير الكريم الرحمن المنان " الشيخ عبد الرحمن السعدى ط ت محمد زهدى ط المؤسسة السعيدية الرياض سنة ١٩٧٧م ، ط مركز صالح الثقافى السعودية سنة ١٤١٢هـ ، سنة ١٩٩٢م .

{٤٠} تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى ط دار الفكر بيروت سنة ١٣٧٨هـ ، سنة ١٩٥٩م .

{٤١} تفسير القرآن الحكيم د عبد المنعم خفاجى ط دار العهد الجديد القاهرة ط أولى .

{٤٢} تفسير القرآن العظيم لأبى المظفر السمعاني ت غنيم عباس ط دار الوطن الرياض ط أولى سنة ١٤١٨ هـ ، سنة ١٩٩٨م .

{٤٣} تفسير القرآن العظيم لابن كثير مراجعة الشيخ خالد محرم ط المكتبة العصرية بيروت ط ثانية سنة ١٤١٧هـ ، سنة ١٩٩٦م .

{٤٤} تفسير المراغي الشيخ المراغي ط مصطفى البابى الحلبى القاهرة ط رابعة سنة ١٣٩١ ، سنة ١٩٧١ .

{٤٥} تفسير المنار الشيخ رشيد رضا ط دار المعرفة بيروت ط ثانية .

{٤٦} تفسير النسفى " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٣٢١هـ ، سنة ٢٠٠٠م .

{٤٧} التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربى القاهرة .

{٤٨} التفسير القيم لابن القيم جمع محمد أويس الندوى ت محمد حامد الفقى ط دار العلوم الحديثة بيروت .

{٤٩} التفسير الكبير " مفاتيح الغيب : لابن الخطيب الرازى ط دار الفكر بيروت سنة ١٤١٥هـ ، سنة ١٩٩٥م .

{٥٠} تلخيص البيان في مجازات القرآن الشريف الرضى ت د على مقلد ط دار مكتبة الحياة بيروت سنة ١٩٨٦ .

{٥١} تنزيل الآيات على الشواهد في آخر الكشاف الأستاذ محب الدين أفندى ط دار المعرفة بيروت .

{٥٢} تنوير المقباس في تفسير ابن عباس ط مصطفى البابى الحلبى ط ثانية سنة ١٣٧٠هـ ، سنة ١٩٥١ م .

{٥٣} تهذيب السعد في تلخيص المفتاح ت الشيخ محمد محى الدين ط صبيح القاهرة ط رابعة سنة ١٣٧٥هـ ، سنة ١٩٥٥ .

{٥٤} ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ت د محمد زغلول سلام ط دار المعارف القاهرة ط رابعة سنة ١٩٩١م .

{٥٥} جامع البيان في التفسير الطبرى ط دار المعرفة بيروت ط ثالثة سنة ١٣٩٨ هـ ، سنة ١٩٧٨م .

{٥٦} الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ت عبد الرازق المهدى ط دار الكتاب العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٨هـ ، سنة ١٩٩٧م .

{٥٧} الجمان في تشبيهات القرآن ابن ناقيا البغدادى ت د مصطفى الصاوى الجوينى منشأة المعارف الإسكندرية .

{٥٨} جواهر البلاغة للسيد الهاشمى ضبط يوسف الصميلى نشر المكتبة العصرية بيروت ط أولى سنة ١٤٢٠هـ ، سنة ١٩٩٩م .

{٥٩} حاشية الجمل على الجلالين " الفتوحات الإلهية " سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل ط عيسى البابى الحلبى القاهرة .

{٦٠} حاشية الدسوقى على شرح السعد ضمن شروح التلخيص ط عيسى البابى الحلبى القاهرة .

{٦١} حاشية السيد الشريف على الكشاف ط دار المعرفة بيروت .

{٦٢} حاشية السيد الشريف على المطول ط أحمد كامل سنة ١٣٣٠ هـ .

{٦٣} حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى نشر المكتبة الإسلامية تركيا .

{٦٤} حاشية الشهاب الخفاجي المسماه " عناية القاضي وكفاية الراضى " على البيضاوى ط دار صادر بيروت .

{٦٥} خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة ط ثانية سنة ١٤٠٠هـ ، سنة ١٩٨٠م .

{٦٦} الخصائص ابن جنى ت محمد على النجار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ثالثة .

{٦٧} دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ت الأستاذ عبد الـهادى العـدل ط دار الفكر الحديث القاهرة سنة ١٣٦٩هـ ، سنة ١٩٥٠ م .

{٦٨} دراسات في علم المعاني د حسن مخيمـر ط الأمانـة القـاهرة ط أولـى سنة ١٤٠٩هـ ، سنة ١٩٨٩ م .

{٦٩} دراسات في لغـة القـرآن والسـنة والشـعر د مصطفـى أمـام نشـر مكتبة العمروسى القاهرة سنة ١٩٨٢م .

{٧٠} دراسة في البلاغة والشعر د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبـة القـاهرة ط أولى سنة ١٤١٠هـ ، سنة ١٩٩٠م .

{٧١} دراسات منهجية في علم البديع د الشـحات أبـو سـتيت ط دار خفـاجى للطبع والنشر القليوبية ط أولى سنة ١٤١٤هـ ، سنة ١٩٩٤م .

{٧٢} دلائل الإعجاز الإمام عبد القاهر ت رشـيد رضـا ط صبيـح ط سادسـة سنة ١٣٨٠هـ ، سـنة ١٩٦٠م ، ت د ياسـين الأيوبـي نشـر المكتبـة العصرية بيروت ط أول سنة ١٤٢١ هـ ، سنة ٢٠٠٠ م .

{٧٣} ديوان ابـى تمـام . ط دار صـادر بـيروت ، ت إيليـا الحـاوى ط دار الكتاب اللبنانى ط أولى سنة ١٩٨١م .

{٧٤} ديوان ابن المعتز ت مجيد طراد دار الكتـاب العربـى بـيروت ط أولـى سنة ١٩٩٥ م .

{٧٥} ديوان امرئ القيس ط دار صـادر بـيروت ، ش الشـيخ عبـد المتعـال الصعيدى نشر مكتبة القاهرة ط رابعة سنة ١٣٨٧هـ ، سنة ١٩٦٨ م .

{٧٦} ديوان حاتم الطائى ت فوزى عطوى ط دار صعب بيروت سنة ١٩٨٠م .

{٧٧} ديوان حسان ثابت ش البرقوقي ط دار المعارف القاهرة .

{٧٨} ديوان الحماسة ش التبريزى ط عالم الكتب بيروت ، ط دار القلم بيروت ، ط التوفيق مصر سنة ١٣٢٢ هـ .

{٧٩} ديوان زهير ش ثعلب ط دار الكتب المصرية سنة ١٣١٣هـ ، سنة ١٩٤٤م .

{٨٠} ديوان لبيد ت د إحسان عباس ط التراث العربي الكويت سنة ١٩٦٢م .

{٨١} غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري ت إبراهيم عطوه عوض ط مصطفى البابى الحلبى القاهرة ط أولى سنة ١٣٨٤هـ .

{٨٢} روح المعاني الألوسى ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط رابعة سنة ١٤٠٥هـ ، سنة ١٩٨٥م .

{٨٣} زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزى نشر المكتب الإسلامي بيروت ط رابعة سنة ١٩٨٧م .

{٨٤} سر الفصاحة ابن سنان الخفاجى ش الشيخ عبد المتعال الصعيدى ط صبيح القاهرة سنة ١٣٨٩هـ ، سنة ١٩٦٩ م .

{٨٥} سنن ابى داود ت الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد نشر المكتبة العصرية بيروت .

{٨٦} سنن ابن ماجة ت الشيخ مأمون خليل شيحاط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٤١٦هـ ، سنة ١٩٩٦م .

{٨٧} سنن الدارمي ط دار الكتب العلمية بيروت .

{٨٨} شرح ابن عقيل ت الشيخ محمد محي الدين ط المكتبة العصرية بيروت سنة ١٤١٨هـ ، سنة ١٩٩٧م .

{٨٩} شرح عقود الجمان السيوطى ط مصطفى البابي الحلبى القاهرة سنة ١٣٥٨هـ ، سنة ١٩٣٩م .

{٩٠} شرح المفضليات ش الأستاذين أحمد شاكر ، عبد السلام هارون . ط دار المعارف القاهرة ط أولى سنة ١٣٦١هـ ، سنة ١٩٤٢م .

{٩١} شروح التلخيص ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبى القاهرة .

{٩٢} صحيح الإمام مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبى القاهرة .

{٩٣} صفاء الكلمة ضمن سلسة " من أسرار التعبير القرآني " د عبد الفتاح لاشين ط دار المريخ الرياض سنة ١٤٠٣ هـ ، سنة ١٩٨٣م .

{٩٤} صفوة التفاسير الأستاذ محمد على الصابونى ط دار الرشيد سوريا .

{٩٥} الصناعتين أبو هلال العسكرى ت د مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت .

{٩٦} الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز العلوى ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٢هـ ، سنة ١٩٨٢م .

{٩٧} عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى ت الشيخ هشام البخارى ط دار احياء التراث العربي بيروت ط أولى سنة ١٤١٥ هـ ، سنة ١٩٩٤م

{٩٨} عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص " البهاء السبكى " ط عيسى البابي الحلبى القاهرة .

{٩٩} فتح القدير في علم التفسير الشوكانى ت يوسف الفوش ط دار المعرفة بيروت ط ثانية سنة ١٤١٦هـ ، سنة ١٩٩٦م .

{١٠٠} الفوائد المشوق إلي علوم القرآن وعلم البيان ابن قيم الجوزية نشر مكتبة المتنبى القاهرة .

{١٠١} فقه السنة الأستاذ السيد سابق ط دار الفتح للإعلام العربي القاهرة ط ثانية عشر سنة ١٤١٧هـ ، سنة ١٩٩٦م .

{١٠٢} الفقه على المذاهب الأربعة الأستاذ عبد الرحمن الجزيري ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .

{١٠٣} الفقه الإسلامى وأدلته د وهبة الزحيلي ط دار الفكر دمشق ثالثة سنة ١٤٠٩ هـ ، سنة ١٩٨٩م .

{١٠٤} في ظلال القرآن الشهيد سيد قطب ط دار الشروق بيروت ط خامسة عشر سنة ١٤٠٨ هـ ، سنة ١٩٨٨م .

{١٠٥} الكتاب لسيبويه ت الأستاذ عبد السلام هارون ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ثانية سنة ١٩٧٧م .

{١٠٦} الكشاف الزمخشري ط دار المعرفة بيروت .

{١٠٧} لسان العرب ابن منظور ط دار صادر بيروت ط أولى سنة ١٤١٠هـ ، سنة ١٩٩٠ م .

{١٠٨} المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ابن الأثير ت الشيخ محمد محي الدين المكتبة العصرية بيروت سنة ١٤١١ هـ ، سنة ١٩٩٠م .

{١٠٩} مجمع الأمثال الميداني ط مصطفى البابي الحلبى مصر سنة ١٣٥٢هـ .

{١١٠} مجمع التفاسير ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط أولى سنة ١٤١١هـ ، سنة ١٩٩٤م .

{١١١} المجاز اللغوى دراسة بلاغية تحليلية د عبده هليل مؤسسة الوفاء للطباعة القاهرة ط أولى سنة ١٤٠٤ هـ ، سنة ١٩٨٥م .

{١١٢} محاسن التأويل في التفسير القاسمى ت محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الفكر بيروت ط ثانية سنة ١٣٩٨هـ ، سنة ١٩٨٢ م .

{١١٣} المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الغرناطي ط المجلس العلمى بفاس المغرب ط ثانية سنة ١٤٠٣ هـ ، سنة ١٩٨٢م .

{١١٤} مسند الإمام أحمد بن حنبل ط عالم الكتب بيروت ط أولى سنة ١٤١٩هـ ، سنة ١٩٩٨م .

{١١٥} المطول على التلخيص سعد الدين التفتازاني ط أحمد كامل مصر سنة ١٣٣٠هـ .

{١١٦} معالم التنزيل للبغوى ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط أولى سنة ١٤١٥هـ ، سنة ١٩٩٤م ، ط مصطفى البابي الحلبى القاهرة ط ثانية سنة ١٣٧٥هـ ، سنة ١٩٥٥م .

{١١٧} معاني القرآن" الفـرَّاء " ت محمـد علـى النجـار ط الـدار المصريـة العامة للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٦م .

{١١٨} معاني القرآن وإعرابه " الزجاج " ت د عبـد الجليـل شـلبى ط عـالم الكتب بيروت ط أولى سنة ١٤٠٨ هـ ، سنة ١٩٨٨م .

{١١٩} معاني القرآن " الأخفش " ت د هدى قراعـة . مطبعـة المدنـي ونشـر مكتبة الخانجى ط أولى سنة ١٤١١ هـ ، سنة ١٩٩٠م .

{١٢٠} معاهد التنصيص عبد الرحيم العباسي ت الشـيخ محمـد محـي الديـن ط السعادة مصر سنة ١٣٦٧ هـ ، سـنة ١٩٤٧ م ، ط عـالم الكتـب بيروت سنة ١٣٦٧هـ ، سنة ١٩٤٧ م .

{١٢١} مغنى اللبيب من كتـب الأعـاريب ابـن هشـام ط دار إحيـاء الكتـب العربية عيسى البابي الحلبى مصر .

{١٢٢} مفتاح العلوم السـكاكى ط مصطفـى البـابي الحلبـى مصـر ط أولـى سنة ١٣٥٦ ه ، سنة ١٩٣٧م .

{١٢٣} المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني ت محمد سـيد كيلانـي ط دار المعرفة بيروت ، ت د محمـد خلـف الله أحمـد نشـر مكتبـة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٠م .

{١٢٤} مقاييس اللغة أحمد بن فارس ت الأسـتاذ عبـد السـلام هـارون ط دار الفكر بيروت .

{١٢٦} ملحق ديوان الشماخ بن ضرار ش صلاح الدين الهادى ط دار المعارف مصر .

{١٢٧} منار السبيل في الأضواء على التنزيل محمد العثمان القاضى ط عيسى البابى سنة ١٩٨٠ م .

{١٢٨} من أسرار التنوع في تشبيهات القرآن تأليف ملك حسن بخسن ط دار المجتمع للنشر والتوزيع السعودية ط أولى سنة ١٤١٤هـ ، سنة ١٩٩٣م .

{١٢٩} من الأسماء المضمنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم د أحمد سعد ناجى مطبعة التركى طنطا ط أولى سنة ١٩٩٧م .

{١٣٠} من روائع القرآن د محمد سعيد البوطى نشر مكتبة الغارابى دمشق ط خامسة سنة ١٣٩٧هـ ، سنة ١٩٧٧م .

{١٣١} مواهب الفتاح ابن يعقوب المغربى ضمن شروح التلخيص ط عيسى البابى الحلبى مصر .

{١٣٢} النبأ العظيم د محمد عبد الله دراز ط دار القلم الكويت ط ثالثة سنة ١٣٩٤هـ ، سنة ١٩٧٤م .

{١٣٣} نظرات في علم البيان د محمد عبد الرحمن الكردى ط السعادة مصر سنة ١٤٠٠ هـ ، سنة ١٩٨٠ م .

{١٣٤} نظرات في علم المعاني د صباح دراز مطبعة التركى طنطا سنة ١٤١٢هـ ، سنة ١٩٩٢ م .

{١٣٥} نظم الدرر في تناسب الآيات والسور الإمـــام برهـان الديـن البقـاعي ط مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آبـــاد الدكـن الـهند ط أولـى سنة ١٣٩٨ هـ ، سنة ١٩٧٨ م .
{١٣٦} النظم القرآنى في سورة الرعـد د محمـد سـعد الدبـل ط دار النصـر للطباعة الإسلامية القاهرة سنة ١٩٨١م ، ط عالم الكتب بيروت .
{١٣٧} نقد الشعر قدامه بن جعفر ت د عبـد المنعـم خفـاجى مكتبـة الكليـات الأزهرية مصر ط أولى سنة ١٤٠٠هـ ، سنة ١٩٨٠ م .
{١٣٨} نهايــة الأرب فــي فنـون الأدب " النويـرى " ط المؤسسـة العامـة للتـأليف والترجمة والنشر مصر ط أولى سنة ١٣٤٧هـ ، سنة ١٩٢٩ م
{١٣٩} نهاية الإيجاز في درايـة الإعجـاز لابـن الخطيـب الـرازى مطبعـة الآداب والمؤيد القاهرة سنة ١٣١٧هـ .
{١٤٠} النهر الماد بـهامش البحـر المحيـط لأبـى حيـان الأندلسـى . ط دار الفكر بيروت ط ثانية سنة ١٣٩٨هـ ، سنة ١٩٧٨ م .

٢٠٠٣/١١٢٦٧م